فلسطين: إليكم الحقيقة

الله الرب الله

تأليف: ج. م. ن. جفريز
ترجمة: أحمد خليل الحاج
مراجعة: دكتور محمد أنيس

الجزء الأول

فلسطين :
إليكم الحقيقة

الجزء الأول

تأليف : ج . م . ن . جفريز
ترجمة : أحمد خليل الحاج
مراجعة : د . محمد أحمد أنيس

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
١٩٧١



هذه هى الترجمة العربية لكتاب

PALESTINE : THE REALITY

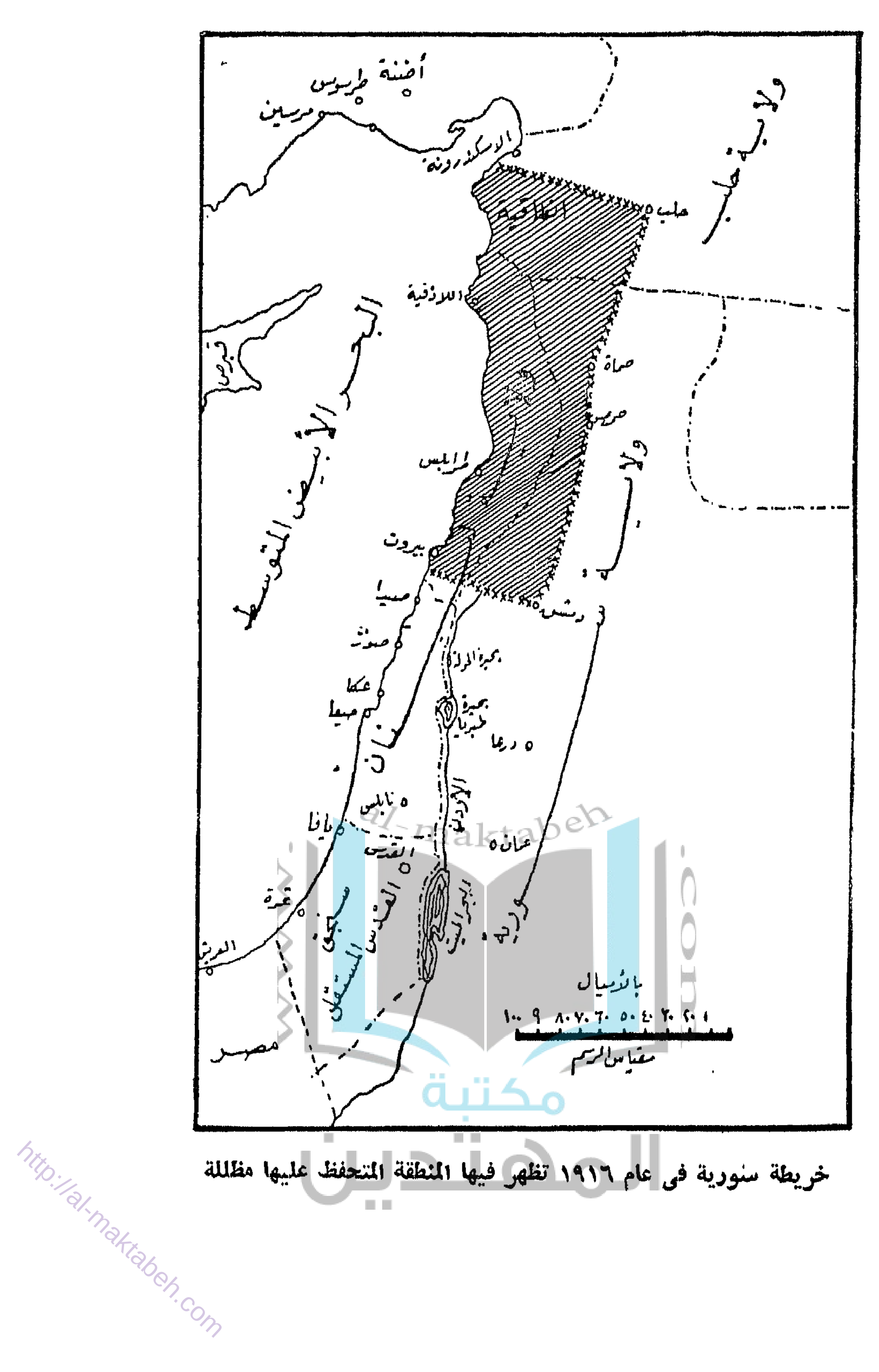
by : J.M.N. Jeffries



الفهـــرس

الموضـــوع | الصفحة

الخرائط :



خريطة سورية فى عام ١٩١٦ تظهر فيها المنطقة المتحفظ عليها مظللة

مقدمة المترجم

أقل ما يوصف به هذا الكتاب هو أنه كالدرة اليتيمة التى لا يحط من قيمتها توالى الأحقاب • فبالرغم من أن سبعة وعشرين عاما قد مرت على نشره لأول مرة بلغته الأصلية الانجليزية ، فان كل شىء فيه مازال يحتفظ بطابع الجدة ، ولا مغالاة •• ومرجع ذلك الى أنه لا يتناول المشكلة الفلسـطينية كمشـكلة سياسية وحسب ، بل كجريمة دبرت عن عمد واقترفت مع سبق الاصرار والترصد ، بدوافع قد لا تكون خافية علينا ولكننا لا نملك عليها أدلة قاطعة لأن الجناة قد فعلوا كل ما فى وسعهم لاخفاء هذه الأدلة بهدف طمس معالم هذه الجريمة •

وقد استطاع الكاتب بما توفر له من سعة الاتصال بدوائر الحكومة البريطانية ، بحكم عمله كصحفى ، وبحكم صداقاته مع أناس فى الادارة البريطانية ذوى ضمائر حية ، أن يحصـل على هـذه الأدلة من الخزائن الحديدية السرية للجناة ، فصاغ منها وثيقة اتهام دامغة • وطالب الشعب البريطانى أن يتبوأ منصة القضاء ، وأن يعقد محاكمة للجناة الذين اقترفوها باسمه ، وتطوع هو ، نيابة عن التاريخ والشرف والكرامة الانسـانية والضمير الانسانى والحق العام ، بتمثيل هيئة الادعاء العام •

واذا كانت مثل هذه المحاكمة لم تعقد فى حينها كما أراد ، وأبى الضمير البريطانى العام أن يجلس فى كرسى القاضى ، وترك للجناة أن يسدروا فى غيهم وعماوتهم فيكللوا جريمتهم تلك بأشنع جريمة حدثت فى تاريخ البشرية ، حذر الكاتب منها بنفاذ بصيرته قبل اقترافها بعشر سنوات ــ فان هذا لا يغير من قيمة هـذه الوثيقة ، بل يزيد من قيمتها مئات المرات ، لأنه سيكون والحالة هذه دليلا قاطعا على قطعية كل ما جاء فيها • ان دولة الظلم ساعة ودولة الحق الى قيام الساعة • ويوم نستطيع نحن أصحاب الحق أن نلقى القبض على الجناة ونسوقهم الى قفص الاتهام أمام محكمة التاريخ العادلة ، لن نكون بحاجة الى وثيقة اتهام خير من هـذه

الوثيقة بل يكفينا أن نضيف اليها بضعة أسطر نقرر بها حالة الجناة غداة القبض عليهم ٠

انها وثيقة أحصت على الجناة الآثمين كل حركة وسكون ، وكل خطوة خطوها في سبيل اقترافهم جريمتهم الأولى أو الجريمة التمهيدية ، وتواجههم بها مواجهة ألجمت أفواههم من قبل ٠ وهو من خلال مرافعته هذه يكشف لنا كثيرا من الصفقات السياسية الخسيسة التى مازال معظمها خافيا على الذين لم يقرءوا هذا الكتاب بعد ، والتى تمت بين الشركاء الآثمين وتكشفت فيما سمى فى المرحلة الأولى من مراحل نكبتنا القومية ب « المشكلة الفلسطينية » ، فى حين لم تكن هناك مشكلة على الاطلاق من هذا النوع ، وانما كان هناك « شروع » فى اقتراف جريمة عامة أطلق عليه الجناة فيما بعد « المشكلة الفلسطينية » ٠

والواقع أن هذا الكتاب قد لحق به ـ شأنه فى ذلك شأن القضية التى يدافع عنها ـ مالحق بها من حيف وحجب عن أنظار الناس ، ولحق به ما لحق بنا نحن عرب فلسطين من تمزيق وتشريد ٠ ان الصهاينة وشركاءهم من رجال الدولة البريطانيين والأمريكيين وغيرهم من الاستعماريين لم يتركوا أى وسيلة يمكن وأده بها الا لجئوا اليها ٠ لقد اشتروا طبعات كاملة منه فحرقوها ، وحين تبين لهم أن هذه الوسيلة ليست بنافعة لجئوا الى المكتبات البريطانية والأمريكية والفرنسية فاشتروا ذممها بعمولة عدم بيعه على أن تكدس الكتاب لديها وتنكر وجوده على طالبيه ٠ وكذلك فعلوا مع شركات التوزيع ٠

أما الوزارة البريطانية التى كانت تضطلع بالحكم حين صدر فقد حاولت أن تمنع نشره بصورة مغايرة ٠ لقد حاولت أن تستغل شهامة الرجل الوطنية ٠ فأرسلت اليه من يناشده ـ باسم بريطانيا التى تمر بمحنة عصيبة بسبب شبح الخطر النازى الفاشى الذى كان يخيم على أوروبا ويتهدد الوطن البريطانى ، ـ ألا ينشر هذا الكتاب فى ذلك الحين (١٩٣٩) ، قائلة له ان بريطانيا تحاول الآن أن تجمع شعوب أوروبا فى جبهة معها لدرء هذا الخطر الغاشم ، وأن نشر مخازى بريطانيا فى هذا الوقت بالذات ؛ تلك المخازى التى جلبها عليها بعض ساستها السابقين ، من شأنه حتما أن يجعل هذه الشعوب لا تثق فيها فلا تأمن التحالف معها، ومن ثم يكون الكاتب قد سدد طعنة نجلاء الى وطنه ٠

فماذا كان جواب الكاتب ؟ انى أدع للقارىء أن يقف عليه فى مقدمته ٠٠

وأذكر أن أول مرة سمعت فيها شيئا عن هذا المؤلف العظيم قد كانت قبل نحو خمسة عشر عاما ، حين اكتمل وعيى بقضيتى الوطنية وأخذت أحاول الالمام بها سياسيا وبتوسع • وقد رشحه لى مقام من جيل والدى ممن اكتملت عليهم الكارثة وهم بلغ ، وقص على بعض ما لحق به من أفعال الصهاينة الكارثية • فأخذت أبحث عنه لدى كل من أعرفه من مثقفينا الكبار فلم أجده لدى أى منهم ، وان كان معظمهم قد قرأه واقتناه ، لأن التشريد الذى لحق بنا قد أخنى على هذا الكتاب • ان كثيرا منا لم يستطيعوا أن يحملوا معهم غداة الرحيل الدموى ألزم لوازمهم فما بالك بكتاب • وقد كتبت عندئذ الى كثير من المكتبات الانجليزية أسأل عنه فلم أفز بطائل • وأعيانى البحث فيئست •

الى أن كان العام الماضى حين جاءنى أحد زملاء الدراســة الثانوية القدامى، ويحضر الآن رسالة لنيل درجة الماجستير فى القضية الفلسطينية، يطلب الى أن أعينه فى ترجمة بعض المقتطفات من مراجعه ، فألقى بين يدى، فى جملة ما ألقاه ، هذه الضالة المنشودة ، وعلمت أنه قد استعارها من دار الكتب المصرية • واليها أزجى الشكر فى هــذه المقدمة على تحقيق أمنية قديمة •

وحين قرأت الفصول الأولى من هذا المؤلف النادر حقا ، أحسست أنى سأكون مقصرا فى حق قضيتى ان اكتفيت بأن أستنير به وحــدى ، أو يستنير به الدارس الذى قد يسعفه الحظ فيعثر عليه ، فلم أنتظر حتى أفرغ من الاطــلاع عليه كله • وتناولت القلم أترجمه ، منــدفعا بذلك الاحساس الذى ذكرت ، ومستعينا به على ضخامة هذا المؤلف الموسوعة •

انه مؤلف من أربعين فصـــلا كاملة ، ويقع فى أصله الانجليزى الموضوع بين يدى فى ٧٢٨ صفحة من القطع الكبيرة ، بالاضافة الى مقدمة رائعة من اثنتى عشرة صفحة ، عدا فهرس الفصول ، وفهرس الأسماء •

وانى أشعر أننا نحن العرب مدينون لكاتبه بأعظم جميل • لقد كان أعظم وأخلص المدافعين عن قضية العرب من غير العرب ، وخاصة لدى شعبه الذى كانت تتحكم فى تشكيل رأيه العام ، تجاه القضية العربية على الأقل ، صحافة واقعة تحت تأثير الصهيونية السياسية الاغوائى ، أو الدائرين فى فلكها الاجرامى • وكان الوحيد بين صحفيى بريطانيا الذى استطاع ، بدأبه واصراره وغيرته على الحق ، أن يفتح للقضية العربية نهرا فى احدى صحف المملكة التى أفلت شمسها الآن ؛ أعنى جريدة الديلى ميل،

فكتب فيها عشرات المقالات مدافعا عن العرب ، فى الوقت الذى كانت فيه جميع الأقلام الصحفية مجندة فى خدمة الباطل الصهيونى •

وبفضل جهوده وجهود صحبه من نبلاء الضمير ، أعضاء المركز العربى فى لندن الذى ساهم فى انشائه ، استطاعت وفودنا الفلسطينيه الى لندن ان تحظى بترحيب فى بلد صدود ، مسدود الأبواب ، أصم الآذان ، تملأ الصهيونية السياسية جميع غرف استقباله وتتحكم فى عواطف أهله تحكم الراقصة الداعرة فى ماخور يغص بطلاب المتعة البهيمية ، وأن تحظى باستقبال شجعها على التذرع بالأمل ومعاودة قرع الأبواب الموصدة وطرق الآذان الموقورة • واذا كانت هذه الوفود قد أصابت فى عدة مناسبات بعض ما يمكن أن نسميه بالنجاح فانما كان ذلك فى المقام الأول بفضل هذا المتطوع الشهم والمحارب الذى لا تلين له قناة •

انه لم يترك عضوا غير مصهين من أعضاء البرلمان البريطانى ، بمجلسيه : العموم واللوردات ، ممن يمكن كسبهم الى جانب قضية الشرف والعدالة ، الا سعى اليه وناشده باسم الشرف والعدالة أن يرفع صوته مدافعا عن العرب • وحين يقرأ القارىء هذا الكتاب ، ويدرك أى ظروف حارب فيها هذا الانسان النبيل فى صفنا ، وأى صعاب اعترضت طريقه فتخطاها باندفاعة الفدائى الجسور ، فسيدرك الى أى مدى نحن مدينون له بالشكر والعرفان بالجميل ، والى أى مدى قصرنا فى حقه •

لقد قرأت كثيرا مما كتب فى صالح القضية العربية الفلسطينية بأقلام عربية وأجنبية ، بيد أنى لم أعثر على كاتب توفر له مثل هذا الحماس الدءوب ، ومثل هذه السعة فى الاطلاع وهذا الجد فى البحث ، ومثل هذه الغيرة الواعية فى الحق ، ومثل هذه الشهامة المتوثبة للانتصار لكل مظلوم، ومثل هذا التواضع الجم الذى توفر لهذا المتطوع النبيل الذى لا مصلحة له • وحسب القارىء أن يلقى نظرة على قائمة المراجع التى استند اليها وبنى عليها دفاعه الخارق ، مجهدا نفسه فى تمحيص محتوياتها ومستقرئا منها الأدلة المفحمة المخرسة للسان الباطل ، من أجل أن تأتى وثيقته هذه جامعة شاملة ، وأن يراه يقول بعد هذا كله ، بكل تواضع معهود فى مثله من ذوى المروءة والنخوة انها ليست جامعة ، وأنه كان من الممكن أن تكون أوفى وأشمل وأقوى لو لم يكن فقير الجيب ، كالناس الذين يدافع عنهم ، فتوفر له المال الذى يمكنه من السفر الى أحد الأماكن التى كانت مسرحا من المسارح التى دبر فيها المجرمون اقتراف هذه الجريمة النكراء ، أعنى

الولايات المتحدة ، لكي يتسنى له أن يستجلي نقطة واحدة ، هي ، في رأيي ، نقطة ثانوية يستشهد بها أحد الشركاء الآثمين لتبرير اشتراك مجرم آخر معهم وتواطئه معهم ٠

وفي وسع القارىء أيضا أن يبحث عن الـ « أنا » في ثنايا هـذا المرجع الحجة ليجد أنها تختفي دائما في كل مناسبة تستحق فيها الثناء ، مؤثرة غيرها ممن دافعوا عن قضية العرب بالمديح والاطراء ٠

حقا ، انه لم يخطر ببالي في يوم من الأيام أن بريطانيا التي صنعت مأساة بلادي ومآسي كثير من الشـعوب يمكن أن تنجب انسانا على هذه الدرجة من السمو الانساني ونبل الضمير ، لكنني حين تعرفت عليه من خلال هذا الكتاب أيقنت أن الشعب البريطاني هو الآخر مجني عليه مثلنا فلقد باع حكامه المجرمون في حقنا وحقه مستقبله للصهاينة من أجـل مصالحهم الاستعمارية ٠ ومن غير هذا الشعب سيدفع في المستقبل ثمن هذه الجريمة النكراء ؟ فأحسست بكل حقد حملته لبريطانيا العامة ينفثىء من قلبي دفعـة واحـدة ليحل محله الرثاء لمستقبلها ، وأخلص العرفان لشعبها الذي أنجب مثل هذا الانسان النبيل الذي رفع صوته من أجلنا معبرا عن ضمير ذلك الشعب المخدر ٠ ومن أجل هذا الانسان الشهم غفرت لبريطانيا الشعب البريطاني كل الوزر الذي حمله لها حكامها الآثمون ٠ وحسب هذا الشعب اليوم أنه يدفع من شرفه ومن كبريائه القومي ثمن جميع تلك الجرائم التي اقترفها باسمه هؤلاء الحـكام الاستعماريون ، اذ لم تعد الجزر البريطانية التي كانت تسيطر الى عهد قريب على ما يزيد عن نصف رقعة هذا الكوكب الا ذيلا صغيرا ملحقا بامبراطورية الاستعمار الجـديد ومجرد قاعدة ذرية بعد أن كانت قواعدها تنتشر كالجذام على وجه هـذه البسيطة ٠ ومن يدري غدا ماذا يكون مصير هذا الشعب المسكين اذا ضحى به سادته الجـدد في واشـنطون على مذبح شهواتهم المجنونة من أجـل مخططاتهم الخرقاء للسيطرة على عالم اليوم : عالم الشعوب المتحررة ، أو اذا ما انتفضت فيه روحه الحرة المخدرة فحاول أن يتحرر منهم ففعلوا به كما يفعلون اليوم في شعب الدومينكان ؟

بقيت كلمة أخيرة أقولها في ختام هذه المقدمة ٠٠٠٠ كلمة شـكر وامتنان أقدمها بلسان كل عربي للكاتب النبيل ولجميع زملائه في « المركز العربي » بلندن ، الذين أهداهم هذا الكتاب ، ولجميع من أزجي اليهم الشكر في مقدمته بالنيابة عنا وعن الشعب البريطاني المغلوب على أمره ، ونحفظها لهم بكل جميل وعرفان ، مؤملين أن يكون لهم في هذه الترجمة

ولكنها جميعا ذهبت أدراج الرياح ٠ ولم ترفض التماسات العرب هـذه فحسب ، بل ان أحدا لم يعرها مجرد الاهتمام فى حد ذاته ، فلم يسمح لهم فى يوم من الأيام أن يعرضوا قضيتهم كاملة أمام محكمة الرأى العام ، أو أمام أى محكمة دولية لها سلطة اصدار حكم مؤسس على الحقائق ٠

والسبب الرئيسى فى هذا هو أن قضية العرب قد أخفيت منذ اللحظة الأولى عن اسماع محـكمة الرأى العام ٠ ولو أنهم كسبوا قضيتهم هنـا (لدى رأينا العام) لوضع حل عادل لهذه القضية فى مكان آخر ٠ لكن العرب لم يتمكنوا حتى هـذه اللحظة من تعريف النـاس تعريفا كاملا بقضيتهم ؛ وبخاصة فى بريطانيا العظمى ، حيث كان من الضرورى جدا أن تكون معروفة ٠

وهدف هذا الكتاب هو عرض هذه القضية بكل احاطة ممكنة ٠ انه تأريخ لما حدث فعلا فى فلسطين ولكل ما جرى مما يتعلق بفلسطين منذ أيام الحرب (العالمية الأولى) حتى وقتنا الحاضر ٠

أما أن يجىء هذا الكتاب بعد هذه الفترة الطويلة من الزمن ٠٠٠ والتى تبدو أنها مرحلة متأخرة جدا من مراحل الصراع ، فليس هـذا براجع الى عرض طارىء أو اهمال متعمد ، انه ناتج عن العقبة الأولى التى تقف فى طريق العرب والمدافعين عن العرب ٠ فعرب فلسطين كيان صغير يعيش فى مكان بعيد عن هذه الديار (بريطانيا) ٠ وليس لهم ـ لكونهم عربا ، وبمحض الصدفة ـ أحد من بنى جنسهم يحتل مركزا من مراكز النفوذ فى بريطانيا العظمى ٠ ومن الناحية الأخرى فان خصومهم ، قد عاضدتهم في هذا الأمر ، حلقات متتابعة فى سلسلة تنتظم الحـكومات البريطانية المتعاقبة وأعضاء المنظمات الصهيونية من ذوى النفوذ الواسع الى أقصى حد ، والذين كانوا اما يعيشون فى هذا البلد أو يترددون عليه للزيارة بانتظام ٠ ويشغل هؤلاء الصهاينة ومن يساندهم من البريطانيين مراكز بارزة فى البرلمان وفى الصحافة ، وفى المجالات الاجتماعية والمهنية والتجـارية من حياتنا القومية ، لدرجة أن الجمهور البريطانى قد سمع مرات ومرات من هذه الأصوات المألوفة على درجاتها المختلفة ، والمحترمة على درجاتها المتفاوتة ، كل ما أريد أن يقال له لصالح الحركة الصهيونية السياسية ؛ لصالح تلك النظرية التى تنادى بفرض اليهود بالقوة الغاشمة على الديار المقدسة ٠٠٠ ليس ككيان دينى بل ككيان سياسى ٠

أما العرب ، فلم يسمع الشعب البريطانى منهم الا القليل ، بالرغم من كل تلك المحاولات التى قام بها العرب أنفسهم لعرض قضيتهم عليه ٠

وكيف لا يكون الأمر كذلك ؟ فالجماعات التى ضربنا حولها سياجا من العزلة ، والتى جاءت الى شواطئنا لتعرض قضية بلادها بلسان بنى وطنها، مرات كثيرة ، لم تتسع لها صفحات الجرائد أو تنفسح لها منابر الخطابة لا من حيث الاتساع أو الزمن اللذين كانت تحتاجهما لتقول كل ما لديها من كلام • ولقد كان لديها ، وايم الحق ، الكثير مما يقال ، لأن ما سمى ب « مشكلة فلسطين » قد ازدادت تعقيداتها مع مرور الزمن حتى أصبحت فى أقصى حالات التعقيد •

وأى مشكلة سياسية من الدرجة الأولى تزداد تعقيدا اذا تركت عددا من السنين دون بذل جهد لحلها • وتزداد تعقيدا ، على الأخص ، حين يجد أحد طرفيها له مهربا على مر الزمن ، فيستفيد من مجريات الأمور الثانوية التى تنشأ بصورة طبيعية أو تنشأ (بضم التاء) بصورة اصطناعية ، فتلقى ضبابا على صلب الموضوع الذى كان واضحا فى البداية • وعندئذ يكون هناك الكثير مما يدور حوله الكلام ، والكثير مما يجرى حوله الخلاف، والكثير من المسائل التى تثار بصورة زائفة ، لدرجة أن الطرف الثانى سرعان ما يجد نفسه فى حاجة الى قدر كبير من الوقت والمتسع ليفى بغرضه لايضاح هذه المسألة وتبيانها • بيد أن الوقت والمتسع كانا فى هذه الحالة أمرين بعيدى المنال • اذ كان يتحتم على الجرائد البريطانية أن تحيل نفسها الى وثائق سياسية خاصة بالشرق الادنى ، لكى توفى هذه القضية العربية بأكملها حقها الكامل من النشر والتبيان ، وفى وسع أى انسان أن يدرك أن ذلك كان أمرا مستحيلا •

وهكذا لم يستطع المبعوثون العرب الذين وفدوا على بريطانيا أن يجدوا فرصة ، فى الحقيقة ، ليفعلوا فيها شيئا غير أن يواجهوا ذلك السد المنيع من العناد الوزارى ، وغير أن يخطبوا فى بضع غرف استقبال ، وفى أندية الروتارى ، وأن يصدروا كتيبات غير كافية لتوزع هنا وهناك• ونتيجة لذلك كان الموقف هو انه بينما قدر للشعب البريطانى أن يسمع الكثير نسبيا عن مشكلة فلسطين من أفواه الوزراء والصهاينة وأشياعهم لم يقدر له أن يسمع من العرب عنها شيئا يذكر بأى وجه من الوجوه •

وأخيرا نصل الى أولئك الذين كان يجدر بالشعب البريطانى ، من حيث المبدأ ، أن يسمع منهم شيئا لصالح العرب ؛ وبالتفصيل الى حد ما•• أعنى أولئك الذين يعطفون على العرب من البريطانيين • بيد أنه يتبين للانسان تلك العقبة التى تقف فى طريق العرب بأجلى ما يكون •

اننا نحن الذين نعطف على العرب عطفا ايجابيا نمثل نفرا قليلا٠٠٠ نفرا يستحق الرثاء ٠ لقد كتب علينا أن نكون قلة لأن الالمام بقضية العرب ؛ وبالحقائق الموضوعية فيما يتعلق بفلسطين ليس من الميسور للانسان أن يبلغه فى بريطانيا بسهولة ويسر وبالطرق المألوفة ٠

أنه يقتضيك لكى تكون بطلا من أبطال الدفاع عن قضية العرب أن تكون على معرفة خاصة بها ، وما كان فى الامكان اكتساب هذه المعرفة ، بوجه عام ، الا فى فلسطين ذاتها ، أو عن طريق الاتصال المباشر بأناس آخرين قضوا فيها ردحا من الزمن ، أو من خلال دراسة القرائن والبينات التى ظلت عمليا فى طى الكتمان حتى الآن ٠

واستتبع هذا بالضرورة أن نكون « نحن » العارفين بالحقائق قلة ٠٠٠ كنا بضعة جنود مسرحين ، وحفنة من الضباط والموظفين والمستخدمين السابقين فى ادارة فلسطين ــ وهذه حقيقة لها دلالتها ــ وكذلك بعض القاطنين من البريطانيين فى ذلك البلد ، وبعض أعضاء الارساليات الدينية والمعلمين هناك ، وصحفى أو صحفيان كانت عيونهما مفتوحة هناك ٠ بينما كانت تقف فى وجهنا حكومة بريطانيا العظمى والجمعيات الصهيونية بفروعها الأخطبوطية المنتشرة فى أرجاء العالم ٠ وكذلك كان يقف الثراء الذى ينثر بسخاء لنشر أباطيل الحكومة والصهاينة٠ وبالمقارنة فى هذا الميدان كان العرب قوما من المتسولين ٠ وكان لزاما علينا نحن القلة المدركة لعدالة قضية العرب أن نعانى من كل هذه السدود والعقبات ، المتراكم بعضها فوق بعض ، والناجمة عن فقرنا وفقرهم ، فى محاولتنا لاظهارها ٠

ونتيجة لذلك ، فان هذا الكتاب وبرغم كونه شاملا جهد المستطاع ، الا انه ليس كما ينبغى أن يكون الشمول ، وكما يمكن أن يكون ٠ فهناك، على سبيل المثال ، كثير مما كان ينبغى كشف النقاب عنه من الطريقة التى تم بها زواج الصهيونية السياسية من حكومة الولايات المتحدة ، ومن الطريقة التى تخلت بها تلك الحكومة عن قضية العرب ابان مؤتمر الصلح ٠ وقد سنحت لى ، فى هذا الصدد ، فرص للتحرى تبين لى أنها فريدة ٠ بيد أنى لم أستطع أن أنتهزها لأنى لم أكن أملك المال الذى يعيننى على السفر الى الولايات المتحدة والاقامة فيها لمدة كافية ، بل لم أستطع للسبب نفسه أن أعود الى فلسطين ، قبل أن أشرع فى الكتابة ، وأذهب منها الى العراق ٠ وفى وسع الانسان أن يتصور كم فى هذا الركن من العالم من أشياء ما زالت تنتظر أن تدرس وتقرأ ٠

وقد لا يكون من المألوف ذكر مثل هذه الأمور الخصوصية ، لكنها يجب أن نذكر هنا بسبب أهميتها السياسية ، فنحن الذين نقف الى جانب العرب ، جماعة يتوفر لديها قدر كبير من المعرفة الخاصة لكنها لا تملك الأموال اللازمة لتستخدمها فى سبيل نشر هذه المعرفة واذاعتها كما نشتهى • ونحن فى هذا نختلف عن خصومنا الذين يستطيعون أن يتحدثوا، حين تكون المسألة متعلقة بنشر بهتانهم ، بعشرات الالوف من الجنيهات وبمئات الآلاف من الدولارات •

وكنتيجة طبيعية لذلك أيضا كنا نحن الذين نحب أن ندافع عن قضية العرب وأن نعرضها للناس ، يعوزها الوقت بقدر ما كانت تعوزنا الاموال • فلم نكن نملك وقتنا ••• كان يتحتم علينا أن نسعى وراء عيشنا • وذلك هو السبب فى أن هذا الكتاب ، الذى يتطلب تفرغا كاملا لموضوعه وهجرا تاما لكل ما عداه ، لم يظهر قبل الآن ، وقد أخرج حالما توفرت امكانية اخراجه المجردة •

وهناك بعض النقاط الأخرى التى تحتاج الى تقدمة هنا ، فلسوف يرى القارىء أنى لم أترفق بساسة معينين من ساستنا ، أو بحكومات معينة من حكومات بلدنا • اذ ليس هناك ، فيما أعتقد ، سبب يدعونى الى التورية وتلطيف العبارة ؛ الى القول بأن هؤلاء الرجال وتلك الحكومات كانوا مخطئين ، أو ضللتهم النصائح المغرضة ، أو أنهم انتهجوا ، مجرد انتهاج، سياسة خاطئة فى فلسطين ، أو تقبلوا عن غباء مهمة الاضطلاع بانتداب مخرب • لانهم لم يفعلوا شيئا من هذا القبيل ، بل انتهجوا سياسة فحواها الغش والزيف والضلال • لقد سلبوا العرب ، عنوة واغتصابا ، حقوق العرب الطبيعية الموروثة فى بلادهم • ونكثوا بعهود بريطانيا التى قطعتها للعرب • وأولوا وحرفوا ، ما وسعهم التأويل والتحريف ، ميثاق عصبة الأمم عن مواضعه ، بما يوافق أغراضهم فى فلسطين ، وانتهكوه فى المواضع التى لم يستطيعوا فيها أن يحرفوه ••• لقد زيفوا الانتداب •

أما الحكومات التى جاءت بعدهم فجرمها أقل من جرمهم • لكنها جنت آثام سلبيتها لأنها لم تعد النظر فى أفعال من سبقوها ، ولأنها تابعت المضى فى سياسة لم تتقص منشأها وفحواها •

لا مفر لنا من القاء هذه الاتهامات ، والقرائن التى تبرر لنا القاءها • بيد أنه من المؤلم ألا يكون هناك مفر من القائها ، وبخاصة فى هذه الظروف التى تسود العالم • وعلى أى حال ، فانه من قصر النظر ، فى هذا الوقت الراهن الحرج ، أن يأخذ الانسان نفسه بالقول بأن هذه ليست باللحظة

التى ننال فيها من هيبتنا القومية بفضح الأفعال الشائنة التى اقترفهـا بعض حكامنا ٠

ان الموقف هو على العكس تماما ٠ فاذا كانت المؤسسات الحرة مهددة بالخطر فعلا فى هذه اللحظة ، فليس هناك اذا خير من برهان نقدمه على ما تسمح به المؤسسات الحرة وما تحرمه المؤسسات الاستبدادية ، ألا وهو حق الفرد فى أن يقاضى أى حكومة على اساءة استخدامها لسلطتها ٠ ومهما يكن مكروها فى مقام الجهر بالحقيقة فان كتمانها فى المقام الأول ، اضاعة لفرصة كبرى ٠ والواقع أنه قد واتانا هنا ما هو أكبر من الفرصة ٠ انه امتياز من امتيازاتنا اليـوم ، ولا يشاركنا فيه الا القليل من النـاس ، ألا وهو أننـا ما زلنا نستطيع فى بريطانيا وفى أوروبا المكممة بخـداع النفس ــ أن نقول الحقيقة عن أنفسنا ٠ ولسنا بأحرار طالما لا نستطيع أن نقولها ٠ انهـا الدليل بعينه على حريتنا ٠ وحين نترك قول الحقيقـة للآخرين فقل علينا السلام ٠

وفضلا عن هذا فان مسألة فلسطين هذه تدنس كل مجهود تقوم به بريطانيا سعيا وراء الخير فى النواحى الأخرى ٠ ان الشعب البريطـانى لا يدرى الى أى مدى كبير تناقش أفعالنا التى اقترفناها فى فلسطين ، فى البلدان الأخرى ، وأى طعم من الرياء تعيره لأصدق مشاعرنا ٠ فكيف لنا أن نرفع أصواتنا بالاحتجاج على معسكرات الاعتقال فى بروسيا حين تكون لنا فى فلسطين معسكراتنا ؟ وكيف نستطيع أن نستنكر طرد الألمـان لليهود حين نقحم اليهود على العرب بالعنف نفسه ؟ وكيف يمكن لنا أن نتباكى على أناس يودعون فى السـجون بلا محـاكمة حين ننفى ونسجن ونعدم رجالا فى فلسطين بلا محاكمة ؟

أما الاعتـذار بأن الأمر فى حالتنا يختلف ؛ بأننـا نفعل ما نفعله آسفين لصالح الانتداب الذى كان تنفيذه واجبنا نحو العالم ، فهذا عذر مخز ٠ لقد رتبنا نحن أمر الحصول على هذا الانتداب ، ومنحناه نحن وأصدقاؤنا لأنفسنا ، وقمنا نحن وشركاؤنا فى السـياسة الصهيونية بتدبيج نصوصها ذاتها ، ساعين من وراء ذلك الى هدف واحد هو فرض هذه السياسة ٠

أما كيف تم ذلك ؟ فهذا ما سيقف عليه القارىء لهذا الكتاب ٠ وقد أتهم بكتابتى اياه بأنى معاد للسامية ٠ ويجب على أن أتجاوز عن هذا الاتهام٠ لكنى لم أرتبط فى أى يوم من الأيام قط بأى علاقة بالمعاداة للسامية ٠ وانى أرى فى اضطهاد اليهود فى وسط أوروبا عارا صارخا وسبة فى

جبين الانسانية بقدر ما يكون فرضهم على العرب عارا صارخا وسبة فى جبينها • وليس هنا من شىء كذلك يضع فى أيدى مضطهدى اليهود فى أى مكان آخر من العالم مبررا أقوى من هذا المبرر الذى يضعه فى أيديهم هذا الاضطهاد الذى يوقعه اليهود بفلسطين ومن أجل مصالحهم •

أما فيما يتعلق بمادة هذا الكتاب ، فهناك بعض النقاط أحب أن أبديها • انه كتاب طويل جدا لكنه يجب أن يكون كذلك • اذ لما كان تاريخ فلسطين الحقيقى قد أخفى على الجمهور طوال عقدين من الزمن ، فان من الضرورى هنا أن أبعث تلك السنوات العشرين ، وبالتفصيل جهد الطاقة ، مع أقل قدر ممكن من التكرار للحقائق التى حدثت فى تلك السنوات نفسها • ان نصف الحقائق التى يتحتم على أن أوردها هنا لم يأت على ذكرها أحد قط • كما أن كثيرا من الوثائق لم ينشر أحد منها نصا واحدا • ولذلك فقد رأيت أنه من الضرورى أن أسوق النقاط الأهم من غيرها أكثر من مرة ، من أجل القراء الذين يطرقون هذا الموضوع لأول مرة وليست لديهم فكرة عنه • وحين يتذكر الانسان أن العرب قد عانوا الكثير من التكتم على كل شىء ، فان تكرار بعض النقاط ، من حين لآخر ، أمر لا يكاد يعاب ، بل هو مرغوب فيه حقا •

ان تاريخ فلسطين ابتداء من أيام الحرب (العالمية الأولى) حتى الآن هو ، كما سبق لى أن ذكرت من قبل ، معقد فى بعض الأحيان • وكان خليقا بألا يكون كذلك ، لان ما نسمى ب « مشكلة فلسطين » هى وحدها التى تجعله معقدا ، وكان يجب ألا يكون لمشكلة فلسطين هذه وجود ••• لم تكن هناك مشكلة لفلسطين ، وما كان لها أن تكون مشكلة لو لم يخلقها ساسة معينون • وعلى أى حال ، فما دامت قد خلقت هكذا بصورة غير طبيعية فانها تميل فى بعض الأحيان الى التعقيد • وعليه فيجب أن يدقق النظر فى معانى العبارات ، أو ينظر الى الخريطة بامعان •

أما الرجال الذين خلقوا هـذه المشكلة ، فيجب علينا ألا ندعهم يستطيعون الهرب من محاسبتنا لهم ببراعتهم فى تعقيد كتبنا القومية • فاذا كانت الشخصيات السياسية تستطيع أن تعبث بالمعاهدات وتتحلل من المواثيق لمجرد أن الشعب لن يفحص هذه المعاهدات ولن يحلل تلك المواثيق ، فعندئذ يكون الشعب قد تنازل عن حق رقابته على الحكومة •

ان هذا الكتاب يعالج أساسا قصة كيف وضعت فلسطين تحت حكم حكومة الانتداب لكى تقيم فيها « وطنا قوميا لليهود » يصبح فيما بعد ــ كما بيت له ــ دولة يهودية • وقد تمت كتابته فى الوقت الذى كانت

فيه سياسة حكومة تشمبرلين فى فلسطين غير مبينة • وفى اللحظة التى قمت فيها بمراجعته تخلت الحكومة عن مشروع التقسيم الذى خلفته لها الحكومة السابقة • لكنه يغطى على كل مشروع آخر قد يحل محل مشروع التقسيم • ان أى مشروع من هذه المشروعات لا يعترف بأننا قد تجاهلنا حقوق العرب وحنثنا بعهودنا ، ولا يؤكد هذه الحقوق ـ وأن هذه الحقوق والعهود سيعترف بها وسيوفى بها من الآن فصاعدا ـ سيجد ادانته فى التاريخ مفصلة بين دفتى هذا الكتاب •

وحتى اذا ما قدر للحكومة الحالية أن تدرك فضيلة الاعتراف ، وأن تغير سياستها ، وأن تبدأ فى فلسطين من جديد كما كان يخلق بنا أن نبدأ قبل عشرين سنة ، فان هذا النشر للقصة الحقيقية لهذه السنوات الخوالى سيكون ضروريا • وبهذا وحده يمكن ايضاح ثلاثة أمور تستدعى التبيان ، ألا وهى حاجتنا الى تغيير السياسة ، وعدالة مطالب العرب ، وجريمة أولئك الذين جعلوا فلسطين تعيش فى البؤس كل هذا الأمد الطويل •

وأرى لزاما على بصورة خاصة أن أبرز عدالة قضية العرب بأجلى ما يكون الايضاح • ويجب ألا ينحى عليهم بلوم ، اذا ما أمكن التوصل الى تسوية سليمة ، من أنهم قد أحرزوها لمجرد أنهم التجئوا الى العصيان والتمرد ، ومن أنها انما منحت لهم من أجل السلم •

وأعتقد أن من الصواب أن يعرف الشعب أسماء بعض أولئك الذين أبقوا قضية العرب حية فى بريطانيا العظمى حين كانت تنهشها أسنان معارضة طاغية • وكان يحفظ عليهم شجاعتهم دافعآن ، حين كان الأمل يتراءى بعيدا • وأحد هذين الدافعين هو أن بلدا صغيرا يجب ألا يداس أبدا طالما كان فى وسعهم أن يدفعوا عنه ذلك • أما ثانيهما فهو أن بلادهم يجب أن تكون بارة بعهودها وبنفسها •

لقد رفع بعضهم صوته فى البرلمان مدافعا عن فلسطين • فاللورد آيلنجتون سايدينهام واللورد بكماستر ، واللورد برنتفولد واللورد لامنجتون واللورد تمبلتاون •• تلك أسماء لن ينساها العرب • كما أنهم لن ينسوا السير ارنست بينيت ، والمستر سومرز كوكس ، والسير فرانك ساندرسون ، والكولونيل هاوارد بورى ، والكولونيل كليفتون براون ، واللورد ونترتون ، والسير آرنولد ويلسون ، ولن ينسوا من بين الأعضاء الشبان فى مجلس العموم فى الأيام الأخيرة المستر أنتونى كروسلى • ولم يكن هؤلاء الشرفاء وأعضاء البرلمان ينادون بالسياسة نفسها

فى فلسطين · لقد كانت بينهم اختلافات فى التطبيق · لكنهم كانوا جميعا يناضلون ويجاهدون ليعرضوا وجهة نظر العرب · ولسوف يذكر اسم كل من اللورد آيلنجتون واللورد سايدنهام بصفة خاصة بسبب القوة والاقتدار والكفاءة التى نافحا وعارضا بها السياسة الحكومية · ولم يكن أى منهما فى شبابه آنذاك بل كانا كلاهما قد أحيل الى التقاعد منذ زمن من الوظائف الرفيعة فى الممتلكات البريطانية فيما وراء البحار ، ومن الوزارة فى حالة اللورد آيلنجتون · لكنهما فى دفاعهما عن قضية العرب، التى كانت تفتقد الصديق ، قد جددا عنفوان شبابهما · لقد حاربا من أجل فلسطين ومن أجل شرف بريطانيا كما يحارب الصليبيون ، والواقع أن الصفوف التى قاداها هى صفوف مشتركة فى القتال مع الغزو الصليبى الأخير ·

ولقد وفينا اللورد تورثكليف حقه من الشكر والعرفان فى ثنايا هذا الكتاب · بيد أن هناك آخرين يرجح ألا يتقدموا بأسمائهم الى الشعب، ممن أسهموا بنصيب كبير فى الدفاع عن العرب · وان كل نفس فى فلسطين تعلم ما الذى أحرزته الآنسة فرانسيس نيوتن لصالح الديار التى اتخذت منها بيتا لها لسنوات عديدة · وان كل انسان شغل نفسه بالدفاع عن قضية العرب يدين بشىء من علمها ومعرفتها والهامها فى هذه القضية· وانى مدين لها بأعمق الشكر والعرفان · وان بيتها على جبل الكرمل فى فلسطين لهو فى نظر العرب الموطن الحقيقى للتقاليد البريطانية القديمة ·

ويعرف المدافعون عن العرب فى لندن ذلك العمل العظيم الذى اضطلعت به المرحومة الآنسة برودهيرست والآنسة فاركيوهارسون ، من « الرابطة الوطنية » لسنوات عديدة · ففى كنفهما فى شارع سانت جيمس كان العرب وأصدقاؤهم البريطانيون يلتفون ويتشاورون ، ويطلعون على الكثير من مخططات خصومهم ومؤامراتهم التى لم تكن تفلت من عيون مضيفتيهما الساهرتين أبدا ، فيضعون الخطط فيما بينهم لمقاومتها · وقد كان بيتهما أشبه بقلعة للعرب وسفارة لهم فى آن واحد · ولقد وجدت فيه دائما ـ مثلى فى ذلك مثل الآخرين ـ العون ، والامداد بالمعلومات والتزود بها ، والحماسة والتشجيع ، وداعيا كبيرا من دواعى العرفان بالجميل وعظيم الامتنان ·

وهناك اسم آخر أذكره بكل تجلة وامتنان ، هو اسم السيدة ستيوارت ارسكين · وهى أحد الأوائل الذين خفوا لانقاذ قضيتنا المشتركة بأن أصدرت كتابها القيم ، وعنوانه : فلسطين العرب · وكان عنوانه فى

حد ذاته درسا فى الايام التى كتب فيها . وكسكرتيرة للمركز العربى ، فى شارع فكتوريا ، ظلت السـيدة أرسكين تدأب بلا كلل حتى وقتنا الحاضر . وجنبا الى جنب معها تدأب السـيدة فوكس ــ سترانفويز ــ والسيدة سيسيل بروكس ، والآنسة بلايث ، والسيدة سوينبرن .

وفى فلسطين شـهر المستر نيفيل باربر يراعا لا يقدر بمال وانى مدين له بايراد نبذة مما خطه قلمه فى هذه المقدمة ذاتها . وقد كتب المستر ارنست رتشموند والمستر س.ر. آشبى ــ وكلاهما خدما فى ادارات من ادارات فلسطين ــ عن ذلك البلد بذلك الأسلوب الصريح الذى لا تأخـذه فى الحق لومة لائم والذى يتميز به أولئـك الذين لهـم علم بهذه المسألة ينفذ الى خافياتها . كما ألف البروفسور غارستانج الأستاذ فى جامعة ليفربول ، والذى ترأس بعثـات قيمة مشهورة للتنقيب عن الحفريات فى فلسطين ، ألف بالاشتراك مع أسقف شيشستر كتيبا تمتلىء دفتاه بالحقائق الناطقة .

وفوق هؤلاء جميعا هناك رفيق لورانس القـديم . انه الكولونيل س. ف. نيوكومب ، الذى لم يخف أسلوبه المؤدب التوفيقى ، والذى تجلى فى مشروعات اقترحها من أجل تسوية ، لم يخف أبدا ايمانه الراسخ ووقوفه الثابت الى جانب العدل والحق ، الى جانب قضية العرب .

وهناك نقطة أخيرة تستدعى التعريف بها أولا . وهى نقطة تقع ــ بمعنى ما ــ خارج مجال المناقشة الحالية كله ... هذه المناقشة التى تدور حول مسائل سياسية . ان هذه النقطة اعتبار دينى . بيد أنه لما كان كثير من الأشخاص يحكمون على موضوع الصهيونية من وجهة النظر هذه وحدها ، فان لنا هنا أن نناقشها .

ان هؤلاء الذين يأخذون بوجهة النظر هذه متأثرون بحقيقة أن عودة اليهود الى الديار المقدسة انما هى تحقيق لنبوءات الكتاب المقدس . وبدافع من هذا فانهم يحسون بوجوب ألا تقوم معارضة من أى نوع كان فى وجه هذه العودة . انهم لا يحبون أن ينتقدوها أو يروها تنتقد بأى أسلوب كان .

وانى أتوجه الى أى من هؤلاء الذين يحملون مثل هذه الأفكار ، أتوجه اليه بكل لهفة راجيا منه أن يتأمل بامعان ، أكثر مما فعل حتى الآن ، موقف أولئك الذين يدافعون عن العرب . انك لا تجـد بيننا جميعا ــ ولا تجدنى أنا بكل تأكيد ــ واحدا يعارض عودة اليهود الى فلسطين . ان

ما نعارضه أمر يختلف عن هذا كل الاختلاف • اننا نعارض أسـلوب عودتهم هذه ومدى عودتهم هذه • أما الأسلوب فكان غير قانونى وعنجهيا، وأما المدى فكان مفرطا •

وعلى أى حال ، فلا محل للقول بأن اعادة توطين اليهود فى فلسطين قد تتعرقل او تتعرض للخطر بفعل أفعالنا ، مادام اليهود قد عادوا الى هناك • ان كل ما يتعلق بأسلوب عودتهم ومداها ومكانها يستدعى النقد • وانهم المسئولون عن هذا وليس نفادهم • واذا أردنا أن نأخذ بالأرقام فقد كان هنـــاك ، عند نهاية الحرب الـكبرى ، ما يقرب من ستين ألفا منهم يسكنون البلاد ، وكانوا يعيشون مع أهل البلاد على أساس من التفـاهم المعقول ، ان لم يكن من الصداقة والتآلف • وكان معظمهم من القـادمين الجدد الذين دخلوا البلاد بالطرق المشروعة ، وفى ظل قانونها العـــام ، كحجاج أو كمستوطنين ، لا يطالبون لأنفسهم بمركز خاص من الأهلية على حساب أولئك الســكان الأصليين أهل البلاد • ومنــذ ذلك التاريخ تضاعف تعدادهم فيها الى سبعة أضعاف حتى الآن •

أما الثلاثمائة والأربعون ألفا وأكثر ، الاضافيون الذين دخلوا البلاد تحت حمايتنا فقد جلبوا اليهـا عنتا وعدوانا • فقد قيــد العرب بشتى الذرائع من قبل بريطانيا العظمى الى عتبات بيوتهم بينما كان اليهــود يتدفقون فيها مارين أمام عيونهم • ومع ذلك فان العرب ـ الذين يرمون بانتظام بانهم قوم غير معقولين ـ مستعدون حتى فى هذه اللحظة الى قبول حل وسط بخصوصهم • وان من الأفضل ، بهذه المناسبة ، ألا نزيد العرب نفـاد صبر على صبرهم النـافد بعد الآن ، وأن نغتنم فرصة استعدادهم لقبول حل وسط قبل أن تضيع •• ان المزيد من العناد والتعنت فى عدم الالتقاء مع مطالبهم العـادلة لن يكون من ورائه الا دفع قيـــادة حركتهم القومية الى أيد لا تقبل الحلول الوسط •

انهم على استعداد فى الوقت الحاضر ، على أى حال ، الى أن ينظروا الى جمهرة المهاجرين الضخمة على أنهم عملاء جهلة وأبرياء ، جاءوا الى فلسطين ظنا منهم أنها لهم ، وعلى أنهم لا يسعون الى طردهم منها • أما شروط اقامة هؤلاء المهاجرين فتلك مشكلة تبقى للحل ، لكنهم طالما كانوا قانعين بحقوق السكان العامة ولا يطالبون بأية امتيازات مغالى فيهـا ، كالاستقلال الاقليمى أو الاستقلال فى التبعية عن أهل البلاد والاحتفاظ بجنسياتهم الأجنبية ، فسيكون لهم أن يبقوا فى البلاد • وهذا يعنى أن أربعمائة ألف يهودى ، وربما كان عددهم أكثر من أربعمائة ألف ، سيبقون

فى فلسطين ، وليس من المحتمل أن يبرحوها ما لم يبرحوها بمحض اختيارهم وارادتهم ٠

وان هذه الحقيقة حقيقة ذات دلالة عظيمة ، اذا ما أخذت مرتبطة مع نبوءات التوراة ٠ وهى نبوءات عديدة جدا منتشرة فى كثير من كتب العهد القديم ٠ ويكفينا هنا أن نستشهد بفقرتين نموذجيتين منها ٠ اننا نقرأ فى الاصحاح الحادى عشر من كتاب أشعيا قوله :

❊ ويكون فى ذلك اليوم أن الرب يعيد يده ثانية ليقتنى بقية شعبه التى بقيت من آشور ومن مصر ومن فتروس ومن كوش ومن عيلام ومن شنعار ومن حماة ومن جزائر البحر ٠ ويرفع راية للأمم ويجمع منفيى اسرائيل ويضم شتات يهودا من أربعة أطراف الأرض ٠

وفى الاصحاح النلاثين من سفر التثنية تجد قوله :

❊ يرد الرب الهك سبيك (أى يعكس وضع أسراك ـ المؤلف) ويرحمك ويعود فيجمعك من جميع الشعوب الذين هم بددك اليهم الرب الهك ، ان يكن قد بددك الى أفصاء السماوات فمن هنـــاك يجمعك الرب الهك ، ومن هناك يأخذك ، ويأتى بك الرب الهك الى الأرض التى امتلكها آباؤك فتمتلكها ، ويحسن اليك ويكثرك أكثر من آبائك ٠

وقد تحققت هذه النبوءات اليوم ٠ وان الأربعمائة ألف مستوطن فى الديار المقدسة ليشكلون بقية كاملة من يهود العالم ، الذين يقدر عددهم، وبصور مختلفة ، بأنه يتراوح بين أربعة عشر مليونا الى ستة عشر مليونا٠ وان بقية من هؤلاء فقط يمكنها أن تعود الى فلسطين ٠ والى أن تأتى لنا عودة المسيح ثانية بعصر المعجزات فتتلاشى قيود وحدود أرضنا البشرية الحالية ، فان توطين جميع اليهود فى هذا البلد الصغير الذى غالبا ما يكون قاحلا سيظل من أكبر المستحيلات ٠ كما أنه ليست هناك أدنى رغبة لدى هـــذه الملايين فى العودة ٠ فلقد عاد من بين التلاثمائة ألفا من اليهـــود الموجودين فى بريطانيا ، على سبيل المنال ، أقل من ألفين ٠ وهؤلاء الذين عادوا هم دوما وأبدا « منفيو اسرائيل » و « شتات يهودا » الذين هربوا من تلك الأجزاء من أوروبا التى كانوا يضطهدون فيها ويعذبون ٠

ان نبوءة سفر التثنية تعلن ، علاوة على الوعد بارجاع اليهود ، أن هؤلاء اليهود العائدين سيمتلكون البلاد بأعـــداد أكثر بكثير من أعـــداد

آبائهم الأولين • ولقد نحقق هذا أيضا ؛ تحقق تحققا لم يشر اليه أحد بطرف قط •

ولا يمكننا طبعا ، أن نحصى عدد السكان اليهود بالضبط حين كانوا يسيطرون على أجزاء من فلسطين ، وأفول أجزاء من فلسطين لأنهم لم ينملكوا فلسطين كلها فى يوم من الأيام • ويجمع النقاد التوراتيون على تسفيه بعض الأرقام الخيالية التى آلت الينا من الماضى السحيق • وهم يتحدثون عن هذه الأرقام المعطاة وينعتونها بأنها فضفاضة ، ويتحدثون عن « الاسراف الذى لا حد له » المتوفر حتى فى أرقام جوزيفوس •

وعلى أى حال فقدتوفر السير جورج آدم سميث ، الذى سيظل كتابه « الجغرافيا التاريخية للأرض المقدسة » المؤلف الكلاسيكى عن هذه البلاد والذى بلغت طبعاته خمسة وعشرين طبعة ، على دراسة مسألة السكان اليهود فى أيام العهد القديم • وفى مؤلف حجة آخر من كتبه اسمه فلسطين ، يخلص الى هذا الاستنتاج النهائى بعد أن يستخلص من النقوش الآشورية أن اليهود « الذين أخذوا سبايا الى بابل كانوا على أكثر تقدير سبعين ألفا فى العدد ، وبعد أن يذكر قراءه أن هناك بضعة عشرينات ألوف منهم لم تذهب الى المنفى ، وأن الخسائر فى الأرواح التى لحقت بهم فى أيام حكم سنحاريب لا بد أنها عوضت فى عهد منسة الطويل المزدهر فيقول : « ولا يمكن أن نكون بعيدين عن الحقيقة ، تبعا سنحاريب •

لذلك ، اذا قدرنا أن الأمة اليهودية كانت تضم فى نهاية القرن السابع (قبل الميلاد) مائتين وخمسين ألف نفس ، على الأقل — ويضع هذا بين أيدينا متوسطا معقولا للسكان نبنى عليه حساباتنا —

فاذا أضفنا حتى مائة ألف أخرى الى عددها ، اتقاء للهجوم الذى قد يشن علينا من الثغرة التى فتحها آدم سميث بقوله « على الأقل » الأمر الذى هو مبالغة فى الاتقاء من هذه الثغرة ، فيكون عدد اليهود الموجودين فى فلسطين اليوم — وبرغم كل شىء ومن جميع الوجوه المعقولة — « أكثر بكثير من تعداد آبائهم » ، ويكون ما جرى اعلانه فى الكتاب المقدس قد تحقق • ولا يكون هناك محل للقول بأن العرب أو أولئك الذين يعاضدون حقوق العرب يقفون فى وجه تحقيق نبوءة ، ما دامت قد تحققت فعلا •

أو كما يقول المستر نيفين باربر : « يوجد فى فلسطين اليوم ، ونتيجة لخمسين سنة من التدبير الصهيونى ، وطن قومى لليهود يضم نحو ثلاثمائة وخمسين ألفا (كتب هذا الكلام فى عام ١٩٣٦) • وهو يفى بغرض المركز الروحى لليهود • ان من الممكن بالنسبة لليهودى الآن أن يولد فى فلسطين ، وأن يتدرج من روضة أطفال يهودية مائة فى المائة الى مدرسة يهودية مائة فى المائة فجامعة يهودية مائة فى المائة ، دون أن يتكلم بأى لسان غير العبرية ، وأن يشتغل فى مدرسة يهودية أو مصنع يهودى ، وأن يعيش فى مدينة يهودية مائة فى المائة تضم مائة وخمسين ألفا من السكان ، وأن يقرأ جريدة يومية عبرية ، وأن يرتاد مسرحا عبريا ، وأن يقضى يوم عطلة فى نزهة بحرية على ظهر قارب بخارى يرفرف عليه العلم اليهودى • » ويمكن أن يوصف هذا بحق ، على ما أعتقد ، بأنه عودة يهودية كافية كاملة الى فلسطين طبقا لنبوءات الأسفار المقدسة •

وما يقاومه العرب اليوم ليس الا ما يطالب به الصهاينة الدنيويون ذوو الاتجاهات السياسية على مختلف أنواعهم من وجوب زيادة تعداد اليهود فى فلسطين باضافات أخرى • وتتراوح هذه الاضافات ، وهذه الزيادات على السكان اليهود الموجودين فى فلسطين فعلا ، حسب أمزجة القائلين بها ، من بضع مئات آلاف أخرى الى عدة ملايين • فالدكتور وايزمان يقترح جلب مليون ونصف آخرين الى البلاد فى غضون العشرين سنة القادمة • ولا شىء فى الأسفار المقدسة يبرر هذا الاكتظاظ الخانق •

ويكفينا هذا بالنسبة لأولئك الذين يستنكرون الدفاع عن حقوق العرب بسبب « تدخله » المزعوم وتعارضه المزعوم مع النبوءات • فهناك أيضا ما يجب ألا يغيب لهم عن بال • ان أحدا لا يمكن له أن يقول ، فى أى ظرف من الظروف ، بأن لليهود الحق ، بسبب نبوءات العهد القديم ، فى أن يعودوا الى فلسطين افتئاتا وظلما وعدوانا ، وعلى النحو الذى فرض به زعماؤهم الآثمون وبعض الساسة البريطانيين دخولهم فى هذه البلاد بالقوة • ان قواعد السلوك الأخلاقى لا يمكن أن تطرح جانبا • وان أولئك الذين يستغلون الكتاب المقدس كحجة ليثبتوا به أقدام الظلم فى الديار المقدسة الى الأبد سيقدمون للعالم مثلا ، لم تقع عليه عين من قبل ، من الاستشهاد بالكتاب المقدس لأغراض الشيطان •

وبالاختصار ، فلأن تقول جوانب الخطأ والصواب فى المسألة القائمة بين العرب والصهاينة يجب ألا تؤخذ فى الاعتبار لأن الله قد كتب لليهود أن يعودوا الى فلسطين ، فان قولك هذا مرادف لتعطيل الخطأ والصواب عن

العمل • ان معناه أن تتصور مشكلة مستحيلة لا تنطبق عليها وصايا الاله لكى تحقق وعود الاله • ان معناه أن تجعل من الخطيئة وسيلة للنجاة من العذاب ، وأن تخرج على المسيحية • ولذلك فان هذه عقيدة يجب على كل مسيحى ألا يسمح لنفسه ، ولو لحظة واحدة ، باعتناقها •

ولقد رأيت أن من الأيسر على أن أشير الى الأشخاص فى كل ثنايا هذا الكتاب بأحدث ألقابهم المعروفة ، فى الوقت الذى يكون قد طرأ فيه على أسمائهم تغيير • فلقد تحدثت عن « اللورد بلفور » مثلا منذ البداية حين كان اسمه مايزال المستر أ• ج• بلفور • وقد تجاهلت ، فى الناحية الأخرى ، التغيرات الحديثة جدا التى طرأت على أسماء أخرى فقد تحدثت عن « السير هربرت صمويل » مثلا وليس عن اللورد صمويل • لقد توخيت انطلاق المسيحية فلم أتبع أية قاعدة • وقد تركت الأسماء فى النصوص التى استشهدت بها كما هى معطاة •

وأما الأسماء الموضوعة فى داخل أقواس فى نهاية كل نص استشهدت به فهى تدل على أسماء كاتبيها أما ت• م• ص• فهى تعنى تقرير المنظمة الصهيونية •

ج•م•ن• جيفريز
ايستهايز ، كولمبتن ، ديفونشاير



« ربما نتبين أن حماقاتنا وآثامنا القومية قد استحقت العقاب . واذا كنا لا نستطيع نحن أنفسنا أن نبدو في هذه التعرية للعفونة أبرياء تماما ، فاننا ما زلنا أحرارا وصادقين مع أنفسنا ، وفي وسعنا أن نطمع في تكفيرها عنا من خلال النـــدم . »

(عن روبرت بريدجز ، من « روح الانسان »)

المؤلف

الفصل الأول

وماذا أنتن لى يا صور ويا صيدون ويا جميع دائرة فلسطين
(سفر يوئيل . الاصحاح الثالث . الآية الرابعة)

أعلن اللورد نورثكليف فى عام ١٩٢٢ ، بعد أن زار فلسطين ووقف على نتائج أفعال حكومتنا هناك ، أننا نجعل من هذا البلد ايرلندة ثانية . وان ما حدث فى الاعوام التالية ؛ بل وأكثر من ذلك ، ما حدث فى عامى ١٩٣٧ و١٩٣٨ وما زال يحدث حتى اليوم ، ليبين لنا أنه لم يقل الا الصدق الصراح . فلقد تجددت فى فلسطين كل الأخطاء والأفعال الشنيعة التى غذت النقمة الأبدية فى ايرلندة ، والتى كان من نتيجتها سفك الدماء ونشر الخراب بلا جدوى . والأمر اليوم يكاد يكون كأنما قد تذكرت هذه السابقة الايرلندية – وهى أبعد شىء من أن تؤخذ فى حسبانهم كنذير – على أنها مثل ثمين من أمثلة النجاح فكررت فى فلسطين بكل امكان ومثابرة ، وبأدق التفاصيل .

بيد أننا اذا كنا نذكر هنا هذه المحاكاة لأسوأ السياسات طرا فانما نذكرها لنؤكد حقيقة واحدة ؛ ألا وهى أن فلسطين بلد لا متسع فيه للسياسات السيئة ؛ بل وهو أقل اتساعا لها من ايرلندة . انها مكان صغير جدا .

وهناك ميل طبيعى الى تصور الضخامة الروحية للديار المقدسة ضخامة جسمانية أيضا ، والى الحاق مساحات شاسعة من الأرض بالمحلة التى فتح فيها ميلاد المنقذ آفاقا جديدة للجنس البشرى . بيد أن المسيحية ، شأنها شأن مؤسسها ، قد ولدت فى مسكن ضيق . ان فلسطين أقرب فى الحجم الى مقاطعة منها الى قطر : خذ مقاطعتين كيوركشاير

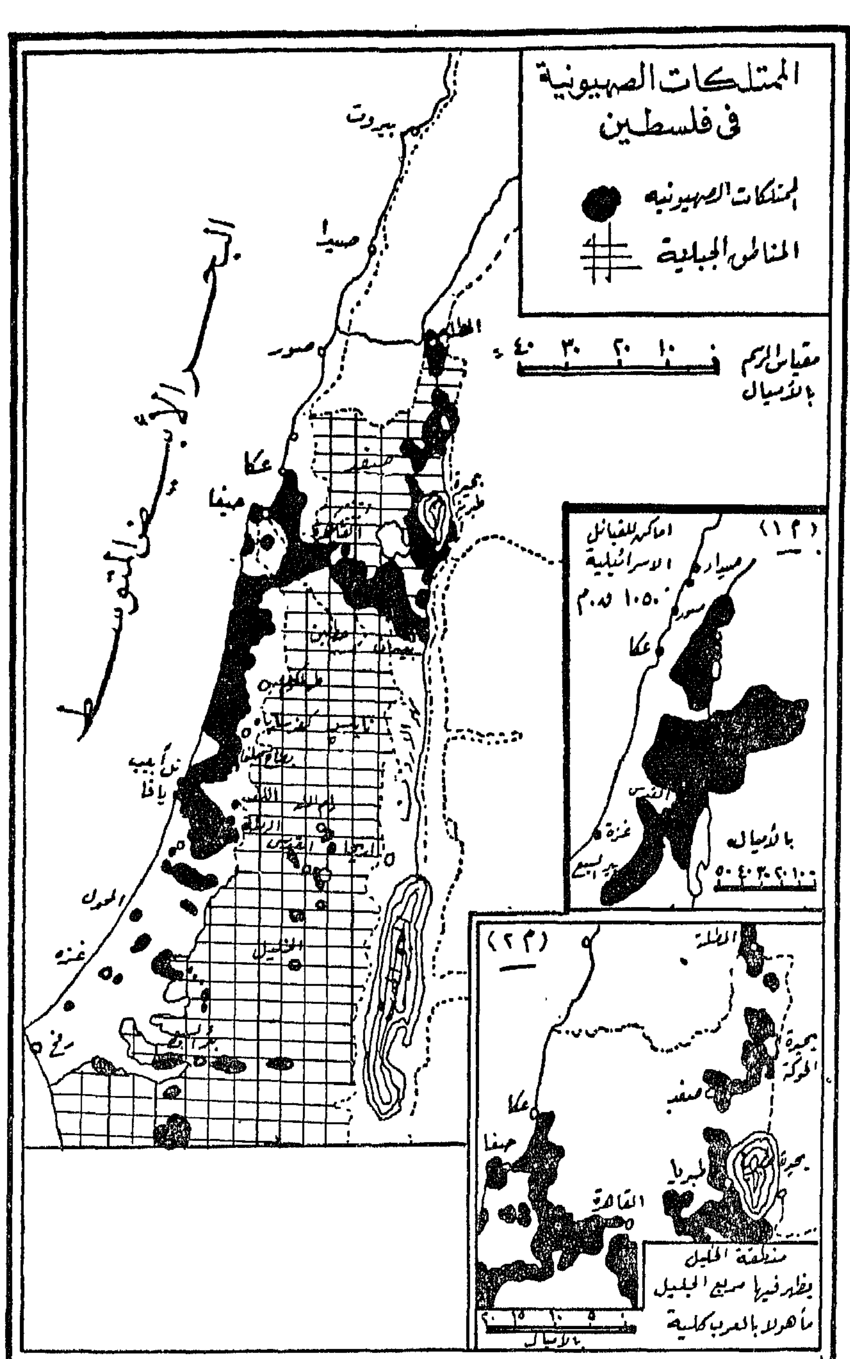
تجـــد أمامك مســاحة فلسطين ٠ ولا تبلغ يهـــودا ، من بين تقسيماتها (القديمة ــ المترجم) ، الا حوالى مساحة نورثمبرلاند ٠ ولا يبلغ الجليل ، ولا السامرة ، فى حجميهما حجم مقاطعه سومرست ٠ وأنا أقدم هـذه المقارنة دونما اشارة الى عدد النفوس التى كانت تعيش فى هذه المناطق٠ واذا كان لنا أن نأخذ فى الاعتبار المناطق المأهولة وحسب ، فان فلسطين التقليدية تتضاءل أكثر وأكثر عند المقـــارنة بمقاطعات انكلترا المزدحمة بالسكان ٠ لقد كان نصف يهودا فى عصر استقلالها قفرا بلقعا ٠ فلم يكن الجزء المأهول منها فى مثل حجم مقاطعة ولتشاير ٠

ان طول فلسطين من دان الى بئر السبع يبلغ مائة وثمانين ميلا ؛ أو قل المسافة بين لندن واكزنر أو هال ٠ وان أقصى ما يبلغه عرضها هو سبعون ميلا ٠ الا أن عرضها حتى حوالى منتصف امتدادها يندر أن يزيد عن خمسين ميلا ؛ من نهر الأردن حتى البحر ٠ وهى ذات المسافة بين بيرويك وأدنبره ٠ زد على ذلك أنها لا تبلغ فى طولها المسافة بين ليفربول وشفيلد ٠ ويسجل دين ستانلى قائلا : « يكاد الناظر من كل نقطة مرتفعة فى البلاد أن يرى عرضها كله ؛ ابتداء من سلسلة جبال مؤاب الطويلة فى الشرق حتى البحر الأبيض المتوسط فى الغرب » ٠

وفلسطين حسب لغة الأطلس ليست فى الحقيقة الا أكبر قليلا من غرزة ابرة فى عباءة آسيا الفضفاضة ٠ وليس حجمها الضئيل بمقيـاس لأهميتها ٠ بيد أننا حين نقرأ تاريخها فى كتاب العهد القديم ؛ حين نقرأ عن ملوكها وممالكهم ، لا نقرأ فى الحقيقـــة الا تقاويم محلية ٠ وينبغى ألا يغيب عن البال أن التقاويم المحلية توسع بصورة أوتوماتيكية الرقعة التى تؤرخ لها ٠ انها أشبه شىء بنظارات القراءة أو بالمجاهر التى تضخم الأشياء بصورة تخرجها كثيرا عن أبعادها الحقيقية ٠

والسبب فى تأكيد هذه المبالغة فى تضخيم رقعة فلسطين المتناهية فى الصغر ، على هذا النحو ، هو أن كثيرا من الأحاديث عن توطين أعداد كبيرة من المهاجرين فيها قد ألقيت جزافا ٠ بل ولقد اقترح توطين الملايين منهم فيها ٠ وهو توطين لا يمكن تحقيقه الا اذا حولت البلاد الى شىء أشبه بواحد من تلك الصناديق التى يستنبت فيها المستنبت الخبير الأشتال المتلاصقة بقصد بيعها ، الا اذا كان يمكن زرع كل انسان فيهـا بالصورة نفسها التى يتهيأ له بها تربته بصورة اصطناعية ٠

وليست فلسطين ، مع ذلك ، رقعة متناهية فى الصغر فحسب بل انها لم تكن فى أى يوم من الأيام وحدة ادارية حقيقة ٠ ودليلنا على ذلك



الممتلكات الصهيونية
في فلسطين
الممتلكات الصهيونيه
المناطق الجبلية
مقياس الرسم
بالأميال
٠ ١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠
البحر الأبيض المتوسط
بيروت
صيدا
صور
عكا
حيفا
يافا
غزه
رفح
(م ١)
اماكن للقبائل
الاسرائيلية
١٠٥٠ ق.م
صيدا
صور
عكا
القدس
غزة
بالأميال
(م ٢)
المطلة
بحيرة الحولة
صفد
عكا
حيفا
بحيرة طبريا
الناصرة
منطقة الجليل
يظهر فيها مربع الجليل
ما هولا بالعرب كلية
٠ ٥ ١٠ ١٥ ٢٠
بالأميال

حدودها غير الثابتة . فحدها الشمالى هو حد اخترع فى عام ١٩٢١ نتيجة لمعاهدة انجليزية فرنسية ، تمثل فيها خطوط المواصلات الحديدية الاهتمام الأول . ولقد مكن هذا الحد الاصطناعى والذى يفصل منطقة الانتداب البريطانى عن منطقة الانتداب الفرنسى ، من اجراء حسابات لأول مرة لمساحة سطح فلسطين ؛ أو بالأحرى لمساحة سطح فلسطين التى أنشئت على هذا النحو .

ولم يستطع أحد ، فيما سبق من أزمان ، أن يقول لنا من أى نقطة من الشمال تبدأ والى أى مدى نحو الشرق تمتد . كما لم يكن مختلقو « الوطن القومى » وأبطاله أنفسهم يعلمون عن يقين حدود الأرض التى سيقام فيهـا . وهاك لسان ناطق باسمهم . انه نشرة كتيبية أسموها فلسطين وهى لسان حال معترف به لقضيتهم فى انجلترا . وكان المستر سايدتام ، الناشر المعروف ، مؤسسها ، وكان هو وأشـياع الصـهاينة الرئيسيين الآخرين من غير اليهود مغرمين بالاسهام بأقلامهم فيها . وحين نشأت مشكلة الحدود لأول مرة ، كانت فلسطين هذه واضحة تمام الوضوح بصدد فلسطين تلك ، فقالت : « ان فلسطين لم تكن وحدة سياسية قط الا لفترات قصـيرة جدا ، ولا يكاد أى تعيين لحدودها الجغرافية يتفق مع التعيينات الأخرى فى التفاصيل . »

وجاء فى التقرير الرسمى للجنة شو الذى صدر فى عام ١٩٢٩ أن « فلسطين اذا نظر اليها على ضوء تاريخ القرون الستة الأخيرة ، على الأقل، تصور مصطنع » .

وأوضح من هذا ، البيان الذى صدر عن المرجع الأساسى فى المملكة، فى مسائل الحدود وجميع الخصائص الاقليمية الأخرى للدول ألا وهو وزارة الخارجية . لقد أعلنت الدائرة التاريخية من وزارة الخارجية فى كتيبها الذى أصدرته قبل الحرب ليهتدى به موظفو السلكين القنصلى والدبلوماسى أن « التعبير الحديث الدارج ، فلسطين ، ليس له معنى دقيق ، لكنه يؤخذ أحسن ما يؤخذ على أنه مرادف لسورية الجنوبية » .

وينبغى على القارىء أن يجعل من همه ألا تغيب هذه التصريحات عن باله . والسبب فى هذا هو أن الناس قد درجوا منذ أيام الحرب (العالمية الأولى) على اطلاق لفظة « سورية » على الجزء الشمالى وحده من البلاد ، حتى أصبحت لديهم عادة . أو بمعنى آخر تطلق لفظة « سورية » على منطقة الانتـداب الفرنسى ابتداء من صور حتى الحـدود التركية كما لو كانت فلسطين لا تدخل ضمنها .

وهذا مجرد خداع · وهو خداع سمج فى هذه الحالة اخترع عند نهاية الحرب الأخيرة لتكريس تجزئة سورية الى قسمين ، ونفذ ظلما وعدوانا وفقا لمصالح الدولتين المنتدبتين المعنيتين فى أيام معاهدة فرساى·

وقد كانت سورية ، قبل ذلك بزمن طويل ، ومنذ أقدم عصور التاريخ القديم ، ينظر اليها على أنها وحدة طبيعية واحدة وتشمل فلسطين · فقد كتب هيرودوتس قبل ميلاد المسيح بأربعة قرون فقال : « ···· ويعرف هذا الجزء من سورية باسم فلسطين · » وقبل ألفى سنة « خرج يوسف من الجليل من مدينة الناصرة الى أرض يهوديا ، ، الى مدينة داود المسماة باسم بيت لحم ···· ليعقد له على مارى زوجته التى كانت حاملا « تنفيذا لقرار محلى » صدر عن كايدنيوس حاكم سورية · وهكذا تعرض لنا سورية ، خلال القرون التالية ، باعتبارها البلد الذى يشمل كل الساحل الذى يقع على الطرف الشرقى من البحر الأبيض الموسط ، والى أيامنا الحاضرة ·

وما على الانسان الا أن يلقى نظرة على أى كتاب من كتب التاريخ أو الجغرافيا الحديثة الصادرة قبل الحرب ليرى أنها مدونة كذلك :

ان سورية (يقول مايكلجون مثلا) شريط طويل من البلاد الجبلية العالية تمتد من شبه جزيرة سيناء الى خليج الاسكندرونة فى خط يكاد يكون مستقيما · وهناك مقاطعة صغيرة فى جنوبها تسمى فلسطين أو الديار المقدسة ·

أما حدودها المحددة تمام التحديد فيقول جورج آدم سميث انها « البحر من ناحية الغرب والصحراء من الجنوب والشرق ، وجبال طوروس من الشمال ، وتعطيها هذه الحدود وحدة معينة وتفصلها عن بقية العالم · واذا لم تكن قد أصبحت بلدا منفردا بعد ، فان من الواضح أنها ننتظر أن تصبح كذلك · »

واذا ما نظرنا الى الخريطة ، وأفضل أن تكون خريطة من خرائط ما قبل الحرب ؛ قبل أن يبدأ لف ودوران المعاهدات ، فسترى أنها أشبه بعنق تحت ذقن آسيا الصغرى النابىء ، وأنها تسد الطرف الشرقى للبحر الأبيض المتوسط ، وأن قاعدة هذا العنق تبرز من حدود مصر الصحراوية على مبعدة مائة وعشرين ميلا من قناة السويس ·

وقد يظن أن الاسم « سورية » تحريف لكلمة « آشوريا » لكن العلماء يرفضون هذا الاشتقاق ، ويقولون أنها تنحدر من الكلمة البابلية الأقدم،

من كلمة « سورى » وهى كلمة استخدمت قبل ثلاثة آلاف سنة من مجىء المسيح • وقد دخلت هذه الكلمة اللغات الحديثة من اللاتينية • ولم تكن توجد فى العربية أصلا وانما اتخذت طريقها اليها • وان ما يدعونا الى قول هذا الكلام سبب له أعمق الدلالة • ان سورية تسمى فى العربية القديمة « الشام » وهى تعنى « الشمال » (بكسر الشين) وأهمية هـذا الاسم ودلالته يؤكدهما اطلاقه على المدينة الكبرى فى هذا البلد • ان دمشق ، كما نسميها نحن ، يطلق عليها من قبل سكانها اسم « الشام » • والناطقون باللسان العربى اليوم ، وبخاصة فى مصر ، يسمون سورية فى أغلب الأحيان بـ « بر الشام » أو « أرض الشمال » •

أما الكلمة المرادفة لكلمة (right) فى العربية فهى « اليمين » (أو Yemen كما نلفظها نحن) وهى الكلمة التى تستعملها للدلالة بها على الطرف الجنوبى الغربى من شبه الجزيرة العربية ، لكن العـالم الغربى يستخدمها كذلك للدلالة على معنى أوسع ، مطلقين اياها على عموم شبه الجزيرة بوجه عام • وقد جرى عرف العرب على تسمية شبه الجزيرة العربية بميمنتهم وعلى تسمية صدر سوريا بميسرتهم مدللين بذلك منـذ القدم على أن هاتين الأرضين هما جناحا الجسم العربى اللذان لاينفصلان •

وهكذا فاننا نجد فى الاسم العربى للبلاد فى حد ذاته ـ والأتراك يسمونها « عربستان » ـ دحضا متأصل الجذور للصفة التى يحاول بعض ساستنا لأغراضهم الخاصة أن يلصقوها بهذه البـلاد • لكم يطيب لهم أن يظن الناس أن سورية نوع من الأرض المشاع ، مليئة بالألغاز والمعميات ، لا تكاد تحمل اسما ، وغير معلومة الحـــدود ، ولا تكاد تستحق الذكر ، وأدنى فى المرتبة من فلسطين • ان الجزء فى نظرهم ، ولا غرابة ، أكبر من الكل •

انهم حتى لم يتورعوا عن تبرير هذا الاثم فى حق الجغرافيا باثارة مسألة قداسة فلسطين ليفصلوا منها حججهم • فقالوا وبالمهارة نفسها فى خلط القيم الأخلاقية بالقيم الســياسية والطبيعية ان فلسطين لم تكن « مجرد مقاطعة عربية » بل أكبر مكان فى العالم ينشر ظلاله على كل ما حوله من أماكن • انها قطعة براقة فريدة من فنون الدعاية حقا • فاذا كان لبيت لحم أن تكون مجرد مدينة فى « مجرد مقاطعة عربية » متواضعة فستكون بيت لحم منسجمة مع روح بيت لحم • ان قيمة فلسطين القدسية تسد الطريق على هذه القيمة السياسية التى يحاول هؤلاء الساسة أعينهم أن يلصقوها بها : « ان مملكتى ليست من هذا العالم » •

لا ، انها سورية ، وليست فلسطين ، تلك الوحدة الحقيقية التى نستحق الاعتبار • وسورية ، وفى صدرها فلسطين ، أرض من أراضى العرب ، يقطنها العرب منذ ثلاثة عشر قرنا ويتقاسمون العيش فيها فى السراء والضراء • انها الشام ذلك الجناح الأيسر من كيانهم ؛ ذلك النصف بعينه من أنفسهم •

الا أن هذا ليس كل الحقيقة • ان هذه الحقبة الشاسعة من ثلاثة عشر قرنا ليست الا الحقبة الحديثة العهد من استيطانهم للبلاد منذ عهود لا يعيها التاريخ • وقد أمسكوا بناصيتها لهذا المدى الطويل ك « عرب » • وهى بالضبط ثلاثة عشر قرنا منذ أحرز آباؤهم الأقدمون النصر المؤزر على ضفاف اليرموك على الامبراطورية البيزنطية التى كانت قد خلفت الرومان فى السيطرة على هذه البلاد • لكن القادمين الجدد الذين تدفقوا على هذه البلاد آنذاك انصهروا مع سكانها الأقدمين لدرجة أن عرب اليوم فى فلسطين لا يمثلون مجرد جنس فاتح ولكنهم سلائل تلك الشعوب التى عاشت فيها قبل الاسرائيليين • اننا نسميهم « عربا » ولكنك لابد وأن تجد فى خضم بحر جنسهم العظيم ، الذى يمتد من الاسكندرونة الى مكة وما بعدها ، كثيرا من الأعراق • وان جذورهم فى هذه الأرض هى تلك الجذور التى نشأ منها التاريخ فى حد ذاته •

وما من شك أنها مفاجأة كبيرة بالنسبة للقارىء المتوسط أن يعلم أن العرب أسبق من اليهود فى سورية • وأن الجهل بهذه الحقيقة ، الجهل الشائع لدينا ، هو فى الواقع سند تعتمد عليه منصة الدعاية الصهيونية السياسية •

بيد أن اسم البلاد فى حد ذاته يجلو لنا صفتها غير اليهود • ف « Palestine » ؛ هذه الكلمة التى أخذناها عن الاغريقية واللاتينية ، هى صورة محرفة للكلمة العربية « فلسطين » التى تعنى « مؤمل فلسطين » • وفى كتاب العهد القديم يستخدمون هذه الكلمة بأشكال مختلفة فى أماكن متفرقة منه : « لا تفرحى يا جميع فلسطيا (Philistia) لأن القضيب الضار بك انكسر فانه من أصل الحية يخرج أفعوان وثمرته تكون ثعبانا ساما طيارا ••• ولول أيها الباب • اصرخى أيتها المدنية • قد ذاب جميعها يا فلسطيا • (سفر اشعيا • الاصحاح الرابع عشر • الآيتان ٢٩ ، ٣١ ؛ ، يسمع الشعوب فيرتعدون • تأخذ الدعوة سكان فلسطئيم (Philistiim) • حينئذ يندهش أمراء أدوم ، أقوياء مؤآب

تأخذهم الرجفة ، يذوب جميع سكان كنعان • (سفر الخروج • الاصحاح الخامس عشر • الآيتان ١٤ ، ١٥) •

وفى النص الذى سقناه من سفر الخروج تظهر كلمة « كنعان » • ويقول البروفيسور ت• هـ• روبنسون الحجة المعتمدة فى هذا الخصوص، فى كتابه تاريخ اسرائيل ان الاسم « كنعانى يستخدم فى بعض الأحيان كلفظ له طابع الشمول يميز سكان فلسطين الذين سكنوها قبل الاسرائيليين ••• ويبدو أنه يشمل الفينيقيين » • وهكذا فان الاسم الذى سبق الاسم « فلسطين » بكل أشكالها اللفظية ، أو الاسم الرئيسى بين أسمائها السابقة هو الاسم « كنعان » • وهذا الاسم أو الكلمة مازال حيا الى الآن كاسم العائلة لدى بعض العائلات من أهل البلاد الذين لم يتحولوا الى الاسلام • وانها لضربة نافذة من ضربات التاريخ التى تصيب وتعود الى يد صاحبها أو ما يسميه الفرنسيون ب « انقلاب الأشياء » ، أن يكون أحد عظماء الأكفاء من العرب الذين شهرون أقلامهم دفاعا عن حق شعبهم هو الدكتور ت • كنعان •

ويقول سفر التكوين ان « حدود كنعان تبدأ من صيدون حتى يصل الانسان القرارة ، بل والى غزة • » ويمتد السهل المثمر الساحل فى الواقع من جنوبى صور وصيدا مارا بحيفا فالكرمل حتى يصل الى حدود مصر • وكانت فروع مختلفة من السكان الكنعانيين تقطن المناطق المرتفعة فى داخل البلاد • وكان من بين هذه الفروع فرع الجيبوزيين الذى كان يسكن القدس • ويقع مكان مدينتهم خارج أسوار المدينة الحالية •

ويعلن أستاذ كبير هو السير جيمس فريزر قائلا : « ان من رأى الفقهاء الأكفاء أهل الخبرة والمعرفة أن فلاحى فلسطين الناطقين بالعربية أخلاف للقبائل الوثنية التى كانت تعيش هناك قبل الغزو الاسرائيلى ، وظلت أقدامهم ثابتة فى التربة منذ ذلك التاريخ ، وتوالت عليهم موجات الفتح المتعاقبة التى طغت على البلاد دون أن تحطمهم • »

ويقول السير رتشارد تمبل انهم « الأخلاف الأصلاء للكنعانيين الذين ورد ذكرهم فى التوراة ؛ أنهم أخلاف الجيبوزيين والعموريين • ولابد أنه كانت لهم شخصيتهم الخاصة الأصيلة ، وكان لهم شكلهم النابت من أشكال المجتمع • وقد يكون نظامهم قد تهدم بفعل الغزو اليهودى ، لكنهم، كما سيذكر قارئو تاريخ التوراة ، لم يخضعوا أبدا للنفوذ اليهودى ، بل أنهم على العكس من ذلك ، قد جعلوا القومية اليهودية فى كثير من الأحيان تحس بقوة أثرهم احساسا ينذر بالكارثة • وقد لا يكونون تحولوا الى

المسيحية بأعداد كبيرة فى أيامها الأولى . انهم بالاختصار قد أقاموا على عبادتهم القديمة للأوثان حتى جاء محمد . ثم تحولوا الى الاسلام بحد السيف قبل حوالى ألف ومائتى عام ، وظلوا على هذا الدين الى يومنا هذا..... انهم يفلحون الأرض كفلاحين ملاك فى الدرجة الأولى ، ويخضعون مباشرة للموظف الرسمى التركى المكلف بجبايه ضريبة الأملاك (كتب هذا الكلام فى عام ١٨٨٨) . ولهم حقوق واسعه فى الرعى ، وفى المراعى التى يدفعون عليها ، جميعا ، ما هو مفروض عليهم من مال للاتراك . ويطلق عليهم الاسم ذاته الذى يطلق على اخوانهم من الرعايا فى مصر .. « فلاحون » . وهم يفلحون حقولهم ويدفعون الضرائب للأتراك صابرين ، كما كانوا يفعلون مع المماليك ، ومع العرب ، ومع الرومان ، ومع الفرس ، ومع الآشوريين تماما — وربما فعلوا ذلك مع اليهود أيضا . ولابد أنهم بعد الفتح اليهودى قد أصبحوا يفلحون أراضيهم تحت اليهودى كملاك . وربما كانوا يقومون بأعمال الحقل حتى لو اشتغل اليهود فى الكرم والبستان .

والكنعانيون والجيبوزيون والعموريون ، الذين يتحدث السير رنسارد عنهم ، ثلاثة أجناس من سبعة محلية سكنت البلاد قبل مجىء اليهود « طبقا للأحاديث المتناقلة التى يرجع تاريخها الى النصف الأخير ، من القرن السابع على الأقل ، قبل الميلاد » (عن روبنسون) بيد أن الكنعانية صفة تشملهم جميعا أكثر مما عداها . وكان العموريون والحيثيون أهم الأجناس الأخرى ، وبخاصة العموريين الذين كانوا يشغلون الأراضى الواقعة الى الجنوب من مرج ابن عامر . أما الحيثيون فكانوا يسكنون الى الشمال منهم ، ويرى البروفسور روبنسون أن العموريين قد جاءوا الى البلاد من شبه الجزيرة العربية فى زمن لا يقل عن بداية الألف سنة الثالثة التى سبقت ميلاد المسيح . « لقد انصهروا انصهارا تاما مع من سبقوهم لدرجة أن هويتهم الخاصة قد ضاعت فى معظم المناطق » . وقد كانوا يمثلون الطراز السامى الحقيقى وأورثوا ملامحهم الى أخلافهم العرب .

فياله من حق من حقوق الملكية هذا الذى نجد اليوم سعيا وراء تحطيمه ! حق احتفظ به بطريق بسيط صدوق دءوب منذ خرج الانسان من غياهب المجهول ، وربما كان أبسط وأوضح حق من حقوق الملكية فى العالم . أما الاسرائيليون ، الذين ندنس أنفسنا بهذه العملية القذرة من أجل خاطر جزء من خمسة وثلاثين جزءا من أخلافهم ، فقد دخلوا هذه البلاد على شعوبها المتأصلة فيها فى تاريخ لا يمكن تحديده بالضبط . « ان الميل العام للتواريخ التى بين أيدينا يميل الى صالح اعطاء الفتح

(اليهودى ـ المعرب) تاريخا فى القرن الرابع عشر (قبل الميلاد) ، بيد أن مجال التخمين هنا ضيق ٠ » (عن روبنسون) ٠

فالاسرائيليون ، على هـــذا الأساس ، قد دخلوا البلاد بعـد ألف وخمسمائة عام من مجىء العموريين اليها ، أو نحو ذلك ٠ وكانت المدن الفلسطينية فى السهل الساحلى قد قامت فى ذلك الحين قبل قرن أو قرن ونصف ٠ وقد دخل الاسرائيليون تلك البلاد مسالمين ، وبأعداد صغيرة ، ثم حملوا السلاح ، وبدأت الغارات المدونة فى كتاب العهد القديم ٠

وهذه مسائل موغلة في القدم بيد أن من الضرورى أن تعالج على نطاق ما ، قبل أن نتحول الى الأحداث الحاضرة ٠ والسبب فى هذا هو أن صهاينة اليوم قد أدخلوا فلسطين بحجة امتلاك أسلافهم لهـا ٠ وان من المناسب أن نختبر ونمحص هذا الادعاء ، فى جزء منه على الأقل ، فى الوقت الذى سنحت لنا فيه أول الاحصائيات عن هذه البلاد ٠

ان الجزء المتعلق بهذه المسألة من صك الانتداب على فلسطين يعلن أنه ، من خلال تأسيس هذا الانتداب فى حـــد ذاته ، ومن خلال الصفة الخاصة التى يحملها :

> **قد جرى ثمة الاعتراف بالرابطة التاريخية التى تربط الشعب اليهودى بفلسطين ، وبالأسس الموضوعة لاعادة بنـــاء وطنهم القومى فى ذلك البلد ٠**

« الرابطة التاريخية » ٠٠٠ أى ذلك الشىء الذى يستخدم لتبرير اقامة الوطن القومى ولتبرير كل ما نتج عنها حتى الآن ٠ وهناك نقطتان يمكن أن تناقش منهما هذه الرابطة :

١ ــ لماذا يكون للرابطة التاريخية الغابرة أن تمنح لأحد من اليهود أى حق فى بلاد بعد زوال السلطة اليهودية منهـا بثمانية عشر قرنا ونصف قرن ؟ ٠

٢ ــ اذا كان للرابطة التاريخية الغابرة أن ينظر اليها على أنهـا تمنح حقوقا ، فماذا كان نوع هذه الرابطة التاريخية بالأرض التى سيقام فيها هذا الوطن القومى ؟

ان النقطة الثانية تشمل النقطة الأولى حقا ، لأن أية قيمة قد تكون لهذا الزعم القائل بأن فلسطين ارث شرعى لليهود لابد أنها ستتأثر بدرجة كبيرة بصفة احتلالهم لها حين كانوا فيها ٠ بيد أنه لا شىء يناقض هـذا

الاطلاق لليد الذى منح للصهاينة فى البلاد المقدسة كهذا الاستخفاف التام بهذه النقطة من قبل أولئك الذين كانوا مسئولين عن اعطائهم هذه الاطلاق لليد . لقد ترك كل شيء له علاقة بـ « الوطن القومى » فى أقصى حالات الغموض والتعمية من قبل أولئك الساسة الذين هندسوا عملية انشائه ، عامدين متعمدين .

ان كلمة واحدة لم يتفوهوا بها ليكشفوا أى مرحلة ، من مراحل الماضى اليهودى المتباين جدا فى فلسطين ، تلك التى سيجدد الصهاينة بناءها . وأغلب الظن بالطبع هو أن « دول الحلفاء الكبرى » ؛ التى خرجت زمرتها المنعقدة حول مائدة مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠ بفكرة انشاء « الوطن القومى » كالتزام من التزامات الانتداب ، لم تكن تعلم شيئا عن هذه المراحل ولا تأبه بشيء يتعلق بها . ولست أميل الى الاعتقاد بأن دول الحلفاء الكبرى ، فيما يتعلق بوجودها لحما ودما فى سان ريمو ، لها علم بالأسفار المقدسة أن قرأت أى شيء منها ، اللهم الا ذلك القطاع الهام من هذه الدول الكبرى الحليفة الذى جاء من كريسيبيث فى شمالى ويلز . لقد حرصت هذه الزمرة السياسية بلسان المتحدث باسمها فقالت : « لقد تربيت فى مدرسة تعلمت فيها عن تاريخ اليهود أكثر بكثير مما تعلمته عن تاريخ بلادى أنا . وفى وسعى أن أخبركم بجميع ملوك اسرائيل ولكنى أشك فى قدرتى على أن أسمى لكم ستة من ملوك انجلترا ... لقد تشبعنا كل التشبع بتاريخ الجنس العبرى فى أيام أعظم أمجاده . »

ويبدو أن المستر لويد جورج قد تشبع بالكثير جدا من هذا المجد الأعظم بحيث لم يترك له تشبعه هذا ، أو لزملائه ، فرصة يتسرب فيها أى تحديد جغرافى لهذا « الوطن القومى » الى أذهانهم . ومع ذلك فيخيل الى أنه كانت هناك حاجة واضحة كل الوضوح الى مثل هذا التحديد ، لأن ممتلكات اليهود ، فى الفترة الواقعة بين أيام يوشع وبين أيام النصر الرومانى النهائى بقيادة طيطس ، قد تمددت ثم انكمشت ، شأن الكونسرتينا فى حفلة موسيقية . وقد خرجت من قبضة اليهود تماما ردحا كبيرا من الزمن . وهكذا كان لابد وأن تبدو الخطوة الأولى الضرورية اللازمة ، لكى نعيد انشاء هذه الممتلكات ، أن تكتشفها وتعين حدودها .

ومع ذلك فقد تقرر ، فى سان ريمو ، أو على طريقة الدول المتحالفة الكبرى ، على الأرجح ، شيء غير هذا ... لقد تقرر ألا يعار هذا الأمر

---

* يقصد المؤلف مسقط راس المستر لديد جورج . (المعرب)

التفاتا ؛ عن عمد وسبق الاصرار • لقد ترك للصهاينة أن يعيدوا البنـاء أينما حلا لهم الى الغرب من نهر الأردن • وهذا برهان ساطع على أصالة الصفقة •

بيد أن هذا يجعل من الضرورى ، بالنسبة لأى انسان يحاول أن يدرس هذه المسألة بصورة جدية ، أن يعير بعض الاهتمام الى اتساع وفترة بقاء الامتلاك اليهودى الاقليمى فى فلسطين • ولأن يقول الانسان انه كان امتلاكا سريع الزوال فقد يعد هذا القول تحديا لكل الأعراف • لكن هـذا هو الواقع • لقد كان هذا الامتلاك قصير العمر ضيق الرقعة • ان شيئا كامتلاك اليهود لما نسميه بفلسطين لم يكن له وجود الا فى عهـدى داود وسليمان • وبعد ألف وثمانمائة عام من ذلك أعاد المكابيون بناء الدولة اليهودية التى اندثرت مع سليمان • لكنها انما عمرت لفترة وجيزة من الزمن ، ربما تكون قد بلغت فيهـا أبعادها التى كانت عليها فى عهـدى داود وسليمان •

وقبل داود ، كان الوطن الاثنتى عشرة قبيلة ، الذى تم على يدى يوسع ، وطنا مجازيا بحتا • « لقد عين يوشع رقعة لقبائل لم تستطع أن تملأها • » (عن بيللوك من كتابه أرض المعركه) أما الأبحاث التى أجريت على التـوراه فهى تنكر حكم القبـائل وسيادتها • فيقول البروفسور روبنسون : « توجد فى الاصحاح الخامس من سفر القضاء محذورات لها دلالتها • فمن بين القبائل الأربعـة الكبرى التى تنتسب الى ليئة ذكرت قبيلة ريوبين فقط • وان الدلائل المتوفرة لدينـا لتذهب الى القول بأن قبيلتى شمعون وليفى قد اختفتا فى زمن أسبق • » ويقول كذلك : « تقول لنا الآية التاسعة عشرة من الاصحاح الأول من سفر القضاة (وكان الرب مع يهودا فملك الجبل ولكن لم يطرد سكان الوادى لأن لهم مركبات حديد) أن الأراضى الواطئة لم تؤخذ • » أما قبيلة يهودا فلم تدرج ضمن القبائل المنتصرة المذكورة فى نشيد ديبوراه فى آخر الاصحاح الخامس من سفر القضاة • « وليس لنا الا أن نفترض أنها لم تكن قد اعترف بهـا اعترافا كاملا على أنها قبيلة اسرائيلية • » « بل وان التاريخ الباكر بقبيلته يهودا لهو أكثر غموضا من تاريخ معظم القبائل الأخرى ، ولا مفر لنا من الانتظار الى أن تجىء أيام داود ، قبل أن يتوفر لدينا أى دليل لا تخطىء فيه العين، على وجودها وعلى وعيها لذاتها •

أما القبائل التى ذكرت على أنها تسكن فى الشاطىء فقد كانت فى حال من التبعية وليس هناك أى دليل يشير الى أنها كانت تقطن هناك بأية

أعداد كبيرة · وكانت المدن الساحلية تبسط سلطانها على سهل مرج ابن عامر · « وكانت الوصاية فى بعض الأحيان فعـــالة وصارمة لدرجة أنه كان ينكر على اسرائيل حق استخدام الطرق الرئيسية كلية ، فكان يتحتم على رجال القبـائل أن يتسللوا عن طريق الطرق الفرعية التى لا تطرق كثـيرا ، والممرات والمســارب الملتوية ، من مكان الى آخـر اذا أرادوا أن يجتازوا الأراضى المحرمة · » (عن روبنسون) ·

وحين أقام شاؤول مملكته لم يستول أبدا على سهل مرج ابن عامر، وكان فى الواقع غير متمـكن من سـيطرته على تلاله لدرجـــة أنه كانت للفلسطينيين قلعة تشرف على وادى الأردن · وليس هناك دليـل على أن داود نفسه قد استولى على سهل مرج ابن عامر ··· ليس هناك من دليل مباشر · وأقرب الدلائل هو الدليل الذى تزودنا به الحفريات الحديثة التى اكتشفت آثارا تدل على أن مكان بيتشين (أو بيت شين) القوى قد دمر بالحريق قرابة عام ١٠٠٠ ق·م · ومع ذلك فان من الواضح استنتاجا أنه لابد وان كان هذا السهل مفتوحا لداود ، لأنه كان يشكل ملتقى الطرق الى ممتلكاته الواقعة حـوله · وقد يكون سيطر عليه بنـوع من الحـكم المشترك مع المدن الفلسطينية · لقد توصل فى أوج حكمه ، وبعد قتـال مع الفلسطينيين الى أن تقوم بينه وبينهم علاقات طيبة لدرجة أن قواته الشخصية أو حرسه الخاص كان يختار فيما يشبه الضيق الأجنبى من هؤلاء الجدود للعرب · « كانت لداود على الأقل نواة لجيش دائم ، بالاضافة الى جيشه القومى الذى يجنـد بالقرعه · وان مما يدعو الى الاهتمام أن نلاحظ أن القـوة الأساسية لهــــذا الجيش الدائم كانت تســــتمد من مصادر أجنبية ، لأن الشريطيين والبليطيين كانوا فلسطينيين على وجه اليقين ، ولم يكونوا يشكلون عماد قوة داود الشخصـية فحسب بل ان وجودهم فى صفوف جيش داود قد ذهب الى مدى تنصيبه على العرش · لقد كانوا بالنسبة لداود كمـا كان الحـرس البريتورى بالنسبة للأباطرة الرومان · » (عن روبنسون) ·

ولما كان داود يشكل مرتكزا وأساس المزاعم الصهيونية ؛ لما كان ينظر اليه ، كما هو الحال ، كجد للصهيونية المعاصرة ، فيجب أن تعطى للعرب الرابطة نفسها بين الأمس البعيد وبين اليوم · لقد حكم هذا المرتكز للمزاعم الصــهيونية بمعاضدة الفرسان العرب · ولقـد أسـهم العرب بالنصيب الأكبر فى اعطاء العرش لسليمان ·

وان أثر هذه الاعتبارات لا يحتاج الى توكيد • ولكن اذا سلمنا جدلا، وبدون الاسترسال فيها ، بأن داود قد نجح فى بسط سلطانه على مرج ابن عامر ، وأن ابنه خلفه عليه ، فلأى فترة قصيرة من الزمن يختصر هذا فترة الاستملاك الاسرائيلى لفلسطين • لقد حكم داود نحوا من أربعين عاما من تاريخ يقع حوالى عام ١٠١٦ قبل الميلاد • وخلفه سليمان وحكم مايماثل هذه المدة • وبعد هذين انهار كل شيء • ولابد وأنه افتضى داود أن يصرف جزءا لا بأس به من النصف الأول من فترة حكمه لكى يبلغ أوج سلطانه • أما سليمان فقد أخذ يبيع قبل نهاية حكمه أجزاء من ممتلكاته أو يفقدها • فدعنا نسقط عشر سنوات من هذه الفترة ، وهذا هو أقل ما يمكن لنا أن نسقطه عقلا من مجموع فترتى حكم سليمان وداود • وعندئذ يتبقى سبعون عاما •

ولم يحدث الا فى بحر هذه السبعين سنة العجاف أن سيطر على شيء يقرب من ثلثى البلاد • ويكتنف هذا القول الكثير من الشك ، اذ يقول وايد فى كتابه تاريخ العهد القديم : (أغلب الظن هو أن امبراطورية داود لم تلامس البحر الا فى مكان قريب من يوبا (يافا الحالية) • وقد تركت مدينتا صور وصيدا الفنيقيتان الواقعتان الى الشمال من هذه المدينة دون أن يتحرش بهما أحد ، فى حين احتفظ الفلسطينيون فى الجنوب الشرقى من هذه البلاد باستقلالهم بالرغم من أنهم كانوا مضعضعين • »

ويبلور دين ستانلى هذا الوضع حين يقول : « ان فلسطين تعكس الآية المألوفة؛ هذه الآية التى يلجأ فيها أهل البلاد الى التلال حين يغلبون•• لقد قهر اليهود التلال لكنهم أخفقوا فى الاستيلاء على السهول • »

لقد كان لهذه الامبراطورية ، التى عمرت سبعين عاما ، أساس اقليمى ضيق أو كانت لها وحدة اقليمية صغيرة ، اذن • وكان داود فى نطاق حدوده الضيقة ــ هذه الحدود التى يعنيها المستر بيللوك للدولة اليهودية فى أوج خيلائها بقوله : « مائة وعشرين ميلا فى أطول أطوالها وستين ميلا فى أعرض عروضها ، وأقل من ذلك بكثير فى أغلب الاحيان ــ كان شيء أشبه بالملك النمسوى المجرى الذى يتربع على عرش امبراطورية النمسا والمجر فى حين تحارب النمسا والمجر احداهما الأخرى •

وحتى داود قد أنقسد عرشه ، على ما يبدو ، فى مناسبتين حرجتين بأن لعب باحداهما (الشمالية أو اسرائيل والجنوبية أو يهودا) ضد الأخرى • وان مما هو جدير بالملاحظة أنه تلقى ، حين ثارت عليه يهودا ، تأييد القبائل الأخرى ، والعكس بالعكس•

وان من الواضح أن الوحدة المثالية كانت أبعد ماتكون عن التحقق فى حياته ، وأن سياسة سليمان ، التى كانت بعيدة جـدا عن توحيد ودمج عرا الفريقين باحكام ، كانت تميل على الأرجح الى تأكيد الفارق بينهما والى توسيع الهوة الأصلية التى تفصلهما • ولا يكاد يكون مذهلا ، والحالة هذه ، أن يتخذ الجنوب ، حين ضاق الشمال ذرعا بعبء بيت داود ، موقفـا معاكسا فأقام على ولائه لريحوبوعام •

ومنـذ ذلك الحين فصاعدا ، وبالرغم من وجـود احساس معين بالوحدة ضد بقية العـالم ، لم يتبلور هذا الاحساس فيجد له تعبيرا فى تنظيم سياسى واحد • لقد كانت هناك فترات فى تاريخ هـذه المملكة المنقسمة تلافى فيها هذان الجزءان على العمل معـا وبانسجام ؛ ولو أن الشمال كان الشريك السيد ، وفى وسعنا أن نشك فى أن تعاون الجنوب لم يكن عن طواعية كلية • ولايبدو أنه قد وجدت نقطة فى تاريخ مملكة اسرائيل ، منذ قيامها حتى اندثارها ، وضم أراضى مملكة السامرة كمقاطعة ضمن الامبراطورية الآشورية ، دخلت فيها احتمال قيام اتحاد رسمى من جديد فى أذهان الناس • (لقد كان هناك احساس بالقرابة ؛ احسـاس بوحدة الذات ، لكن) الأساس الأساسى لهذا الاحساس بوحـدة الذات لا يكمن فى الانحدار من أصل مشترك بقدر ما يكمن فى الدين المشـترك • لقد كان اليهـودى يقف بمعزل دائمـا عن الافرائيمى •

ويتابع البروفيسور روبنسون قوله ، وهو يستعرض فترة حـكم داود :

ان داود قد جمع ، كما هو الحال ، المواد اللازمة لانشاء مملكة سامية ؛ قد تكون توسعت الى امبراطورية ، ووضع هـذه المواد فى مكانها الصحيح • لكنها كانت تفتقر حتما الى ذلك التلاحم بين السكان الذى يستطيع الزمن وحده أن يوجده • وكانت تحتاج ، لكى تصمد للظروف ، الى سلسلة من حلقات متتابعة من الحكام الذين يحملون بين جوانحهم روحه ويواصلون السير على هديه • لكن الملكين اللذين خلفاه مباشرة كانا مصبوبين فى قالب آخر • وكان من نتيجة ذلك أن سقط الجزء الواقع على تخوم هذه المملكة أولا ثم تهاوى البناء كله عند أول لمسة من اختبار حقيقى •••

لقد وخزت الفقاعة فترك بيت داود وليس في يده الا رقعة ضئيلة وجديبة في حد ذاتها ، يقاسي من استشراء البغي والحروب ٠

أما الى أي مدى انكمنست رقعة هذه المملكة فهذا ما يجلوه لنا مؤرخ آخر هو الدكتور فوكس (Foakes) جاكسون ، من جامعة كمبريدج ، في كتابه يوسف واليهود ، فهو يقول في معرض التعليق على صمت هيرودونس الذى هو « أكثر المنقبين فى جنبات الكرة منابرة وفضولا » ، فيما يتعلق باليهود :

ما يزال صمت هيرودوتس مشكلة بالنسبة للبعض لكن تفسيره بسيط غاية البساطة ٠ لقد كانت مملكة يهودا مقاطعة غاية فى الصغر وكان سكانها من التفاهة فى العدد لدرجة أن أذكى وأبصر السواح فى القرن الخامس قبل الميلاد (القرن الذى عاش فيه هيرودوتس) كان يزور ما كانت تسمى بفلسطين سورية أو بسورية الفلسطينيين وقد لا يسمع عن اليهود شيئا أبدا ٠ ولابد أن القدس كانت فى أيام نحميا «معاصر من معاصرى هيرودوتس» مدينة خاملة الذكر جدا بحيث لا يغرى سكان المدن المجاورة لها بسكناها الا بشق الأنفس ٠ وان مكانا واحدا من الأماكن التى ذكرت فى كتابه على أنها أماكن يهودية لم يكن يبعد عن هذه المدينة بما هو أكثر من عشرة أميال ٠ وان تلك الأيام ، كما يقول النبى ، هى « أيام الأشياء الصغيرة ٠ » والأجدر بالملاحظة من تفاهة اليهود فى فلسطين فى زمن نحميا (٤٤٥ ـ ٤٣٢ ق٠م) هو أن رقعتهم قد ظلت ضيقة ، كما لا يبدو أنهم تكاثروا فى البلاد لما يقرب من ثلاثة قرون ٠ لقد زاد الهيكل من رونق المدنية وبهائها وربما زاد من سكان المدينة أيضا ، لكن اليهود لم يصبحوا قوة فى البلاد الا حوالى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد (فترة حكم المكابيين) ٠ وما من شك أنهم كانوا عديدين فى بابل وفى مصر ٠ أما فى فلسطين فقد كانوا قلة تافهة ٠

ويقول المستر بيللوك فى كتابه ميدان المعركة عن مساحة رقعة اليهود التافهة : « ان أحسن طريقة يمكن الانسان أن يدرك بها الى أى مدى كانت صغيرة هى على هذا النحو : اذا خرج الرجل مع طلوع الشمس من القدس متجها شرقا أو شمالا أو غربا ففى وسعه أن يبلغ أطرافها فى فترة وجيزة من الصباح ٠ انه لا يقطع اثنى عشر ميلا فى أى من هذه الاتجاهات الا ويكون قد خرج من حدود تلك المقاطعة ، أو التى يدعى

رئيس العشـيرة ، أو ذلك الرجل التـافه الشأن الذى يلقبونه « بملك القدس » ، بأنها مملكته ··· انها رقعة صغيرة من منديل مهلهل · »

وان من السهل جدا تأكيد هذه النقطة بايراد نصوص أخرى من مصادر أخرى ، قديمة وحديثة · بيد أن هذه الحقيقة بينة بما فيه الكفاية · ان امتلاك اليهود لفلسطين ، بكل معنى حقيقى من معانى كلمة الامتلاك ، لم يكن فى يوم من الأيام كاملا ، وانه انما ظل فى رقعه داخل حـدودها طوال مدة السبعين عاما · ولقد عمر بما لا يزيد عن عمر الرجل · وكان هذا قبل ثلاثة آلاف عام · أما فى عهد المكابيين فكان هذا أقصر عمرا ··· كان لما يقرب من خمسين عاما على أكثر تقدير ، فيما بين عهـد شمعون وعهـد ألكسندر جناعيوس · بيد أن الواقع هو أن المكابيين قد حكموا كقسس عظام · وقد تأكدت الصفة الأساسـية لليهـودية فى ظلهم ؛ بما فعله الفريد ، على أنها دينية وليست دنيوية · ولقد طالب الفريد من جون هايدكانوس المكابى أن يخلع ثيـاب الكهانة ؛ وهى الصفة الحقيقية لرئيس اليهود ، لانغماسه الشديد فى الفتح الدنيوى للأراضى والمدن ، الأمر الذى لا يليق به ·

واذا ماتحولنا ، ونحن نحمل هذا فى أفهامنا ، لمقارنة الوضع التاريخى للعرب فى فلسطين بالوضــع التاريخى لليهـود فيها ، فيا لبعد الثريا عن الثرى ! لقد بدأ امتلاك العرب لفلسطين قبل خمسة آلاف عام ولم ينقطع عنها فى يوم من الأيام حتى يومنا هذا · انه أقدم امتلاك على ظهر الأرض ، وأشدها قوة وامعانا · انه امتلاك كان له نصيبه من الفتح وله رسـوخه الطويل فى التربة فى حين أن الدولة اليهودية قد قامت وتألقت وطنطنت بمقدار عمر برغشة ثم تلاشت · وان تلك الأجيال التى لا تحصى من الفلاحين الذين رسخت أقدامهم فى ترابها لهى التى تجعل امتلاك العرب لها يعلو على كل امتلاك عداه ··· لقد أعطاهم كر القرون أسماء مختلفة لأن الاعراق كانت تذوب فيهم ، الواحد بعـد الآخر · بيـد أن الحصيلة العاملة من كل هــذه الأعراق العمورية ، والكنعانية ، والفلسطينية ، والعربية ، ومنها مجتمعة ، هى التى ملكت هذه التربة وتشبثت بها ، وباسم هــذا الارث الموروث يطالب ممثلوها اليوم ؛ ألا وهم العرب ، بفلسطين ·

ويجب ألا يظن أحد أن أسلاف عرب فلسطين كانوا يمثلون البربرية بكل مظاهرها لأنهم كانوا فلاحين ولأنهم أقاموا على الوثنية أمدا طويلا ، على النقيض من حضارة الاسرائيليين · لقد كان الفينيقيون أولئك التجار

الذين جابوا آفاق العــالم القــديم وبلغوا شواطىء بريطانيا ذاتها • لقد كان الفلسطينيون « يملكون ثقافة متقدمة وعريقة • » (عن روبنسون) •
ويضيف قائلا : « انها سخرية عجيبة من سخريات القدر أن كتب على لفظة « فلسطينى » أن تكون مرادفة لكلمة « بربرى » • وقد نشأ هذا الاستخدام اللفظى لأن تأريخ أيامهم وصل الينا عن طريق الاسرائيليين الذين لم يكن فى ضميرهم انصاف لأعدائهم • » ويقول دين ستانلى : « اذا كانت تأريخات غــير اليهود عن قسوة عبادة الأصنام عند هذا الجنس غير معقولة (كان يتحدث عن الكنعانيين) فان الصور الاسرائيلية لهذه التأريخات لا تعير وزنا فى الغالب الى نبالة ذلك المظهر الذى خلعه هذا الشعب العظيم على العالم الغربى • »

« وما كتاب العهد القــــديم الا وثيقة تشيع الضياء فى حياة هذه البلاد • » (بيللوك)

أو مرة أخرى من لسان ستانلى : « وما جنس الكنعانيين ، الملعون حسب ما جاء فى أسفار أشعيا والقضاة ، الا ذلك الجنس عينه الذى كنا نتطلع اليه عبر القرون من بلاد اليونان باعتباره أبا الكتابة والتجــــارة والحضــــارة • »

ويكفينا هذا القدر عن « الرابطة التاريخية » • ان بعث الحياة من جديد فيما كان لليهود ، لكى نعرضهم على عرب فلسطين ، أمر لا يحتوى على ذرة واحــدة من عقــل • وأما أن يكون امتلاك سريع الزوال ، مقطع الأوصال ، كامتلاك الاسرائيليين لبعض فلسطين ، ملزما لنا بأن نعطيهم حقا مشروعا فى أن يزيحوا العرب من ديارهم ، بعد ثمانية عشر قرنا مرت على اختفاء آخر ظل لشعلة السلطة الذاوية ؛ ولو بأية درجات من الدرجات، فما ذاك الا تصور مغرق فى الوهم ولا يمكن أن يحمل على محمل الجد • ومع ذلك ، فاذا كان للروابط التاريخية الناشئة عن عهود طال الأمد على زوالها أن تستخدم اليوم كميثاق فدعوها اذن ، وعلى الأقل ، تكون روابط تاريخية ••• واذا كان للمطالب التعسفية المستمدة من ماض سحيق مظلم أن تمنح حقا من حقوق الملكية فى فلسطين ، فان العرب وحدهم هم الذين يملكون حقا أعرق من هذه المطالب وأوسعها طرا • وان أحقيتهم فى هذه الحقوق الغريبة فى الملكية لهى أمر لا نقاش فيه كحقهم فى الحقــوق الحقيقية للملكية التى تنبع من سكناهم فى هذه البلاد طوال الثلاثة عشر قرنا الحالية •

والآن ، وكملحق نقول ان اليهود فى موئلهم الضئيل فى زاوية من زوايا فلسطين كانوا منحصرين فى منعزلات تلالها باستثناء تلك السنوات العابرة التى سبق ذكرها • وها هو جوزيفوس مؤرخ اليهود ذاته الذى وصف سقوط القدس يوضح هذه الحقيقة فيعلن قائلا :

أما بالنسبة لنا نحن ، فلسنا لهذا السبب نقطن فى بلد يقع على ســـاحل ، ولا نبتهج بالتجارة ولا بذلك الاختـلاط بالناس الآخرين الذى ينشأ عنها • لكن المدن التى نسكنها بعيـــدة عن البحر • ولما كنا نملك بلادا كثيرة الثمر لسكاننا فلا يشغلنا شيء الا فلاحتها •

فما الذى يترتب على هذا ؟ ان الافتراض الوحيد حين يتم انشـــاء « الوطن القومى » فى ظل الحماية البريطانية ــ ونحن نضرب هنا صفحا عن مسألة شرعية هذا « الوطن القومى » ــ هو أن المستعمرات الصهيونية الجديدة لابد أن تبنى فى الأوكار المعهودة فى الداخل اليهودى • وصحيح أن عددا معينا قد أنشىء فعلا هكذا لكن السلطات اليهودية قد فضلت منذ البداية أن تنشد الأرض فى السهول • وان المساحة التى يملكونها اليوم فى السهول تفوق المساحة التى يملكونها فى النلال بدرجة لا مجال معها للمقارنة • واذا ما أخذنا بأرقام تقرير لجنة بيل (Peel) فان مجمـــوع الممتلكات الصهيونية فى فلسطين هو ٠٠٠ر٣٠٠ر١ دونما أو ٠٠٠ر٣٣٣ فدانا ، ويملكون منها فى التلال ٠٠٠ر٨٠ فدانا • « انها ليست التلال ، بل السهول ؛ السهل الساحلى وسهل مرج ابن عامر ، التى هى مركز العمران اليهودى • » هكذا يقول ليونارد شتاين فى سياق مجادلة تدور حول أن الصهاينة ليسوا مسئولين عن كون العرب متجمعين فى الأماكن المرتفعة •

وهذا يعنى أن الصهاينة قد فضلوا أن يشتروا الأراضى حيث تكون منبسطة أو ملائمة للنقل أو صالحة للاستغلال أو غنية ، على أن يشتروها حيث يكون صهيون •

ان ضغطا لم يمارس عليهم ليشـــتروا تلك المواقع المعينـــة التى اختاروها • والواقع هو أن جميع منتحلى الأعذار للصهاينة قد جانبوا الصواب فى زعمهم بأن العرب لم يكفوا عن اثارة المتاعب حول بيع الأرض لليهود فى أى مكان من البلاد ، الا منذ وقت قريب • وهم لا يسـأمون أبدا من تكرار القول بأن هذه المتاعب القريبة العهد ليست الا نتيجـة

للاثارة المصطنعة ضـــد السامية التى ينظمها الزعمـاء السياسيون فى المــدن ٠

حسن ٠ هذه حجة نوليها العناية ونأتى عليها حين يحين دور مسألة العلاقات بين الزعماء العرب وبين السكان لكى توضع قيد البحث ٠ ولكن اذا كان فى وسع الصهاينة أن يستخدموها فى هذا الصدد ، فانها بكل تأكيد وبالمثل حجة ليست فى صالحهم هنا ؛ حجة ينبغى عليهم أن يسلموا بها ما داموا هم الذين قدموها ٠ لقد اشتروا اذن فى الســهول بالدرجة الأولى ، حين كان لهم مطلق الحرية فى أن يشتروا حيث يشاءون ٠٠٠ لقد اشتروا وواصلوا الشراء ٠ وليس هناك أدنى شك فى أن دوافع القـادة الصهاينة فى جعل هذه الأراضى المنبسطة موئلا لهم كانت دوافع عملية الى أبعد الحدود ٠ اذ ها هنا توجد المواقع المواتية لعملية تحويل فلسطين الى بلد صناعى ، تلك العملية التى يخططون لها ٠

أما فيما يتعلق بالزراعة ، فقد كانوا حازمين أمرهم على وجوب أن نمتلك مستعمراتهم أجود ما يمكن الحصول عليه من أراض ٠ لقد عينوا أماكن مزارعهم ، وبياراتهم ، ومحطاتهم التجريبية ، وملابنهم حيث يتراءى لهم أنها ستعود عليهم بالربح الأوفر ، لكى يكون فى وسعهم أن يستقلوا ذاتيـا ٠ انهم لا يريدون لمستعمراتهم ولمســتعمريهم أن يكونوا عالة على احسان اليهود فى أجزاء العـــالم الأخرى ٠٠٠ ذلك الاحسان الذى كان العمـاد غير الاقتصادى للسكان اليهود وللمستعمرات اليهودية فى فترة ما قبل الحرب ٠

لقد أخـذوا فى الاعتبـار المستقبل الزراعى للمنطقة فتوصلوا الى الاستنتاج بأن أجمل الآمال فى تلك البلاد تكمن فى زراعة الحمضـيات ؛ وهى تعبير عام يشمل زراعة البرتقال وعائلته ٠ وربما لم يكن صـعبا التوصل الى هذا الاستنتاج لأن زراع الفاكهة العرب كانوا قد ملئوا السوق العالمى منذ زمن بعيد بشهرة برتقال يافا ، فقرر الصهاينة أن يسيروا على آثارهم وأن يتخصصوا فى زراعة بساتين البرتقال والمزارع ذات الطبيعة المشابهة ٠ كمـا اهتموا كذلك ، وكما هو معروف ، بأعمـال التحريش وتجفيف المستنقعات ٠ وهذه أعمال ذات قيمة فائقة الأهمية فى بلاد أهملها الأتراك ٠

ولقد كانت سياستهم الزراعية ، بالاختصار ، حسنة ومعقولة ، مع تحفظ واحد ، وهو أنهم قد يقعون ، لأسباب تجارية ، فى خطر الاغراق

فى انتاج الثمار الحمضية ۰ ولولا سبب واحد لما كان لى أن أقول شيئا بصددها الا أن أحبذها ۰ وهذا السبب مهم كل الأهمية ، على أى حال ۰

ان الصهاينة لم يجيئوا الى فلسطين ليمارسوا التعمير ۰ ولم يجمعهم الانتداب فى هذا البلد بسبب علاقتهم التاريخية بالبرتقال ۰ انهم يمارسون الصهيونية ۰ ولقد حصلوا على ترخيص بدخول البلاد ـ بحاله الذى نعرفه ومن أولئك الذين أعطوهم اياه ـ ووضعوا هناك فى مركز من الامتياز لا ترقى اليه أحلام المستعمرين فى أى جزء آخر من العالم ۰ فلأى سبب ؟ انه بالضبط مبنى على أساس أنهم ليسوا مستعمرين عاديين يبحثون عن الأرض الطيبة وعن الامتيازات المجزية ۰ انه مبنى بالضبط على أساس أنهم لا يغرسون الأشجار ، أو يجففون المستنقعات ، أو يزرعون الخضراوات كالرواد الآخرين فى البلاد الأخرى ولكن لأنهم يضطلعون بعمل روحى ، يضطلعون باعادة بناء هيكلها المندثر من أجل الروح اليهودية التائهة ۰ انه بالضبط لأنهم يعودون كالحجاج ، بجد وحزم ، الى موئلهم القديم ، مهما كان متواضعا فقيرا ۰۰۰ ومهما كان عديم الفائدة ۰

ان هذا التصريح الشاذ الغريب الذى أعطى لهم ليدخلوا به فلسطين ضد ارادة سكانها مبنى وبصورة بحتة على مجيئهم ليستعيدوا الأرض التى فقدوها ۰۰ « ليعيدوا بناء وطنهم القومى » ۰۰۰ ليعيدوا بناء جدران صهيون التى تهدمت ۰ ولا أقول شيئا الآن عن دوافع أولئك الذين أعطوهم هذا التصريح ۰ فأيا كانت الدوافع فى قلوب هؤلاء الرجال فانهم قد جلبوا الصهاينة الى فلسطين تحت شروط « اعادة بناء وطنهم القومى فيها » ولكن أى اعتبار أولاه الصهاينة نحو هذا ؟

أى نوع من أنواع الروابط بين اعادة بناء هذا الوطن وبين غرس ثلاثين ألف فدان من بساتين البرتقال فى السهل الساحلى ، الذى لم يستطع حتى داود نفسه أن يجعله يهوديا ۰۰۰ فى سهول الكنعانيين والفلسطينيين وأخلافهم العرب ؟ وكيف نتفق الرابطة التاريخية مع ممتلكات الصندوق القومى اليهودى ، التى بلغت قبل ثلاث سنوات نحو ثمانين ألفا من الأفدنة فى سهول عكا وحيفا الفينيقية المثمرة يقابلها ألف واحد فى الجليل الصخرى ؟ وكيف تحجب عن النظر ثمانون ألفا من الأفدنة المملوكة فى التلال ؛ التى هى حلم الصهيونية ، مائتين وخمسين ألفا من الأفدنة المادية فى السهول ؟ وما الذى يفعله المائة وخمسون ألفا من اليهود ، الذين يسكنون تل أبيب ، على شاطىء البحر الأبيض المتوسط ؟ أتراهم يعيدون نصب خيام شاءول أو تراهم يعيدون بناء أعمدة شمشون ؟ وكم عدد

الذين يفلحون فى التلال من بين الاربعمائة ألف يهودى الذين يشـكلون حتى اليوم الوطن القومي اليهودى ؟ أربعة آلاف ومائة واحدة • واذا كان للأرقام أن تنطق فهذه ناطقة •

وقد يقول من يعارض بأنه ما كان لليهود أن يحصلوا فى يهودا على مدى ما حصلوا عليه من الأراضى فى فينيقيا • وقد يقول أيضا أنه ماكان فى وسعهم أن يحصلوا على ما لا وجود له أو ما ليس معروضا ، وأنهم انما كانوا يأخذون ما يمكن لهم الحصول عليه أنى أمكنهم الحصول عليه • بيد أن ذلك هو بالضبط ما كان يخلق بهم ألا يفعلوه • أن المسألة مسأله مبدأ • ولو كان لدوافع الصهاينة أن تصمد للامتحان لوجب عليهم أن يرفضـوا مجرد التفكير فى شراء أرض ليس لهـا دور فى اعادة بناء صهيون ، مهما كانت خصبة • ولو أنهم كانوا يدخلون البلاد كمستعمرين عاديين وفقا لنظم وضعتها حكومة أهلية ، أو حكومة تستشير الأهلين ، وبدون أن تكون هنـاك دولة منتـدبة تفسح لهم الطريق ، لكان الموقف مغايرا ، ولأمكنهم فى ظل مثل هذه الظروف أن يدخلوا فلسطين حيثما كان ملائما ، وأن يشتروا الأراضى حيثما رغبوا ، وأن يجنوا العوائد المعتـادة من الثروة المزيدة •

لكنهم حين دخلوها ، تحميهم الحراب البريطانية ضد ارادة السكان، وعلى أساس أنهم سيعيدون بناء شىء من الماضى ليس لغيرهم أن يبنيه ، وعلى أساس أن صفتهم السامية تخولهم هذا الامتياز ، فيتحتم عليهم عندئذ أن يعيدوا بناءه بيد اللورد هارى فقط وأن لا يتزحزحوا قيد أنملة عن موقعه لأنه « ماذا انتن لى ياصور ويا صيدون وياجميع دائرة الفلسطينيين؟» ولأن ذلك مكتوب فى سفر يوئيل •

وعلى أى حال ، فلنفرض أن قليلا من ممتلكاتهم الكثيرة كان مبعثرا حول حدود مملكة اسرائيل القديمة المتقلصة أبدا ، المنكمشة أبدا ، فقد تكون المجادلة حول هذا الأمر أمرا نظريا بحتا • ولكن لمـا كان هـذا هو حال الأمور فى الأمس واليوم فاننا لسنا بصدد بضعة ممتلكات على الحدود من هذا النوع جاءت عرضا • اننا لسنا ازاء سياسة قانعة ••• كلا ••• بل ازاء سياسة متلهفة على « اعادة بناء » الوطن القومى كدولة ، فى مكان لم يبن فيه أبدا من قبل • ان الصهاينة يعودون تحت قيادة زعمائهم الى مكان لم يخرجوا أبدا منه من قبل • وان الساسة البريطانيين ، أو أولئك المشتغلين منهم بأمور الدولة على الأقل ، يغرونهم بالذهاب الى فلسطين ويبررون دخولهم اياها ب « رابطتهم التاريخية » ، ومن ثم يشجعونهم على

الاستيلاء على أراض لم نكن لهم بها ، فى أى يوم من الأيام منذ بدأ التاريخ حتى اليوم ، أية رابطة تاريخية حقيقية وثيقة ، من أى نوع كان ·

والآن ، وبينما أقوم بمراجعة هـــذه الصفحات ، قد يحول الوطن القومى ـ كما كان مبيتا دائما ـ الى دولة صهيونية أو « مملكة مســتقلة استقلالا ذاتيا » أو « كانتون يحكم نفسه بنفسه » ، أو أيا كان ذلك الاسم الذى يفضلون أن يطلقوه عليه · واذا كان الأمر كذلك ، فسيقام فى السهول على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وبين البساتين ، محاكاة للماضى اليهودى تثير السخرية والضحك، وهيكلا مطابقا لتصاميم الصيارفة والمرابين ، وصهيونيا ·

لكن نذر ذلك الماضى الذى نبذه هؤلاء الصهاينة العصريون من ورائهم ظهريا تقف بالمرصاد لمكرهم وخداعهم تلوح لهم بتوبيخ النبى : « لأنك قد نسيت الله رب خلاصك ، ولم تتق الله رب قوتك فلسوف تزرع نباتات طيبة وتطعمها بأقلام غريبة · » « يا الهى · لقد دخل الكفرة فى ارثك ؛ لقد دنسوا هيكلك المقدس؛ لقد جعلوا من أورشليم مكانا لحفظ الفواكه · »

الفصل الثانى

جنس العرب العظيم ـ امتلاك فلسطين ضرورى لتمدده

لقد بينا فى الفصل السابق أن فلسطين ليست الا جزءا من وحدة سورية الطبيعية الأشمل ، وأن سورية نفسها جزء لا يتجزأ من الارث العربى العظيم ، وأن الادعاء الذى تذرع به الصهاينة لدخول البلاد ؛ « رابطتهم التاريخية » بهذه الأرض لا يمكن أن يستخدم عدلا وانصافا ، لالغاء ملكية سكانها لها ، الذين يملكون رابطة تاريخية أعرق وأقدم من هذه الرابطة بدرجة لا تجوز معها المقارنة . وبينا فى النهاية أن الصهاينة أنفسهم قد فضحوا تقديرهم المستبطن لهذه «الرابطة التاريخية» باعادة بناء « وطنهم القومى » فى مكان لم يكن للجنس اليهودى ، فى يوم من الايام ، وطن فى معظم أجزائه .

وأعود الآن للحديث عن العرب ، الذين يوصفون فى فلسطين بهذا الاسم خالصا طوال هذه الثلاثة عشر قرنا الأخيرة . ان من الغريب أن يقال ان هذا الاسم الذى يحملونه منلبة ونقطة ضعف بينة فى جانبهم . وان قلة من الناس نسبيا تعرف شيئا عن ماضى العرب العظيم . اننا نحن الأوروبيين ندين لهم بأكثر مما نتصور . لقد قادوا العالم نحوا من ثلاثمائة عام فى طريق الحضارة . وأخذنا عنهم جل علومنا الرياضية . فالأعداد أو الأرقام التى نستخدمها هى « أرقام عربية » وكلمة Algebra هى لفظة محرفة لكلمة « الجبر » . وهى الكلمة الأولى من مؤلف صدر فى القرن التاسع لعالم عربى . كما طور العرب أيضا مهنة الطب ، وأسسوا الجامعات ، وطوروا الفلاحة وزراعة الحدائق الى مستوى رفيع .

لقد نسينا فى هذه الأيام مآثر العرب الخالدة ، وجاز لدينا تدمير الأتراك لحضارتهم وكأنه نتيجة مترتبة على اضمحلالها . وما من جنس آخر قد صادف حظا سيئا فى التاريخ كهذا الحظ الذى صادفه العرب الى

حد أن يحقق فى تاريخه نفس أولئك الذين اضطهدوه فيجدوه مدينـــا بما ذبحوه به • لكن هذا الحكم العجيب قد رسخ فى الاعتقاد العام خلال القرون • وفى أيامنا هذه يعزى الاقفار فى أى بقعة من بقـــاع الأرض العربية الى خمول العربى ، الذى هو فى الواقع فلاح ممتاز كآبائه الأقدمين، ولا يعزى الى النير العثمانى القاتل • لقد أجبر هذا النير أجزاءا كبيرة من هذا الجنس العربى على الخروج الى الصحراء • ويخيل لى أن عرب الصحراء هؤلاء هم وحدهم الذين يمثلون هذا الجنس فى نظر الشعوب الغربية •

فالرجل البريطانى يظن العربى رجلا ملتحيا يتدثر بثياب فضفاضة ويهرول هنا وهناك ويطلق نيران بندقيته على لا شيء (اللهم الا فى حالة فلسطين مؤخرا ، على ما أظن) ، وأنه يعيش فى خيام ويحكمه شـــيوخ عيونهم تقدح شررا وبهم ميل الى السطو والسلب •

وهذا التصور وهم سخيف • ومع ذلك فالاعتقاد به هنا له نطاق واسع • فلقد حدثنى أحـــد المندوبين العرب الذين وفدوا على بريطانيا بصـــورة جد منتظمة ، ولسنوات عديدة ليشرحوا قضـــية شعبهم لنزلاء الهوايتهول (أى القاعة البيضاء وهى مقر مجلس الوزراء البريطانى-المعرب) المتعاقبين ، وبلا طائل أبدا ، عن حادث يوضح هذه الحقيقة جيدا • كان هو وزملاؤه المندوبون يقومون بزيارة لمجلس العموم ، وينتظرون فى قاعة الانتظار مجيء عضو لمقابلتهم ، ولم يمض غـير قليل حتى جاء الرجل ، ودارت عينـــاه عليهم وعلى آخرين كانوا ينتظرون كذلك فى القاعة ، ثم أخذ يتطلع حواليه حائرا • انه لم يستطع أن يتصور أن هؤلاء الرجال المؤدبين الذين يرتدون ملابس كملابسه يمكن أن يكونوا وفدا للعرب • ثم أخذت نظرته المحملقة تبحث فى الأروقة عن زمرة من قطـــاع الطرق يتدثرون بالعباءات ويتمنطقون بسيوف مدلاة ، ويعقدون حول رءوسهم حبالا تحزم أغطيتها •

والنقطة الخطيرة فى هذا التصور المسبق هى أنها تجعل من يحملونه يقعون بسهولة وبكل طواعية فى المفهوم الثمين جدا بالنسبة للصهاينة ، وهو أن العرب كتلة من الشرقيين النصف برابرة ، الذين يحتاجون الى ارشاد فى جميع نواحى الحياة من لدن حاكم غربى مثقف •

فى حين أن العرب ، مثلهم فى ذلك مثل جميع شعوب أوروبا ، لفيف من سائر أخلاط الناس • ان لهم بالطبع طبقتهم الفلاحية الكبيرة ، من الرعاة ومن الزراع ، الذين يلبسون ملابسهم التقليدية القديمة ، التى كان يلبسها المسيحيون الأول • ولكن لهم طبقتهم من المثقفين والمهنيين

والتجار ، وبنسبة كبيرة بالقياس الى تعدادهم ، كالتى نملكها نحن ، وربما بنسبة أكبر • فالشباب المتعلم فى سورية يختلف منذ زمن بعيد الى المدارس والجامعات ذات التأسيس الفرنسى والأمريكى • وقد جاء عدد منهم الى انجلترا لتعليم القانون أو الطب أو ليقوم بالتجارة • وتوجد فى مدينة مانشستر مستعمرة لا بأس بها من رجال الأعمال العرب • لكن هؤلاء العرب يمرون دون أن يلاحظهم أحد ، كما هو الحال هنا وفى كل مكان آخر ، لأنهم يعرفون بصفتهم الأقرب كسوريين • ويوجد فى هذه البلاد عدد من رجال الكهنوت السوريين من جميع الرتب • كما يوجد عدد من كتبة البنوك السوريين ، والكيميائيين السوريين ، والصحفيين السوريين •

وقد يذهل بعض القراء حين يعلمون أنه يوجد بين السوريين من هم من أصحاب الملايين • كما يوجد عدد لا بأس به منهم ممن أصابوا من الثراء على مختلف درجاته ، ومن وسائل الترف على مختلف الدرجات فى أمريكا الجنوبية ولم يصبحوا بعد من أصحاب الملايين • وفى مراحل الأنشطة العملية الأكثر تواضعا تجوب جماعات منهم جمهوريات أمريكا اللاتينية باعة جائلين • كما يوجد الكثير منهم فى أفريقيا •

وأينما يحل السوريون يثبتون أنهم رجال أعمال أكفاء الى درجة فائقة • والواقع أنه يظن فيهم ، فى بعض الأحيان ، أنهم أكفاء الى درجة الاشتهار بالألاعيب والحيل التجارية شهرة ما بعدها شهرة • وقد يكونون كذلك فى بعض المناسبات لكن هذا برهان ، على الأقل ، على أنهم فى غنى عن ذلك التعليم من قبل اليهود الذى يقرأ الانسان كثيرا عنه •

ان لديهم نخبة كاملة من المتعلمين • واذا كان التعليم يخول للانسان أى شىء ، فانه يخولهم الحق فى تدبير أمورهم بأنفسهم ، وفى أن يكونوا سادة بلادهم ، مقدار ما يخولنا نحن من حق •

وكان فى مقدورى أن أضيف الى سجلى الصغير هذا عن قدرات العرب أنهم علماء ممتازون فى فقه اللغة • وهذا أمر ليس بالمدهش لأنهم شعب متنوع فى حد ذاته • فلعرب سوريا ، كما قد رأينا ، عدد عديد من الأعراق • اذ احتلت بلادهم فى الماضى سلسلة متصلة الحلقات من الأسياد• وكانت فى أوقات مختلفة مسرحا للمعارك وموئلا للهاربين على السواء • وقد ترك المطاردون والمطاردون آثارا منهم فيها • ويعدد لورانس الجزيرة العربية فى كتابه « أعمدة الحكمة السبعة » ست عشرة فئة من فئات السكان ، على الأقل ، فيما بين الحدود التركية والحدود المصرية• بيد أنه سيلزم للورانس،

أى لورانس من الفرانسة ، من الوقت لكى يدرك كنه هذه الفئات ، ما يلزم للاخصائيين الأجانب لكى يميزوا بين أقاليم ومقاطعات الجزر البريطانية . وقد عبر هو نفسه عن الوضع العام فى هذه البلاد بصورة تدعو الى الاعجاب حين قال انه : « فى حين أن مظاهر وعادات الشعوب الحاليه الناطقة بالعربية فى آسيا متباينة تباين حفل ملء بالأفاح الا أن بينها تشابها سويا وجوهريا . »

ويمكن أن يقال اذا أردنا أن نستخدم لونا مغايرا من التشبيه ان العرب يشبهون سدا عظيما فيه لبنات من أشكال وألوان متعددة لكنها جميعا متلاحمه ببعضها البعض . وربما يكون تلاحمهم أكثر مرونة وأقل تماسكا ، بل حتى أقل ضمانا ، من تلاحم اللبنات المرصوص بعضها فوق بعض . لكن التشبيه مقارب بما يكفى لاعطاء فكرة لا بأس بها عن بنائهم القومى .

ان لحمة العرب تتألف فى معظمها من العقيدة الدينية . فالعرب ، سواء أكانوا فى العراق أم فى سورية أو فى سيناء هم مسلمون فى معظمهم . ولكن فى سورية أقلية مسيحية كبيرة ؛ أقلية من مسيحيين لهم أيضا بركة من الدين انحدرت اليهم من أيام المسيح فى فلسطين (ومع ذلك فما الذى سمعناه من الحكومة البريطانية أو من عصبة الأمم عن « الرابطة التاريخية » للمسيحيين العرب بأرض المسيح ؟) وتوجد بينهم جماعات صغيرة لها ديانات أخرى .

ولذلك ففى حين أن العقيدة الدينية رباط قوى فانها ليست أقوى رباط . وهذا الرباط هو اللغة العربية . واللغة العربية تربط جميع قطاعات العرب ببعضها البعض . وان استخدامهم جميعا لها ، وما يجره هذا الاستخدام من طرق فى التفكير ، قد جعل منهم وحدة من أعظم وحدات العالم القومية . وقد بلغوا قبل غيرهم ، فى الواقع ، ذلك النوع من الوحدة القومية الذى يسير العالم نحوه ، ألا وهو وحدة أولئك الذين ينطقون بلسان واحد .

ان لهم صفة شبه واضحة بالكومونويلث البريطانى بمعنى أنهم يرجح فيهم (اذا واتتهم الفرصة المناسبة) أن يشكلوا مجموعة من البلدان العربية ، مستقلة الواحدة منها عن الأخريات ، ولكن تجمعها رابطة مشتركة ، كما هو الحال مع الملك بالنسبة لدولنا المختلفة التى تحكم نفسها بنفسها .

وخليق بتقاربهم من بعضهم البعض أن ينبت أنه ذو نفع فى المضى فدما نحو هذا المثل الأعلى · فهم مجموعون الى بعضهم البعض فى الركن الجنوبى الغربى من آسيا · وهناك ، على أية حال ، نقطة أخرى وهى أنه يجب أن ينظر الى موقعهم الجغرافى من زاويتها ، وهى نقطة لها مغزى هام على شئون فلسطين بالذات ·

انك اذا ما نظرت الى خريطة آسيا ، دون أن تكون لديك فكرة عن هذه البلاد ، فسيبدو لك أن العرب يملكون بسورية وبالعراق وبشبه الجزيرة العربية العظيمة ، رقعة مترامية الأطراف من الأرض · ان أصدقاء الصهيونية السياسية يلفتون الأنظار دائما الى هذه الظاهرة · انهم يدورون بأيديهم على الخريطة فى حلقات كبيرة ثم يتساءلون بنبرة خطابية عما اذا كان العرب لا يستطيعون ، وفى حوزتهم هذا الملك المترامى الأطراف ، أن يستغنوا عن قطعة صغيرة فى فلسطين لليهود · وقد عرض اللورد بلفور نفسه هــذه الحجة فى احدى خطبــه فى لحظــة من لحظــات التبرير غير معهودة فيه ·

لكنك اذا أمعنت النظر فى الخريطة فسترى أن معظم هذه الرقعة العربية المترامية غير مأهول · انها امتدادات مترامية من الصحارى العارية تحتل جل سطحها · ففى سوريا توجد حافة غربية مأهولة ، وفى العراق حافة شرقية أوســـع يرويها الدجلة والفرات · أما الجزيرة العربية ففيها مجرد شريط زراعى وسكانى حول أطرافها الجبلية الى أبعد حد ، وبضعة واحات فى الداخل ··· كلها صحراء ، وحصى ، ومقذوفات بركانيــة ، ورمل ، تلك هى قصة البلدان العربية أساسا ·

وهكذا فان أعز ممتلكاتهم لديهم هى شرائطهم النادرة التى تزرع فى الشرق من العراق ، وفى الغرب من سورية · ولهذا ففلسطين ليست فضلة بالنسبة لهم ولكنها ضرورة ماسة · وكان حريا بتوسل اللورد بلفور أن يجرى هكذا : « ألا يستطيع العرب أن يستغنوا لليهود عن حقل القمح الصغير من بين قفارهم المترامية ؟ ·· ألا يستطيع العرب أن يستغنوا لليهود عن مئونة الطوارىء فى مجاعتهم ؟ » ·

وهناك اعتبار آخر أيضا بل هو اعتبار أهم من ذاك · ان سورية بالنسبة للعرب منفذهم الى البحر الأبيض المتوسط ، انها نقطة اتصالهم بالغرب· انها بوابتهم الأمامية وبقدر مايحتفظون بها ويصونونها ويجعلونها ملكا خالصـــا لهم ستمتزج حياتهم ومصــائرهم بأوروبا وعلى طريقتهم الخاصة · فليس عن طريق الأبواب الخلفية المخلعة التى تفتح على الخليج

الفارسى ، ولا عن طريق سدادات الأفران فى مسقط أو فى الكويت سيجد العرب طريقهم الى مركز العالم • انهم محصورون بين الصحارى الجديبة وبين البحار اللافحة التى تقع بين فارس ومصر • ولم يكن لهم فى يوم من الأيام الخيار فى هذا وانما هو وضع كتب عليهم • وان نافذتهم الطبيعية هى هـــذه التى تطل على البحر الأبيض المتوسـط الأوروبى • ويقول لورانس : « لقد تطلع العرب دائما الى البحر الابيض المتوسط ، وليس الى المحيط الهندى ، اشباعا لانعطافاتهم الحضارية ، وابتغاء لنجاحاتهـــم العملية ، ومن أجل توسعاتهم على الأخص لأن مشكلة الهجرة هى أعقـــد وأقوى المشـــاكل فى بلاد العرب • وهى مشكلة تنتظم جميع المقاطعات العربية مهما تباينت حدتها فيها • »

وقد كتب البروفيسور و • ى • هوكنج الاستاذ فى جامعة هارفارد فى مؤلفه القيم روح السياسة العـالمية فقال : « لقد اتصلت بلاد العرب الحدينة بالبحر الأبيض المتوسط عن طريق فلسطين • وهكذا يصبح تقدم الاستعمار الصهيونى بالنسبة للنظرة القومية العربية ضربة فى الصميم جاءت فى ثنايا سلسلة مطولة من المواعظ والخطب الدينية • »

ولسوف تعرى هذه المواعظ والخطب فى سياق هذا الكتاب • بيد أن ما يجب علينا ملاحظته حيال هذه النقطة الراهنة هو هذا السؤال : من ذا الذى يتحدث فى جنيف أو فى القاعة البيضاء عن مشكلة الهجرة لدى العرب ؟ لقد قيل كلام طويل لا نهاية له عن المنفيين اليهود ، وان لم يحدث ، فى الواقع ، كثير من التلميح عن اسكانهم فى بلادنا ، بالرغم من كل هذا العطف الذى نغدقه عليهم ! فهل قيلت كلمة واحدة عن نكبة العرب الذين يدفعون دفعا وباستمرار صوب الشمال بسبب تعدادهم المتزايد ، أو يزاحون الى داخل الصحراء بسبب عدم استطاعتهم الوصول الى الحواف الشمالية أو الشرقية الأكثر خصوبة ؟

ويحدثنا لورانس عن هذه التيارات من التحركات القبلية • ويبين لنا أنها لم تكن عن مغامرة بتاتا ــ عما نسميه الترحل البدوى ــ وانما كانت ، بدلا من ذلك ، نتيجة للحاجة الاقتصادية ، فهو يقول : « وحتى اذ ذاك لم يتوقف الضغط : لقد واصل هذا الاتجاه العام ، الذى لايكبح ، سيره نحو الشمال • وألفت هذه القبائل نفسها مسوقة حتى حافة الأرض الزراعية ذاتها فى سوريا أو فى بلاد الرافدين • واقنعتها امعاؤها وفرص الربح من تملك الماعز فالأغنام فأخذت أخيرا تزرع ولو قليلا من الشعير من أجل سوائمها • فلم تعد بدوية ، وأخذت تقاسى كما يقاسى القرويون

من هجمات القبائل البدوية من خلفها وتقاسمت وهى لاتشعر الصبر مع الفلاحين الذين كانوا فى الأرض من قبلها · ثم تبينت أنها هى أيضا من الفلاحين ، وهكذا نرى قبائل ولدت فى جبال اليمن قد دفعت من قبل قبائل أخرى الى جوف الصحراء ، حيث أصبحت برغم أنفها قبائل رحلا لتحفظ على أنفسها الحياة · »

والجنس صاحب هذه الورطة المقيمة فى التوطن جنس نسال كثيرا· ان ذريته تكاد تنسل ونحن ننظر اليها · فالى أين تتوسع ؟ انها ليست الواحات فى الصحراء بالتى ستتزايد بما يتواءم مع تزايده · وما من شك أن العراق يستطيع أن يستوعب نصف هذه الزيادة ولكن بلا زيادة · وصحيح أن الشرائط الضيقة الخصبة فى فلسطين وفى سورية الشمالية تستطيع فى الواقع أن تستقبل هى الأخرى ، ولكن قليلا من القادمين الجدد · ومع ذلك فماذا يقال فى هذه السياسة التى ركبت رأسها على أن تمضى قدما فى ملء هذا المتسع الصغير الذى يتوفر هناك بأناس من بلدان أجنبية ؟ وأى نوع من أنواع السياسة هذه السياسة التى تضع فى عرض المسربة العربية المتجهة صوب الشمال وصوب الغرب حاجزا من الاحتلال الصهيونى ؟ وأى حق وأى معنى يكمنان فى انكارنا على الغرب كونهم الطبيعية المفضية الى البحر الأبيض المتوسط ـ أو فلأضع السؤال بصورة أسلم لأنهم يملكونها فعلا ـ أى حق وأى معنى يكمنان فى سلبهم اياها ووضع الأغراب على أبوابهم ؟

ان لنا بهذا الشاطىء من البحر الأبيض المتوسط ، القريب جدا من الطريق الى الهند ، اهتماما عميقا بصفة خاصة · ويتحتم علينا أن ننشد الوسائل الكفيلة بتأمين مصالحنا هناك · وكلما تأمل الانسان وتبصر فى هذه المصالح كلما بدت له سياستنا الحالية سخيفة سخفا ما بعده سخف· اننا ندخل فى مسألة واضحة بيننا وبين العرب ، كان يمكن أن نحلها بدوافع الود والصداقة ، عاملا غريبا·اننا ندير ظهورنا للصداقة ونرفسها وندخل الصهاينة ونواظب على ادخالهم · اننا نجند جيشا وندعو جنود الاحتياطى لخدمة العلم ونشحن الفرق العسكرية فى البواخر ، ونضحى بأرواح جنودنا لكى يستمر الصهاينة فى الدخول · اننا ، كما يقول الواقع ، نزرع العليق فى كل مكان · وندافع بالبنادق والمدافع عن هذه الورطة الدولية التى نجمت عن أفعالنا تلك · وعندئذ تصبح مشاكل المستقبل ، التى كان يجب أن تكون هينة ، متأزمة ومعقدة ، بل وربما يستعصى علينا علاجها ·

الفصل الثالث

المقاومة العربية ـ استعدادات العرب لطرد الحكم التركي من سورية ولاعادة بناء الدولة العربية التليدة

ان من بين الأقوال التى نؤسس عليها مسكلة فلسطين فى أحيان كثيرة جدا القول القائل بأنه لم تكن فى هذا البلد فى الآونة الأخيرة الا حركة سياسية وحيدة هى الحركة الصهيونية • وطبقا لهذه النظرية فان الصهيونية قد دخلت على شعب كان خاملا من الناحية العملية وأن أى حمية أو نشاط سياسى قد يكون هذا الشعب أظهرهما منذئذ انما هما لا يعدوان الا رد فعل للجهد اليهودى الفوار بالنشاط •

وهذا تزييف أثيم للحقيقة • فالحركة الصهيونية ، فيما يتعلق باتخاذها شكلا داخل فلسطين فى هذه السنوات الأخيرة ، انما جاءت فى أعقاب حركة عربية كانت من القوة والأصالة بحيث كتب على رجال فى النهاية أن يقدموا أرواحهم قربانا لها • لقد نشأت الحركة الصهيونية ، كما سنرى ، من خارج البلاد فى حين أن الحركة العربية حركة وطنية أصيلة يمكن مقارنتها بحركة المحررين التى قامت فى أجزاء ايطاليا التى كانت خاضعة للحكم النمسوى • أو كتلك التى قامت فى الالزاس واللورين أو كتلك التى قامت فى بولندا • وكانت تهدف ـ شأنها فى ذلك شأن تلك ـ الى استعادة سيادة تليدة أو اتمامها • وكان يمكن ، بلا شك أن تتطور كما فعلت تلك ، الى مرتبة الدولة القومية المحررة كلية لولا اقامة نظام الانتداب الذى لم يكن فى الحسبان •

ولهذا ، فان الصهيونية التى خلقت كحقيقة سياسية واقعة بفعل نصوص صك الانتداب ، والتى هى أبعد ماتكون عن أن تكون القوة الوحيدة التى حركت فلسطين ، قوة ثانوية جلبت من خارج البلاد ، ولم تفعل شيئا الا أن تعوق تقدم القوة الوطنية الأساسية للعروبة ، الأسبق منها •

وسيكون التفاوت الكبير بين هاتين الحركتين أوضح وأجلى حين آتى على ذكرهما بالتفصيل ... فالكبار أولا ثم يأتى بعد ذلك دور الصغار . ولنتحدث أولا عن أعمال العرب .

لقد انتهت الامبراطورية العربية فى سورية ، التى تقاطرت عليها محن كثيرة وكادت تدمرها الحروب الصليبية ، انتهت فى القرن السادس عشر . وأصبح الأتراك سادة البلاد لكن السكان العرب ظلوا يحتفظون بالأرض تحت سلطانهم . ودامت هذه الحال حتى الحرب النابوليونية حتى ثبت الفرنسيون أقدامهم فى الجنوب . أما كيف استطاع السير سيدنى سميث أن يدفعهم عن عكا فذلك هو أحد المسجلات المجيدة فى تاريخنا .

وتلت ذلك فترة من السيطرة المصرية . ثم أعاد التدخل الأوروبى تثبيت أقدام الأتراك فى البلاد فسيطروا على فلسطين والأجزاء الأخرى من سورية (كان لولاية لبنان ، وأغلب سكانها من المسيحيين ، نوع من الاستقلال الذاتى) حتى انهار سلطانهم نهائيا أمام جحافل أللنبى فى عام ١٩١٨ .

وقد يلاحظ أنى استخدمت لفظات ك « سلطان » و « سيطرة » لأصف بهما الاحتلال التركي لسورية . ومرد هذا هو أن الأتراك كانوا يفتحون البلاد ولا يستعمرونها . وأما وقد تثبت حكمهم فى البلاد فانهم يحصرون همهم منذئذ فصاعدا فى حلب هذه المناطق الواقعة تحت حكمهم، طلبا للضرائب ، وتجنيدا فى الجيش فى حالة السكان المسلمين . وكان السلاطين الأتراك يسودون على كثير من الشعوب غير التركية . ولم يكن السلطان نفسه يختلف عن اقطاعى كبير جدا يملك عددا هائلا من المزارعين الا فى شيء قليل . وكان السلطان وباشواته يدعون هؤلاء المزارعين ، وهم الأغراب بالنسبة لهم ، يديرون أمورهم بأنفسهم ماداموا يؤدون لهم ايجاراتهم الباهظة ولا يناقشونهم فى ملكيتهم للأرض .

ولهذا أثره الملحوظ فى سورية . فقد ظل شعب فلسطين سيد نفسه تحت الحكم التركى من ناحية ما . وكان العرب أحرارا ويعيش الواحد منهم بين أهله وعشيرته تماما ، فى الوقت الذى لم يكن فيه الموظفون الاتراك يفرضون أنفسهم بفظاظة عليهم . وقد توصلوا مع مرور الزمن الى أن يوضع على رءوسهم أناس من مواطنيهم . وصحيح أن هؤلاء العرب كانوا يمارسون صلاحياتهم كموظفين أتراك ويتحتم عليهم أن يكيفوا أنفسهم مع الحكم التركى الا انهم كانوا عربا ، على أى حال . فموسى كاظم باشا ،

الذى ظل يقود الوفود العربية التى جاءت الى لندن حتى وفاته القريبة العهد ، كان حاكما للواء يافا فى عهد الأتراك ٠

ولذلك فليس العرب عن الحكم بغريبين ٠ حقا لقد كان الجهاز التركى الذى يديرونه جهازا سيئا فلم يستطع أحد منهم أن يلمع فى كرسيه بيد أن لهم خبرة على الأقل بسير العمل الحكومى ٠ ان المكاتبات والأضابير وما اليها ليست من الأحاجى بالنسبة للعرب ، الأمر الذى يوحى به وصفهم الوارد فى المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم ٠ لقد صنفوا فيها جنبا الى جنب مع الشعوب الأخرى الموضوعة تحت الانتداب على أنهم « ليسوا بقادرين بعد على أن يقفوا وحدهم فى ظروف العالم الحديث الفوارة النشاط ٠ »

وقد يكون الحسُو مستحبا ها هنا فنقول ان هذه العبارة من الميثاق انما هى جزء من فرية اختلقت لكى يستفاد منهـا فى فلسطين ٠ ففى فلسطين لم تكن حتى عام ١٩١٨ ظروف فوارة النشاط ٠ لقد كان الوجود يواصل سيره فى الخطوط التقليدية عموما ٠ وان من الواضح أنه كان من الميسور بعد عام ١٩١٨ أن يجرى هناك بعض التطور التدريجى الهادى بمساعدة من بريطانيا لو ترك العرب وشأنهم ٠ الا أنه ما كان من الممكن أن يحدث ظهور مفاجىء لظروف عصرية فوارة النشاط لأن العرب لم تكن لديهم أية رغبة فى ادخالها فى حياتهم ٠

ومع ذلك فقد استجلبنا نحن ــ سرعان ما تسنى لنا ؛ سرعان ماتسنى للحكومة البريطانية التى كانت قائمة آنذاك ــ الصهاينة الى فلسطين وخلقنا بالفعل ، وكما كان مبيتا من قبل ، « ظروفا عصرية فوارة النشاط » فى ذلك البلد التعس ٠ وكانت الخطوة التالية ، طبعا ، هى أن تمسك بزمام الأهلين لتحميهم من هذا الفوران ٠ ولقد أصبحت حالة فلسطين فى الواقع كحالة رجل يصدمه رجل محسن من أهل البر بسيارة حتى لا يعود قادرا على أن «يقف بنفسه» ، ومن ثم يهرع هذا المحسن البار ، مبارحا السيارة ، ليقيم الضحية وليقود خطاها المتعثرة المترنحة ، بكل عطف وحدب ٠

والخلاصة ، على أى حال ، هى أن العرب لم يكونوا ، قبل أن تقدم لهم يد المساعدة على هذا النحو ، مبعدين من قبل الأتراك عن كل اشراف على فلسطين وعلى أمورها ٠ لقد كان للطبقات المتعلمة نصيب فى حكومتهم الخاصة بهم بل وكانت للجماهير العربية كلمة مسموعة فى مجال من مجالات الأمور أوسع من هذا المجال بكثير ٠ فيقول التقرير الرسمى الذى صدر

عن لجنة شو التى أوفدت الى فلسطين فى عام ١٩٢٩ : « ما من شك أن الأنشطة المهمة من أنشطة المجالس الاقليمية بل وربما أنشطة المجالس البلدية كانت تشرف عليها الحكومة المركزية اما مباشرة أو عن طريق غير مباشر . ولكن تبقى أمامنا حقيقة أن الفلاح نفسه كان يستطيع أن يشعر أن له صوتا فى ادارة دفة قريته وفى تسيير الأمور فى الوحدات الادارية الأكبر ، حتى الامبراطورية العثمانية ذاتها بصورة غير مباشرة ، من خلال ممارسته لسلطته الانتخابية وعن طريق نظام الانتخابات الفرعية، شريطة أن يدفع مبلغا غاية فى التفاهة كعشر شلنات فى السنة ضريبة مباشرة . »

وهذه هى كلمات لجنة بريطانية تعترف فى جملها القليلة التى تلى هذه ؛ وبعد أن تكيل المديح لفوائد حكمنا المادية ولأفضلية ادارته ، بأنه توجد قضية تطرحها أمام أولئك الذين يفاضلون بين حكم العرب لأنفسهم بأنفسهم فى ظل حكم الأتراك وبين وضعهم فى ظل حكمنا . ثم تخلص اللجنة الى القول بأن العرب قد عرضت عليهم فى عام ١٩٢٢ فرص فى الواقع من فرص الحكم الذاتى لكن زعماءهم قد رفضوها على أساس أنها لا ترقى الى مقدار ما كان لهم من حكم أنفسهم بأنفسهم فى ظل تركيا . وتسجل اللجنة هذه الحقيقة دون أن تحاول دحضها .

ومع ذلك فان ذلك النصيب فى الحكم الذاتى المحلى وتلك الكلمة الصغيرة فى الأمور ذات الدرجة الأولى من أمور تركيا هما فى حد ذاتهما ليسا بالشىء الكثير ، وان كانا يبدوان شيئا عظيما اذا ما قورنا بالوضع السياسى المزرى للعرب الآن . لقد كان التمتع بهما كثمن فقط للتسليم بالمشاعر الوطنية . وكان يتحتم على الرجال الذين يمارسونهما أن يسقطوا من أذهانهم قوميتهم العربية وأن يتصرفوا كرعايا أتراك .

بيد أن القومية العربية ، أو بالأحرى ذلك الاحساس بأن للعرب من الذات المستقلة ومن البعد عن حكامهم ما قدر له أن يتخذ فيما بعد سمة القومية ، قد كان يحيا فى وجودهم . حقا لقد كانت لهذه القومية فترات من الخمود لكنها ـ مثلها فى ذلك مثل جميع القوميات ـ خرجت الى الوجود دافقة النشاط فى منتصف القرن التاسع عشر . وكانت فى سورية أقوى منها فى أى بقعة أخرى من بقاع العالم العربى . اذ كانت سورية على اتصال بأوروبا التى فتح الطريق اليها مسيحيو لبنان ، مستغلين امتيازاتهم الخاصة .

وقد بدأ السوريون مقاومتهم الوطنية بما يمكن أن يسمى بالانتفاضة الفكرية • فزحموا المطابع ونشروا دائرة معارف عربية وترجموا هوميروس وفرجيل والكتب الكلاسيكية الأخرى ، وأعمال كثير من شعراء العصر الحديث وكتاب المقالات من مختلف اللغات الأوروبية • وكتب أكثر من بحث حول هذه الاكتشافات من الأدب الغربى • فاستجابت مشاعر الشباب ، وهم يقرءون هذه الكتب العظيمة الى نزعات الحرية التى وجدوها لدى هؤلاء الشعراء ، والى مدارات كتاب المقالات التى كانت تقوم على حرية الفكر كلية • فعقدوا مقارنات بين أبطال هوميروس وأبطال جنسهم التقليديين ، وعمق كل الكتاب نقمتهم على البيئة التركية ، بالرغم من أنه ولد قبل أن يولد الأتراك بزمن طويل •

وفى كل شىء يقرأ تكمن بذرة ما سيكتب • وسرعان ما ظهرت الجرائد العربية تعالج أخبار الأفكار أكثر مما تعالج أخبار الأحداث • وفى عام ١٨٦٠ أسس بطرس البستانى جريدة كان لها تأثير قوى اسمها نفير سورية • وهو اسم يعبر أصدق تعبير عن رسالة الجريدة • وهناك جريدة أخرى من النوع نفسه اسمها الجنان • وأصبحت بيروت ، حيث المدارس الأجنبية ، المركز الرئيسى للصحافة العربية بالرغم من أنه كان لمدن أخرى فى فلسطين وفى سورية الشمالية نصيبها • وبدأت النساء تضطلع بدور فى هذه الحركة الوطنية الناهضة • وساعد الكثير منهن فى اصدار رقاع وكتيبات اشتدت وطنيتها وتطرفت سوريتها مع ازدياد استثارة اهتمام الأتراك •

وتحولت هذه الحركة الى حركة سرية أيضا • فتألفت الجمعيات السرية • وارتحلت الى الخارج أيضا لأن الأتراك أخذوا ينفون القوميين البارزين • وهرب بعض هؤلاء الى مصر وتزعموا الأنشطة المعادية للأتراك هناك • وذهب بعضهم الى فرنسا التى لم تمنحهم الملجأ فحسب بل وبأساس طبيعى دافع ومشجع بقصد اذكاء شعلة الشعور القومى لأسباب من صنعها هى وبتحريضها هى ولأغراضها هى •

وطبقت أفكار الحرية الآفاق وحركة القسطنطينية ذاتها فمنح السلطان الشعب دستورا فى عام ١٨٧٦ ظل خامدا حتى عام ١٨٩٦ حين اجتمع البرلمان بفعل الضغط المتجدد من قبل العناصر المتحررة • ولم يعمر طويلا بيد أنه سرعان ما نشأ حزب « تركيا الفتاة » • وفى عام ١٩٠٨ افتتح السلطان عبد الحميد برلمانا آخر • وقد خدم هذا البرلمان قضية

العرب لأن سورية انتخبت ممثليها فيه مع البلدان الأخرى من الامبراطورية التركية وكانوا جميعا وطنيين ·

وحل هذا البرلمان فى عام ١٩١٢ وذهب معظم نوابه من العرب الى المنفى بيد أنهم كانوا قد اكتسبوا أهلية وصيتا فألفوا الآن فى الخارج نواة لحركة عربية فى الخارج ، حائزة على الثقه ، وعلى اتصال سرى بالوطن · وكان العرب فى فرنسا قد نظموا أنفسهم · وأنشأ مواطن عربى من مصر اسمه مصطفى باشا كامل « لجنة قومية » فى باريس ·

وفى عام ١٨٩٥ أصدرت هذه اللجنه وثيقة فائقة الأهمية · فكانت الميثاق المأمول لاستقلال العرب الذى قدر له ألا يغيب عن البال أبدا ، وأن يظهر مرة أخرى بعد حوالى عشرين سنة مكتوبا بقلم الشريف حسين فى مكه ذاتها · ونجرى الأجزاء الهامه فى ديباجته على هذا النحو . « لقد استفاق العرب الى تجانسهم التاريخى والقومى والعربى وهم يهدفون الى فصل أنفسهم عن الدولة العثمانية والى تشكيل دولة مستقلة ··· تكون حدودها من الدجلة الى قناة السويس ، ومن البحر الابيض المتوسط الى خليج عمان (متمم الخليج الفارسى) ويحكمها سلطان عربى كمملكة دستورية متحررة ·

وكان كل الناس فى عام ١٨٩٥ متحررا (لبراليا) ودستوريا على الطريقة الجلادستونية · أما ما اذا كانت بلاد العرب تستطيع أن تنتج فى ذلك الحين أو الآن ولهذا السبب عينه جلادستونات من القالب نفسه الهاواردى أو تتوفر فيهم الخصائص الجلادستونية للسلالة المدلوطية (Midlothian) فهذه هى المشكلة · بيد أن هذا لا يهم · ان مشروع اقامة الدولة قد أعلن للملأ فى بيان اللجنة القومية · كما أعلنت أبعادها للملأ · ووضع مبدأ الحكومة غير الاستبدادية أساسا لها ·

ولم يستطع الزعماء العرب فى سورية أن يتبنوا جهارا المقترحات التى صدرت فى باريس · فأخذوا يسعون وراء قدر من الحكم الذاتى فى ظل الحكم التركى · وشكلوا « لجنة اللامركزية » كما أسموها · ونشرت هذه اللجنة بيانا يقضى بوجوب تعيين الحكام المحليين بموافقة السلطات المحلية فقط · كما طالبوا بانشاء مجالس اقليمية ·

وما جاءت بداية القرن الجديد الا كانت مطالب العرب الرسمية قد أصبحت أكثر جرأة من ذى قبل · وأكثر من هذا تألفت لجنة أخرى أكثر من غيرها تعبيرا عن مشاعر السكان ، من أربعة وثمانين عضوا ، نصفهم

مسيحيون والنصف الآخر من المسلمين وكان هدفها هو تحقيق انشاء « مجلس اقليمى عام لسورية » ومعناه فى الحقيقة اقامة حكم أهلى فى سورية ·

وفى الوقت عينه ، كانت الحركة الوطنية السرية الموجودة فى الخارج، والتى تهدف الى نيل الاستقلال التام ، تجمع قواها الدافعة · فتوسعت اللجنه القومية الموجودة فى باريس الى « جامعة الوطن العربى » ووضعت عودة جميع البلدان العربية الى العرب هدفا لها ·

وحين استولت حركة « تركيا الفتاة » على السلطة اعترى الحركة الوطنية العربية بعض التردد · وكان معظم الشخصيات العربية مشتركا فيها فى البداية ، ظنا منهم أنها قد تكون خطوة نحو هدف العرب مادامت تقدما عاما الى الأمام نحو التحرير · وكان شوقى باشا ، وهو عربى ، رجلا بارزا بين الجماعة التى خلعت السلطان عبد الحميد · وقد شغل العرب فى عهد خلفه محمد الخامس (السلطان محمد رشاد ــ المترجم) كراسى فى الوزارة ··· لقد شغلوا على العموم مراكز أعلى من المراكز التى كانت مقدورة لهم فى السابق ·

لكن حركة الشباب الأتراك سرعان ما أخذت تصبح حركة تركية صرفة أكثر فأكثر ، آخذة بفكرة القومية التركية على حساب نظام الحكم العثمانى الورانى السابق · وهذا يعنى كبت جميع العناصر غير التركية فى حياة البلاد وسرعان ما بدأ العرب ، وهم يرون أن ليس أمامهم شىء يتطلعون اليه غير الاذعان ، يقطعون روابطهم مع أنور ورفاقه ، ان سرا أو علنا ·

وانعقدت آمال العرب الآن فى الجمعيات السرية وشبه السرية · وربما كان « حزب العهد » أقوى هذه الجمعيات على الاطلاق ؛ وكان يسمى أحيانا ب « العهد » على سبيل الاختصار أو The Party of the Oath فى لغتنا · وكان أخطر هذه الجمعيات بالنسبة للأتراك لأن أعضاءه كانوا جميعا من الضباط العرب فى الجيش التركى وأقسموا ــ كما يدونها لورانس ــ على « أن يكتسبوا خبرات سادتهم العسكرية ويحولوها ضدهم خدمة للشعب العربى حين تحين لحظة الثورة · »

وهناك جمعية سرية أكبر · وهى تمثل ــ على نحو ما ــ الجانب المدنى المقابل لحزب العهد ، وهى المسماة ب « الفتاة » · وكانت ، كما يقول لورانس : « جمعية الحرية فى سورية · لقد تضافر ملاك الأراضى ،

والكتاب، والأطباء ، والموظفون العموميون الكبار فى هذه الجمعية ، تنتظمهم جميعا عقيدة واحدة ، وكلمات سر واحدة ، واشارات واحدة ، وخزانة مركزية واحدة ليدمروا الامبراطورية التركية . » واسم هذه الجمعية بالكامل هو « العربية الفتاة » التى تعنى « شباب العرب » . وكان أعضاؤها فى الواقع من الشبان العرب الذين كانوا ذلك الكيان المقابل للشبان الأتراك . وقد أنشئت فى باريس بين ظهرانى الطلبة العرب وبعض المقيمين من العرب هناك . وان ثلاثة من مؤسسيها هم ممن طردوا من فلسطين . وقدر لواحد منهم أن يشتهر فيما بعد باسم عونى بك عبد الهادى ؛ أحد الموقعين على معاهدة الصلح فى فرساى ، ثم أحد المعتقلين فى « معتقل صرفند(١) » بعدئذ بسنوات .

وكان أوسع هذه الجمعيات طرا جمعية « المنتدى الأدبى » التى تأسست فى القسطنطينية فى عام ١٩١٢ . بيد أن معظم أعضائها وتنظيماتها كان فى سورية ، شأنها فى ذلك شأن الجمعيات الأخر . ولم يكن للمنتدى فى الظاهر أية اهتمامات سياسية بل بالمتابعات الأدبية والاجتماعية . وكان فى وسعها لهذا أن تتمتع بالوجود العلنى . وكانت تصدر مجلة واسعة الانتشار ، رئيسا تحريرها « شراكة » هما علامة عربى من بغداد وعاصم بك بسيسو من غزة : أما مؤسسها فهو جميل بك الحسينى من القدس . وكان « المنتدى الأدبى » بالطبع بؤرة للعمل الوطنى فيما وراء ستار اجتماعاته وندواته العلنية التى لا غبار عليها .

وهناك جمعيات أخرى صغيرة لكن هذه الثلاث أهمها . ويلاحظ القارىء أن عرب فلسطين ، وهم أبعد ما يكونون عن الخمول واللا مبالاة والغموض ، كانوا بارزين أيما بروز بين منظمى هذه الجمعيات وهذه الحركة الوطنية .

ويتحدث لورانس الذى لم يكن يعبأ بسكان المدن والذى لم يكن يسعى وراء الدس والتآمر لصالح أى فريق من الفريقين المتنازعين برغم مواهبه الخاصة فى التضليل ، يتحدث بازدراء عن جمعية الفتاة ، ويتمنى لو أن أعضاءها قد طلبوا الحرية « عن طريق التضحية » أى بالمجازفة بالقيام بثورة . لكنه يسلم بأنها قد أصبحت منظمة مرعبة . وان من الجائز أن

---

(١) عدنى بك عبد الهادى هو احد المندوبين العرب الى المؤتمر الذى دعت اليه الحكومة وافتتحته فى قصر سانت جيمس فى شباط من عام ١٩٣٩ ، فى الوقت الذى تأخذ فيه هذه الصفحات طريقها الى المطبعة – المؤلف .

الجمعيات العربية كانت تعرف فى ذلك الوقت ما الذى يخدم قضيتها خيرا مما يعرف هو ٠

وعقد مؤتمر وطنى غربى فى باريس بعد ذلك بثلاث سنوات ، لكن حروب البلقان وحروب طرابلس (طرابلس الغرب - ليبيا - المغرب) عادت على الآتراك ببعض التخفيف من حنق العرب عليهم ٠ وثارت نائرة أكثر المحررين العرب تقدما من زحف الجيوش الأوروبية على تركيا ٠ ولم يكن مرد ذلك الى أنهم كانوا يأبهون ، ولو بمقدار شروى نقير ، بالابقاء على الامبراطوريه التركية ، ولكن لأن تلك الدولة لم تكن تشكل عقبة فى طريق بلوغ آمالهم كتلك التى يشكلها الزحف الأوروبى ٠ لقد كانوا يشعرون أن النير التركى شىء فى مقدورهم أن ينخلصوا منه ان آجلا أو عاجلا لكنهم كانوا يمتلئون شكا حيال آمالهم هم فى تربة بلادهم التى تحصدها أوروبا من تركياوتملأ بها مخازنها وبوائكها ٠ ولم تتكشف هذه الظنون حتى اليوم عن أنها قامت على أساس خاطىء ٠

وعلى أى حال ، فقد ازداد ضغط العرب على الأتراك بعد اختتام نزاعات البلقان وطرابلس ٠ ووجد اقتراب الحرب العظمى سورية توشك على المطالبة رسميا بالاستقلال الذاتى ٠ ولكن لما كانت الأحداث التى حفت بالحرب العظمى حتى أدخلتها الأبواب ثم شيعتها بعد ذلك وهى تخرج ، أهم من أى شىء عداها فى تاريخ المشكلة الفلسطينية فان من الأوفق أن نعود اليها فيما بعد ونأتى على ذكرها بالتفصيل ٠ وينبغى علينا أولا أن نقدم موجزا عن أصل وقيام القوة الأخرى التى ذكرناها فى مستهل هذا الفصل، ألا وهى الصهيونية ، وأن نقدم بعض الملاحظات حولهما ٠

الفصل الرابع

اليهود فى فلسطين ــ اساءة استخدام لفظة « منفى » ــ هل داموا فى فلسطين ؟ ــ الحركتان الصهيونيتان ــ الصهاينة الأول ــ هرتزل والصهيونية السياسية ــ رفض لأن يحسوا بوجود العرب

ان قليلا من القضـــايا قد دانت بوجودها للجهـــل بالشىء الكثير ، كقضية الصهيونية · ولا يعنى هذا أن الصهاينة أنفسهم جهال · ما أبعدهم عن هـــذا !

وان ما يقصد بدين الصهيونية للجهل هو أن ذلك القدر من النجاح الذى أصابته الصهيونية فى الدوائر البريطانية ؛ وفوق ذلك ادراجهـــا كقضية بين القضايا السياسية البريطانية ، راجع فى الدرجة الأولى الى جهل الرأى العام البريطانى · فلقد استطاع أعضاء الوزارة البريطانية الذين تبنوا الصهيونية خلال الســــنوات الأخيرة من الحرب (العـــالمية الأولى ــ المعرب) أن يفرضوها على فلسطين لأن أحدا فى بلادنا لم يكن يعرف شيئا عن أقرب الماضى الفلسطينى القريب العهد ولقـــد اقترفت هناك أفعال ما كان أحد ليمكن أن يخاطر باقترافها لو كان ناخبو المملكة المتحدة يعلمون بواطن الأمور ، ومفتوحى العيون ·

وليس هناك شك فى أن بعض الساسة البريطـــانيين الذين كانوا يضطلعون بالمسئولية آنذاك ربما لم يكن يتوفر لديهم ، هم أنفسهم، المام بتاريخ هذه البلاد التى كانوا ينوون حكمها · وكان بامكانهم ، والحالة هذه ، أن يقرءوا شيئا عنه ، وأن يتلموا ، كصبيان الصناع الذين يتدربون لاتقان صنعة معلميهم ، دروسا عملية فى هـــذا الموضوع الذى ينوون التدريس فيه · لكنى أخشى أن معظمهم لم تكن له مصلحة فى تبديد جهل

الشعب · بل ولقد ذهب أحدهم ، وهو اللورد بلفور ، الى ما هو أبعد من ذلك · لقد أبقى اللورد بلفور نفسه بريئا من كل ما يمت الى فلسطين بصلة عمدا ثم استغل براءته هذه ، فكانت هـذه حالة من حالات الذهن تستهوى طبيعة خلقه الفريدة ·

وان قطعة صغيرة من هذا الجهل المطبق الذى ساعد قضية الصهيونية أيما مساعدة ؛ وما زال يساعدها بلا ريب ، هى هذه الفكرة الشائعة التى تقول بأن جميع اليهود قد طردوا الى المنفى فى فجاج العالم حين احتل الرومان القدس فى عام ٧٠ ق·م· ودمروا الهيكل · والحقيقة الواقعة هى أن اليهود قد ظلوا من القوة في فلسطين بحيث شنوا ثورة نهائية بعد سقوط القدس بستين عاما ·

بيد أن هذه نقطة قليلة الأهمية · أما النقطة ذات الأهمية الكبرى فهى أن معظم اليهود لم ينفوا أبدا الى المنفى فى فجاج العالم على الاطلاق· لقد بارحوا فلسطين قبل أيام الرومان فيها بزمن طويل لأنهم شاءوا أن يبارحوها · لقد تركوا الوطن بسبب ظروفه الصعبة أو على أمل أن يحسنوا أحوالهم ، ففرت معيشتهم فى رحاب العالم القديم · انهم لم ينفوا وانما هاجروا · وكانوا هم وآلهم يحبون ، حين تتوفر لهم الوسائل ، أن يعودوا الى فلسطين زائرين وليس فى نيتهم العودة للعيش فيها ولم يكن يخامرهم أقل أمل ·

ويعترف كتابهم هم أنفسهم اليوم بهذا الوضع ، كما اعترفوا فى الأيام الخوالى تماما فيقول المستر نورمان بنتوتيش (Bentwich) :

لقد بعثر أطفال اسرائيل في جميع بلدان الحضارة الهيلينية طولا وعرضا ··· فى فارس وبابل ؛ فى مصر وقبرص ؛ فى جزر اليونان وسواحل آسيا الصغرى · لقد قالت نبوءة العرافة : « ان الأرض والبحر يمتلئان بهم · » وفى الاسكندرية عاصمة العالم الثقافية تجمعوا بمئات الألوف وشغلوا حيين من أحياء المدينة الخمسة · وأحرزوا بعديدهم وبتفوقهم التجارى مركزا فى قلب الشرق هناك ، مشابها لهذا المركز الذى يتمتع به اليهود اليوم فى حاضرة العالم الحديث ·

ويكتب المستر ليونارد شتاين فيقول :

لم تكن فلسطين فى أيام الكارثة (سقوط القدس) تحتوى على أكثر من نتفة من الجنس اليهودى · فقبل ذلك بزمن طويل ، كانت

هناك طوائف يهودية مزدهرة فى مصر ، وفى كايرينيكا ، وفى سورية (يقصد سوريا الشمالية) ، وفى بلاد ما بين النهرين ، وفى ايطاليا وفى اليونان • والواقع هو أنه يقـال انه كان فى فلسطين فى بداية العهد المسيحى سبعمائة ألف من اليهود فقط من بين نحو أربعـة ملايين كانوا فى الامبراطورية الرومانية وحـدها •

والحقيقة الواضحة هى أن أغلبية اليهود الساحقة قد قنعت، فيما يزيد عن ألفى عام ، بأن تعيش خارج فلسطين • ولقد ظل يربطهم بها رباط ، أو يربط أولئك الذين كانوا منهم جـد متعلقين بهـا ، لكنهم لم يكونوا منفيين ، ولا كانوا فى أى يوم من الأيام منفيين لفترة قاسوا فيها عـذاب النفى ، بكل معنى حقيقى لكلمة النفى ، كما تبين ذلك الغدوات والروحات التى كان يقوم بها أولئك الغادون الى فلسطين بقصد الزيارة •

وليست هـذه الحقيقة معروفة على نطاق واسع لسوء الحظ • وان ساسـتنا نحن هم آخـر من يكشفها • أنهم يعصـلون لناخبى دوائرهم الانتخابية أن يعتقدوا أن اليهود قد طـردوا بالجملة من وطنهم وأنهم قد حيل بينهم وبين العودة اليها بالجملة ، وأن هذه الأحوال قد سادت دائما•

ودعنا ، على أى حال ، نتتبع تاريخ اليهود فى فلسطين • لقد تركت الأرض قفرا بعد العصيان الأخير • ووقع فيهم الذبح والاسترقاق بأعداد غفيرة • وقاسى كثير من يهود فلسطين النفى الحقيقى برهة من الزمن كهذا النفى الذى قاساه زعماء العرب فى سيشل • الا أنهم قد سمح لهم فى عهد الأباطرة الذين جاءوا بعد أدريان بالعـودة ، ولو أنه كان هنـاك القليل مما يغريهم فى ذلك الحين على العودة • اذا كانت مدينة القدس قد حولت مدينة رومانية وأطلق عليها اسم ايليا كابيتولينا • وكانت هذه المنطقة بالذات ؛ أى عاصمتهم ، حراما عليهم • ففضـل معظمهم البقـاء فى الاسكندرية وفى المدن الأخرى التى لاذوا بها •

الا أن مجموعة من قساوستهم ومعلميهم لم تنف من فلسطين ، وان طردت من هذا المكان الى ذاك • فألفوا بعصا ترحالهم ، نتيجة لذلك ، فى الجليل بالدرجة الأولى حيث أقاموا مدارس ربانية • وكان هؤلاء رجالا ذوى ايمان قوى ، فجعلوا من أذهانهم ، حين دمرت معابدهم المرئية ، معابد وأبقوا فيها شمعة يهوفا المقدسة مضاءة • فاكتسبوا شهرة جلالية فى طول

الدياسبورا(١) وعرضها . وهذه الدياسبورا هي الكلمة الاغريقية التى تستخدم عموما للدلالة على جمهرة المحلات(٢) اليهودية المبعثرة فى جميع أرجاء العالم .

لكن مدارسهم أخذت تنحط مع مرور الزمن . وأخذت البقية اليهودية الباقية تتضاءل شيئا فشيئا . أما ما اذا كانت هذه البقية قد حافظت على بقائها فترة من الزمن أو تلاشت دفعة واحدة فهذه مسألة فيها نظر . ولا يستطيع أحد أن يجزم بما حدث فى أواسط العصور المظلمة . وقد قام الرحالة لورانس أوليفانت قبل حوالى ثمانين عاما بزيارة الى البكيرة وهى قرية الى الغرب من صفد فى الجليل الأعلى (أو الجليل الشمالى — المعرب) « تقوم فى قفر منعزل جبلى موحش » بسبب حفنة من اليهود يعيشون فيها اشتهر عنها أنها الطائفة اليهودية الوحيدة التى نبتت فى هذه التربة منذ أيام المسيح . ومثل هذه الرواية يمكن الأخذ بها .

وبعد معركة اليرموك التى سبق وأن ألمحنا اليها والتى وقعت فى النسطر الأول من القرن السابع ، شمل حكم الخلفاء الذين جاءوا بعدها عددا من اليهود اذ توجد لدينا تسجيلات بأنهم قد عاملوهم بحلم وتسامح. وكان اليهود يعيشون فى المدن الرئيسية ، فلم يندثروا من تقلبات القرون التالية . بيد أن الصليبيين ذبحوا عددا كبيرا منهم حين فتحوا القدس .

وكان صلاح الدين رحيما بهم استعاد ملكه . وكانوا فى ذلك الحين قلة . ويذكر التاريخ حادثة عجيبة تكاد تكون مجهولة ، ألا وهى استقباله فى عام ١٢١١ لثلاثمائة حاخام من انكلترا وفرنسا جاءوا ينشدون تحرى الآفاق من أجل هجرة يهودية . وانهم يستحقون بكل تأكيد أن يسموا بالصهاينة الأول . فهم قد ضربوا مثلا لأخلاقهم من بنى القرن العشرين الذين فعلوا كل شيء قبل أن يدخلوا فلسطين الا أن يتحروا الآفاق لهذه الهجرة لدى السكان العرب .

وما كان لبعثتهم هذه أن تعود بنتيجة ، على أى حال . اذ أنه بعد ذلك الحين بحوالى خمسين عاما لم يكن هناك الا اثنان من اليهود فى عام ١٢٦٧ يسكنان مدينة القدس . وكانا أخوين . وفى عام ١٣٢٧ توطنت فيها طائفة صغيرة منهم ، كانت فى معظمها من الصباغين . وفى بداية القرن الخامس عشر كان هناك كنيس فى المدينة المقدسة ، لكن جمهوره

---

(١) الدياسبورا ، هى لفظ معنوى للمناطق التى حل اليهود بها بعد تشتيتهم .

(٢) جمع محله — المعرب

اضطهد فرحلت عن المدينة مائة أسرة لابد أنهـا كانت تبلغ فى مجموعها العدد الاجمالى للمؤمنين باليهودية تقريبا ٠

ويبدو أن عدد اليهود فى القدس خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر قد تراوح ما بين ٢٥٠ الى ١٥٠٠ نفس ٠ وان طرد اليهود من شبه الجزيرة الاسبانية فى عام ١٤٩٢ هو المسئول عن أكبر هذين المجمـوعين الاجماليين ٠ الا أن معظم اليهود المطرودين الذين جاءوا الى الشرق لم يذهب الى فلسطين بل الى سالونيك ، حيث ظلوا فيها حتى يومنا هذا ٠

أما تعداد السكان المسلمين فى القدس فقد تراوح فى ذلك الوقت أيضا ٠ لقد كان عشرة آلاف فى عام ١٤٨١ طبقا لما يقوله الرحالون ٠ لكن الطاعون قد أنقصه الى النصف فى بحر السنوات القليلة التالية وأنقص معه تعداد النواة اليهودية فيها ٠

ويذكر لنا المستر بنتويتش واقعة عجيبة من وقائع القرن السادس عشر ؛ واقعة فرد من أسرة يهودية نفيت من البرتغال ، اسـمه الدون جوزيف نازى « أصبح أوثق دبلوماسيى الامبراطورية العثمانية ، وكان من قبل قد نصب دوقا على ناكسوس بعد أن خامرته فكرة اقامة مستعمرة يهودية فى احدى جزر الأرخبيل اليـونانى ثم هجرها ، وحصـل من السلطان سليم الثانى على عطية من رقعة أرض كبيرة فى الجليل مع السماح له باعادة بناء مدينة طبرية وبأن يأهلها باليهود كلية ٠ » وهذا السلطان سليم هو السـلطان الذى هددت أساطيله البـلاد المسـيحية لكن دون النمساجون دمرها فى موقعة ليبانتو ٠ ولا يبدو أن مشروع اعادة بنـاء طبرية قد وضع فى مجال التطبيق أبدا لكن المستر بنتويتش يقول عنه : وربما لم يكن يدرى بسفارة الثلاثمائة حاخام الى صلاح الدين ، انه وحى الحركة المعاصرة فى عودة اليهود الى أرض الآباء والأجداد ، وانه أول تعبير مبهم عن انتعاش الوعى القومى اليهودى ، وان بعض المحلات اليهودية فى قرى الجليل الأعلى هى نتائج له ٠

وفى النصف الأول من القرن التالى نقلت الأخبار أن فى مدينة القدس ألفين من اليهود ٠ وهبط عددهم الى ألف فى عام ١٧٣٠ ٠ أما خارج القدس فكانت هناك جماعات منهم ، وكان معظمها فى صفد وفى طبرية ٠

ومع مقدم القرن التاسع عشر نجىء فترة أعدادهم الكبيرة ٠ فيقول نوع من الاحصاء قام به لودفيج فرانكل فى عام ١٨٥٦ بوجود ما يقرب من خمسة آلاف يهودى فى القدس ٠ ولابد أنه كان هناك عدد أكبر من

هذا العدد فى الأجزاء الأخرى بالأحرى • ويقدر عدد السكان اليهود فى عموم فلسطين فى الثمانينيات بعشرين ألفا تزايد فى ظل أحوال الحكم العصرية ، ومع اقامة أولى المستعمرات اليهودية الى خمسة وثمانين ألفا أو نحوها الى ما قبل حرب عام ١٩١٤ •

وكفانا هذا القدر عن تعداد اليهود فى فلسطين • ان الأرقام التى أوردتها والدلائل الأخرى من نوع هذه الموجودة بين أيدينا تذهب الى نبيان أنهم ربما احتفظوا بخيط واه ؛ مجرد خيط ، بهذه البلاد من جراء الاقامة فى بقعة خافية من بقاع الجليل منذ زمن المسيح • أما عن سكناهم فى مدينة القدس ففيه فجوة تبدأ من أواخر عهد الرومان الى نهاية العصور المظلمة • وأغلب الظن أنه كانت هناك فجوة أخرى بعد الحروب الصليبية • ومع ذلك فان القدس قد كانت المركز الحقيقى بالنسبة لهم منذ أن أقاموا بين العرب فى فلسطين فى أيام حكم هنري الثالث فى انجلترا قبل ستمائة وخمسين عاما • ولقد واظبوا خلال هذه القرون على هذه العادة الاحتفالية من « من العوايل على الحائط » كذكرى دينية لهيكلهم المندثر • أما ما هو مدى هذه المواظبة فذلك ما لا يتيسر لأحد أن يجزم به •

وليس هذا بالشىء الذى يزعج أى مدافع اليوم عن قضية العرب فى فلسطين • ولو أن هــذه الهجرة اليهودية المعاصرة قد قامت وفاء لتلك الرابطة القديمة فوجهت بصورة نظيفة وكانت معقولة فى حجمها لما كانت هناك اليوم أى مشكلة اسمها مشكلة فلسطين ، ولا أى قضية عربية ندافع عنها ، على ما أظن (وكما سبق لى أن بينت) ، لأن هذه المشكلة لم تقم وتصبح مزمنة ومتوطنة الا لأن هــذه الرابطة القديمة قد أولت بصــورة تتحدى ملكية العرب لهذه البلاد •

وما كان ينبغى أن يقوم فى وجه الحق للعرب فى ملكيتهم لارضهم تحد لا يقوم على أساس لهذا التحدى •

انه حق — ويجب أن نردد هذا المرة تلو المرة ولا نمل من الترداد — آل الى العرب بوصفهم الممثلين الشرعيين حاليــا للأجناس التى ملكت فلسطين حين لم يكن اليهود شعبا بعد • انه آل اليهم لأنهم ظلوا يعمرون هذه الأرض منذ ألف وثلاثمائة عام على الأقل ودون انقطاع • وتحمل هذه الفترة الزمنية فى طياتها الدليل البين الجلى من أدلة الملكية لدرجة أن أى حق كهذا فى أى مكان آخر من العالم المتحضر لا يمارى فيه الا المجانين والأوغاد • الا أنه مادام هذا التحدى قد أعلن فان المشكلة الآن هى كيف تأتى له أن يعلن ؟ ••• كيف نشأت الصهيونية المعاصرة ؟ وانها حركة

معاصرة مهما خطر لنجومها أن يتحولوا عن رغبة اليهود فى امتلاك فلسطين مرة أخرى من قديم الأزمان ٠

وللمستر ليونارد شتاين ، وهو رجل أديب ، بعض الفقرات البصيرة عن موقف اليهود خلال العصور ٠ انه يقول :

كان بامكان اليهود ، على مر الأجيال ، أن يسكنوا فى بولندا أو روسيا ، فى ايطاليا أو اسبانيا فى بلاد الراين ، لكن فلسطين كانت ما تزال أرض اسرائيل ٠ لقد ظلت فلسطين المكان الذى تهفو اليه قلوبهم ، فى أيام النحس والخير على السواء ٠ فكانوا يمدون اليها أيديهم تضرعا من رغد العيش وأمانه فى الأندلس بضراعة لا تقل عن مدها اليها من أوكار الغيتو(١) المظلمة ، ولقد كانوا يتغنون بها ، ويصلون من أجلها ، ويندبون جلالها ، المندثر، وينتظرون بفارغ الصبر ساعة خلاصها ٠

ثم يتابع حديثه فيقول :

وفلسطين هذه التى كانوا يحلمون بهـــا كانت قد كفت لدى معظمهم عن أن تكون فلسطين الواقع المجسد ، فكانوا لا يعرفون عن موقعها الجغرافى أو عن شكلها المادى الا أقل القليل أو لا شىء على الاطلاق ٠ اذا لم تكن تربطهم بها رابطة من العواطف والمشاعر الشخصـــية ، ولا تراود مخيـــلاتهم ذكريات عن مشاهدها أو عن أصوات فيها ٠ انها ليست فى الواقع الا فكرة مجردة ٠ وسوف تكون عودة المنفيين (يحلو للمستر شتاين أن يسميهم «بالمنفيين») عودة بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة ، بكل تأكيد ٠ بيد أنها لن تتحقق نتيجة للجهد الانسانى : ستتحقق حين يشاء الله لها أن تتحقق مع ظهور المسيح من جديد ٠

وكل غرضنا من هذا الموضوع موجود فى هذه الفقرة ٠ لقد كانت صرخة الجنس اليهودى من أجل فلسطين حتى أيامنا الحاضرة ، أو قل حتى بداية القرن التاسع عشر صرخة دينية بحتة ٠ وكبداية نقول ان هـــذا القول قد جعل من هذه الصرخة مجــازا صرخة للجنس اليهــودى كله اذا ما اكترث أولئك الذين كانوا مفيدين أنفسهم من بين ملايين اليهود بآفاق التجارة ومبادىء الانسانية ولم يكونوا يرون شيئا غيرها ؟! أما أولئك الذين كانوا يتطلعون الى ما هو أبعد من ذلك ؛ أولئك الذين كانوا يتنافصون مع

---

(١) لفظة ايطالية الاصل تطلق فى الغرب على احياء اليهود فى المدن — المعرب ٠

تعاقب القرون الى أقليات تتضاءل وتتضاءل ، فلم يفكروا فى أي يوم من الأيام بأنهم سيحلون فى فلسطين الا حين يجيء ذلك اليوم الذى ينتهى فيه الزمن فيعيدهم المسيح الى فلسطين وقد تبدلت فأصبحت حجرا يعبر عليه الى العالم الآخر • انهم لم يكونوا يصلون من أجل رقعة من الأرض؛من أجل الدنيا ، بقدر ما كانوا يصلون من أجل الآخرة • ولقد ترك الصهاينة أيامنا الحاضرة ؛ لمجموعة من الناس تختلف عن أولئك اختلافا كليا وليست أبدا وريثة لهم ، الحبل على غاربها لتلمح الى أنهم قد حلموا فعلا ببلاد واضحة المعالم والتخوم ، ولتخرج أطالس لنقيس بها مكان تجلى أسلافهم على ظهر الأرض من جديد •

بل ولقد كانت هناك بدايات للصهيونية الحديثة مسرفة فى الخيال أعقبت الثورة الفرنسية مباشرة فلقد نشر خطاب غفل من التوقيع موجه الى يهود فرنسا فى عام ١٧٩٨ من قبل أحدهم ، اقترح فيه صاحبه انشاء مجلس يهودى من قبل كل يهود العالم يسعى لدى الحكومة الفرنسية من أجل اعادة فلسطين الى « شعبها التقليدى » وقال هذا المرفوم الذى يحمل هذه السمة المميزة : « ان البلاد التى تطالب بأن نحتلها ستضم ـ وهذا مرهون بتلك الاتفاقات التى تراها فرنسا مقبولة ـ مصر السفلى باضافة منطقة تكون حدودها خطا يجرى من عكا الى البحر الميت ومن الطرف الجنوبى لهذه البحيرة حتى البحر الأحمر • ثم تابع الكاتب خطابه الى تبيان الفوائد الاقتصادية بالنسبة للجميع من وراء هذا الاحتلال الذى عرضه بكل هدوء وبلا حياء •

ويتوفر لدينا فى هذا المقام دليل ، غير موثوق به كثيرا ، على أن نابليون ، قد لعب بعينة من هذا المشروع الصهيونى ، فقد ظهرت فى الثانى والعشرين من آيار لعام ١٧٩٩ رسالة فى « المونتير » وهى الجريدة الرسمية للحكومة الفرنسية التى كانت قائمة آنذاك ، مؤرخة فى الفسطنطينية تجرى سطورها على هذا النحو : « لقد أمر نابليون باصدار منشور يدعو فيه جميع يهود آسيا وافريقيا الى الانضمام الى بيارقه من أجل اعادة بناء مدينة القدس القديمة • وقد جند فى جيشه عددا كبيرا منهم وها هى كتائبهم تهدد الآن مدينة حلب • »(١)

وبعد بضعة أسابيع ذهبت المونتير الى تبرئة نفسها من مسئولية نشر هذه الرسالة لأسباب ظلت مجهولة للأسف فأوضحت قائلة : « ان بونابرت

(١) اورد المؤلف هذا النص بأصله الفرنسى ثم ثناه بترجمته الى الانجليزية ـ المعرب •

لم يفتح سورية لمجرد أن يعيد لليهود مدينتهم القدس ٠ ان فى رأسه خططا أوسع من هذه ؛ خططا فى الزحف منها على القسطنطينية والقاء الرعب فى قلب فينا وسانت بطرسبورج » ٠

وقد محص المستر فيليب جويدالا هذه المقتطفات من جريدة الحكومة الفرنسية فتألق فيها ذهنه الوقاد وأطل التساؤل فيها فى تنايا كلامه غير مقتنع بكل ما جاء فيها ٠ انه لم يستطع أن يجد فى أرشيف الحملة المصرية أى أثر لهذا الاعلان المذكور ولا أى وثيقة من وثائقه تسنده ، أو حتى تشير اليه ٠ كما أن حلب لم تهددها فى يوم من الأيام أية كتائب يهودية ٠ وان أحدا لم يهدد حلبا ٠ بل ولم يقترب منها نابليون أبدا ٠

وحين يسائل المستر جويدالا نفسه ، نتيجة لذلك ، عما اذا كان لاستعادة الدولة اليهودية فى فلسطين نصيب من خطط نابليون يجيب قائلا : « الجواب ليس خلوا من الشك ٠ » بيد أنه يفصل فى هذا الأمر فيقول ان هناك أضيق الاحتمال فى أن تكون فكرة من هذا النوع قد طافت بذهن ذلك الجندى العظيم ٠ انه يعترف بأن من المحتمل ان « كان نابليون صهيونيا مؤقتا لبضعة أسابيع من ربيع عام ١٧٩٩ ٠ » ولقد أحسن اختيار هذه الصفة ٠ اذ أن هذا الوقت هو أقرب الأوقات التى يمكن أن يكون فيها نابليون صهيونيا ٠

ولا نكاد هذه الواقعة الغريبة الصغيرة تستحق منا أن نسجلها هنا لولا نتيجة واحدة ترتبت عليها ٠ لقد نشر المستر جويدالا أبحاثه فى هذا الموضوع فى محاضرة ألقاها فى الخامس والعشرين من آيار لعام ١٩٢٥ أمام الجمعية التاريخية اليهودية فى اليونيفيرستى كولدج بلندن ٠ وقد تصادف أن كان المستر لويد جورج ضيف الشرف لهذه الجمعية فى تلك المناسبة ، فنهض بعد المحاضرة وأزجى التحية المعتادة للمحاضر ٠ وكان فى كلمته هذه أصرح وأكثر توسعا فى شرح الظروف والملابسات التى تبنت فيها وزارة الحرب(١) قضية الصهيونية ٠٠٠ كان أصرح وأكثر توسعا ، بصفة خاصة ، من نفسه ، ومن أى مرة تحدث فيها بعد ذلك بهذا الخصوص٠ انه تضافر غريب حقا للظروف ٠٠٠٠ تصريح سببه رسمى منسوب الى الامبراطورية الفرنسية ، ومحاضرة خاصة عنه بعد مائة وخمسة وعشرين

(١) وزارة الحرب فى بريطانيا مجلس يتألف من بعض وزراء الامبراطورية ويختص بشئون الحرب فى أيام الحرب وهو مقابل لمجلس الدفاع الاعلى فى الجمهورية العربية المتحدة ، وهذه الوزارة هى غير وزارة الحربية التى تسمى فى بريطانيا مكتب الشئون الحربية او المكتب الحربى — المعرب ٠

عاما ثم يغشى المستر لويد جورج السبب فى تبنيه سياسة كانت كارثة محققة على الامبراطورية البريطانية ·

واذا عدنا الى تاريخ الصهيونية فسنجد أنه لم يتخذ أهمية أو مطهرا سياسيا الا فى النصف الأخير من القرن الماضى · ففى عام ١٨٢٧ زار السير موسى مونتيفيور وهو يهودى من محبى البشر وأهل البر - أول يهودى يصبح محافظا لمدينة لندن - وتراءى له ، على حد قوله ، أمل توطين « بضعة آلاف من اخوتنا فى أرض اسرائيل » · فنوى أن يؤسس شركة لهذا الغرض وكتب الى محمد على ،الباشا المصرى الذى كان يمثل سورية فى ذلك الحين · بيد أن محمد على صد عنها الى مصر فتبددت خطط السير موسى ·

وقد أخرج كتاب مختلفون خلال العقود القليلة التالية مشاريع لاعادة توطين اليهود أو تعهدوا بالرعاية فكرة وجوب توطينهم فيها · وكان بعضهم من غير اليهود ، وأبرز هؤلاء لورانس أوليفانت · وأخذ مشروعه ومعظم المشروعات الأخرى المقترحة · يتخذ صفة سياسية · وهناك دعابة لا تفلت من عين أحد فى عنوان الكتاب الذى أرسله عقيد يدعى جورج جولد الى الملكة فيكتوريا فى عام ١٩٤٦ : تهدئة سورية والشرق باقامة مستعمرة يهودية فى فلسطين وقد اقترح سير يدعى السير هوللنجزوودت Hollingsworth - وهو سلف سياسى صريح من أسلاف المستر أورومسبيجور - وجوب انشاء دولة يهودية فى فلسطين تحت سيادة بريطانيا لتحمى الطريق الى الهند ·

وقد أسست جمعية تدعى « شوفيت زيون » (أى « محبو صهيون ») بضعة مستعمرات يهودية فى فلسطين بدأت فى عام ١٨٧٠ وأكبر هذه المستعمرات هى مستعمرة مكفة اسرائيل » وتأسست جنوبى يافا وما تزال موجودة ·

حقا ان الاضطهاد هو الذى أخرج الصهيونية الحديثة الى حيز الوجود الاضطهاد بشكلين مختلفين كل الاختلاف · ففى عام ١٨٨١ نشأت عن رد الفعل الذى أعقب اغتيال القيصر اللبرالى الكسندر الثانى ، موجة من الطغبان فى روسيا · وكان من نتيجة ذلك، كأمر مسلم به ، احدى تلك المذابح المنظمة التى توقع فى أحيان كثيرة باليهود · وكان التشريع الذى أعقب هذه المذبحة مفرطا فى العسف والاستبداد وملحقا أشد الأذى بهم لدرجة أن جموعا غفيرة منهم هربت من البلاد ، واتخذت غالبيتها طريقها الى الولايات المتحدة حيث زاد عدد اليهود فى بحر خمسة وثلاثين

عاما من مائتين وخمسين ألفا الى ثلاثة ملايين ۰ واتخذوا من نيويورك ، وفيها مليون منهم ، أهم مركز لسكنى اليهود فى العالم ۰

وعرج بعضهم على فلسطين۰ فيقول المستر شتاين أن ثلاثة آلاف منهم قد نزلوا مدينة يافا في بحر اثني عشر شهرا من صدور « قوانين مايو » الروسية لعام ۱۸۸۱ « ويقول انهم كانوا طرازا جديدا من المستعمرين ، وانهم ألحوا الى أفضلية فلسطين على الولايات المتحدة أو أى ملجأ آخر ۰ أما المستعمرون السابقون فلم يكن لهم أى خيار ، حين ذهبوا الى فلسطين ، فى الذهاب اليها أو الى أى مكان آخر ۰ ثم يضيف المستر شتاين قائلا : « كما أنهم لم يكونوا مدفوعين بتلك العاطفة القديمة قدم العالم والتى كان رائدها المواساة الدينية للمدائن المقدسة ۰ »

وهذه الحقيقة واضحة وتدعو الى التأمل وكذلك العبارات التى استخدمت فى وصفها ۰ اذ فيما يتعلق بوجود رابطة بين فلسطين وبين اليهود المبعثرين فان هذه الرابطة هى ذاتها هذه « العاطفة القديمة قدم العالم » التى يؤكد المستر شتاين قوتها ما دام تؤكد وجود طائفة يهودية تقوم على أساسها فى الفقرة التى أوردناها عنه قبل صفحة أو صفحتين ۰ لكن المستعمرين الجدد يأبون أن يكون لهم شأن يربطهم بهذه العاطفة القديمة قدم العالم ۰ ومع ذلك فهم يستغلونها فى الوقت الذى يرفضونها فيه ، فاعلين ذلك كما لو أنها ما تزال موجودة ۰ وقد قدر لهذا الاستخدام للجسور بعد نسفها ، للعبور عليها الى فلسطين ، قد قدر له فى الواقع أن يصبح أمرا مألوفا بالنسبة للحركة الصهيونية الحديثة الفريدة فى نوعها ۰

أما النوع الثانى من الاضطهاد الذى كان له أثر كبير فى تحقيق قيام هذه الحركة فقد وقع على شخص فرد وليس على جمهرة ، ألا وهو تحريم الكابتين درايفوس وترحيله الى غيانا ۰ ولقد أرسلت جريدة النيو فرايه برس Neue Freie Presse ؛ جريدة فينا الشهيرة يهوديا شابا من بودابست كمراسل لها فى باريس عام ۱۸۹۱ اسمه تيودور هرتزل ۰ وقد قدر لهرتزل هذا بعد ثلاث سنوات أن يدون محاكمة درايفوس هذا وكل ذلك العداء للسامية الذى أثارته هذه المحاكمة والذى صاحبها (بفتح الحاء ــ المعرب) وقد ترك كل ما رآه هذا الشاب وما سمعه أثرا عميقا فى نفسه لدرجة أنه أخذ يعى الى من من الناس ينتمى وأى وضع صعب فى العالم وضعهم ۰ لقد كان يعتبر نفسه فى السابق رعية استروهنغارية (أو نمسوية مجرية) ولا شىء غير ذلك ، فأصبح يرى فى

نفسه الآن يهوديا ولا شيء غير اليهودى ، أما وأن اخوانه اليهود قـــد هاجروا بأجسامهم من روسيا فقد هاجر هو من النمسا بعقله ٠

واستعرض هرتزل أحوال اليهـــــود ٠٠ فى شرق أوروبا كانوا مضطهدين ، وفى غربها كانوا محتملين ، على أحسن الفروض ، حسبما خيل اليه ، وفى بعض البلدان كان يقل هذا التحمل شيئا فشيئا ٠ اذ حينما كان يوجه اليهود فان عداء سكان هـــذا البلد كان يتزايد ضدهم كلما رفعتهم قدراتهم الذاتية وزادت من نفوذهم فيه فأثقلوا على اهله ٠

وتمعن هرتزل فى هذه المعضلة المفزعة حقـا فخلص الى الاستنتاج بأن الحل الوحيد لها هو أن تكون لليهود دولة خاصة بهم ٠ ولم يعن بهذا دولة يجب على اليهود جميعا أن يذهبوا اليها، بل دولة يجب أن يذهب اليها أولئك اليهود الذين أصبح مركزهم لا يطاق سواء فى روسيا أو فى غيرها ٠ وكانت فكرته هذه بديلا مؤقتا قدر له فى الحقيقة أن يعالج موقف اليهود المضطهدين الحالى فلم يتبصر كثيرا فى المستقبل ٠ وقد نشر نظرياته هذه فى عام ١٨٩٦ فى كتاب عنوانه Der Judenstaat أى الدولة اليهودية وقد أحدث هذا الكتاب دويا كبيرا وقرىء فى جميع أنحاء العالم ترجمات ٠

ولم يدع هرتزل بادىء ذى بدء الى اقامة دولة يهودية فى فلسطين ٠ وانما كانت صرخته صرخة من أجل دولة هنا أو هناك أو فى أى مكان من العالم طالما كانت دولة يهودية ٠والواقع هو أنه تلقى ، بعد سنوات عرضـــا من الحكومة البريطانيـــة عن طريق ما يعرف الآن بـ « المنظمة الصهيونية » ٠ وكان هذا العرض يتألف من ستة آلاف ميل مربع من الأراضى غير المأهولة فى مرتفعات شرق افريقيا البريطانية ٠ ولو كان الأمر بيد هرتزل لاكتفى من فكرته بهذا العرض ، الذى عرض عليه فى عـام ١٩٠٣ ، بحدوه ذلك الاهتمام الذى كان المستر بلفور ورئيس الوزراء يوليانه منذ زمن بعيد للشئون اليهودية ٠ لقد اعتقد هرتزل أنه خطـوة نحو الهدف ٠ لقد أسماه « ناختا سايلا » أى مراح ليلة لأولئك الذين لم يكن لهم وطن فى ذلك الحين ٠ ولكن كان فى الحركة الصهيونية آنذاك الكثيرون جدا ممن تركزت انظارهم على فلســـطين فردوا على العــرض الافريقى بالرفض وان كان رفضا مؤدبا مقرونا بالامتنان ٠

أما موقف هرتزل تجاه فلسطين فهو أنها الموضع الذى يفضله لاقامة الدولة اليهودية لأنها ليست بالشىء الذى يستغنى عنه ٠ وكانت كتاباته قد أيقظت قدرا كبيرا من المشاعر اليهودية ووحدتها حولها فاجتمع ممثلون لهذا الجنس من بلدان كثيرة فى عام ١٨٩٧ فى بازل من سويسرة ليعقدوا

أول مؤتمر صهيونى . وكان قد تم السعى لدى سلطان تركيا فى الوقت عينه وبدت فى الافق فرصة فى أن يمنح للمنظمة الصهيونية المتأسسة حديثا مكانا تحتله من فلسطين . وكان الهدف هو تكوين شركة صاحبة امتياز ، لها امتيازات « شركة جون » ومقرها فى لندن . وكان هرتزل وهو يلقى خطاب الرئاسة فى المؤتمر يحدوه هذا فأعلن أن « هدف الصهيونية هو أن تنشىء فى فلسطين وطنا قوميا للشعب اليهودى معترفا به اعترافا علنيا ويتمتع بضمانات قانونية . » وكحقيقة مسلم بها سقط مشروع الشركة صاحبة الامتياز هذه ، ولم يكن عبد الحميد نفسه يستنكف كثيرا من بيع فلسطين وشعبها فى مقابل ثمن نقدى لكن المبلغ الذى طلبه ، وهو عشرة ملايين من الجنيهات ، كان بعيد المنال . كما أنه أصبح يدرك مع تقدم المفاوضات وانكشافها بأن هناك مشاعر اسلامية ضد المشروع تزداد قوة يوما عن يوم أكثر مما توقع فكان من نتيجة ذلك أن تناقصت رغبته فى عقد الصفقة . بل والواقع انه قطع وعدا ، استجابة للاحتجاجات التى صدرت من فلسطين، بأنه سيفرض رقابة على الهجرة اليهودية ، وان لم يفعل شيئا كثيرا وفاء بهذا الوعد . وعلق الصهاينة بعض الآمال . غداة سقوط عرشه ، على الشبان الاتراك الذين كان بهم هم أنفسهم صبغة يهودية قوية ، (ويقول السيررونالد ستورز : « لقد كانت لجنة الاتحاد والترقى واقعة تحت تأثير دونميه وهو يهودى مستتر . ») بيد أن الصهاينة سرعان ما خاب ظنهم اذ كانت حركة الشباب الاتراك حركة سرية محلية لا تستهويها القومية اليهودية التى تسببت فى وجودها الاحداث التى وقعت على اليهود فى روسيا . ولأن يظهروا أنفسهم لدى الناس على أنهم يعطفون على الصهيونية السياسية . فمعنى ذلك أنهم يجردون أنفسهم من صفة عقدتهم التركية القومية .

وليس ثمة من مناسبة هنا تدعونا للافاضة فى جميع التفاصيل التى أعقبت قيام صهيونية ما قبل الحرب . اذ كان مؤتمر عام ١٨٩٧ أول مؤتمر من سلسلة مؤتمرات طويلة عقدت فى مختلف المدن والبلاد . وقد نعت كاتب فرنسى هذه المؤتمرات بقوله : « برلمانات بدوية مترحلة حقا » وقد عقد المؤتمر الثانى عشر منها فى فينا فى العام الذى سبق الحرب مباشرة . أما عن هرتزل نفسه فكان قد مات قبل الأوان فى عام ١٩٠٤ من فرط الارهاق فى العمل . لقد أنشئت المنظمة الصهيونية لكى تجسد هذه الحركة ولكى تعقد المؤتمرات ، ولكى تشكل بوجه عام هيئة ممثلة لليهود تتولى اجراء المفاوضات . وقد ارتفعت العضوية فيها فى وقت من الاوقات الى ٢٠٠ر٠٠٠ لكنها انخفضت الى ١٣٠٠٠٠ غداة اندلاع الحرب .

واذا ما قورن هذا العدد بتعداد اليهود فى العالم آنذاك وهو نحو ثلاثة عشر مليونا فان هذه الثلاثة عشر ألفا ليست بالنسبة الكبيرة وبالاخص حين يفرض عليها مذهبها أن تدعى أمام العالم أنها تمثل جميع يهوده . وهى لا تمثلهم قطعا . ان بعض اليهود المملقين والمسحوقين وجماعة من شباب اليهود « المثقفين » الدنيويين ، فى روسيا وفى عدد من البلدان الاخرى ، قدتبنوا عقيدة هرتزل فى الدولة اليهودية . أما اليهودى التجارى المتوسط وجمهرة الحاخامين الارثوذوكس واتباعهم أما اليهودى المتوطن فى اسكندرياته الحديثة الكثيرة ، أما تسعة أعشار هذا الجنس فهم يتوارون خجلا منها .

وكما هو المعتاد ، كان لهذه الجماعة الصغيرة ، التى أرادت أن تذهب الى مكان ما ، وأن تفعل شيئا ما ، طريقتها الخاصة ، على أى حال . ان الثلاثة عشر ألف جندى خيال الصهاينة قد شنوا الهجوم على مستشاريات اوروبا وأمريكا وخلقوا فيها عاصفة من الهياج وأوقعوا فى نفوسها انطباعا عن وحدة لاتقاوم ، دون أن تقيهم ملايين الراجلين اليهود الذين كانوا يعيشون فى سلام فى المواطن التى ينتمون اليها . ومع ذلك فان وجود هذه الجمهرة اليهودية غير الصهيونية نقطة قمينة بأن لا تغيب عن البال ، الآن وفى كل حين ، دون ما حاجة بنا الى أن نقول عنها شيئا . وفى وسعنا دائما ، وكلما قام صهيونى سياسى يعلن أن الصهيونية ، كما بدىء تطبيقها فى فلسطين هى قضية اليهود أن نصححه بكل لطف قائلين: انها ليست قضية اليهود وانما هى قضية يهود .

والنتيجة الاساسية لمرور ستة عشر عاما بين أول مؤتمر صهيونى وبين المؤتمر الصهيونى الثانى عشر هى أن العقيدة التى قيل بها أثناءها قد تبدلت تبدلا محددا واضحا من مشروع هرتزل لاسكان اليهود المضطهدين فى رقعة من الارض خاصة بهم الى هذه العقيدة الصهيونية الحديثة فى جعل فلسطين بلدا يهوديا لكى ترفع مستوى مركز وأهلية اليهودى خارجة ، ولكى تمنحه ملجأ روحيا لمشاعره القومية أو ملجأ قوميا لمشاعره الروحية أو أيا منهما يفضل .

وبهذا نأتى على قصة صهيونية ما قبل الحرب فيما يتعلق بما تدفعنا الى قوله منها أغراضنا الراهنة . بيد أن هناك بعض الامور المرتبطة بها والتى كان لها أثر بين على مشاكل الساعة . ان هذه النقاط بالذات لم تلاحظ حتى الآن كما يجب ، وما تزال فى حاجة الى أن نوردها غايتها .

وأولها ذلك النص الذى أوردناه ، من خطبة الدكتور هرتزل الرئاسية أمام المؤتمر الصهيونى الأول ، قبل قليل ، والذى هو جدير بالدراسة مرة أخرى • لقد قال : « ان هدف الصهيونية هو أن تنشىء فى فلسطين **وطنا** للشعب اليهودى معترفا به اعترافا علنيا وفى ظل ضمانات قانونية » يمكننا أن نورد كلمات رائده الدكتور بنسكو ، جنبا الى جنب مع هذه الكلمات • لقد كتب هذا فى عام ١٨٨١ قائلا ان اليهود « يجب أن يدمجوا **كأمة بين الامم** ، عن طريق امتلاك وطن خاص بهم » (التشديد على الحروف من عندى — المؤلف)

والغرض من هذين التشديدين هو أنهما يبينان كيف أن عبارة « الوطن القومى » التى توجد فى تصريح بلفور قد اخترعها الصهاينة قبل أن تعلن كمفتاح للسياسة البريطانية ذاتها بعدة عقود • والادهى من هذا أنه قد قدر لكلمة « وطن » هذه أن تستخدم من قبل مستعمريها البريطانيين على أنها مرادف ، أو على الاصح ، على أنها اسم مستعار للدولة اليهودية وهى ماتزال فى دور الحضانة ، بيد أنه لم تحدث فى أى يوم من الايام أية تعمية أو اخفاء بصدد معناها حين اخترعها أوائل القادة الصهاينة • فحين تحدث هرتزل عن « وطن » عنى به دولة ذات سيادة لأن هذا المفهوم هو المفهوم الوحيد الذى صرح به •وحين تحدث بنسكر عن « وطن » تحدث عنه على أنه « أمة بين الأمم » •

وهذا يجلو للأذهان ما لم يهتم أى من الأطراف المعنية الكثيرة جدا بأن يجلوه ، ألا وهو أن الصهيونية كانت تعنى منذ البداية السيادة • أيا كان المكان الذى سيوضع عفشها فيه • أما الاقوال الكاذبة عن المشاركة وعن السلطة المختلطة فى فلسطين — وهما فى حد ذاتهما أمران مستحيل الدفاع عنهما — والتى ظلت الصهيونية تقول بهما حتى اقترح مشروع التقسيم صراحة فى عام ١٩٣٧ ، فانما اخترعت لتضليل العرب ولم تكن فى أى يوم من الايام هدف هذه الحركة • لقد كان هدف هذه الحركة دوما ما قال به هرتزل •• السيادة ! أما التلفيق الآخر فانما طرح فى السوق حين كان يسود الاعتقاد بأنه يمكن خداع العرب بواسطة نظام يفقدون فى ظله سلطتهم الطبيعية تدريجيا ، لا أكثر ولا أقل •

ونقطة السيادة الضرورية ليست النقطة الوحيدة التى نخرج بها من تصريحات هرتزل • وربما يكتشف القارىء اذا ما قرأها خروجا كبيرا فيها عن العقل جديرا بالتأمل • فاذا كانت نظرية هرتزل الاساسية هى وجوب تخلص اليهود المضطهدين أو المسحوبة منهم جنسياتهم من البيئة

الزائفة التى يعيشون فيهـا ، وأن يؤسسوا دولة لا يشـاركهم فيها أحد فيكونوا بذلك نظراء لكل النـاس ٠٠ اذا كان هذا هو ما يعنيه هرتزل فكيف تأتى له اذن أن يعتبر فلسطين تلك البقعة التى يمكن أن تؤسس فيها هذه الدولة ؟ انها رقعة لا يمكن اليهود أن يكونوا فيهـا آمنين على أنفسهم لأن العرب يعيشون فيها بمئات الالوف منـذ الازل ٠ فكيف استطاع هرتزل أن يركز أبصاره على فلسطين اذن حيث لا يمكن الحصول على الظروف الملائمة لدولته الـ Sinn-Fein الـ « لنا وحدنا » ؟

ان هـذا السؤال فى محله لكن من العسير على الصهاينة أن يجدوا له جوابا ٠ وليس هناك شىء أكثر دلالة على صفة الحركة الصهيونية من حقيقة كونها لم تعر فى تلك الأيام الحرجة من القرن الماضى أدنى اهتمـام للعرب الذين يأهلون تلك البلاد التى يركزون عليها محاولاتهم وجهودهم ويخيـل لى أن ارتفـاعة من حاجب عين صـهيونية لم يتعب أحد من الصهاينة نفسه بأن يرفعها حين تقع عينه على هيئة انسان عربى !

والمستر شتاين المخلص هو أحد الكتاب الصهاينة القلائل الذى يبدو عليه أن يدرك هذا القصور ٠ وهو يبذل كل ما فى جهده ليبرره ٠ فهـو يفسر هذا الموقف قائلا : « لسنا فى حاجة الى أن نقول ان هرتزل لم يدر بخلده ، حين تحدث عن الحصول على امتياز (من السلطان) ، أى اجـلاء للسكان العرب عن فلسطين لصالح اليهود ٠ لقد كان ــ ونحن نحكم بهذا من خطبه ــ لا يكاد يدرك أن فى فلسطين من يأهلها ، فأسقط العرب من حسابه عن سلامة نيه » ٠

فهل رأيتم قولا أغرب من هذا القول فى حياتكم ؟ مشروعات ضخمة توضع وتربط بها مصائر جماهير غفيرة من البشر ومع ذلك فلا يقـوم الرجل الذى وضعها بالخطوة الضرورية الاولى من استكشاف الارض التى ينتوى أن ينفذها فيهـا ! ولا يبدو أن أحدا من شركائه قد اقترح عليه القيام بها ٠ أم لعله لا يوجد فى العالم عرب بالرغم من كل هـذا الفارق الذى سينشأ لديه ولدى زملائه من وجودهم !!

وتوالت انعقادات المؤتمرات الصهيونية عاما بعد عـام ٠ وتحدث المتحدثون ، على المنابر ، وفى أروقة وطرقات أماكن الاجتماع ، عن أنفسهم وعن أبطال قضيتهم بين صنوف اليهود ، وعن خصومها بين هذه الصفوف وعن التوفيق بين العوامل المتنافرة فى برامجهم ، وعن آمالهم ومخاوفهـم بصدد عون غير اليهود لهم ، وعن ثقافتهم الخاصة بهم ، وعن حاجتهم هم الى

التوسع الروحى • وليس هناك شك في أن هذه موضوعات معقولة ومحترمة الا أنه متى طرحت هذه الموضوعات جانبا لكى يبحثوا فى أمر وجـود سكان فى هذه الارض التى يقترح أعضاء هذه المؤتمرات الاستيلاء عليها ؟ حقا ، متى ؟ هل كرست جلسة يوم واحد من مؤتمر واحد من هذه المؤتمرات للبحث فى أمر التفاهم الذى ينبغى الوصول اليه مع شعب فلسطين ؟ ولا جلسة واحدة !

أما حال هرتزل فهو أعرب • انه يسعى وراء السهرة • ويدور فى أرجاء العالم لينشر انجيله • فيقابل الملوك ورؤساء الحكومات مقـابلات لابد وأنها كانت غريبة • فهو يتداول هذا الأمر مع السلطان ، حاكم فلسطين ، ويخرج من عنده مع ذلك دون أن يعلم أن لفلسطين أهلها • وهو يقابل البابا ويتحدث اليه عن اسار الاماكن المقدسة ولا يلم بشىء عن السكان المسيحيين الذين يحجون اليها دواما • والأدهى من ذلك أن يزور فلسطين فلا يبدو عليه أنه قد عثر فيها على غير زملائه اليهود ! ويخيـل الى أن العرب كانت تبتلعهم الأرض أمامه كما هو الحال فى كتابهم الف ليلة وليلة ، وينقلب اللسان العربى بفعل ساحر الى لسان عبرى أو ييدى أو ألمانى ؟!

بيد أننا حين نتحول عن هرتزل الى شركائه من دهاقنة الصهاينة ، بل وأكثر من هذا حين نمعن النظر فى أفعال الرؤساء الصهاينة الذين جاءوا بعده ، نرى أن هذا العذر فى عدم تبين العرب يجافى كل منطق وعقل • انهم يطلبون منا أن نفهم أن خلو الذهن من العرب هذا قد دام لست أو سبع سنوات • اذ يقول المستر شتاين وهو يؤرخ لفترة تقع حول سنة ١٩٠٥ انه قد « أصبح الآن يتضح أن فلسطين ليست خاليـة من الناس • » وكان هرتزل قد مات فى يوم ١٩٠٤ بعد ستة مؤتمرات • وقد وضع موته نقطة فاصلة فى تاريخ الحركة الصهيونية •

وليس فى مقدورى أن أرى كيف يمكن أن يقتنع انسان بأن هذا العدد الكبير من اناس متعلمين مشهود لهم بالذكاء قـد ظل يجهل لست سنوات وجود العرب • واذا كان فعلا قد ظل يجهل وجودهم الى هذا الحد فان حاله هذا هو أسوأ حال من الجهل الأثيم يمكن أن يتصوره عقل ، ويخلق بنا ألا نترك له فرصة يستفيد بها من ورائه • لكنى لا اعتقـد بهذا الجهل • بل انى اعتقد بأن هذه الاقامة الطويلة عليه ، والتى استمرت حتى قيام الحرب (العالمية الاولى ـ المعرب) ثم استأنفوها بعد ذلك بشتى

النوايا ، كما سنرى حين نحلل تصريح بلفور) تفضح تماما قضية الصهاينة وتفضح أصدقاءها في وزراتنا

لقد كانت فلسطين قبل عام ١٩٠٠ تسعة عشر مستعمرة صهيونية وكانت مستعمرات ريشون لوزيون ، وزخرون جاكوب ، وروش بيناه تؤوى في أول الثمانينيات آلافا من اليهود الذين جاءوا من روسيا هاربين · وكانت الشركة العالمية اليهودية الاستعمارية ، التي أسسها البارون هيرش في عام ١٨٩١ ، منهمكة في عام ١٩٠٠ في اعادة تنظيم هذه المستعمرات اليهودية التي ينفق عليها البارون ادمون دى روتشيلد بسخاء وكانت منظمة «شوفيف زيون» أو « محبى صهيون » ، التي تأسست في روسيا وبلجان تابعة لها في فينا ، وبرلين ، ونيويورك ، وباريس ، ولندن مشغولة منذ ست سنوات بتوطين اليهود · وكان صندوق الجباية الاستعماري اليهودي ، Jewish Colonial Trust ، قد تأسس وتسجل في انكلترا لجمع الأموال واستخدامها في فلسطين · وقد تلقى في السنة الاولى من انشائه ربع مليون جنيه · وكان « الصندوق القومي اليهودي الذي أنشىء لامتلاك الاراضي في فلسطين » قد تأسس في عام ١٩٠١ · وكانت في القدس آلاف مؤلفة من اليهود ، وكذلك في يافا ·

وكانت جميع هذه الصناديق وهذه المستعمرات ومن يأهلونها على اتصال دائم منتظم مع الشخصيات والهيئات اليهودية في جميع أنحاء أوروبا وأمريكا · وكان الكثيرون من يهود القدس يتلقون الاموال من قبل اخوانهم في الدين حتى يكونوا وحدهم المسئولين عن شبكة من المراسلات والاتصالات بين فلسطين وبين المعابد اليهودية ، التي لا حصر لها ولا عدد ، والمنتشرة في جميع أرجاء الكرة ، واتباع هذه المعابد · وكان من الضروري أن ينتظم التعاون شركة شوفيف زيون والشركات اليهودية الدنيوية الاخرى مع المنظمة الصهيونية والمؤتمرات الصهيونية · وقد حدثت في مؤتمر بازل وفي المؤتمرات التي تلته مناقشات لا نهاية لها حول هذه المستعمرات · ولا بد أن الظروف التي كانت تسود فلسطين ، ووجود العرب فيها ، والطرق المختلفة التي كان يعبر بها هؤلاء العرب عن مشاعرهم تجاه هذه المستعمرات اليهودية القائمة وتجاه الوعد باقامة المزيد من هذه المستعمرات ، قد كانت معروفة لدى جميع الصهاينة النشيطين بألف وسيلة من الوسائل ·

والاستنتاج الوحيد اذن هو أنه اذا لم تكن الصهيونية تعلم بوجود العرب فما ذلك الا لأن معظم الصهاينة قد رأوا في العرب عقبة تقف في

طريقهم فلم يشاءوا أن يروهم • وانه استنتاج يفرض نفسه على المراقب ان قادة الصهاينة والبارزين بين اتباعهم لم يريدوا ، ــ وهم تعميهم هــذه الفكرة المنافية لكل عقل ، القائلة بأن فلسطين قد كانت دائما ارنا موقوفا على اليهود ، ــ أن يروا أى شيء يتعارض معها • وأن يخطبوا ود العرب وأن يناقشوا معهم ، بأى مدى (من الامداء) ، ذلك الحاجز الذى يمثله وجودهم ، أو قد يمثله في المستقبل ، فى وجه تحقيق آمالهم فمعنى ذلك أن يسفهوا ويدحضوا هذه الحجة التى بنيت عليها تلك الخطط ، ومعنى ذلك أن يكشفوا لمعظم عالم غير اليهود ، ولجزء كبير من عالم اليهود ، فى الواقع ، أن هنـــاك عاملا من عوامل الوجـــود يفند أكذوبة ملكية اليهود لفلسطين ويقلبها رأسا على عقب •

ولست أقول ان جميع قادة الصهاينة قد نظروا الى هذا الامر على هذا النحو تماما • اذ لا بد أن بعضهم قد فكروا فى العرب بصورة تخلو من الاهتمام والمبالاة •• لا بد وأنهم اعتبروهم غير بشر سرعان ما يهدون خيامهم ويختفون بعد أن يوزع عليهم من النقود أو يعطون بديلا طبيعيـا آخر مرادفا للنقود •• لسوف يتبددون كالضباب أمام شمس صهيون !

فلم يضيع هؤلاء الذين يفكرون مثل هذا التفكير الوقت فى التفكير فى أناس قليلى الشأن كالعرب ! اذ أن سلطان تركيا هو ، فيما يتعلق بما يعنيهم هم ، سكان فلسطين المؤقتين ، فعنه تحدثوا ومعه تفاوضوا ولو بغير اصابة نجاح •

بيد أن معظم الاشخاص الرئيسيين فى الحركة الصهيونية يجب أن يقعوا تحت طائلة جريمة أنهم لم يرغبوا فى أنيحسوا بوجود العرب ، لقد لفت انتباههم اليهم رجل واحد على الأقل ينتمى الى زمرتهــم • انه آشاد هاعام • وآشاد هاعام هذا اسم قلم للكاتب اشر جنزيرج الذى أضحت كتاباته ومقالاته وأبحاثه البؤرة الادبية التى يجتمع حولها جميع اليهود الذين يعارضون اقامة الدولة اليهودية •

ولقد ميزه تجرده الجلى وايثاره العظيم ورفعا مكانته بين معاصريه وقد أعلن هذا ، أن الصهيونيةالسياسية ، أى تلك الزمرة من اليهـــود التى تعمل على اقامة دولة يهودية ، تدمر قضية اليهود • فكتب فى عام ١٨٩٧ قائلا : « ان اليهودية لا تحتاج فى الوقت الحاضر الا الشيء القليل انها لا تحتاج الى دولة مستقلة ، بل الى خلق ظروف فى أوطانها الحالية ملائمة لتطورها • وحسب • انها تحتاج الى محلة ذات حجم لا بأس به يعمل فيها اليهود فى كل فرع من فروع المعرفة ، ابتداء من الزراعـــة

والمهن اليدوية حتى العلوم والآداب ، ودون أن تقف فى طريقهم أيــة عوائق » ٠

بل ولقد قدم آشادهاعام احتجاجا ، قبل مؤتمر بازل بسنوات ، ضد تعامى الصهاينة المتعمد أو العرضى عن العرب ٠ فقال ان من الحماقة أن ننظر اليهم على أنهم أناس صحراء متوحشون ليسوا بقادرين على أن يروا ما يدور حولهم ٠ وقد جلس فى مؤتمر بازل « وحيدا بين أصدقائه كالرجل الثاكل فى وليمة الزفاف » ، ثم كتب بعد ذلك عن السخف المطبق لسياسة هرتزل وقيادته التى تهدف بدعوته وتزمت الى اقــامة دولة يهودية فى فلسطين ٠

وبعد ذلك بثلاثة عشر عاما كتب فى عام ١٩٢٠ فقال : «لقد تجاهلنا دائما الشعب العربى ، ومنذ بداية البداية ٠ »

وتلك هى الحقيقة ٠ لقد هدفت الصهيونية ، وهى تأخذ شكلها الى أن تجتث العرب من أرضهم وتحل محلهم ، أو توقعت أن تفعل ذلك ٠ وليس يجدى المدافعين عن هذا النظام ، الذى تكامل فى فلسطين رغما من تلك البدايات ، أن يحاولوا الآن انكار صنعتهم الحقيقية ٠ فلو كان هدف الصهاينة دائما التصادق مع العرب ، كما يزعمون ، لأعادوا انتباهــا الى تحذيرات آشاد هاعام بل ولما كانت هناك حاجة الى اطلاقها ،ولسعوا الى خطب ود العرب بصــورة أتوماتيكية تماما ، عن طريق اقنــاع أولئك الذين يعرضون عليهم أن يكونوا شركاء لهم ٠

لكن هذا لم يحدث أبدا ٠ ان اتصالات لم تجر ، سواء مع جمهرة الفلاحين فى الارياف أو مع أرباب الحرف وغيرهم من سكان المدن ، ولا رتبت اجتماعات لكسب عطف الجيل الصاعد من الشباب العربى الوطنى ولا تليت آنذاك خطب ولا أرسلت رسائل الى جريدة التايمز عن اليهــود والعرب وهم يصنعون يدا فى يد مستقبل فلسطين ٠

أما وقــد استوعب القارىء فى ذهنه هذه النقــاط فلسوف يفهم الآن ، أفضل من أى وقت مضى ، لماذا لا يستجيب العرب اليوم لتوكيدات الصداقة والود التى تقحم عليهم بين الحين والآخر ٠

الفصل الخامس

الدول الكبرى والحركة الوطنية ـ زعامة الحركة تنتقل الى مكة ـ الشريف حسين ـ زيارة الأمير عبد الله الى كتشنر ـ الحرب بين بريطانيا وتركيا ـ المفاوضات البريطانية ابتغاء لكسب تأييد العرب تبدأ ...

لقد تابعنا فى الفصل الرابع تقدم العرب نحو تحررهم من حكامهم الأتراك الى فترة تشرف على بداية الحرب العظمى . لقد نمت الحركات السرية وشبه السرية ، التى كانت تناضل من أجل استقلال العرب ؛ أو من أجل الحكم الذاتى كخطوة أولى ، وتحولت الى منظمات قوية . ولقد أوردنا أسماء عدة حركات منها . وان أبرزها الآن ؛ وجميعها تناضل من أجل الغاية المشتركة ؛ كل على طريقتها الخاصة . « الفتاة » و « الأهل العربى » و « المنتدى الأدبى » و « نادى الوطنية » و « حزب العهد » و « الثورية العربية » و « النهضة اللبنانية » و « الاصلاحية » (أو « جمعية الاصلاح ») و « اللامركزية » («عصبة اللامركزية العثمانية» بالاسم الكامل) . وكانت جماعة النهضة اللبنانية مسيحية بحتة من دونها جميعا . أما عصبة اللامركزية فقد أحيت اسما قديما ، على طريقة ساخرة بعض الشىء ، لأنها كانت تهدف الى الاستقلال التام عن تركيا ؛ وربما كان ذلك عن طريق الحكم الذاتى المحلى .

أما حزب العهد ، الذى كان يتألف من الضباط العرب فى الجيش التركى ، والذى كانت تفرض عليه طبيعته أن يكون سريا ، فلم يكن يؤمن بهدف الحكم المحلى الذى لا يمضى الا الى منتصف الطريق . لقد كان يتطلع الى التمرد على نطاق واسع ويتأهب له فى الخفاء . وكان أعضاؤه يتحلون بخلق يصدق على تسميتهم وليس لهم اتصال بالغرب ، وكانوا يرتابون فى أى ملون غربى قد يقدم فى المستقبل . وكان هذا الحزب

أقوى ما يكون بين أهل الوافدين الذين ولدوا بعيدا عن البحر . وكان أتباعه مبعثرين بين حاميات تركية كثيرة .

وكانت الجمعيات المدنية ، من الناحية الأخرى ، تحتذى حذو أمثلة غربية . وكانت تغص برجال لهم ثقافات غربية . كما أن بعض هذه الجمعيات قد نشأ على أرض أجنبية . وكانت هذه الحركات أقوى ما تكون في سورية التى كانت على اتصال دائم بالغرب عن طريق شاطئها من البحر الأبيض المتوسط ، فكان لابد وأن تنشد بعض العون لدى الغرب ففعلت أقصى ما في وسعها لكى تقيم اتصالات مع الدول التى تهتم أشد الاهتمام بهذه المنطقة كبريطانيا العظمى وفرنسا ، وروسيا بدرجة أقل . كما لم تتجنب هذه الدولة هذا الاتصال مهما حاولت أن تسلك سلوكا ملتويا . وكان انهيار تركيا متوقعا منذ زمن بعيد . فكان الابقاء على اتصال مع من قد يخلفونها في أراضيها ، في أى وقت من الأوقات ، عين الصواب .

وقد أبدت بريطانيا وفرنسا ، على الأقل ، اهتماما لا تغفل له عين بتقدم سورية أو تقدم الحركة الوطنية العربية . بل وقد أبدتا في الحقيقة ماهو أكثر من الاهتمام . لقد مدتا للسوريين حبلا يصعب على الانسان تحديد كنهه ، لكنه حبل دبلوماسى معترف به . وربما لم تمده كلتاهما بالمدى نفسه وبالأسلوب نفسه اذ أن كلا منهما كانت لها طريقتها الخاصة. ويمكن أن يوصف هذا الموقف في مرحلته آنذاك بأنه تشجيع بدون تشجيع .. لقد كان أولئك الذين مد لهم يحسون بأنهم مشجعون (بفتح الجيم ــ المعرب) في حين كان يحس من يمدونه أنهم لم يشجعوهم .

أما وصفه هذا الموقف فهى ، كما قد تتصور ، وصفة دقيقة التركيب. ولا يكاد يكون في الامكان وضع قائمة بمقوماتها . ولسنا في حاجة الى القول بأنها لا تتضمن المفاوضات الرسمية اذ أنه ليس هناك سفير من سفراء الدول الكبرى أو وزير من وزرائها يحترم نفسه ، يدخل في مفاوضات مع متآمرين يدبرون الخطط لحكومة هم أنفسهم محسوبون عليها . لكن الأشخاص غير الرسميين الذين هم على علاقة رسمية بأشخاص رسميين يمكن دائما أن يكونوا همزة الوصل . وان من واجب القناصل أن يكتبوا تقارير عن الأحوال التى تكون في مناطق عملهم ، وغير هذه الأحوال التى تكون على السطح ، ويتحتم عليهم أن يحصلوا على المعلومات ببعض الطرق الملتوية .

وصحيح أن الأشخاص غير الرسميين قد لا يستطيعون التفاوض مع ثوار المستقبل المنتظرين ، بصراحة ، وعلى المكشوف ، أكثر من صراحة

القناصل والدبلوماسيين • اذ أن عملهم هو جمع المعلومات فى المناطق التى يتمركزون فيها أو يرسل بهم اليها • بيد أن المعلومات لا يمكن أن تجمع الا عن طريق التحادث • وكلما كان هـــذا التحادث أفضى الى المكنونات مع الأشخاص الذين يجرى الاستفسار عنهم وعن نشاطهم كلما كان ادعى الى الوثوق منه والاعتماد عليه ، وأحق بالابلاغ • ان مثل هذا التحادث يعنى تفهم وجهة نظر المحادث ، وفهم وجهة نظره هذه يتحول بسهولة الى احترام مشوب بالعطف ، والاحترام المشوب بالعطف الى علاقات ودية • وليس بين الأصدقاء حـــــدود للآفاق النظرية التى يمكن أن تبحث ، ولا للآمال العريضة التى يمكن أن تصور •

وقد تصورت بنظرة اتسعت آفاقها بالتدريج بصدد مسألة « استقلال العرب الذاتى » فى عام ١٩١٣ فى سورية ؛ بل وحتى خارج سورية • وان من حسن الحظ أن تسمح لنا أخطار الحرب التى قدر لهـــا أن تشـــمل فى طياتها مصائر مختلف الوثائق ، التى لم يكن يتوقعها أحد ، بتتبع شىء من خطها العام • لقد أرسل المسيو بومبار السفير الفرنسى فى القسطنطينية تقريرا الى المسيو بوانكاريه وزير الشئون الخارجيـــة آنذاك ، فى كانون الأول من عام ١٩١٣ ، عن حديث جرى بينه وبين شفيق بك المؤيد ، احدى الشخصيات العربية البارزة والنائب فى مجلس المبعوثان • لقد سأل هذا الأخير السفير الفرنسى بما لا بد وأنه كان صراحة ذهبت بتحفظه ، فى سياق الحديث ، عما اذا كانت الحكومة الفرنسية سترسل قوات عسكرية الى حلب للتدخل اذا أرسلت تركيا قوات الى سورية لتبقيها تحت الحكم التركى • وكانت لفرنسا سابقة للتدخل العسكرى حدثت فى عام ١٨٦١ حين أرسلت فرقا عسكرية الى سورية على أثر مذبحة وقعت على المسيحيين السوريين • وكان يمكن أن يتحول هذا التدخل الى احتلال فرنسى لو لم يسو اللورد ديوفرين العظيم الذى أرسلته بريطانيا ، هذا الأمر مع الأتراك بمهارة ، وقبل أن تصل القوات الفرنسية ، حتى لا تكون هناك ذريعة يتذرعون بها للبقاء هناك ، فعادوا الى فرنسا وهم بالأحرى كارهين •

ولم تكن المسيو بومبار فى عام ١٩١٣ يستطيع أن يصغى الى مثل هذه الاقتراحات بالطبع • فقال لزائره ان أفضل شىء يفعله العرب هو أن يخلصوا لسلطانهم ، فيكسبوا من تركيا ، بجلى الولاء لهـــا ، الحق فى أن يكون لهم موظفوهم السوريون المنوطة بهم ادارة سورية • لقد قال بالحرف الواحـــد :

« Ils auraient réalisé toutes les réformes réalisables aujourd'hui et desquelles pourraient par la suite sortir toutes les autres.»

أى : « لسوف تتحقق جميع الاصلاحات التى يمكن تحقيقهـا اليوم والتى ستجر وراءها فى المدى الطويل جميع الاصلاحات الأخرى » ٠

وأضاف السفير ، الذى كانت له خبرة منصبة ، لعلم المسيو بوانكاريه أن البك يتأهب للسفر الى القاهرة « حيث سيعرض هـــذا الالتماس الى البريطانيين دون شك ويقـــارن أجوبتهم بأجوبتى ٠ » وأضـــاف قائلا : « Je souhaite qu'elles soient aussi correctes »أى « وأملى أن تــكون هذه الأجوبة صائبة ٠ » ولا يبدو أن السفير الفرنسى كان واثقا تماما من استقامة البريطانيين ، كما يجب أن تكون الاستقامة ، لأنه استخدم كلمة « وأملى » التى تستخدم دائما فى مذكرات الدبلوماسيين للتعبير عن التمنى أكثر منها للتعبير عن التأميل ٠

وان من غير المرجح الى أبعد حد ، أن المؤيد بك قد حصل من القاهرة على أى بديل ٠ فلقد كان رجالنا دائما أكثر استقامة وحذرا من زملائهم ، من أى بلد آخر ، وان ظلوا دائما وباصرار على علم حسن بمجريات الأمور٠ وكانت تقوم فى اليمن آنذاك ثورة غير ناضجة ، وقد بولغ فى أخبار هذه الثورة فى سورية الى حد كبير ٠ وكان للسوريين ضلع فيها ٠ وأرسل القنصل الفرنسى العام فى دمشق ، المسيو أوتافى ، بمذكرة تفصيلية الى المسيو بومبار ، فى شباط ، ينهى اليه فيها أن نائبا سابقا من البصرة يدعى سيد طالب قد رفع لواء الثورة وأعلن أن بلاد الرافـــدين وقضـــاء الـكويت قد أصبح منذئذ فصاعدا دولة عربية تحت الحماية البريطانية ٠ وقال المسيو اوتافى انه لا يصدق كل هذه الأنباء: كثير من الدخان ولكن من نار صغيرة ٠ وكتب فقال : « ان من رأيى أننا نواجه مجرد مناورة أنجلو مصرية ، لا أكثر ولا أقل ، رسمت لتثير أمام أعين العـــرب ذلك السراب اللماع من اعادة بناء امبراطورية هارون الرشيد ، تحت حماية بريطانيا»٠ وكان القنصل العـــام الطيب القلب قد كتب فى سورته الأصلية ، « اننا نواجه مجرد مناورة من صنع عملاء اللورد كتشنر ، » بيد أنه فى وحى اللحظة التالية عاد فشطب هذه العبارة التى تشير الى عملاء اللورد كتشنر ووضع فى مكانها محاذرا عبارة « مناورة أنجلو مصرية » ٠ وكان شبـــح فاشورة فى ذلك الحين مايزال يحوم فى سماء مصر ٠

وقبل ارسال مذكرة المسيو أونافي بشهر حدثت دفعة هامة الى أمام في حملة العرب من أجل قضية الحكم الذاتي . لقد عقد اجتماع عام في بيروت بموافقة الوالي المتحرر ، وبمبادرة لجنة سورية تأسست منذ عهد قريب اسمها « لجنة مناقشة الاصلاح الاداري » . وكانت تتألف من اثني عشر مسيحيا ، ويهودي واحد . وهذا في حد ذاته جدير بالملاحظة . لكن كامل باشا اللطيف بالعرب سقط من سدة الحكم في تركيا ، وحلت حكومة « الاتحاد والترقي » لجنة بيروت في الحال ، وحذرت شعب المدينة من أن محكمة عسكرية ستتكفل بمعالجة أية أفعال أخرى من مثل هذه الافعال غير القانونية !

وقد أرغم هذا العمل الجزء الاداري من الحركة العربية الى الرحيل الى خارج البلاد مرة أخرى . وفي آذار عقدت عصبة اللامركزية اجتماعا في القاهرة كان بين الحاضرين فيه رجل سوري اسمه السيد تويني « كان ترجمانا مساعدا للقنصل الفرنسي العام في بيروت وحضره بصفته الخاصة كعضو في اللجنة السورية من هذه العصبة . » وسيرى القارىء في شخص السيد تويني عنصرا سمينا من العناصر المكونة للوضع الدبلوماسي الذي وضعناه قبل قليل . وقد أصدر هذا الاجتماع ، كما أبلغ السيد تويني رؤساءه ، قرارا لصالح جعل سورية أمارة مستقلة استقلالا ذاتيا تحت حكم أمير مسلم ، وتحت حماية فرنسا . وقد صدر الأمر الى السيد تويني بأن ينقل هذا الخبر الى المسيو ديفرانس ، الوزير الفرنسي المفوض في القاهرة ، « بابلاغ الكي دروسيه(١) بما حدث ، » ولكن على سبيل العلم فقط ، ومن أجل الاسترشاد برأيها بصدد ابقاء أعمال اللجنة في نطاق الحكمة والمشروعية . »

« Mais à simple titre d'indication et en lui conseillant de maintenir l'action du comité dans la voie de la prudence et de la légalité. »

لقد روعيت قواعد اللعبة بمنتهى الوضوح والحصافة . لقد ساد الظن بأن الرسالة مهمة جدا بالنسبة للمسيو باليولوج الذي كان على رأس الكي دورسيه آنذاك ، بحيث يرسلها الى القنصلين العامين في دمشق وفي بيروت ، ولو أنها لم تكن تحمل لهذا الأخير أخبارا جديدة .

بيد أن المسيو ديفرانس كان يكتب ، بعد ذلك بحوالي أسبوع ، رسالة الى المسيو بيشو الذي أصبح الآن وزيرا للشئون الخارجية تجري

(١) وزارة الخارجية الفرنسية بالاطلاق على اسم الشارع الذي يقوم بناؤها فيه .

سطورها على هذا النحو : « وبناء على تقديرى الناشىء عن دراستى لمعلومات اضافية تيسر لى الحصول عليها منذ الحادث ، يبدو لى أن قرارات لجنة (اللامركزية) لم تكن حاسمة أو صدرت عن اجماع ، كما تراءى للسيد توينى ، الذى يقدم لنا ، وهو الذى كان يقوم بدوره باعتباره شخصية سورية بارزة بالاضافة الى صفته الخاصة كفرد ، وليس بأى صفة غيرها بسبب صفته الرسمية التى يشغلها فى بيروت ، معلومات فيها قدر مبالغ فيه من الحماسة لصالح حل سريع وجذرى للمسألة السورية . » والحقيقة هى - كما أرسل بها المسيو ديفرانس الى المسيو بيشو - أن المسيو توينى كان جد « متفائلا بصدد المسلمين » الذين كانوا يتطلعون الى حماية بريطانيا وليس الى حماية فرنسا .

فياله من صراع عنيف هذا الصراع الذى يكمن بين هذه السطور من أجل الحماية التى لا لزوم لها على الحركة التى كانت تجرى على قدم وساق آنذاك ، دون شك ! ان الدولتين تقفان متباعدتين كما يجب ، على طرفى مسافة دبلوماسية ، لكنهما كانتا تعلمان أن أنصارهما يتصارعون بالنيابة عنهما . وانتقل الى باريس المؤتمر الذى كان مقررا انعقاده فى بيروت حيث اتخذ فى باريس ما يشبه برلمانا سوريا ، أثار احتجاجات السفير التركى . وبالاضافة الى المندوبين الذين ذكرناهم آنفا ، حضر المؤتمر ما يقرب من مائتى سورى جاءوا من جميع أنحاء المعمورة . وأصدر المؤتمر قرارات تطالب بالحكم الذاتى ، وترسم خطوطا له ، بحكومة مركزية فى دمشق أو فى بيروت ولكن حدثت فيه خلافات كثيرة . اذ أراد كثير من الحاضرين اصدار قرارات بالاستقلال التام . أما دعاة الحكم الذاتى فقد كانوا يهدفون الى الاستقلال التام لكنهم رأوا أن من الحكمة الاكتفاء بالحكم الذاتى فى الوقت الحاضر .

بيد أن الانقسام بصدد الدولة ، التى ينبغى على الحركة القومية أن تتوجه اليها طلبا للعون ، ربما كان أوضح أسباب الخلاف . لقد جرت العناصر المسلمة المؤتمر بنجاح لصالح طلب العون من بريطانيا ، لدرجة أن المسيو بيشو أرسل كتابا دوريا الى القناصل الفرنسيين فى سورية قال فيه - دون أن يعدد أسماء - ان الحركة الاصلاحية التى كانت محبذة لفرنسا تحبيذا كبيرا قد أصبحت الآن تنآى عنها . وأوصى القناصل الفرنسيين بأن يكونوا ذوى نفع وعون للاصلاحيين ؛ أى لأعضاء مختلف الجمعيات الوطنية ، وأن يجتثوا ثنائى العيب الحالى عن الانعطاف نحو فرنسا .

بل وقد جرت خطوة أكثر اتساعا من هذه الخطوة قطعا ، قام بها المسيو دى مارجرى بالنيابة عن وزير الخارجية ، فأرسل الى المسيو أوتافى مذكرة فريدة في نوعها ، وردت من المقيم العام الفرنسى فى تونس .. وهذا فحواها :

لقد وردت الى الحكومة التونسية جملة معينة من الرسائل أرسل بها تونسيون يعيشون فى القسطنطينية وبيروت والمدينة . وطبقا لما ورد فيها فان ممثلين للحكومة البريطانية قد أجروا اتصالات مع شخصيات معينة وقادة مسلمين معينين فى كل من مكة والمدينة بهدف انشاء روابط من التعاطف والمصالح المشتركة بين عواصم الاسلام الدينية وبين الحكومة البريطانية .

وطبقا لما ورد فى بعض هذه الرسائل المرسل الينا من بيروت فان عملاء البريطانيين فى سورية يتنافسون فيما بينهم فى محاولة احراز انتصار للنفوذ البريطانى فى بيروت وأزمير ودمشق . ويذهب الظن الى أن أعضاء معينين من أعضاء البرلمان قد حزموا أمرهم على أن يزوروا آسيا الصغرى خلال الصيف القادم وأن يدرسوا البلاد وسكانها عن كثب . ويبدو أنه بناء على نصيحة هؤلاء الساسة قد تأسست الجمعية الاسلامية المسيحية ، ويظن أن هدف هذه الهيئة هو استعادة الخلافة العربية بدلا من السلطان فى القسطنطينية .

ونمضى المذكرة الى القول بأن « الدبلوماسية البريطانية والصحافة البريطانية » قد قررتا أن تدعوا الى عقد مؤتمر عربى لهذه الغاية . وقد كتبت هذه المذكرة فى تونس فى الثامن والعشرين من آيار قبل أن يخرج المؤتمر الى حيز الوجود فى باريس فى حزيران . الا أن ذلك التوافق العجيب بين الدبلوماسية البريطانية والصحافة البريطانية ، وبين « الدعوة الى » المؤتمر قطعة ذات طابع مميز من المبالغة من عميل الاستخبارات الفرنسية الذى كتب هذه المذكرة ، لأنها لم تكتب من قبل المقيم العام نفسه . انهم السوريون الذين صمموا على عقد المؤتمر وكانت باريس بالنسبة لهم محط الرحال . وكان من أنشط الداعين له السيد شكرى غانم ؛ وهو سورى قضى معظم حياته فى فرنسا ، فكان فرنسيا أكثر منه عربيا بدرجة كبيرة جدا ، وكانت له مهمة محدودة وهى ابقاء الحركة العربية موالية لفرنسا . ولا يعنى هذا أنه لم يكن هناك مؤيدون للنفوذ البريطانى يقفون فى وجهه . لكنهم لم توكل اليهم ، جريا على عادتنا فى التصرف ،

مهمة محـددة فى المعارضة • وكان هذا الأمر فى منتهى الوضوح : انهم منعطفون الى الانجليز لهذا السبب أو لذاك • وفى الامكان الاعتماد عليهم فى التعبير عن عواطفهم تجاهنا •

لقد وردت هذه المعلومات من اسطانبول وبيروت والمدينة من عمـلاء محليين لهيئة الاستخبارات الفرنسية • وبالغ هؤلاء العمـلاء فى وصفهم لزوار هذه المدن الثلاث الذين لم يذكروا أسماءهم ، حين وصفوهم بأنهـم « ممثلون للحكومة البريطانية •» أما وأنه كان لزاما على بريطانيا أن تحظى بعطف الناس عليها ، كما تحظى دولة اسلامية بالعطف من جميع المجالات التى يسود فيها التأثير الاسلامى ، فما ذاك الا أمر معقول وفى محله تماما• لقد كان سير الأحداث فى تركيا يشير الى سرعة انهيار السلطان الذى كان نفوذه الدينى كخليفة للمسلمين يقف عائقا فى طريق تسلط تركيا ممثلة فى زمرة « الاتحاد والترقى » المتشبعة بروح العصر تسلطا تاما على البلاد الخاضعة لها ، فكان من الحمق بالنسبة لبريطانيا الا تتحوط لمثل هذا الأمر المحتوم • لقد كانت الخلافة عربية فى الأصل وكانت تتمركز على سواحل البحر الأحمر ، فاذا ما قدر لها الآن أن تندثر فى تركيا فستكون مكة المكان الطبيعى الذى ستستعاد فيه • ولأن تمد بريطانيا يدها الى هذه الخـلافة الجديدة أو تقدم لها الحماية ، اذا ما دعت اليها الحاجة ، فليس هذا بالنسبة لها الا مظهرا من مظاهر الادراك الواعى المقدس الذىتستوحى منه سياستها فى أحيان كثيرة ، وان صور منافسوها أفعالها هذه ـ كما هو الحال فى هذه الواقعة ـ على أنها مصطنعة وكثيرة المنسوبات والالتواءات • وكانت هـذه السياسة فى تشجيع تقدم العرب ، والتى كانت فى ذلك الحين أمرا محتوما لا مناص منه ، احدى السياسات التى تستهوى بصفة خاصة اللورد كتشنر الذى كان آنذاك فى ذروة السلطة كمقيم عام فى القاهرة • وكان قد أمضى فى سورية شطرا كبيرا من أيامه الاولى كجندى ، وساعد فيهـا على رسم خرائط لها • وحين كان يتم مسح الأراضى بقصد رسم خرائط لها ، على أيدى ضباط غربيين فى الشرق الأدنى ، فلذلك معنيان دائما وأبدا •

وأغلب الظن أن « ممثلى الحكومة البريطانية » ، الذين كانت تصرفاتهم تكدر أحلام مكتب الاستخبارات الفرنسية فى تونس ، قد كانوا فى الواقع أعضاء « عصبة اللامركزية » الذين توغلوا فى البلاد العربية ليتوصلوا الى نوع من التفاهم بصفة خاصة مع « الزعماء المسلمين » • لقد زار الشيخ رشيد رضا ، الذى كان له معارف كثيرون فى القاهرة ، أميرى مسقط والمحمرة • وزار مبعوثون آخرون الامام يحيى• كما زار سيد طالب الأميرين ابن سعود والادريسى • ثم ذهب الشيخ رشيد رضا الى الهند ليقوم بأهم

عمل فى « تعبئة الرأى العام الاسلامى هناك بصدد مسألة الخلافة • ولكى يطلع المسلمين الهنود ، دون شك ، على صفة وتقدم قضية العرب الوطنية•

وليس من السهل أن نقول بالضبط ما هى العلاقة بين القاهرة وبين مبعوثى عصبة اللامركزية ، وأغلب الظن أنها كانت علاقة بعيدة كل البعد عن أن تكون محددة ، كما كان الفرنسيون يتوهمون • الا أنها كانت تخدم غاية البريطانيين ، على أى حال • وكانت خطوة تمهيدية فى تطور العلاقات العربية الانجليزية المأمولة ، اذا ما انهارت تركيا ، أو اذا ما ساعد على انهيارها رعاياها العرب •

وكان هناك فى ذلك الحين فارق كبير بين موقف البريطانيين من سورية وبين موقف الفرنسيين منها • لقد اهتمت فرنسا منذ زمن بعيد بسورية أشد الاهتمام ؛ من أيام ملوكها • وكانت قد تصرفت فى سورية ، فى ظل النظام التركى ، كراعية للمسيحيين اللاتينيين• ولم يكن هذا وضعا شرعيا • انها عادة نمت مع مرور الزمن فأضفت على القناصل الفرنسيين معلومية خاصة أكثر منها أهلية خاصة • وليس هناك شك فى أنه كان يطيب للفرنسيين لو يحولوا هذا الوضع الى شىء قريب من الحماية • بيد أن ذلك لم يكن ممكنا وتركيا ماتزال موجودة فيها • ولو أنه قد أفلتت منهم فرصة فى عام ١٨٦١ ، كما رأينا من قبل ، فى مركزة قواتهم العسكرية فيها ، وفى اقامة حماية عليها طبقا لأحدث أساليب القرن التاسع عشر •

الا أن فرنسا أقامت على مطامعها فى سورية ، وأنشأت صلات بها أقوى من صلات البريطانيين بوجه عام • فكانت الارساليات التبشيرية الفرنسية والمدارس الفرنسية مهمة جدا فى حياتها ، كما رأينا آنفا • وكان لهذا السبب أن تتبعت فرنسا الحركة القومية العربية عن كثب وبموالاة •

أما اهتمام البريطانيين بسورية ذاتها فكان أقل من اهتمام الفرنسيين• اذ طالما كانت فى أيدى الأتراك فليس هناك أى مشكلة معينة تتعلق بمشارف قناة السويس ، يمكن أن تؤخذ فى الاعتبار • وقد أكدت الحكومة البريطانية للحكومة الفرنسية فى عام ١٩١٢ أنها «لا تنوى القيام بأى عمل ، وليست لديها أية أهداف أو مخططات سياسية « فى سورية أو تجاه سورية ، وسلمت بلسان السير ادوارد جراى بأن لفرنسا « مصالح خاصة فى سورية » •

وفى عام ١٩١٣ أخذ الموقف يتغير مع الانهيار الواضح للنظام العثمانى والنهوض الواضح للنظام السورى الوطنى · وكان العامل الجديد هو أن الحركة السورية لم تخرج الى الوجود كحركة سورية وحسب، بل وكجزء من المقاومة الوطنية التى يقوم بها العرب جميعهم · وكانت بريطانيا تهتم أشد الاهتمام بحركة عربية واحدة تشمل كذلك مسألة الخلافة باعتبارها دولة تحكم مسلمين ، وبسبب الأهمية الاستراتيجية للبلاد العربية التى تقع على الطريق الى الهند وعلى بوابة مصر » ·

وهكذا لم تعد بريطانيا تستطيع ألا تشغل بالها على سورية كثيرا ، كما كانت تفعل فى السابق · ان شئون سورية كشئون عربية تمسها بصورة حيوية وينبغى عليها الآن أن تقدر فوائد التصادق مع السوريين كعرب · وكان المقابل الطبيعى لهذا الود هو أن قسما كبيرا من السوريين بدءوا يعتبرون العلاقات الودية مع بريطانيا ؛ باعتبارها دولة أقوى من فرنسا وقد تكون أقل طمعا منها فى هذه المناسبة ، وأعظم كسب لقضية العرب · وكانت على رأس هذا الفريق مستعمرة سورية قديرة فى القاهرة ، وذات مكانة جد بارزة فى الحركة الوطنية ، ومصالحها مرتبطة دائما أوثق الارتباط بالمصالح البريطانية فى مصر · وشيئا فشيئا أصبحت القاهرة مركزا للنشاط السياسى السورى فى الشرق كله بسبب مزاياها الجغرافية والاجتماعية فزاد هذا من حجم المحادثات السورية البريطانية بشكل أو بآخر ·

وحين كان صيف عام ١٩١٣ يلج فى فصل الخريف أصبح الموقف أكثر تأزما فى سورية ، وأخذ السوريون يصبحون أقل دبلوماسية فى علاقتهم مع الحركة العربية نتيجة لهياجهم العصبى من نمو العرق الموالى للبريطانيين فيها ، فتحولوا الى تأييد الجمعيات العربية تأييدا صريحا · ففى تشرين الأول كان سفير فرنسا فى اسطانبول قد سأل عما اذا كان من الممكن اصدار جريدة فى دمشق تعبر عن مصالح فرنسا ، وان الجواب الذى تلقاه من المسيو أوتافى ليجعل من تطور هذه العلاقات أمرا واضحا تمام الوضوح · لقد كتب المسيو أوتافى :

ان الجريدة العربية التى ورد ذكرها فى برقية سعادتكم المؤرخة فى الحادى والعشرين منه، والتى آمل أن يواتينى الرد عليها سريعا ، لا تستطيع الا أن تمارس تأثيرا حذرا ـ الأمر الذى هو مرغوب فيه عن غيره من الامور ـ والا فانها ستكتب فورا · ويجب أن يكون المعول ، فى اعتقادى ، على الكتيبات التى تطبع وتوزع

بصورة سرية • وهـــذا يعنى انفاق ما بين ١٥٠ الى ٢٠٠ فرانك فى الشهر • وأكون ممنوناً لو تكرمتم ، سعادتكم ، بارسال هذا المبلغ تلغرافيا ، ان كنتم يا صاحب السعادة من رأيى •

وان من الواضح أن الفرنسيين كانوا قبيل عام ١٩١٣ قد تداخلوا مع العرب فى سورية تداخلا عميقا • وفى وسعنا أن ننتقل مع اقتراب العام الحافل الى مسرح الأحداث فى مكة ؛ هذه المدينة المقدسة وقلب العالم الاسلامى النابض • فعليها كان يتركز اهتمام البريطانيين واليهــا تتجـه أنظارهم • ولم تكن مكة متميزة وبارزة بسبب صفتها كمكان قدسى وحسب وبسبب نقاوة السلالة العربية فى الحجاز ، كما يسمى هذا الاقليم الذى يكنفها ، بل لأنها كانت ذلك الجزء من العالم العربى الذى كان للعرب فيه قدر من السلطان أكبر من سلطانهم فى غيره ، ومظهر من مظـاهر هـــذا السلطان أكبر بكثير من حقيقته •

لقد ظلت منذ عهد محمد تحت حكم سلائله بدرجة أو بأخرى• وكان ظل هذا الحكم يمتد ؛ وربما بصورة أقل تحديدا ، الى المدينـة المقدســة الأخرى المسماة بالمدينة ، والى ميناء جدة وبقية الحجاز ؛ وهو قطاع ساحلى مداه نحو من ٥٠٠ ميل طولا و ١٥٠ ميلا عرضا •

ولم يكن حاكم هذه النواة العربى فى عام ١٩١٤ حاكما رسميا يقرب فى صفته من صفة راعى الديار المقدسة ، بل كان يتبوأ مركزه هذا لأنه ــ أو يفترض فيه أن يكون ــ أكبر أخلاف النبى • ولم يكن الحجاز دولة بل كان نظريا أقليما من أقاليم الامبراطورية التركيـــة ، تمارس تركيا السيادة عليه وعلى ما يشبه الحـــاكم له الذى كان يلقب بشريف مكة • والشريف لقب يطلق على أخلاف النبى فكان شريف مكة شريف الأشراف ، ويسمى أحيانا بالشريف الأكبر •

ويسجل لورانس مركز الاشراف حين تزايدت قوة قبضة الســلطة التركية على الحجاز فى القرن التاســع عشر فيقول : « وكلمـا تزايدت قوة قبضة السلطان هناك فانه كان يتجرأ أكثر وأكثر على أن يعد نفسه فى مصاف الأشراف ؛ وحتى فى مكة ذاتها • بل ولقـد جازف فى احـــدى المناسبات بأن يخلع شريفا ، كان من الكبرياء بحيث لم يرض عنه ، ويعين بدلا منه شخصا آخر من بطن منافس من العشيرة ذاتها (ذرية الرسول) ، على أمل أن يستفيد الفائدة المعتادة من الخلاف • »

بيد أن الحجاز احتفظ تحت حكم هذا الشريف أو ذاك ، بقسط من الاستقلال أكبر من أى قســط آخر تمتع به أى اقليم عربى آخر ، من أى

حجم أو أى أهمية ، فى حين كان الشريف نفسه يتمتع ، بوصفه حارسا للأماكن المقدسة ، بأرفع مكانة بين العرب • وأصبح شيئا فشيئا أرفع مكانة من ذوى المكانة والجلال • وحين تمثلت لأعين قادة الحركة العربية فى الأزمنة الحديثة اتجهوا بأبصارهم اليه •

وكان الحسين بن على شريف مكة فى ذلك الحين • وكان دائما يضيق بالسيادة التركية ذرعا • لكنه قد نقل وهو مايزال فتى الى اسطانبول بناء على أمر من السلطان ، وان كان قد أصبح فى ذلك الوقت شخصية فى مكة بحكم منبته • وبقى فى اسطانبول ستة عشر عاما تحت الرقابة المهذبة • وكان الأتراك يجلبون الضرر على قضيتهم بنفيهم العرب • فكما بذر العرب الذين طردوا الى مصر والى فرنسا بذور الجمعيات السرية ، كذلك استفاد الحسين العربى من منفاه • لقد تلقى أبناؤه تعليما عصريا فى اسطانبول وهى شبه أوروبية • وكانوا أربعة هم : على ، وزيد ، وعبد الله ، وفيصل•

وغداة سقوط عبد الحميد ، أقدم الشبان الأتراك على أفدح غلطة ، باعادة الحسين الى مكة كشريف • وكان هذا أثناء فترة ايمانهم بفكرة اقامة دولة لكل المسلمين وقبل أن يتحولوا الى سياسة « الأتراك فقط لتركيا » ، وربما كان ذلك ظنا منهم أنهم قد كسبوا عطف أسرة الحسين خلال اقامته الطويلة فى العاصمة • وكان ابنه فيصل نائبا عن جده فى آخر برلمان تركى قصير العمر • بل وكان عبد الله ، أخو فيصل الاكبر ، يتبوأ من تلك الجمعية منصبا مرادفا لمنصب نائب رئيس البرلمان فى البرلمان البريطانى •

وشرع حسين منذ عودته يستعيد سلطته كشريف ويوسعها ، فى حين يظهر الموالاة للأتراك ظاهريا • ولما كانت الأمور تسير سيرا هادئا فقد ازدادت العلاقة بين مكة وبين الجمعيات السرية توثقا • وأشعل النار مشروع تكوين امارة يرأسها أمير مصرى موال للفرنسيين • فأخذ أولئك الذين يعملون من أجل استقلال العرب يتطلعون الى الشريف العربى ، الذى كان يتمتع منذ زمن بما يشبه الاستقلال وبرئاسة المدينتين المقدستين كزعيم اسمى مأمول ومتحدث باسم شىء أوسع من امارة محلية • وقد لعب موقف الانجليز من هذه الفكرة دورا فى نشرها بالتأكيد •

وأصبحت السلطات التركية ــ لأن سياستها الداخلية قد تغيرت ، ولأنها قد نما الى علمها ، دون شك ، بعض ما يدور ــ أكثر تشددا وكبتا ، فأغلقت فى سورية بعض « الأندية الاجتماعية » الصغيرة ، لكن الأندية الكبيرة استطاعت تضليلهم فاستمر العمل السرى يمارس نشاطه دون عائق • وعينت على الحجاز والياً جديدا كان معروفا بميوله المعادية للعرب

فكان أول عمل قام به هو أن أمر بتسليم مائة بندقية تعود الى حرس الشريف الشخصي • وكان هذا أسخف عمل يؤتى لأن البنادق كانت قديمة وغير ذات نفع في حين كان الاستيلاء عليها نوعا من عدم الاحترام لسادن الأماكن المقدسة أثار نائرة الرأي العام المحلي ، ورئي فيه أنه مقدمة لحملة لتتريك مكة والمدينة •

وأوضح هذا العمل للحسين أنه قد بات محل شك لدى الشبان الأتراك ، وأنهم يرون فيه حجر عثرة في طريقهم الجديد • فجعل همه أكثر من ذي قبل ، التفكير في كيفية افساد مخططاتهم وتقويتها • فأرسل بعد ذلك بوقت قصير وفي شباط من عام ١٩١٤ ، ولده الثاني الأمير عبد الله الى مصر • وكان هذا العمل خطوة محددة في طريق تقوية العلاقات التي كانت موجودة حتى ذلك الحين اتفاقا • وكان السبب الظاهر لرحلة الأمير هذه هي القيام بزيارة للخديو عباس حلمي • لكن الأتراك الذين تساورهم الشكوك بصدد ما يجري في الحجاز لم يقتنعوا بهذه القصة • وقبل اقتناعهم حين اجتمع الأمير باللورد كتشنر فأرسلوا رسالة من اسطانبول تحمل هذا الاستياء • ولذلك لم ير كتشنر عبد الله مرة أخرى• وكانت لدى عبد الله في ذلك الحين لعبة عجيبة خبيثة من عندياته تهدف الى اشغال تركيا مع الدول الاسلامية الرئيسية بـ « حادثة حدود » دينية أما وان كان قد دخل في تقديم ايضاحات لهذه الخطة حين قابل كتشنر فذلك ما لا يستطيع أحد الجزم به • لقد أخفى ك عن ك ما دار من حديث حول هذه النقطة •

ولكن لابد وأن عبد الله قد بين خط أفكاره العام لأنه حين طلب ، كخطوة تالية ، أن يقابل المستر (والسير حاليا) رونالد ستورز ، الذي كان آنذاك سكرتيرا للشئون الشرقية في دار الاقامة بالقاهرة ، بدلا من مقابلة اللورد كتشنر ، زودكتشنر ستورز بتعليمات آمره بها أن يتجنب أي تشجيع للأمير على خططه ، سواء أكانت خططا شخصية أو من أي نوع آخر • أما حصيلة كتشنر الخاصة عن هذه الواقعة فيقدمها لنا السير رونالد ستورز في كتابه القيم جدا المسمى ب «تأملات» (« Orientations ») انه يورد لنا ملاحظة أبداها كتشنر الى السير ويليام بصدد الحديث الذي دار بينه وبين عبد الله •

لقد ارسل الأمير في طلب ستورز ، الذي قال له ، بناء على تعليمات مني له ، أن ليس لعرب الحجاز أن يتوقعوا تشجيعا منا لهم ، وأن اهتمامنا الوحيد في بلاد العرب هو سلامة وراحة الحجاج

الهنود ٠٠٠ ويبدو أن الشريف كان (كما فهمنا من ولده) خائب الفأل من نتيجة الزيارة التى قام بهـــا الى القسطنطينية ، ومن تصميم الحكومة التركية على دفع خط سكة الحديد حتى مكة ، الأمر الذى رآه يعنى الموت الاقتصادى لسكان الجـزيرة العربيـة الذين يملكون الجمال ٠٠ ولسوف يكون من المثير للاهتمـام أن يشـهد الانسان التطورات التى تنشأ عن هذا اذ يبدو أن العرب يتميزون غيظاً ٠

وبعيد السير رونالد ستورز على مسامعنا المقابلة التى جرت معه على هذا النحو :

لقد كشف الأمير عبد الله النقاب عن ذهن مليىء بالأشـعار العربية ٠٠ لقد ألفيت نفسى ــ أنا الذى قطعت رحلة حياتى عبر سلسلة من المستويات الهينه الانحدار ، من ماض حربى ــ ادخل فى حاضر عربى مجرد من وسائل الدفاع ، وأسأل أسئلة صريحة محددة عما اذا كانت بريطانيا العظمى سـتهدى للشريف الأكبـر اثنى عشر مدفعا رشاشا ؛ أو حتى ستة٠ وحين استفسرت منه ماذا يمكن أن يكون الغرض منها أجاب : (ككل من يجدون سلاحهم « للدفاع » ٠ وحين ضيقت عليه الخناق أجاب بأن الدفاع سيكون ضد أى هجوم قد يشنه الأتراك ٠ ولم أك بحاجة الى تعليمات خاصة لأقول له انه لا يمكن أن تخامر أذهاننـا قط فـكرة امداد أحد بالسلاح ليستخدم ضد دولة صديقة ٠ وما كان لعبـد الله أن يتوقع جوابا غير هذا الجواب ٠ وافترقنا على أحسن ما يكون الافتراق ٠

والواقع هو أن السير رونالد سـتورز كان مصيبا فى تصرفه مع عبد الله ، كما كان المسيو بومبار مع شـفيق بك المؤيد قبـل أربعة عشر شهرا ٠ اذ طالما بقيت تركيا دولة صديقة فان من العبث بالنسبة لعرب الحجاز أن يتوقعوا المساعدة عليها من قبل بريطانيا العظمى ٠ كما كان من غير المقبول كذلك أن تصبح مبادىء الحياد البريطانية أميع من ذى قبل أيا كان هذا الذى تفعله الدول الأخرى ٠

بيد أنه اذا كانت هناك ملاحظة أصدق تعبيرا من هـــذه الملاحظة ، واذا كان قد رسخ فى ذهن عبد الله أن ما قيل هو المعنى حقـــا ، فان من المؤكد بالمثل أنه رحل وهو يحمل فى رأسه اعتقادا بحدوث تفـــاهم مع بريطانيا اذا ما قدر لأى نوع من الاضطراب السياسى أن يزعزع نظـــام

الأمور السارية فى الممتلكات التركية • حقا أنه يبدو من السير رونالد ستورز أنه يذهب الى القول بأن الأمير عبد الله لم يفض بمكنونات صدره الى اللورد كتشنر ، قبل مقابلته هو لعبد الله حين يقول انه « كان يبدو منه أن لديه شيئا يريد أن يقوله لكنه لم يصل ، بأى صورة من الصور الى نقطة ينطلق منها • » لكن التعليمات التى تلقاها سكرتير الشئون الشرقية تفترض مقدما أن عبد الله اما تحدث مع كتشنر عن الحرب مع تركيا أو عن شيء من هذا القبيل لدرجة أن كليهما قد عرف أين يقف • لقد حمل عبد الله الى دار الاقامة أنباء « عن استقصاءات والده فى القسطنطينية بصدد الاعمال التى قد يقوم بها الاتراك فى الحجاز فى المستقبل • فكم كان بود الحسين لو تواتيه فرص استثنائية لمعرفة «القصة المستبطنة » ـ كما يسمونها ـ والتى تدور أحداثها فى القسطنطينية • وكان على علم كبير بالدور الذى لعبته المانيا فى هذه النية المتوفرة فى التعجيل بمد ما هو ـ برغم كل اعتبار آخر ـ فرع من سكتها ؛ سكة حديد بغداد وكان كتشنر قد أصغى للحديث عن سكة الحديد هذه فتجسمت أمامه المخاوف من مدها ، واضحة بجلاء تام •

ولا يستطيع أحد أن يزعم أن الكابتن ليدل هارت قد بنى كلامه ، فى كتابه عن حياة ت•ى• لورانس ، على غير ما بينات حين كتب عن مقابلة كتشنر لعبد الله فقال ان « عبد الله قد وجد فى شخص كتشنر مصغيا منعطفا ، كانت تستهويه منذ زمن بعيد فكرة تأسيس دولة عربية مستقلة فى شبه الجزيرة العربية وسورية • » واليكم شهادة أخرى شهد بها د• غ• هوغارث ، عراب لورانس فى جامعة اكسفورد الذى قدر له أن يلعب ، هو نفسه ، دورا بارزا فى المفاوضات الانجليزية العربية قبل أن ينقضى زمن طويل فقال ان « اللورد كتشنر كان منذ زمن يزن فى فكرة امكانية اقامة دولة عربية تتمتع بالحكم الذاتى بين تركيا المتتوتنة(١) من جهة وبين مصر والهند من الجهة الأخرى ، وقبل أن تصبح الحرب قاب قوسين أو أدنى • »

ولأن يتخيل أحد أن عبد الله قد جاء الى كتشنر دون وجود علاقات مسبقة بين القاهرة من جهة ومكة وسورية من الجهة الأخرى ، على الاطلاق ، مهما كانت غير وثيقة وسليمة من حيث كونها بالأقوال لا بالأفعال ، ومهما كانت غير مباشرة ، فان هذا أمر غير معقول • اذ كان يتحتم وجود مثل هذه

---

(١) اى الواقعة تحت تأثير التيوتون وهم الالمان وجنسهم •

العلافات ولو كمجرد شكل من أشكال الحيطة في حالة حدوث انهيار تركيا ... وكذلك أنشئت .

بيد أنه لم يكن هناك أى توقع ، في شباط أو نيسان من عام ١٩١٤ بقيام وشيك بالثورة بالرغم من أن جنوح العرب نحو الثورة كان يزداد بأقصى سرعة . وكانت أوروبا تعيش في قلق لكن الأرشدوق فرانسيس فردناند كان مايزال حيا ومعافى .

وفي آب اندلعت الحرب على الأرض كآلة أفلتت من عقالها فتأججت بلدان الغرب باللهيب . ورحل كتشنر عن مصر الى لندن. بيد أن احتمالات قيام نضال في البلاد الحبيبة الى قلبه لم تبرح خياله . أما في سوريةفكانت الثورة تعتمل في أعمق أعماق الوطنيين العرب . ولم يكن هذا الاعتمال في البداية الا شعورا عاما بأن فرصتهم ستتحقق بصورة ما من ثنايا وضع عالمي كالذى يتفاقم الآن . ثم بدت هذه الفرصة تلوح للعين بصورة أكثر وضوحا من ذى قبل حين بدأت الدبلوماسية الألمانية تستحوذ على ألباب الشبان الأتراك ، وحين أخذت احتمالية دخول تركيا الحرب ترجح .

وكان هناك نوع معين من الغرابة في هذا الموقف المتوقع الذى قد يخلقه دخول تركيا الحرب . لسوف يصبح الشريف وشعبه رعايا دولة عدوة بالنسبة لبريطانيا اذا ما حاربت تركيا بريطانيا . أما الى أى مدى فكر العرب في تحملهم هذا الموقف فذلك ما يبينه تذكير ورد الى اللورد كتشنر وهو في لندن من أعمق أعماق الجزيرة العربية ، كما يؤكد لنا ذلك ليدل هارت . لقد كان على شكل « رسالة سرية جاءت بطريق غير مباشر.» وكانت على هذا النحو ـ « الى جناب اللورد كتشنر . تذكر محادثتنا . لقد جاء اليوم . »

لكن هذه الرسالة قد أرسلت في آب حين كانت تركيا ماتزال على الحياد . ومر شهر . وأصبح موقف تركيا أدعى الى الريب شيئا فشيئا . بيد أن كتشنر كان غارقا الى أذنيه في لندن في مشاغل الاستعداد للحرب. وكانت الحكومة الفرنسية قد أخلت باريس . وكانت قواتنا المخصصة للحملات تعود من مارن . وغاب العرب عن الأذهان الى حد ما في القاهرة ذاتها . لكن لسير رونالد ستورز الذى لم يلق جزاء ولا شكورا على ما قام به من مجيد الأعمال ، بهذه المناسبة ، لم ينس زيارة الأمير عبد الله. وأدرك اختلاف الحال لدى القوات التركية اذا ما افتقرت الى فيلق هجانة الحجاز سواء بالنسبة للسرعة في الحركة أو بالنسبة للقوة من جراء الامتناع عن العمل معها أو بالنسبة للتهديد الذى قد يقوم به هذا الفيلق لجناح أى

زحف تركي عبر صحراء سيناء • فقدم ، كما يسجل لنا ، «مذكرة مقتضبة بأننا قد نستطيع عن طريق محادثات نقوم في حينها ألا نضمن حياد البلدان العربية في حالة عدوان تركي فحسب ، بل وتحالفها أيضا • »

وحين كان ستورز يقوم بهذا العمل كانت تجرى أنشط الترتيبات بين الفرنسيين وبين عرب سورية من أجل القيام بعمل مشترك هنا اذا ما أعلنت تركيا الدخول في الحرب • ولكن يمكن تفصيل هذا فيما بعد •

ولم تخط مذكرة ستورز بالاستجابة لها من لدن دار الوكالة في القاهرة الا حين قصد الكابتن كلايتون (والذى أصبح فيما بعد السير جلبرت كلايتون) الذى كان ممثلا لحكومة السودان في القاهرة ، والذى كانت فلسطين وسيناء تدخلان ضمن نطاق نفوذه العسكرى ، والذى كان كذلك مديرا لاستخبارات الجيش المصرى • لقد « أعذرنى (كلايتون) كل الاعذار في عرضى عليه الخروج عن الأصول المرعية في عرضه (أى التشاور مع العرب) على كتشنر بصورة سريعة ومستعجلة في كتاب سرى • »

وفي بحر أسبوع ، جاء الجواب في الرابع والعشرين من أيلول في صورة رسالة بالشيفرة موجهة الى « ممثل صاحب الجلالة في القاهرة » هى كما يلى :

من لدن اللورد كتشنر ، قل لستورز أن يرسل من طرفى رسولا سريا أحسن اختياره الى الشريف عبد الله ليثق مما اذا كان النفوذ الألمانى الحالى المسلح في القسطنطينية سيغلب السلطان على أمره ، وضد ارادة الباب العالى ، على القيام بأعمال من أعمال العدوان والحرب ضد بريطانيا العظمى • ومما اذا كان هو وأبوه وعرب الحجاز معنا أم علينا •

وقد اختار السير رونالد ستورز للقيام بهذه المهمة عميلا يدعى روجى • وكان فارسيا يستطيع الركون اليه • وسيرى القارىء في كتاب ال « تأملات » وصفاً مذهلا لهذه المهمة التى كلف بها روجى هذا • لقد وصل مكة التاسع من تشرين الأول • بيد أن الشريف الأكبر لم يكن فيها على أى حال ، وانما في قرية صغيرة تعرف بالطائف حيث كان يختلف اليها في أيام الصيف • وكان هناك في ذلك الحين سبب لوجوده هناك • لقد كان الحسين منتبها ؛ كما يقص علينا أمين الريحانى في كتابه القيم « حول سواحل الجزيرة العربية » ، الى أن الحكومة التركية ستلقى بكل ثقلها ، على الأرجح ، في كفة دول الوسط في الحرب • وكان قد حذر أنور باشا من مغبة هذا العمل ، ولكن بلا جدوى • وكان أنور باشا قد

جعل من الواضح لدى الشريف أن الأمر قد يستدعى الطلب الى عرب الحجاز بالاشتراك فى الحرب فترك الشريف مكة مغضبا ومعلنا أنه ينوى الاعتزال عن كل ما يمت الى السياسة بصلة ، فكان وجوده فى الطائف دليلا مجسدا على عدم استعداده للسير وراء الأتراك ·

بيد أنه عاد الى مكة ليقابل العميل البريطانى · وبعد أن دعاه الى مائدته مع أبنائه ، اجتمع به على انفراد وتحدث معه فى أمر الكتاب الذى كتبه السير رونالد ستورز فقال : « يا بنى ، (انظر ص ١٧٤ من كتاب التأملات) « برغم أنى فى هذا الأمر كالمدعو الا أنى سأتكلم · » ثم أخذ يذرع المكان جيئة وذهابا ثم قال : « ان للامبراطورية العثمانية حقوقا علينا ، ولنا نحن حقوق عليها · ولقد أعلنت الحرب على حقوقنا ، ولست مسئولا أمام الله ان أعلنت الحرب على حقوقنا ، ولا أنا مسئول أمام الله ان أعلنت أنا الحرب على حقوقها · »

والمقصود هنا هو أن من ضمن حقوق السلطان التركى بوصفه السيد الأعلى على العرب المطالبة بعدم معارضة الشريف لتركيا فى الحرب المقبلة · وقد وافق حسين من قبل على الابقاء على علاقاته الطيبة مع تركيا شريطة أن تمنح الحكومة التركية الحكم الذاتى الفورى لسورية ولبلاد مابين النهرين وأن تطلق سراح السجناء السياسيين العرب الذين فى قبضتها · لقد كان يطالب بالاختصار بوجوب اعتراف تركيا بحق العرب فى أن يكونوا أحرارا وأن يكونوا فقط تحت السيادة الاسمية للسلطان · وقد رفض مطالبه هذه · بل والأدهى من ذلك اعلان القادة الأتراك بأنه سيفرض التجنيد الاجبارى على عرب الحجاز · ولذلك شعر الحسين فى ذلك الحين أنه فى حل من معارضة تركيا معارضة سلبية بل وحتى ايجابية ·

ثم قال (لروجى) وهو يشمر كم ردائه الطويل : « ان قلبى مفتوح لستورز · بل والى هذا الحد ، قال وهو يبسط ذراعه ما عليكم الا أن تمدوا لنا يد المساعدة ولن نساعد هؤلاء البغاة أبدا · بل على العكس سنساعد أولئك الذين يسعون للخير · »

وبالاضافة الى هذه الرسالة تسلم العميل كتابا كان عليه أن يسلمه الى السير رونالد ستورز ·

وان من المهم جدا أن يكتنه الانسان ما الذى كان يكمن فى وعد الحسين بمساعدة من يسعون للخير · لقد كان يقف فى موقف حساس خطير الشأن لقد كان الخطر الداهم من وراء دخول تركيا الحرب ضد الحلفاء هو التأثير الذى يحدثه هذا الدخول على رعايا بريطانيا العظمى وفرنسا المسلمين اذا

أعلن الأتراك الجهاد أو « الحرب المقدسة » أما ماذا ستكون النتيجة فذلك ما لم يكن واضحا • وكان مسلمو الهند فى الواقع شجعانا فى ردهم على نداء الامبراطورية الى حمل السلاح ضد الألمان • بيد أن الحرب مع تركيا أمر مختلف • وكان يؤمل بصمة عامة ألا تؤثر على ولاء المسلمين البريطانيين (المقصود مسلمى الامبراطورية البريطانية ـ العرب) ولو أن تجعل العالم الاسلامى بوجه عام معاديا لنا • الا أنه لم يكن هناك يقين واطمئنان فى هذه الناحية • فكان الموقف حرجا •

وكانت مكة حبل النجاة • فاذا أمكن أن يظل اعـلان تركيا الحرب اعلانا تركيا وحسب ودون أن يتحول اسلاميا فقد يمر الخطر بسـلام • وسيكون الحال عندئذ على ما يرام • فللسلطان أو شيخ الاسلام المدجن أن يعلن الجهاد ، لكن الاستنفار الى المعركة ضد بريطانيا وفرنسا الكافرتين لن يكون له جرس صادق فى الأسماع حين يصدر عن حلفاء المانيا والنمسا الكافرين • أما الخطر الوحيد فى الجهاد فيكون حين توقع مكة عليه • فاذا ما قبله الشريف ووضع عليه خاتمه فسيكون حينئـذ صرخة كأنما هى صادرة من ضريح الرسول وستتمخض عن دمار لفرنسا ولنـا نحن ، لا يدرى أحد كيف يكون •

وبلغ كتاب الحسين القاهرة فى اليوم الذى سبق دخول تركيا الحرب وكان فيه الكثير من الأمور التى يريد الحسين أن يـكون على بينـة منها ، ويريد تأكيدات جد معقولة وفى محلهـا قبل أن يغـامر بتحدى صاحب السيادة الذى توجد له حاميات كثيرة فى مدن الحسين ذاتها • « كما لم ينس ، » كما يوضح ليدل هارت هذه الحقيقة ، » أن من سياسة الأتراك أن يحتفظوا لديهم بشرفاء بديلين فى الجراب ، » فى القسطنطينية • فلقد احتفظوا به هو نفسه فى الحرز والصون ليحل محل ابن عم من عمومته • ولذلك أجاب بأنه لن يتخذ أية اجراءات لصالح الأتراك طواعيـة ، وترك لكتشنر أو أى رجل آخر من ساسة بريطانيا أن يستشف ما يعنيه بقوله هـذا •

ولم يكن هذا بالأمر الصعب طبعا • اذ حين أصبحت تركيـا دولة معادية فى اليوم التالى صار من الممكن لنا أن نتحـدث مع الشريف على المكشوف •

وفى الحادى والعشرين من تشرين الأول أبرق اللورد كتشنر بمايلى :

سلامات على الشريف عبد الله • لقد اشـترت ألمـانيا الآن تركيا بالذهب دون أن تأبه بأن انكلترا وفرنسا وروسيـا قـد

ضمنت وحدة أراضي الامبراطورية العثمانيـة اذا التزمت تركيا الحياد فى هذه الحرب • وقد ارتكبت تركيا ، ضد ارادة السلطان عملا من أعمال العدوان بغزوها حدود مصر بفصائل من الجنود الأتراك • واذا ساعدت الأمة العربية انكلترا فى هذه الحرب فان انكلترا تتعهد بأنه لن يحدث تدخل فى البلاد العربية ، وستقدم للعرب كل المساعدة ضد أى عدوان يأتيهم من الخارج • فقد تكون المشيئة أن يتبوأ الخلافة عربى من سلالة أصيلة ، فى مكة أو فى المدينة فيخرج الخير ، بعون الله ، من بطن هذا الشر السائد الآن•

وقد لوحت هذه البرقية لشريف مكة بأمل كبير • انه وحـده الذى ينطبق عليه نعت الخليفة العربى المفترض • ولهذه البرقية أهمية خاصة وكبيرة جدا بسبب استخدامها لكلمتى « الأمة العربية » انهـا لم تقبـل الشريف كمتحدث رسمي بلسان العرب وحسب بل وضعته بكل جلاء فى ذلك المركز ، فبدأت المفاوضات معه على مستوى أنها تعنى مفاوضات مـع العرب قاطبة •

أما بعد ذلك بسنوات ، وبعد أن أصبحت الحاجة ماسة فى أوساط الحكومة وأوساط صنائع الصهيونية الى البحث عن ذريعـة للتنصل من التزاماتنا نحو الملك حسين وعهودنا معه ، فقد بذلت محاولات للتشكيك فى مركز الحسين هذا • لقد قيل على سبيل المثال انه « لايمثل العرب ، » لأن الأمير ابن سعود لا يدين له بأدنى ولاء ـ والحقيقة أنه كان دائما على خلاف معه ويعد العدة للاطاحة به ـ ولأن الأمراء العرب الآخرين فى المناطق الساحلية لم يقبلوه ممثلا لهم بأى صورة من الصور ، ولأن اللبنانيين لم يعترفوا به كذلك ••• الخ •

ولا تملك هذه الحجج الخريفية الا حيوية أوراق تشرين الحمراء • فاذا أخذنا فى اعتبارنا ، فى المقام الأول ، أننا تفاوضنا مع الملك حسين بوصفه المتحدث الرسمى بلسان العرب قاطبة فاننا لا نستطيع أن ننكر عليه ذلك المركز عينه أو تلك الصفة عينها التى أضفيناها نحن عليه • فلأن نقبله ممثلا للعرب ، ثم نتنصل ، بعد أن ننـال كل ميزة ممـكنة بالنسبة لصالحنا من وراء هذا القبول ، من نصيبنا فى هذه الصفقة تجاهه بحجة أنه لم يكن طوال ذلك الوقت يمثل العرب ، فان هذا نوع فريد من السلوك الفاضح الخسيس الذى لا شىء أجلب منه للعار الصارخ •

وان هذه الحجج ، فى المقام الثانى ، لتخفى وراءها ادعاء فاجرا بأن الملك القادم ابن سعود وطلاب الزعامة العرب الآخرين قد وقفوا بمعزل عن

قضية انقاذ هذا الجنس العربى واستعادته للسيادة على أراضيه • لقد كانت خلافاتهم مع الملك حسين خلافات شخصية وليست خلافات قومية • وقد ترسم الملك ابن سعود ، بعد خلع الملك حسين ، الطريق نفسه الذى اختطه الحسين فيما يتعلق بسيادة هذا الجنس العربى العظيم على أراضيه• ولأن يقدم أحد الغيرة والحسد ، بل وحتى الصراع على الزعامة ، بين الزعماء العرب على أنه خلاف على استقلال العرب فذلك هو البهتان والتزييف فى تفسير كل شىء •

وينبغى ألا تفوت على القارىء ملاحظة أن الاتفاق الذى عقدته بريطانيا العظمى مع الملك حسين كان فى منتهى الدقة بصدد نقطة أنه لن يكون هناك أى مجال لمناقشة مركزه كمفاوض فيحمل على أنه يؤثر بأى حال من الأحوال على المراكز الفردية للأفراد العرب الآخرين • فقد قال المندوب السامى فى كتاب سنستشهد به عما قريب ، وكان بمثابة الأساس للمعاهدة الانجلو عربية من الجانب البريطانى ، انه يقبل شروط الملك الحسين ، « بدون أى انتهاك لمعاهداتنا القائمة مع الرؤساء العرب الآخرين • » وقد قال الحسين ردا على هذا انه يحترم « اتفاقياتكم مع شيوخ هذه المناطق • » وهكذا فقد اتخذت الاحتياطات خاصة لكيلا يكون لمركز الحسين فى هذه المعاهدة أى تأثير على مراكز الأمراء العرب الراهنة ، ولا أى تأثير يغير من العلاقات القائمة بين بعضهم البعض • ويستتبع ذلك بالضرورة ألا يكون لعلاقاتهم بين بعضهم البعض ، فى أى يوم من الأيام ، ولا لأهليتهم ومراكزهم أى تأثير على مركز الحسين فى المعاهدة ولا أى تأثير يغير من مركزه هذا •

وفضلا عن ذلك ، فما أقل الفائدة المرجوة من تقديم الخلافات بين الأمراء العرب على أنها تؤيد ادعاءات ومزاعم الصهاينة ضمنا • ان الملك ابن سعود وشعبه يرغبون فى طرد الصهاينة السياسيين كما كانوا يرغبون فى طرد الملك حسين ، بل وربما أكثر • ولا يوجد فى دنيا العرب ممن يعطفون على الصهيونية الا حفنة ضئيلة وصفت بغباء وجهل وصفا محكما فقيل عنها « عرب واسعو المدارك •• لا تتعارض مصالحهم الاقتصادية مع مصالح اليهود الاقتصادية • » (انظر تقرير لجنة بيل ص ٥) • ومثل هؤلاء العرب يخفون أفكارهم فى جيوبهم •

وأعود الآن الى رسالة اللورد كتشنر • انها وان اعترفت بأن شريف مكة يتكلم بالنيابة عن جميع الأمة العربية فانها لم تكن صريحة بصدد حال العرب فى المستقبل • لكن هذا أمر يخص العرب وحدهم أولا وقبل كل شىء • بيد أن هذه الرسالة كانت مقرونة بتأكيد بأننا نؤيد استقلال

الشريف الوراثى ، وباستعدادنا للمساعـــدة فى تحرير العرب ، شريطة اشتراكه واشتراكهم الفعالين فى الحرب فى جانبنا ٠

وقد قطع هذا التأكيد للشريف بكلمة شرف شفاهة ٠ ولـكن سواء أكان مكتوبا أم منطوقا فقد كان أول وعد صريح بالاستقلال ؛ بأى شكل كان هذا الاستقلال ، قطعناه لزعيم عربى ، ويستحق علينا أن نذكره على نحوه هذا ٠

وفى حوالى هذا الوقت عينه ؛ بناء على ما أثبته لورانس فى كتابه ، قام اللورد كتشنر بجس نبض رجل عربى آخر بارز ، وهو جندى يدعى عزيز المصرى ، كان منفيا الى مصر ، بهدف « كسب القوات التركية فى بلاد ما بين النـــهرين الى جانبنا » ٠ وكانت تتألف من مجندين عرب اجباريا واقعين تحت نفوذ «حزب العهد» ويتابع لورانس فيقص علينا كيف ضاعت هذه الفرصة نتيجة لمعارضة مكتب الهند(١) ويالها من فصة صغيرة مرة ٠ وفائدتها هنا هى أنهـــا تثبت كيـــف أن كتشنر كان يتوسل الى العرب ليشدوا أزرنا ٠

وأرسل الحسين الى القاهرة رده على «التأكيد» والكتاب البريطانيين٠ وكان رده هـــذا « وعدا صريحا لا لبس فيه بأنه سيمتنع عن مساعدة أعدائنا » ٠ (عن هوهارت) ٠ وبناء عليه ، فقد وعدنا الرجل بأنه سيقف على الحياد وبأنه لن يضع توقيعه على أى نداء بالجهاد اذا أعلن ٠

الا أن الجهاد أعلن فى وقت مبكر من عـــام ١٩١٥ ودعت الحكومة التركية الحسين ؛ أو بالأحرى أمرته ، كما يقول لورانس ، بأن ينادى به ويجعل لصداه دويا فرفض ٠ ولم يكن رفضه هذا مناورة فى جملته لأنه لم يكن شريف مكة وحسب بل شريفا مخلصا لمكة ومقيما على دينه مخلصا له فبدا له أن ليس من الشريعة أن يعلن الحرب المقدسة فى حين لم يهاجم (بضم الياء وفتح الجيم ــ المعرب) الاسلام (لأن تركيا خطت الخطوة الاولى فى هذه الحرب) ، وفى حين كانت ألمانيا حليفة لتركيا ٠

وبرفضه هـــذا عرض نفسه لنقمة الاتراك ٠ وما أسرع ما تلت هذه النقمة ٠ لقد أوقفوا سيول الحجاج عن مكة الذين كانت مكة تحصل على جل دخلها منهم ، وأوقفوا المؤن التى كانت تصل اليها عن طريق السكة الحديد ٠ وكان الحجاز يعتمد كل الاعتماد فى الحصول على موارد الغذاء من الخارج لأنه واقع فى صحراء ٠ وأخذنا نحن من جانبنا نحاول أن نعوض

(١) وزارة شئون الهند فى بريطانيا ٠

هذا بأن سمحنا للسفن المحملة بالمواد الغذائية والقادمة من الهند بالوصول الى جدة بانتظام معين .

ومن ثم لم يعد عرب الحجاز الآن يعاملون كرعايا عدو ، كاعتراف منا بموقف الحسين النبيل . ولو أننا أبدينا أى شكل من أشكال العداء تجاه المدينتين المقدستين المحاصرتين لكان ذلك سابقة سياسية فريدة فى نوعها ، مهما كان موقف الشريف منا . وعلى أى حال ، فقد كانت المداومة على ارسال السفن المحملة بالغذاء برهانا ساطعا من جانبنا على تقديره ، لمساعدته لنا فى قضيتنا .

ولا مجال للتشكيك هنا بأنها لم تكن مساعدة عظيمة . « لقد قدم الشريف لبريطانيا أعظم مساعدة مادية يمكن توقعها » . كان هذا هو تعليق ليدل هارت عليها .. « لقد نزع من كلمة الجهاد شوكتها . ولن يكون لها بعد الآن الا معنى قليل خارج حدود تركيا ، برغم كل تلك الجهود الدائبة التى تبذلها الارساليات التركية والالمانية . وقد كانت يدا بريطانيا مشغولتين فى حرب مع تركيا فوفر عليها هذا العمل فعلا عبء حرب مقدسة تقصم الظهر » .

ولست أورد هذه الملاحظات الا لأؤكد تلك القروض العظيمة التى ندين بها للعرب .. قروض أدرنا لها الظهر فى أيامنا هذه بكل بساطة وصفاقة . فحسين لم يسد لنا مساعدة وحسب بل عرض نفسه لأشد المخاطر . وكان بوسعه أن يتصرف بطريقة أيسر وأن يركب طريقا سهلا . اذ كان يدرك أننا لا نستطيع أن نغفل شيئا أكثر من محاصرة شواطئه ان وضع خاتمه على نداء الجهاد . بل وربما لم نكن فى وضع يسمح لنا بأن نفرض الحصار عليه بسبب الكراهية الشديدة التى تلحق بنا فى طول الشرق وعرضه من جراء هذا العمل ، اذ حاولنا أن نميت مكة جوعا .

أما هو فقد جعل الأتراك ، برفضه التوقيع على نداء الجهاد ، يستشيطون غضبا عليه ، ووضع مصيره تحت رحمتهم ان خرجوا من الحرب ظافرين ، أو بلغوا من الحرب نصرا فى مكان بحيث يكونون قادرين على الاستدارة اليه . وكان الحال على النقيض فى ذلك الحين . اذ كانوا غارقين فى متاعب الحرب حتى آذانهم وليست لديهم قوات يوفرونها . لكنه كان يتوقع أنهم سيقبضون عليه من الديوان الذى نصبوه فيه حالما يجدون الوقت والقوات .

كان الحسين يدرك هذا ، ومع ذلك فقد جمع عزمه وصمم كل التصميم على أن يجرى هذا الشوط الى آخر مداه ، وأن يختار لنفسه الوقوف بجانب قضية الحلفاء جهارا نهارا . واذا كان له أن ينضم اليهم فلابد وانه كان يتمتع بين بنى جنسه بتأييد داخلى قوى ونفوذ واسع مترامى الأطراف . لسوف ينضم اليهم ليس بوصفه نصف سيد على الحجاز ولكن كقائد لجميع العرب . وكان مركزه يتخذ هذه الصفة المحددة شيئا فشيئا . فما ان اندلعت نيران الحرب حتى اتصلت به الجمعيات السرية فى سورية . وكانت لجنة وطنية سرية قد تألفت فى دمشق من عرب سورية والرافدين والجزيرة العربية ووضعت هذه اللجنة برنامجا لاستقلال البلاد العربية وللتعاون مع الحلفاء . وأرسل هذا البرنامج الى الشريف وترك له ، اذا ما وافق على ما جاء فيه ، أن يتفاوض مع بريطانيا العظمى للمساعدة على تنفيذه ، فى مقابل تأييد العرب لها فى الميدان ضد الأتراك . وكان زعماء سوربة على علم بالمفاوضات التى جرت بين الأمير عبد الله وبين كتشنر . وها هم أولاء الآن يعربون عن تمسكهم بها ويقترحون خطوطا عريضة لتطويرها الى محالفة .

وقد تلقى الشريف فى الأسابيع الأولى من عام ١٩١٥ نداءات مختلفة تلح عليه بالقيام بالعمل وفق برنامج دمشق هذا . فيقول لورانس : « كانت لجنتا « العهد » و « الفتاة » تتوجهان اليه فى الخطاب باعتباره أبا العرب ، ومسلم المسلمين ، وأكبر كبرائهم سنا » .

لكن حسينا ظل لشهر أو شهرين يقف وقفة المتروى ، ويراقب حال الأمور عموما . وجاء الى مصر مندوب سام جديد بديلا للمندوب الغائب كتشنر ، من الهند ، هو السير هنرى مكماهون . وكان يحمل تعليمات من مكتب الخارجية(١) بأن «يقوى أواصر الصداقة مع الشريف» .

وكانت لدى مصر مشاغلها لأن الأتراك كانوا قد هاجموا قناة السويس فى شباط ، لكنه كان هجوما غير ذى أثر وصد دون كبير عناء ولكن لم تجر ملاحقة القوات التركية . وكان مفهوما بصورة رسمية أن قائدها جمال باشا يقوم باعدادها لمحاولة ثانية . وكان ينظر الى هذا الأمر فى مصر على أنه نوع من التهويش يستوجب التحوط فقط . وفى نيسان حدث أيضا انشغال أخطر بابتداء حملة غاليبولى .

---

(١) اسم وزارة الخارجية البريطانية .

وذهب فيصـــل بن الحسين الى الدردنيــل بوصفه ضابطا تركيا فأرسل رسائل سرية الى الوطن عن تقدم القوات المهاجمة الصعب ، وعن خسائر الأتراك الضخمة فى الأرواح . الا أن ما أحرزه هؤلاء الأخيرون من نجاح فى المقاومة قد تضافر مع مقدار تلك الخسائر على جعــل القيادة التركية تتحدث عن العمل بنظام التجنيد الاجبارى فى الحجاز الذى هدد به من قبل . وقد تلافى الشريف هذا بتكوين قوة اضافية من المتطوعين لتلحق بهجوم جمال باشا « المزمع على مصر » . ولما كان من سياسة تركيا أن تتظاهر بالتحضير لهذا الهجوم ، كان من سياسة الحسين التظاهر بتصـــديق هــذا التظاهر ، وبأن يزود بالرجال جيشا كان يتوقع أنه لن يتم تشكيله أبدا . وحتى اذا لم يكن هنـــاك بد من انضمام بعضهم الى هذا الجيش التركى فان شعبه ســيتجنب الشر الأعظم من تنفيذ هذا التجنيد الاجبارى .

وفى الوقت ذاته كانت القيادة العليا التركية قد نقلت فرقهـــا العربية من سورية ووزعتها بين الفرق الألمانية والنمسوية فى الجبهات الاوروبية الجنوبية الشرقية اذ كان زعماء حزب العهد قـد وضعوا خطة لعصيان مسلح تقوم به هذه الفرق فى الوقت الذى كانت فيه فى سورية فرقة تركية واحدة فى مقابل فرقهم الخمس ، وكانت جمعية «اللامركزية» تعد الخطط فى الوقت عنية لثورة يقوم بهـــا الشعب ، فأرسلت جميع احتياطييها من الســـوريين الموجودين فى القـــاهرة الى سورية ليقوموا بوضع تقدير للأعداد التى يمكن أن تجند لهذه الغاية ، ولتقصى الأماكن التى يمكن أن يختبىء فيها بأمان قادة معينون سيضطلعون بمهمة القيادة حين تحين لحظة الانتفاض . وكان قد جرى قبلا الحصول على وعد من الفرنسيين بتقديم عشرين الف بندقية وارسال ثلاث بوارج حربيـــة لتقوم بعملية التغطية فى بيروت والساحل اثناء قيام العصيان ، وجرى وضع الترتيبات ليقوم ضباط فرنسيون بقيادته .

ولم تتحقق هذه الخطط لسوء الحظ . ولو طبقت دون ابطـــاء لتغير مجرى الحملة الشرقية كلها . لقد كانت جمعيتا العهد واللامركزية تعملان كل على انفراد . أما الوعود الفرنسية فقد صدرت عن رسميين فرنسيين يعملون فى بلاد الشرق وليس عن فرنسا مباشرة . وكانت لدى القادة الفرنسيين من عسكريين وبحريين مشاغل تشغلهم فى ذلك الحين غير سورية فتأرجحت المساعدة الموعودة . وبينما كان كل انسان ينتظر

الآخر ليقوم بدورة نقل الأتراك الفرق العربية قطعة قطعة تحت اشراف الألمان فضاعت الفرصة .

وقـد طلب الى الحسين باديء ذى بدء أن ينهض الحجـاز بالثورة حين ينفجر العصيان المسلح فى سورية لكنه لم يقتنع بما ســمع من اعدادات وطالب بنوع من التغطية يقوم به الحلفاء ، أو يقوم به جنود نظاميون ثائرون فى المناطق التى تقع بينه وبين القسطنطينية . بيد أن تشتيت الفرق العربية وضع نهاية لهذا الأمل .

ومع ذلك فان رسل الجمعيات السورية ، التى كانت تمثلها فى ذلك الحين مجموعة من المستشارين فى مكة ، كانوا ما يزالون ينادون بمواصلة العمل ، وسرعان ما أخذ الشريف يشاطرهم وجهـة نظرهم هذه . حقا ان فيصل قد كان يتبنى المناداة بالتعقل بسبب تزايد فشل حملة الدردنيل لكن حسينا كان يخشى أن يكون هـــذا بالذات مدعاة لامتداد نشاط الأتراك الى داخل الحجاز .

وهكذا ضرب بجميع الاعتبارات عرض الحائط وقدم عرضا جريئا ومحددا لاشعال نار الثورة اذا قبلت بريطانيا العظمى شروطه المبنية على برنامج دمشق . واتخذ هذا العرض شكل كتاب ورد الى المنـدوب السامى فى مصر فى شهر آب . وهذا الكتاب كتاب خالد بالنسبة لجنس العرب لأنه كان ، على طريقته الخاصة ، براءتهم العظمى .. كان كالبراءة العظمى بالنسبة للانكليز . انه الأساس الذى سيبنى عليه استقلالهم . أما بالنسبة لعرب فلسطين فقد كان أحد الأصوات العظيمة ذات السبق فى تاريخ هذه القضية التى تعنينا فى هذا الكتاب . ولذلك فهو يستحق منا أن نفرد له فصلا جديدا .

الفصل السادس

المعاهدة بين بريطانيا العظمى والعرب ـ استقلال العرب يعترف به ويؤيد فى نطاق حدود تشمل فلسطين

كان كتاب شريف مكة الى المندوب السامى مؤرخا بتاريخ الثانى من رمضان لعام ١٣٣٣ من التقويم الهجرى ، أى الرابع عشر من تموز لعام ١٩١٥ ، وهكذا استغرق ما يزيد على أسبوعين ليصل الى غايته . وقد نشرت الفقرات الهامة من هذا الكتاب ومن الكتب التى تلته قبل خمسة عشر عاما فى مجموعة من المقالات نشرتها فى جريدة الديلى ميل . لكن أعتقد أن من الأوفق أن أوردها بنصها الكامل هنا . وليس يضيرنى أن أقول اليوم أن أصولها قد وصلت الى فى معظمها من الملك المغفور له فيصل بن الحسين حين كنت موجودا فى الشرق الأدنى فى عام ١٩٢٢ . وهى لم تعرض على بل جددت أنا نفسى فى طلبها اذ رأيت أن من أكبر الخطأ أن تبقى هذه الأوراق بغير نشر ، كما حدث فى ذلك الحين وظل الحال كذلك معها حتى الآن ، فى حين تنكر الارتباطات والعهود المحتواة فيها . وهذا الأصل هو الأصل الرسمى ، أو بمعنى آخر هو النسخة الانجليزية منه ، مأخوذة من الأرشيف الشريفى . وهو الترجمة الانكليزية الاولى عن النص الغربى التى اعتمدت ، ونقلت نقلا حرفيا عن الأصل العربى . وقد تركت النحو فيها دون تغيير ، وان وقع فى أخطاء بين الحين والآخر . والعبارات التى أضعها بين أقواس هى جزء من النص ما لم ألبسها حروفا بارزة .

وعليه فهذا هو نص كتاب الخامس عشر من تموز :

الى صاحب السعادة :

لما كانت الأمة العربية بأجمعها ودون استثناء قد قررت في هذه الحقبة الأخيرة ان تحيا وأن تفوز بحريتها وأن تمسك بزمام ارادتها ، نظريا وعمليا على السواء ، ولما كانت قد تبينت وأحست أن من مصلحة حكومة بريطانيا العظمى أن تساندها وتساعدها في بلوغ أهدافها الراسخة والقانونية (المبنية على شرف وكرامة حيـــاتها) بدون أية دوافع مستترة من أي نوع وليست لها علاقة بهذا الموضوع •

ولما كان من مصلحتها كذلك أن تفضل مساعدة حكومة بريطانيا العظمى آخذة في الاعتبار وضعها الجغرافي ومصالحها الاقتصادية ، وكذلك موقف الحكومة المذكورة المعروف لدى الأمتين كلتيهما وليستا في حاجة تبعا لذلك الى توكيده •

لهذه الأسباب ترى الأمة العربيـــة أن من الأنسب ان تحصر نفسها ، لضيق الوقت ، في أن تسأل حكومة بريطانيا العظمى الموافقة على المقترحات الأساسية التالية ، اذا رأت ذلك مناسبا ، وعن طريق مندوب لها أو ممثل لها ، مستبعدة جميع الأشياء التي تعتبر ثانوية بالقياس الى هذه لكي تعد جميع الوسائل الضرورية لبلوغ هذه الغاية النبيلة ، الى أن يحين ذلك اليوم الذي تجد فيه مناسبة القيام بالمفاوضـــات الحقيقية •

أولاها : أن تعترف انجلترا باستقلال البلاد العربية التي تحدها من الشمال مرسين وأضنة وبخط يمتد حتى خـــط عرض ٣٧ الذي تقع عليـــه بيريجيك ، وعرفة ، وماردين ، ومديات ، وجزيرة عمادية حتى حدود فارس ، ومن الشرق حدود فارس حتى خليج البصرة ، ومن الجنوب المحيـــط الهندي ، باستثناء عدن فيبقى وضعها على ما هو عليه • ومن الغرب البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط حتى مرسين • وأن توافق انجلترا على اعلان الخلافة العربية الاسلامية •

وثانيها : أن تعترف حكومة الشريف العربية بان سيكون لانجلترا الأفضلية على غيرها من الدول في جميع أعمال الانشاء

الاقتصادى حين تكون شروط العطاءات المقدمة لتنفيذ هـذه الأعمال متساوية .

وثالثها : تأمينا لاستقلال العرب هذا وتوكيدا لمثل هذه الأفضلية أن يقـوم الطرفان الساميان المتعـاقدان ، كلاهما ، بتقديم العون المتبادل بكل ما لدى قواتهما العسـكرية والبحرية من طاقة لمواجهة أى دولة أجنبية قد تهاجم أيا من الطرفين. ولا يقرر أمر الصلح الا باتفاق الطرفين .

ورابعها : اذا دخل أحد الطرفين طرفا فى نزاع عدوانى أن يقـف الطرف الآخر على الحيـاد وفى حالة ما يرغب ذلك الطرف أن ينضم الطرف الآخر اليه يجتمع الطرفان ويبحثان الشروط .

وخامسها : أن تعترف انجلترا بالغاء الامتيازات الأجنبية فى البلاد العربية ، وتساعد حكومة الشريف فى وضع اتفاق دولى لتوكيد مثل هذا الالغاء .

وسادسها : أن تبقى المادتان الثالثة والرابعة من هذه المعاهدة ساريتى المفعول لمدة خمسة عشر عاما واذا رغب أى الطرفين فى تجديدها فيجب تقديم اشعار بذلك قبل سنة من انقضاء أجل هذه المعاهدة .

وبناء عليه ، ولما كانت الأمة العربية بأجمعها قد التفت (بحمد الله) وتكاتفت من أجل بلوغ هذا الهدف النبيل بكل ثمن ، التقـاء لا رجعة فيه ، فانهـا ترجو حكومة بريطـانيا العظمى أن ترد عليها بالايجاب أو بالنفى فى بحر ثلاثين يوما من استلام هذا الاشعار ، واذا ما انصرمت هذه المهلة قبل تسلم الرد ، فانها تحتفظ لنفسها بمطلق الحـرية فى التصرف . وفضلا عن ذلك فاننا (أسرة الشريف) سنعتبر أنفسنا فى حل، قولا وعملا ، من القيود التى تقيدنا بها فى تصريحاتنا السابقة التى قمنا بالادلاء بها عن طريق على أفندى .

وكانت هذه الوثيقة وثيقة جديرة بالاحترام لعدة أسباب . فهى تقول ابتداء أنهـا قـد أزجيت باسم الأمة العربية التى أعلنت فيها ، على هذا النحو ، ككيان سياسى عاد الى الوجود بعد قرون ، قرون لم تكن فى يوم من الأيام قرونا من الخسوف بل قرونا من التبعية . وليس من

المتصور أن هذا الاعلان قد كان مفاجأة بالنسبة لمتسلمى الكتاب لأن اللورد كتشنر نفسه قد منح « للأمة العربية » هـذه الصفة المعهـودة نفسها فى برقيته التى ارسلها فى تشرين الأول السابق . وان استعماله لهذه الصفة ليدل مغزاه على انه كان هناك تفاهم بينه وبين مكة ، حتى فى ذلك الحين ، على وجوب انهاض الأمة العربية على هذه الصفة . لكنها الآن قد جرى اعلانها بتحديد كامل وليس عرضا . فلقد كتب الشريف بقلمه هذا الكتاب بوصفه المتحدث الرسمى باسم الأمـة العربية . ولم تذكر حكومته هو شخصيا الا فى الفقرة الثانية ، وفى الخامسة مرة أخرى حيث أسبغ عليها دور المفاوض بالنيـابة عن « البلدان العربية » .

لقد اتخـذ الشريف بصدد هذه البلدان دور المتحدث الرسمى الأول بين نظرائه . أما الى أى مدى أنكر ذاته وأنكر نصـيب الحجـاز فى قضية العرب العامة فان ذلك واضح تمام الوضوح . أما التصريحات موضوع القول فكانت بالطبع هى التصريحات التى قيلت جوابا على كتاب اللورد كتشنر . وأما على أفندى فهو الرسول السرى الذى جاء فى كانون الأول بالرسالة الثانية من مجموعة الرسائل التى وردت الى مكة قبلا .

وكان كتشنر قد أكد للحسين فى رسالته التى جاءت عقب نشوب الحرب مع تركيا مباشرة أن بريطانيا العظمى ستؤيد « اسـتقلاله الوراثى » و « ستساعد فى تحرير العرب » . وكان الوعد الأول الذى قطع للحسين وعدا قاطعا لا ثغرة فيه ، أما الثانى فكان غامضـا لاشتماله العرب عمـوما . واذن فقـد ضـحى الشريف بشىء بجعل مطـالبه جزءا من المطلب الذى قدمه بالنيـابة عن الامة العربية . وان من المرغوب فيه أن يضع الانسان خطا تحت هذه النقطة على ضـوء الأحداث الأخيرة .

وما من شك أن شرط موافقة بريطانيا على اعلان الخلافة العربية قد يبدو على أنه تعويض كاف للحسين عن أى شىء قد يخسره الحسين مما يطمع فيه لأنه سيكون طبعا هذا الخليفة العربى الجديد . لكن المطالبة بالخلافة لم تكن شيئا جديدا . لقد نوقشت من قبـل مع اللورد كتشنر الذى وافق على أن يؤيدها .

وهناك نقطة أخرى جديرة بالاهتمام فى هذه الوثيقة التى وردت الى المندوب السامى . ان الامة العربية فيها لم تعد الى حيز الوجود باعتبارها

وحدة صوتية واعية فحسب بل ان الحدود التى اقترحت ، والتى سيستعاد استقلال العرب ضمن نطاقها ، كانت مبنية على تلك الحدود التى حددت من قبل «اللجنة الوطنية» قبل عشرين سنة فى البيـــان الذى نشرته فى باريس • وكانت ديباجة تصريح الحسين مأخوذة عن ديباجة باريس هذه، التى صيغت بلهجة غالية ثقيلة ••• « لقـد استفاق العرب الى تجانسهم التاريخى والقومى والاثنوغرافى* » فتحولت الى الصيغة العربية الاساس: «لما كانت الامة العربية بأجمعها ودون استثناء قد قررت فى هذه الحقبة الاخيرة أن تحيا •••»

أما بالنسبة للحدود فان بيان باريس لم يذكر الحدود الشمالية ، وربما كان مرد ذلك الى أنهـــا لم تكن محددة تحـديدا قاطعا اذ يتداخل الجنسان العربى والتركى على طول حدود آسيا الصـــغرى ، ابتـداء من الاسكندرونة حتى الحدود الفارسية • وأما بالنسبة للحدود الثلاثةالاخرى فقد وسع الحسين هذه الحدود عما جاء فى بيان باريس من ناحية الشرق من النهرين العظيمين حتى حدود فارس • أما الحدود الجنوبية والغربية، والتى ستهمنا فيما بعد بصـــورة خاصة ، فهى نفســـها التى وردت فى بيان ١٨٩٥ •

لقـد عينت وثيقة الحسين ، وعلى وجـــه التخصيص ، بنود وثيقة باريس التى جاءت تعميمية ، وأكدت لبريطانيا استبقاء عدن ، ووجدت حلا جغرافيا حسابيا حقيقيا للحدود الشـمالية • وقـــد عينت حدود ساحل البحر الابيض المتوسط ، الساحل السورى الذى يبدأ من نقطة الاتصال بتركيا الى نقطة الاتصال بمصر ، فى مجموعتى الحدود كلتيهما ، بصورة لا مهرب منها • وفلسطين تبعا لذلك مشمولة فى الممتلكات العربية • وما كان فى الامكان أن يكون الأمر خلاف ذلك • ان حدود البحر الابيض المتوسط هى أكثر الحدود تحديدا وطبيعية من بين الحدود الاخرى •

وهذان الشيئان : خروج الأمة العربية الى حيـز الوجـــود ككيان مفاوض ، ومواصلتها لعملها الذى كانت تقـــوم به فى المنفى فى أوروبا الغربية فى عـــام ١٩٠٥ فى مكة عام ١٩١٥ ، يستحقان التأكيد عليهما مرارا وتكرارا • لقد كان ينظر الى مطالب الشريف أحيانا، ولصالح المزاعم الصهيونية ، على أنها شطحات ذهن حاكم شرقى هرم يسطر على الورق أضغاث خيالاته بصورة حالمة ، فى حين أنها لم تكن شيئا من هذا القبيل•

---

* وصف السلالات البشرية او الشعوب وعاداتها وطبائعها وأخلاقها ــ المعرب

انها ترديد لمشروع فكرت فيه جميع فروع العرب منذ زمن بعيد • وها هو الشريف يتبناها الآن بالاشتراك معها • (يسجل المستر أنطونيوس* أن قادة الجمعيات العربية فى دمشق قد كتبوا وثيقة وضعوا فيها جميع الشروط التى هم مستعدون على أساسها للتعاون مع بريطانيا العظمى ضد تركيا • وقد فتحت هذه الوثيقة السبيل ، كلمة كلمة تقريبا ، الى «المقترحات الاساسية» الاولى التى قدمها الملك حسين فى كتابه الذى أوردناه قبل قليل • وأما المقترحات الاخرى فهى صور منها • والواقع هو أنها أرسلت اليه لكى يتخذ منها أساسا للمفاوضات • ففعل • لقد نقلها فيصل اليه مع الخبر بأن الزعماء العرب فى سورية قد اقسموا يمين الولاء له باعتباره المتحدث الرسمى بلسان الجنس العربى ، اذا ما قبل هذه المهمة) •

وحين بلغت رسالة الشريف القاهره جعلت بعض الناس «يتحسسون قلوبهم» • ويوضح الكوماندر هوجارث ، الذى يسجل هذه الحقيقة ، أنه كانت هناك أسباب مختلفة تدعو الى هذا التحسس • ان عدم جدوى أسلحتنا فى الدردنيل ، وحدوث «شك جديد بالنسبة لسلامة طريق البحر الاحمر» هما الشيئان المسئولان الى درجة كبيرة عن استقبال تلك الوثيقة استقبالا فاترا نسبيا • ولم يكن الموقف السائد آنذاك ، اللهم الا بين حفنة قليلة من الحكماء ، يرقى الى درجة أن يرى فى الثورة العربية الموعودة عونا جديدا ، كتقيد تعاقدى جديد فى منطقة نملك منها فى أيدينا أكثر مما سعينا له • وفضلا عن ذلك كان لا مفر من أن تواجه طبيعة المطلب الشامل باستقلال العرب ، التى لا تقبل الجدال ، من قبل أخلاط مختلفة من الرجال من غير طراز كتشنر • وكانت القاهرة ، وهى فى حال من القلق والحيرة ، تشغل بالها فى محاولة اكتناه أسباب ابطاء لندن فتأخر الرد حتى اليوم السابق لآخر يوم فى آب • ثم كتب المندوب السامى بعد أن أزجى للشريف التحيات المعتادة :

> نتشرف بأن نشكركم على تعبيراتكم الصريحة عن صدق مشاعركم تجاه انجلترا • ويسعدنا ، فضلا عن ذلك ، أن سموكم وشعبكم تلتقون حول رأى واحد وهو أن مصالح العرب هى مصالح الانكليز ومصالح الانكليز هى مصالح العرب • ونحن نؤكد لكم فى هذا المقام ماجاء فى رسالة اللورد كتشنر التى وصلت اليكم عن يد على أفندى ، والتى أعربنا فيها بجلاء عن رغبتنا فى استقلال

** فى كتابه الذى نشر مؤخرا باسم يقظة العرب ــ المؤلف •

العربية وسكانها ، فضلا عن موافقتنا على الخـلافة العربية حين تعلن • واننا لنعلن مرة أخرى أن حكومة صاحب الجلالة سوف ترحب بأن يستأنف الخلافة رجل عربي من جنس أصيل • أما بصدد مسائل الأبعاد والتخوم والحدود فقد يبدو أن من السابق لأوانه اضاعة الوقت في مناقشة مثل هذه التفاصيل والحرب في حمأتها ، في حين أن الاتراك ما يزالون يحتلون أجزاء كبيرة منها في الوقت الحاضر احتلالا فعليا ؛ خاصة وقـــد نما الى علمنا ، ويالدهشة والأسف ، أن بعض العرب في هـذه الاجزاء عينها يتجاهلون هـــذا وهم أبعد مايكون عن مساعدتنا ؛ يتجـاهلون فرصتهم العظمى ، ويسخرون أيديهم في خدمة الالمان والاتراك، مفسدي أحوالهم الجدد ومستعبديهم القدامى •

وعلى أي حال ، فنحن مستعدون أن نرســـل الى سموكم صدقات مصر للمدينتين المقدستين وللعرب النبلاء ، حالما تخبروننا سموكم كيف وأين يجب أن تسلم • وفضلا عن ذلك نحن نقوم بوضع الترتيبات للسماح لرسولكم ، من أجـــل هذه الغاية ، بدخول مصر ، وتقديم المساعدة له في كل رحلة قـد يقوم بها الينا •

مع تأكيدات الود • وتحياتنا •

ا • هـ • ماكماهون

وكان هذا الرد ردا دبلوماسيا مغرقا في دبلوماسيته • وفي الردود الدبلوماسية نوع معين من الالتواء الفكاهي يمكن أن يلاحظه الانسان دون أن يغيب عن باله مغزاها الخطير • فكتاب ككتاب الشريف قد يطرح اقتراحا ذا أهمية قصوى فتتخيل أن الرد عليه اما أن يقبل الاقتراح أو يرفضه ، أو أن يقول ان القرار بصدده سيصدر فيما بعد • لكن الأمر ليس على هذه الشاكلة بتـــاتا • ان الرد الدبلوماسي يتجاهل هذا الاقتراح ذا الاهمية القصوى • ان الجواب الدبلوماسي ينصرف الى اقتراح وهمي ، ليس غير ذي أهمية وحسب ، بل لا ســبيل الى العثـور عليه في الكتاب موضوع الجواب • ان متلقي الكتاب موضوع الجـــواب يؤكد لمرسله بصراحة أنه سيولي كل اعتبار لما لم يضعه المرسل في أي مكان من كتابه • ففي الحالة التي نحن بصـــددها طالب الشريف بالاستقلال لمجموعة البلدان العربية كلها لكن السير هنري ماكماهون يؤكد له بحرارة على استقلال العربية ، هذه الشبه الجزيرة التي لم يذكرها الشريف أبدا •

لقد حصل الشريف فعلا على تأكيد مجدد بموافقة البريطانيين على الخلافة المأمولة . ولكن بعد ذلك ، جاءت في رد القاهرة ، مراوغة فنية وختل في التفاصيل . فقد أوليت مسألة الحدود وجها مغايرا كلية بادخال كلمتين مرادفتين (لست أدرى من أين جاءتا) وهما كلمتا « الابعاد » و «التخوم» فعن طريق ادخال هاتين الكلمتين الاضافتين ونظم الثلاث ببعضها البعض يدخل في روع القارىء بأن الشريف قد أراد أبعادا وتخوما وحدودا ـ والله وحده يعلم ماذا أيضا . لقد تحول تفقيطه البسيط المفرد للحدود الى منوعة مسلية من المطالب التى لا يستطيع المندوب السامى الواقعى الا أن يعرض عنها ولا يضيع عليها شيئا من وقته « والحرب فى حمأتها » .

ثم تلت ذلك الدهشة والأسف من وجود الفرق العربية بين القوات التركية المقاتلة . أما الأسف فنعم . وأما تصنع الدهشة لوجودهم فما كان ذلك أمرا ممكنا الا فى كتاب يصدر من القاهرة !

بيد أن كتاب المندوب السامى الدبلوماسى المنغوم قد انتهى بهذا الاستعراض الاخير من الدهشة ، وخلص منها الى نشرة اخبارية ، لها وزنها ، بلهجة افضائية . لقد علم الشريف ، الذى كان قد تساءل بقلق فى خطاب منفصل عن المعونات الغذائية التى سيساهم بها مسلمو مصر للأماكن المقدسة ، أنه سيتلقى هذه الصدقات التى ستحفظ الرمق على دولته الجديبة . وكانت هذه شظفة المواساة فى نهاية كتاب ترك مقترحاته دون جواب .

ولم ينته الأمر عند هذا الحد طبعا . لقد أخذ الشريف ومستشاروه رد السير هنرى مكماهون على أنه نكوص فأرسل ردا عليه فى التاسع من أيلول (٢٩ شوال ١٣٣٣) مع عودة الرسول السرى ، لكى نوفى الكلام حقه . وهو وثيقة أطول من وثيقته الاولى .

الى صاحب السعادة ، رفيع المكانة ، عظيم الشأن ، المندوب السامى البريطانى فى مصر ـ سدد الله مسعاه .

لقد تلقيت ببالغ الغبطة وعظيم السرور كتابكم المؤرخ فى التاسع عشر من شوال (٣٠ آب ١٩١٥) وأوليته شديد الاهتمام وعظيم الاحترام برغم ما أثاره فى نفسى غموض فحواه وبرود لهجته وتردده بصدد نقطتنا الضرورية .

وان من الضروري هنا أن أوضح لسعادتكم اخلاصنا تجاه الامبراطورية البريطانية المجيدة ، واعترافنا بتفضيلها في جميع الحالات والأمور ، وفي جميع الاشكال والظروف · ان المصالح الحقيقية لابناء ديننا تقتضي هذا ·

الا أن سعادتكم ستعذرونني فتسمحون لي بالقول بجلاء ان هذا الفتور والتردد اللذين أبديتموهما بصدد مسألة الابعاد والحدود بقولكم أن لا جدوى من وراء مناقشتها في الوقت الحاضر ، وأنه مضيعة للوقت ، وأنها ما تزال تحت يد الحكومة التي تحكمها ···الخ ، يمكن أن يؤخذا على أنهما يدلان على الجفاء ·

اذ لما كانت هذه الابعاد والحدود المطلوبة ليست شأن شخص واحد نستطيع أن نقول له بشأنها ما ترون فيرضى ونستطيع أن نبحثها معه بعد أن تضع الحرب أوزارها ، ولكن شعوبنا قد رأت أن حياة اقتراحها الجديد هذا مرهونة بهذه الابعاد على الأقل فاجتمعت كلمتها على هذا ·

وبناء عليه فقد رأت أن مناقشتها أولا هي محل ثقتها ، وهي تودع الآن في عنق مناط هذه المناشدة الاخيرة ؛ ألا وهي الامبراطورية البريطانية المجيدة ، مشاعر سكانها لكي يعلموا كيف يؤسسون مستقبلهم وحياتهم لكي لا يجدوها أو يجدوا أي حليفة من حليفاتها تقف في طريق عزمهم حين يصل الأمر الى نتيجة عكسية ـ لا سمح الله ·

وأخرج الآن عن صلب النص بسبب الغموض في الفقرتين السالفتين الأخيرتين ، وبالأخص الفقرة الثانية منهما · ان الفقرة الأولى قد ركب بعضها على بعض في الترجمة الانكليزية بصورة سخيفة لأن معناها واضح تمام الوضوح اذا قرئت على هذا النحو : «ان هذا ليس أمرا فرديا ، ولست أبحثه أنا بالنيابة عن أي حاكم عربي فرد يمكن أن يبحث معه تصحيح خط من خطوط الحدود في جو من الثقة بعد الحرب ، ولكن بالنيابة عن جميع الشعوب العربية التي تدرك أن وجودها مرهون بالحدود التي تطالب بها·» ··· انك لا تتعامل معي أنا وحدي فقط ولست أتصرف بالأصالة عن نفسي وحسب · هكذا يقول الحسين بأسلوب شرقي ·

أما الفقرة الثانية التى ترجمت ترجمة حرفية كما هو واضح أعلاه فهى أكثر غموضا • وقد ألحق بها المترجم الرسمى العربى صورة توضيحية هذا نصها :

ولذلك فقد رأت أن من الضرورى أن تناقش هذه النقطة مع الدولة التى أولتها ثقتها وتعتقد أنها الرجاء الاخير ؛ أى الامبراطورية البريطانية المجيدة • وان دافعها الى هذا الارتباط والثقة هو المصلحة المشتركة ؛ هو ضرورة وضع التقسيمات الاقليمية فى نصابها الصحيح ، ووضع مشاعر سكانها فى نصابها السليم حتى يعلموا علام يبنون مستقبلهم وحياتهم لكى لايجدوها (انكلترا؟) أو يجدوا أيا من حليفاتها فى موقف المعارض لما عقدوا عزمهم عليه ، الأمر الذى تحدث عنه نتيجة عكسية لا سمح الله •

ولم يكن المترجم موفقا كل التوفيق فى صورته الايضاحية هذه قبيل النهاية • اذ كان يمكن أن تترجم على نحو أفضل هكذا : «وان دافعهم الى الثقة فى بريطانيا ورغبتهم فى الارتباط معها هو المصلحة المشتركة ، تدعمها هذه الحاجة التى تشعر بها الشعوب العربية الى ارساء أسس مستقبلها بصورة لا تجعل من بريطانيا أو أى من حليفاتها تقف حجر عثرة فى طريق بلوغ غايتهم المنشودة ــ وقانا الله شر هذا التعارض !»

وليست هذه الفقرة على أى حال بذات أهمية كبيرة الا من حيث تفسيرها لهذا الدافع • وهأنذا أعود لأتابع ايراد النص •

لأن الهدف ، أيها الوزير المبجل ، هو الحقيقة التى بنيت على أساس يضمن مصادر الحياة الضرورية فى المستقبل •

بيد أنهم (أى العرب) مع ذلك ، لم يضموا داخل هذه الحدود أماكن يقطنها جنس غريب • فهذا ادعاء أجوف وعنجهية• (أى لأن يضم مثل تلك الاماكن داخل الدولة العربية فما ذلك الا عرض زائف من المطالب الجوفاء •) فليلطف الله بالخلافة العربية ويجعل أعين المسلمين تقربها •

وانى واثق أن سعادتكم لن يخامركم أدنى ريب فى أنى لست أنا شخصيا الذى يطالب بهذه الابعاد (هكذا!) التى لاتضم الا جنسنا وانما هى جميعا مقترحات الشعب العربى الذى يعتقد، بالاختصار ، أنها ضرورية للحياة الاقتصادية •

أو ليس هذا بصحيح ، ياسعادة الوزير .

اننا بالاختصار ياصاحب السعادة السامية ثابتون على اخلاصنا ، ونعلن أننا نفضل الولاء لكم على غيركم سواء أرضيتم عنا ، كما قيل ، أو غضبتم علينا .

أما بصدد الملاحظة التي أبديتموها في كتابكم سالف الذكر عن أن البعض من شعبنا ما يزالون يقدمون كل ما في وسعهم خدمة لصالح الاتراك فان استقامة خلقك لا تسمح لك بأن تجعل من هذا مبررا للهجة الفتور والتردد تجاه مطالبنا . وهي مطالب لا أسمح لنفسي أن أعتقد أنك ، بوصفك رجلا ذا رأى سديد ، ستنكر أنها ضرورية لوجودنا .. لا . انها ضرورية جدا لجوهر حياتنا الادبية والمادية .

اني أنا نفسي وحتى هذه اللحظة الراهنة أنفذ في بلادي بكل ما أوتيت من قوة جميع ما يتفق والشريعة الاسلامية ، جميع ما يميل الى جلب الفائدة على بقية أجزاء المملكة . وسأظل أفعل ذلك حتى يشاء الله أمرا غيره .

وفي وسعي ، لكي تطمئنوا سعادتكم ، أن أعلن أن جميع البلاد ؛ بما فيها أولئك الذين تقول عنهم انهم يمتثلون للأوامر التركية الالمانية ، تنتظر نتيجة هذه المفاوضات التي تعتمد فقط على رفضكم أو قبولكم لمسألة هذه الابعاد (أي الحدود) وعلى بيان يصدر منكم بحماية دينهم أولا ضد أي أذى يلحق به أو خطر يهدده ، وباقي حقوقهم تاليا .

وأيا ترى حكومة بريطانيا العظمى ملائما لسياستها في هذا الخصوص ، اعلمونا به وحددوا لنا الطريق الذي ينبغي علينا أن نسلكه .

وان ارادة الله هي وحدها النافذة في جميع الحالات . وان الله هو العامل الحقيقي في كل شيء .

واختتم كتاب الشريف ببعض التفاصيل الفنية بصدد كيفية ارسال الصدقات من مصر الى الأماكن المقدسة ، والحبوب الى أهل الحجاز ، لكن « الحبوب المذكورة ليس لها علاقة بالسياسة » على حد قول الشريف ذاته . وليس ثمة داع الى الاطالة في هذا الجزء الذي يفي بالغرض تماما من كتاب الشريف المطول باضافة هذه الخاتمة .

انه كتاب طويل النفس . بيد أن هذا القدر يكفينا منه ، لأنه يفى بالغرض . ولنقم بابداء بعض الملاحظات الطفيفة حوله . لقد قال الشريف للسير هنرى مكماهون ، بأسلوبه الخاص ، ان كتاب هذا الاخير ليس فيه الا مصانعة مؤقتة . وان تظاهر المندوب السامى بعـــدم ملاحظة مطالب الشريف لم يخدع هذا الرئيس الدينى بأى حال من الاحوال .

لقد كرر القول فى شرح مركزه : انه لا يتكلم بالاصالة عن نفسه ، فينبغى ألا يغيب هذا عن البال أبدا . انه يتكلم منذ الآن فصاعدا بالنيابة عن العرب أجمعين ، الذين هم على علم بهـذه المطـــالب ووكلوا اليه أمر تقديمها . وأن هذا يصدق كذلك على هؤلاء العرب الذين يقومون بخدمة العلم التركى فى الوقت الراهن ، كما يصدق على أى عربى آخر . وأن هذا الدور الذى يقوم به هؤلاء العرب الآن فى هذه الحرب يعتمد على قبول المندوب السامى لهذه الشروط الواردة فى كتاب الشريف الاول أو رفضه لها . وأن حسينا يتمسك بهذه الشروط ألا وهى استقلال جميع الشعوب العربية ضمن حدودها الطبيعية . وأن هذه الحدود التى عينها لا تحتوى على أجانب بل تضم عربا خلصا . وأن العرب يتوجهون الى بريطانيا بهذه المناشدة الأخيرة لاعتقادهم أنها مخلصة فى خدمتها لهم ولأنهم مخلصون فى خدمتهم لها . وأنهم يبتهلون الى الله ألا تدير بريطانيا ظهرها لندائهم هذا فيكون لا مفر لهم ، والحـــالة هـذه ، الا أن يستديروا الى العدو لطلب المساعدة فى تحقيق أهدافهم .

أما التلميح الى أن العرب قد يدفعون دفعـا الى الالتقاء مع الاتراك فكان فى حينه . وبالرغم من أنه كان حركة مساومة بارعة فانه لم يكن مجرد مساومة وحسب . اذ كان من الواضح أن حملة الدردنيل لم تعد ناجحة وأن موقف الحسين سيكون محفوفا بالمخاطر طالما كان الاتراك هم المنتصرين ، وأن ملاذه الوحيد هو فى رتق علاقتـــه مع الأتراك . لكنه لم يأبه بذلك لأن قلبه كان ميالا الى التحـــالف مع البريطانيين . ان كل ما قـــد يحصل عليه من تركيا هو وعد بمنح الاستقلال الذاتى للبلدان العربية باعتبارها مقاطعات تركية . أما ما اذا كان هذا الوعد سينفذ فى حالة انتصـــار تركيا ، وما اذا كان هو سيترك فى مكة فذلك أمر جد مشكوك فيه . الا أنه قد يرغم على الموافقة على هذه الخطوط اذا ضاعت هذه الفرصة الراهنة فى التعاون مع الحلفاء ، وأصبح هو وشعبه معزولين .

وينبغى أن يلاحظ المرء أن هؤلاء العرب الذين كان الحسين يمثلهم ، كانوا يودون أن يضموا قواهم الى الحلفاء فى وضع زمنى لم تكن فيه الامور تميل الى صالح هؤلاء الأخيرين اطلاقا .. لم يكن هناك محـل للقول بأن

العرب كانوا يجرون وراء مساعدة الطرف الغالب ، كان الحسين على أتم العلم بهزيمة الحلفاء فى جاليبولى • والواقع أنه لم يكن قد مر وقت على ورود وثيقته الثانية الى القاهرة حين بدأ البحث فى احتمال الجلاء عن المضايق • ففى الحادى عشر من تشرين الاول أبرق اللورد كتشنر من لندن الى السير ايان هاميلتون برسالة يسأله فيها عن الخسائر التى يتوقعها اذا بوشرت هذه العملية •

وكما قد يتخيل الانسان ، كان الحرص والحذر قد أضنيا سلطاتنا فى مصر ، اذ بالاضافة الى نكبة جاليبولى كانت مخاطر أخرى قد بدأت تظهر من تلقاء نفسها ؛ وان كانت صغيرة بالمقارنة الى تلك • وكانت هذه المخاطر مكدرة ومزعجة وقد تتفاقم • وقد بقيت بعض هذه المشاكل القليلة الاهمية مجهولة لدى الرأى العام حتى يومنا هذا وان دونت • ويقول كتاب التأريخ الرسمى للحرب : «فى كل ناحية ، كان عملاء الالمان والاتراك يدأبون على خلق المشاكل ، ويتلمسون كل نقطة ضعف ، وينفخون النار فى جمرات الـكراهية الدينية المستعرة » • وعلى حدود مصر الغربية كانت قبيلة السنوسى على اتصال دائم بالقسطنطينية • وكان نورى بك ؛ أخو أنور غير السقيق ، مع جماعة من الضباط الالمان والاتراك الصلاب الصعاب المراس ، موجودين لدى زعيم القبيلة السيد أحمد ، الذى أرغم من قبل السلطان (اعتمادا على معلومات حصلت عليها القاهرة من رسائل ضبطت) على اعلان الجهاد ضد الحلفاء • « وقد ظل خطر هذا التهديد الجاثم فى الصحراء يتزايد حتى تمخض عن حرب شنت فى الخريف•• وفى السودان كانت هناك اضطرابات فى أماكن متفرقة • وذلك راجع فى جزء منه الى عدم الارتياح الذى أثارته بين السكان المسلمين ، محاربة بريطانيا العظمى للخلافة (أى مع السلطان محمد الخامس الخليفة التركى الحالى) لكنه يرجع مع ذلك الى الدعاية التى كانت تبثها الدسائس التركية » (عن التأريخ الرسمى) •

وفى غرب السودان ، كان سلطان دارفور يثير القلاقل التى لا بد أنها كانت لديها مبرراتها • والواقع هو أنه كان يدبر الخطط للقيام بهجوم على السودان ، رسم له كدور يقوم به فى الوقت ذاته الذى يقوم فيه السنوسى بالهجوم على مصر • لكنه لم يقم بهذا الدور الذى عين له وسحق بعد ستة أشهر من ذلك الحين فى أنجح وقعات الحرب وأصغرها وأقلها ذكرا •

بيد أنه كانت أمام القادة العسكريين والمدنيين في القاهرة ؛ في هذا المكان الذى يقع بين الشريف ونظرائه من الزعماء العرب ، ألف وتمانمائة ميل من المشاكل المعقدة ، تمتد من جناح مصر الغربى الى السودان، ينبغى عليهم معالجتها بالاضافة الى العملية الكبرى التى تجرى فى جاليبولى • وعلى بوابات البحر الاحمر ، فى البريم وعدن كان العدو يشن الهجمات أيضا• ولذلك لم يعد فى الامكان المراوغة فى الرد على عرض الشريف المتجدد الذى عرضه على السير هنرى مكماهون بشأن التحالف مع العرب • ولذلك ألح المندوب السامى ، الذى كان متلهفا منذ البداية على قيام مثل هذا التحالف الانكليزى العربى ، فلم يسـوف الحسين طوعا ، ألح على حكومة الوطن بضرورة القيام بخطوة محددة لكسب العرب الى صفنا •

ووصل الى مصر فى تشرين الاول منذلك العام نفسه اوبرى هربرت• وكان آنذاك يقوم بمهام ذات طابع سياسى عسكرى فى الشرق الاوسط بعد أن جرح فى الخدمة العسكرية فى صفوف فيلق الحرس الايرلندى المتمركز فى فرنسا • ويمكن الركون الى ما سجله عن الوضع هناك ، وهو يبين كيف كانت تشير الأمور • ان قليلا من الناس عندنا قد كان له مثل ذلك الاتصال الوثيق بالعالم الاسلامى الذى كان له • كما كان القليل من الناس يمتع بمثل تلك الصفات من صفاء الذهن ونقاء الروح التى كان يتمتع بها • وكان قلتة فريدة يندر أن تجدها •• كان خبيرا وشهما • انه يقول انه حين بلغ القاهرة : « كانت مسألة العرب قد بلغت حد الأزمة • فقابلت الجنرال (السيد جون مكسويل القائد العام فى مصر) وكلايتون (رئيس الاستخبارات) وشيتام (السيد مايلن شيتام ممثل مكتب الخارجية) والمندوب السامى (السير هنرى مكماهون) فاتفقوا جميعا على أنه يكاد يكون من الأهمية القصوى (خط التشديد من وضعى أنا ـ المؤلف) جعل العرب ينحازون الى صفنا ، وأن الفرصة ستفلت منا اذا لم يتم ذلك فى وقت قريب جدا » •

وكان هربوت ، الذى يعرف الأتراك جيدا ، يعتقد أنه لن يمضى وقت طويل قبل أن يستدير الاتراك ويعرضوا على العرب ذلك العرض بمنح الحكم الذاتى لهم الذى رفضوا أن يمنحوه لهم من قبل • وقال : « لقد قال لى طلعت بك منذ ثلاث سنوات مضت ان اللجنة (أى لجنة الاتحاد والترقى: وهى جماعة الشبان الأتراك الحاكمة آنذاك) قد أخذت العبرة مما حدث فى البانيا ، وأنها على أتم استعداد لأن تمنح للعرب أى شكل من أشكال الحكم الذاتى يختارون • وهو يعتقد بأن هذه التنازلات ، تسندها مصانعة القسطنطينية ومداهنتها للشيوخ ، ستجعلهم يتخلصون من المشكلة

العربية • بل وقد كانت لدى الألمان عروض تزيغ البصر ينوون عرضها ، وعقوبات أكثر صرامة يهددون بتوقيعها • وكان العرب يشعرون أن لحظة اصدارهم قرارهم قد باتت وشيكة •

وكان عزيز بك المصرى قد شرح موقف العرب وتطلعاتهم لهربرت• وكان عزيز بك الذى يصفه لورانس بأنه « المثل الأعلى للضباط » مفوضا عربيا غير رسمى فى ذلك الحين • وكان كتشنر قد استوضح منه قبل ما يزيد على عام ـ كما أسلفنا القول بذلك من قبل ـ ان كان من غير المتوقع أن تهجر الكتائب العربية المتمركزة فى بلاد ما بين النهرين العلم التركى وتنضم الى الجيش البريطانى •

وكان عزيز بك أهلا ، بسبب ذلك ، لأن يقوم بالتعبير عن وجهة نظر مواطنيه • وقال لهربرت ما قد أطلع عليه القارىء وان قوة الحركة العربية تكمن فى شبانها • وان الشباب العرب ورجال الجمعيات السرية ، حيثما وضعوا ، هم من الحكمة والتعقل بحيث يعملون عن طريق شريف مكة • انهم لم يرتكبوا الغلطة التى ارتكبها الشباب الاتراك باحتقارهم التبجيل والتقاليد • وقد كان كثير منهم يهدف الى كسب الاستقلال الذاتى فى ظل النظام العثمانى لولا أن الشبان الاتراك قد جعلوا ذلك أمرا مستحيلا حتى ذلك الحين • ولو تساعد بريطانيا العرب فانهم سيقتلون منها جزءا مما وعدهم الالمان به • وكان الالمان قد قدموا عروضا فى افويقيا البريطانية لا يقـــاوم اغراؤها • لكن اذا ما لزمت انجلترا بدورها فسيتحتم عليهم والحالة هذه أن يحصلوا على أفضـــل ما يمكنهم الحصول عليه • وكانت الطريقة التى تسير بها الحرب فى الشرق بالنسبة لنا قد جعلت العرب يخافون على حريتهم •

وقد أيد عزيز بك ماقاله الحسين من أن مطالبه هى المطالب الأصيلة لدى جميع العرب • كما أيد ضرورة الحاجة الى عمل سريع •

وبعد أن اتصل السير هنرى مكماهون بحكومة الوطن حول صلاحية القيام بهذا العمل ، ففعل ذلك برغم تعقيـــدات معينة كانت تحيط به ، ونشأت عن المطامع الفرنسية فى سـورية • فكان هناك آنذاك دبلوماسى فرنسى يدعى المسيو بيكو (وهو دبلوماسى لم يكن اختياره موفقا لأسباب ستجيىء تاليا) يقوم فى الشرق الادنى بما وصف بأنه « مهمة استقصاء وتشاور »وكانت هذه تبدو فاتحة لخطوة رسمية ما قد تقوم فرنسا بها • وقد وكل أمر اكتشاف طبيعة هذه الخطوة الى السير مارك سايكس ؛ وهو فارس دونكيشوتى بريطانى متجول ، وطلب اليه بأوامر صدرت مباشرة

من كتشنر أن يكتب تقريرا عن أحوال هذه المنطقة عينها كبيكو ، بالرغم من أن هذه المهمة كانت لاحقة فى تاريخها لمهمة المسيو بيكو. وكان موظف رسمى فرنسى قد قال له : « يجب أن تأخذ فرنسا دمشقا . »

والحقيقة هى أن الفرنسيين قد طمعوا منذ البداية وعندما بدأت الحرب مع تركيا فى الفوز بنصيب الأسد . فعقد اتفاق ابتدائى فى ربيع عام ١٩١٥ مع بريطانيا وروسيا رسمت فيه مجالات نفوذ هذه البلدان الثلاث فى الممتلكات التركية بصورة عامة . ومنحت فيه روسيا المضائق والقسطنطينية . ووقر فى أذهان الطرفين الآخرين المعنيين أن مناطق النفوذ ستتحول الى مناطق الحاق بالرغم من أن شيئا لم يحدد . أما فيما يخص فرنسا فكان يمكن بلوغ أهدافها فى سورية بجعلها امارة تابعة . كما تم الاتفاق على أن يأخذ هذا الاتفاق شكلا محددا فيما بعد .

وان من المهم جدا أن يدرك الانسان جيدا أن هذا الاتفاق لم يكن له أى دخل فى الحقوق . وأنه لم يكن لأى من هذه الاطراف الثلاثة أية حقوق فى الممتلكات التركية . اذ لم تكن الحماية الدينية الزخرفية التى تبسطها فرنسا على المسيحيين اللاتينيين فى سورية ، ولا الحماية المماثلة التى تبسطها روسيا على المسيحيين الاغريق فيها ، تخولان لهما أية حقوق اقليمية ؛ من أى نوع ، فى الأراضى التركية . ولهذا كان هذا الاتفاق الثلاثى بكل بساطة اتفاقا قصد به الاطمئنان مقدما على تقسيم الاسلاب التى قد تكون سانحة فى المستقبل لكيلا ينشب التناحر والخلاف حولها بعد نجاح الجيوش المتحالفة فى حملة الدردنيل ، أو فى أى مكان آخر ، مباشرة .

أما أن الأمر كان على هذه الشاكلة .. أما أنه لم يكن هناك محل للادعاء بأية «حقوق» تعود للحلفاء وتمنع السير هنرى مكماهون من حرية العمل ، ــ فيمكن أن يقف الانسان على ذلك من الوثائق الدبلوماسية التى تؤرخ لتلك الفترة . وسوف نوردها فى مكانها فى فصل تال من هذا الكتاب (الفصل الخامس والعشرين) ، لأننا سنجعل من موضوع هذا الفصل معقدا اذا أوردناها بنصها فيه . بيد أن من المفيد هنا أن نقول ان الحكومة البريطانية قد أنكرت على فرنسا تصريحا أعلنته حكومتها مؤداه أن فرنسا ستلحق سورية بها فى حالة لحاق الهزيمة بتركيا ، فأعلنت رسميا أن من التهور والطيش تقسيم الممتلكات التركية فى ذلك الوضع الراهن . ثم تابعت تلك المذكرة التى تحمل رأى حكومة صاحب الجلالة قولها الى الاعلان بأنه يجب ألا يغيب عن البال أن المقصود ليس اجراء

تقسيم من هذا النوع بل خلق دولة اسلامية مستقلة تحل فيها الجزيرة العربية محل الاتراك المفترض اختفاؤهم من القسطنطينية ٠

تم قالت الحكومة البريطانية انها تعتبر هـذه الدولة الاسـلامية ضرورة ملحة ٠ وتحتم على الفرنسيين أن يتخلوا عن مطامعهم هذه لكنهم أصروا على الاحتفاظ ب «مجال النفوذ» المقطوع لهم ٠ ولذا فقد خلق هذا المجال عقدة ولكنه لم يخلق عقبة فى طريق التفاوض مع الشريف ٠ ولهذه الاسباب وضع السير هنرى مكماهون هـذا فى حسـابه حين استأنف التراسل مع الشريف ٠ ولا يبدو أنه كان على علم بتبادل المذكرات الذى جرى فى أوروبا بين فرنسا وبريطانيا وروسيا ، وانما تلقى تعليمات عامة من لندن بصدد موضوع مجال النفوذ الفرنسى هذا ٠

وفى الخـامس والعشرين من تشرين الاول رد المندوب السامى على شريف مكة ٠ وكانت هذه الوثيقة التى أرسل بهـا اليه تسليما بشروط العرب مع تحفظ واحد لصالح فرنسا ٠ وهذا نصها :

الى شريف مكة (والحق هذه العبارة بنعوت كثيرة)

ببالغ الغبطة والسرور تلقيت كتـابكم المؤرخ فى التاسع والعشرين من شوال (التاسع من أيلول) فارتحت أبلـغ الارتياح لاعرابك فيه عن مشاعر الود والاخلاص تجاهنا ٠

وانى آسف أن فهمتم من كتابى الأخير انى أنظر الى مسألة الابعاد والحدود بفتور وتردد ٠ والحال ليس كذلك ، ولكنى ارتأيت أن اللحظة التى يمكن أن تبحث فيها بحثا مفيدا لم تحن بعد ٠

بيد أنى أيقنت من كتابك الاخير أنك تعتبر هذه المسألة ذات أهمية حيوية وجد ملحة ، ولذلك لم أضيع وقتا فى اعلام حكومة بريطانيا العظمى بمحتويات كتـابكم ٠ ويسرنى أعظم السرور أن أنقل اليكم البيان التالى ، بالنيابة عنها ، وأنا على يقين من أنكم ستتقبلونها بالرضا ٠

ان مناطق مرسين ، والاسـكندرونة ، وأجزاء من سورية تقع غربى ألوية دمشق وحماة وحمص وحلب ، لا يمكن أن يقال انها عربية خالصة ، ويجب استثناؤها من هذه الابعاد والحدود المقترحة ٠ وبهذا التحفظ المذكور آنفا ودون أى اخلال بمعاهداتنا النافذة مع الرؤساء العرب الآخرين ، نحن نسلم بهـذه الابعاد والحدود ٠ أما فيما يتعلق بتلك المناطق الاخرى الداخلة ضمن

نطاق هذه الحدود والتى لبريطانيا حرية التصرف بشأنها دون الحاق الضرر بمصالح حليفتها فرنسا فانى قد خولت باسم حكومة بريطانيا العظمى أن أقدم لكم هذه الضمانات التالية وأن أكتب الجواب التالى ردا على كتابكم :

ان بريطانيا العظمى مستعدة ، رهنا للتعديلات المذكورة آنفا ، للاعتراف باستقلال العرب ضمن المناطق الداخلة فى نطاق هذه الابعاد والحدود التى اقترحها شريف مكة ، ولتأييد هذا الاستقلال .

وتضمن بريطانيا سلامة الأماكن المقدسة ضد جميع الاعتداءات الخارجية وتعترف بوجودها المستقل .

وحين يسمح الحال ، تقدم بريطانيا للعرب مشورتها وتساعدهم على اقامة ما يرون أنه أكثر أشكال الحكم ملاءمة لهم فى مختلف هذه المناطق .

ومفهوم من الناحية الاخرى أن العرب قد قرروا أن ينشدوا مشورة بريطانيا العظمى وحدها وارشادها وأن مثل أولئك المستشارين والرسميين الاوروبيين الذى قد يلزمون لاقامة شكل سليم من أشكال الادارة سيكونون من البريطانيين .

وأما بصدد ولايتى بغداد والبصرة فسيدرك العرب أن الوضع القائم فيهما ومصالح بريطانيا العظمى فيهما يقتضيان اتخاذ اجراءات خاصة من الاشراف الادارى لتأمين هذه المناطق ضد العدوان الخارجى ، ومن أجل زيادة رخاء السكان المحليين ولصون مصالحنا الاقتصادية المشتركة .

وانى لعلى يقين من أن هذا التصريح سيؤكد لكم ، بما لا يقبل الشك ، عطف بريطانيا العظمى على آمال أصدقائها التقليديين ؛ ألا وهم العرب ، وسيتمخض عن تحالف دائم راسخ الأركان ، تكون نتيجته المباشرة طرد الأتراك من البلدان العربية وتحرير الشعوب العربية من نير الحكم التركى الذى ظل يبهظ كاهلها لسنوات جد عديدة .

لقد حصرت نفسى فى هذا الكتاب فى حدود المسائل الأكبر حيوية والأكثر أهمية فاذا كانت هناك أمور أخرى أتيتم على ذكرها فى كتبكم الينا وأغفلت أنا ذكرها ، ففى وسعنا أن نبحثها فى وقت أنسب فى المستقبل .

ولقد علمت بأعظم الرضا والارتياح بخبر وصول الكسوة الشريفة والعطايا التى صاحبتها بفضل سداد ارشاداتكم وحسن تدبيركم الفائق ، ودون أية متاعب أو مصادفات سيئة ، برغم هذه الأخطار والصعوبات التى تفرضها الحرب الحالية المؤسفة . جادالله بالسلام الدائم والحرية الدائمة على جميع الشعوب ، عما قريب .

وانى أرسل لكم هذا الكتاب بيد رسولكم الأمين الباهر الشيخ محمد بن عارف عريفان . وسيخبركم عن أمور أخرى كثيرة تهمكم لم أذكرها فى الكتاب . ولكنها أقل حيوية وأهمية من هذه .

(ثم تتبع هنا التحيات والمجاملات التقليدية) .

أ. هنرى مكماهون

هذه هى الوثيقة الحاسمة . لقد قدم الشريف شروطه وقبلت هذه الشروط رسميا عن طريق المندوب السامى البريطانى على مصر ، عن طريق الممثل الذى عينته حكومة صاحب الجلالة ، والذى أعلن أنه مخول صلاحية التصرف بالنيابة عن تلك الحكومة . وكل ما جاء فيها تعهد صريح ملزم ، مثله فى ذلك مثل أى اتفاق دخلت فيه بريطانيا العظمى طرفا . انها تقبل شريف مكة بوصفه المتحدث الرسمى المخول الصلاحية فى التحدث بلسان جميع الشعوب العربية ، وتقبل هذه الشعوب ككيان مفاوض بقدر ما تفصل فى فقرات عديدة منها ما هى الطبيعة التى ستكون عليها هذه العلاقات التى ستقوم بينها وبين بريطانيا العظمى .

أما عباراتها فهى واضحة وضوح طبيعتها . انها تتعهد بالاعتراف باستقلال العرب داخل نطاق هذه الحدود التى عينها الشريف نفسه وبتأييد هذا الاستقلال . بيد أنها تعلن هذا التعهد بتحفظين . انها ترفض مطالبة العرب بمرسين والاسكندرونة فى الحدود الشمالية . وتضع تحفظا فى الحدود الغربية التى عينها الشريف فى مشروع معاهدته بأنها تتألف من شواطىء البحرين الأحمر والأبيض على التعاقب .. تضع هذا التحفظ بخصوص الجزء الشمالى الأقصى من هذه الحدود . « وأجزاء من سورية تقع غربى ألوية دمشق ، وحماة ، وحمص ، وحلب ، لا يمكن أن يقال انها عربية خالصة ويجب استثناؤها من هذه الأبعاد والحدود المقترحة » .

والكلمة العربية التى ترجمت هنا الى « District »* مرادفة لقولنا : مـــدينة وما جاورهـــــا من قرى • وهي ما نســـميه اليـــوم بالـــ Urban District • ونقع هذه المدن الأربع المعنية فى هــذه الوثيقة على خط مستقيم الى حد ما كما يبين ذلك القاء نظرة على الخريطة ؛ الواحدة منها تحت الأخرى ، على هذا النحو ؛ بادئين من الشمال : حلب ، فحماة ، فحمص ، فدمشق • أما البلاد الواقعة الى الغرب منها فهى تمثل حاليــا (سنة ١٩٣٩ ــ المعرب) المنطقة الساحلية الخاضعة للانتداب الفرنسى على وجه التقريب ، وكانت تمثل فى ذلك الوقت الذى كتبت فيه هذه الوثيقة مجال النفوذ الذى كانت تطالب فرنسا به •

ولكن اذا كان هذا التحفظ قد علق على الجزء الشمالى الســاحلى من سورية ، فليس هناك اى تحفظ من اى نوع قد علق على المجال الجنوبى من هذه الرقعة العربية ؛ على فلسطين • وهـــذا هو السبب فى أن هذه المعاهدة الأنجلو عربية قد بقيت حتى الآن ، وبعد ما يزيد على عشرين عاما من ابرامها ، وثيقة خطيرة الشأن بالنسبة لفلسطين • حقا انها ليست المستند الاساسى الذى يطالب العرب بفلسطين بموجبه لأن هذه المطالبة مبنية على حقهم الأزلى فى امتلاك بلادهم ، ومبنية على عدم شرعية أى تصرف تقوم به أى دولة من الدول ، أو أى عصبة أمم ، أو أى حكومة من الحكومات أو أى مؤسسة من المؤسسات فى بلاد لا تملكها •

لــكن هذا الحق يجيء تالياً لذاك ، ومؤداه أن بريطانيا العظمى قد قيدت نفســها فى هذه الوثيقة المؤرخة فى الخامس والعشرين من تشرين الأول بأن تمنح العرب حكومة عربية فى فلسطين مستقلة • وان هذا الحق حق عدل ولا سبيل الى انكاره • أما التحفظ الذى وضعه الســيـــد هنرى مكماهون بوجوب استبعاد المناطق الواقعة الى الغرب من المدن الأربع ؛ من دمشق وحمص وحماه وحلب ، فلا يؤثر على فلسطين ، لأنها لا تقع غربى هذه المدن ولكن جنوبها تماما • والحقيقة هى أنساحل سورية من الاستقامة بحيث لا تعنى كلمة « الغرب » شيئا الا اللفظة المجردة هناك • اذ لاتوجد فيه أية أشـــباه جزر ناتئة ، أو رءوس ناتئة يمكن وصفها بأنها جنوبية غربية • وفلسطين لا تقع الى الغرب من القطاع الفرنسى فى سورية الا بقدر ما يكون هذا النصف السفلى من هذه الصفحة التى يراهـــا القارىء تحت عينيه واقعا الى الغرب من نصفها العلوى !

---

(١) لواء •

(٢) لواء المدينة : ويسمى فى مصر بالبندر •

وفضلا عن كون اشتمال فلسطين فى حدود الدولة العربية الموعودة بين من تلقاء نفسه على الخريطة ، فان نصوص هذه المعاهدة فى حد ذاتها تؤكد هذا الاشتمال ؛ كما هو الحال ··· أى حيثما كنا مطلقى الحرية دون الحاق ضرر بالمصالح الفرنسية ؛ أى حيثما قبلنا حدود العرب دون جدال · وهناك اشتراطات معلقة فى الأراضى الواقعة الى الداخل من ساحل الخليج الفارسى (الخليج الغربى الآن ـ المعرب) ، تدور حول الاشراف الادارى عليها ، واشتراطات تدور حول قبول المستشارين البريطانيين أو المساعدين البريطانيين فى الولايات العربية الجديدة · أما عن حجب الاستقلال العربى الأساسى عن أى مكان من القطاع الذى قيل أنه قد ترك لبريطانيا مطلق الحرية فى التصرف بشأنه ، أو عن عدم خفق العلم العربى على أى مكان منه ، أو عن القول بأن أى جزء من هذا القطاع ليس عربيا خالصا ، فلم ترد فى هذه الوثيقة أى جملة ، أو أى كلمة ، أو حتى فاصلة واحدة بشأن هذا ·

والحقيقة هى أن فلسطين مندرجة بموجب تعاقدنا هذا تحت وعد الحكم الذاتى المستقل ؛ والى أبعد حد تقتضيه الظروف ، كاندراج الحجاز ذاته · ولست أنوى بسبب ذلك أن أتوسع الآن فى الحديث حول هذه النقطة ، وهى على ما هى عليه من أهمية فى هذه المرحلة الراهنة ، لسوف نعود اليها فنوفيها حقها من البحث والايضاح حين نأتى ـ وبالنكد الطالع ـ الى الحديث عن محاولات رجال الدولة البريطانيين فى التملص ، لصالح الصهيونية السياسية ، من التزاماتنا فى هذه المعاهدة الانجليزية العربية·

ان كل ما نحتاج لى توكيده هنا ، فى هذه اللحظة الراهنة ، هو أنه لم يكن هناك أى تفكير لدى الدوائر المسئولة فى تشرين الأول من عام ١٩١٥ عن أى شىء يتعلق بفلسطين اللهم الا تكوين دولة عربية تحت الارشاد البريطانى · ولم تكن هناك مسألة تقول بأن فلسطين بلد يهودى أو يهودى جزئيا ويحتاج الى نظام حكم خاص ··· لم تكن فلسطين قد ألبست بعد ثوبا سياسيا فريدا فى نوعه ، كما لم يقل أحد كلمة واحدة عن عدم قدرته على البحث فى أمرها بسبب حق حجز يهودى تاريخى مزعوم موقع عليها ، كما قيل بالضبط عن تلك الأجزاء العربية الأخرى التى استثنيت ··· ففى تشرين الأول من عام ١٩١٥ لم تكن النظرية الرسمية فى ازدواج ملكية فلسطين قد اخترعت بعد ·

وما جميع هذه العبارات والأوصاف والمنطوقات التى تعود الى تلك النظرية ، والتى اعتدنا سماعها منذ ذلك الحين من شفاه أعضاء وزارتنا الموالين للصهيونية ، وشفاه أتباع هذه النظرية الصهيونية الآخرين ، الا

كلمات مكررة من بنات أمس . وليست الا اختلاقات وادعاءات اخترعوها لــكي يستروا بها نظرية لا تستطيع أن تصمد للنور ، ولـكي يسبغوا سيماء القدم على سياسة ليست لها أسانيد من الماضي .

وقد تطلب هذا أن نوضحه بجلاء فأوضحناه . ونستطيـع الآن أن نعود مرة أخرى الى هذه الوثائق التي تبودلت بين شريف مكة والمندوب السامي . لقد حث الحسين في آخر وثيقة أوردناها من هذه الوثائق ، على حمل السلاح ضد الأتراك دون ابطاء . اذ عبر في نصهـــا عن الأمل بأن النتائج المباشرة لهذا التحالف الجديد ستكون طرد الأتراك من البـلدان العربيـة .

الا أن الشريف كانت لديه مع ذلك بعض الشروط يشترطها . انه لا يســـتطيع أن يترك موقف العرب من هذه التحفظات والتعديلات التى وضعها السير هنرى مكماهون دون تبيان .

فأرسل رده بسرعة كافية في السابع والعشرين من ذى الحجة لعام ١٣٣٣ من التقويم الاسلامى الخامس من تشرين الثاني لعام ١٩١٥) :

بسم الله الرحمن الرحيم

الى صاحب السعادة ، عالى المكانة ، الوزير عظيم الشأن ، الذى حبى أعظم المناصب ، ومنح سداد الرأى ، هــداه الله الى تنفيذ مشيئته .

لقد تسلمت ببالغ السرور كتابكم الكريم المؤرخ فى الخامس عشر من ذى الحجة (الرابع والعشرين من تشرين الأول) والذى أستأذنكم أن أجيب عليه بما يلى :

١ ــ لـكى يتيسر قيام اتفاق ، ولكى نقدم خدمة للاســلام ونتجنب فى الوقت عينه كل ما قد يسبب للاســلام المتــاعب والصعوبات ــ ومدركين فضلا عن ذلك أننا نكن تقديرا عظيمـا للصفات البارزة والأخلاق الحميدة التى تتحلى بها حكومة بريطانيا العظمى ــ فاننا نتنازل عن اصرارنا على ضم ولايتى مرسين وأضنة الى أقاليم المملكة العربية . لكن ولايتى بيروت وحلب وسواحلهما هى ولايات عربية محضة ولا فرق بين المسلم العربى والمسيحى العربى ، فهما كلاهما خلفا جد واحد .

وسوف نترسم نحن المسلمين خطوات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب والخلفاء الذين أتوا بعده ، والذين سنوا فى شرائع الدين الاسلامى وجوب معاملة المسلمين للمسيحيين كما يعاملون أنفسهم. « لا ، » أعلن عمر فى معرض كلامه عن المسيحيين ، » ستكون لهم الحقوق نفسها التى لنا ، وعليهم الواجبات نفسها المفروضة علينا • » وبهذا سيتمتعون بحقوقهم المدنية طالما كانت تنسجم مع المصلحة العامة للأمة بأسرها •

٢ ـ لما كانت أقاليم العراق أجزاء من المملكة العربية الخالصة ، وكانت فى الواقع مقرا لحكوماتها فى أيام على بن أبى طالب ومن جاء بعده من الخلفاء ؛ ولما كانت حضارة العرب قد بدأت فيها ، ولما كانت مدنهم فيها هى أول مدن بنيت فى عهد الاسلام وحيث أصبحت دولة العرب فيها كبيرة جدا فان هذه الأقاليم يمجدها العرب تمجيدا كبيرا ، قاصيهم ودانيهم ، ولا يمكن أن ينسوا تقاليدها وتليدها • ومن ثم فاننا لا نستطيع أن نقنع الأمة العربية أو نجعلها تسلم بعنوان سؤدد كهذا • ولكن لكى نجعل الاتفاق بيننا أمرا ميسورا ؛ ولكى نضع فى اعتبارنا التأكيدات التى ذكرت فى الفقرة الخامسة من كتابكم ، ولكى نرعى ونصور مصالحنا المشتركة فى ذلك البلد ، لأنها مصالح واحدة الشىء ذاته بالنسبة لكلينا ؛ لهذه الأسباب جميعها قد نوافق على أن نترك تحت الادارة البريطانية هذه الألوية التى تحتلها القوات البريطانية الآن لمدة قصيرة من الزمن ، ودون المساس بحقوق أى من الطرفين من جراء هذا العمل (وبخاصة حقوق الأمة العربية التى مصالحها فيها مصالح اقتصادية وحيوية جدا) لقاء مبلغ مناسب من المال يدفع كتعويض للمملكة الأخرى عن فترة الاحتلال لكى تسد به النفقات التى لا مفر لأى مملكة حديثة من أن تواجهها ، ونحترم فى الوقت عينه اتفاقاتكم مع شيوخ تلك الألوية ، وبخاصة ما كان منها ضروريا •

٣ ـ نحن نرى فى رغبتكم فى الاسراع بالقيام بالحركة ليس مدعاة للتروى والتفكير بل أسسا لهما • وأول هذه الأسس هو خشية ملامة مسلمى الجانب الآخر ؛ كما حدث من قبل • فقد يعلن هؤلاء أننا ثرنا على الاسلام ودمرنا قواه • وثانيها أننا لاندرى اذا وقفنا فى وجه تركيا التى تدعمها جميع قوى ألمانيا ، ما الذى ستفعله بريطانيا العظمى وحليفاتها اذا ما ضعفت احدى الدول

المؤتلفة معها فاضطرت الى أن تعقد صلحا . اننا نخشى أن تترك الأمة العربية وحدها أمام تركيا وحليفاتها . لكننا لن نعبأ اطلاقا اذا ما قدر لنا أن نواجه الأتراك وحدهم ولذلك فان من الضرورى جدا أن نأخذ هذه النقاط فى الاعتبار لكى نتلافى ابرام صلح تفرر فيه الأطراف المعنية مصير شعبنا ، كما لو كنا قد اشتركنا فى الحرب دون أن نوضح مطالبنا للمحافل الرسمية بجلاء .

٤ ـ ان لدى الأمة العربية اعتقادا قويا بأن الأتراك سيوجهون كل جهودهم ؛ بعد أن تنتهى هذه الحرب وبتحريض الألمان ، الى تدمير العرب وانتهاك حقوقهم المادية والأدبية على السواء ، والى طمس عراقتهم وتدنيس شرفهم فيلحقون بهم الخسف الى درجة الاخضاع التام ، لأنهم عازمون على تدميرهم كلية . وها نحن قد أوضحنا السبب فى البطء الذى يبين فى أفعالنا .

٥ ـ حين يعلم العرب أن حكومة بريطانيا العظمى حليفة لهم ، وأنها لن تتركهم يواجهون تركيا وألمانيا لوحدهم غداة ابرام صلح ، وأنها ستؤيدهم وستدافع عنهم دفاعا فعالا ، فان دخول الحرب توا سيكون متفقا ، بدون شك ، مع المصالح للعرب .

٦ ـ ان كتابنا المؤرخ فى التاسع والعشرين من شوال لعام ١٣٣٣ هـ (التاسع من أيلول لعام ١٩١٥) يوفر علينا عناء تكرار آرائنا بصدد الفقرتين الثالثة والرابعة من كتاب سعادتكم الأخير ، فيما يتعلق بالادارة والموظفين والمستشارين فى الحكومة ، وبخاصة وأنكم قد أعلنتم أيها الوزير صاحب المقام الرفيع أنكم لن تتدخلوا فى الشئون الداخلية .

٧ ـ ان ورود رد واضح محدد على الاقتراحات المذكورة أعلاه متوقع فى أقرب وقت ممكن . ولقد فعلنا أقصى ما فى وسعنا فى تقديم التنازلات لكى نتوصل الى اتفاق يرضى كلا الطرفين . وأننا نعلم أن حظنا من هذه الحرب اما أن يكون نجاحا يكفل للعرب حياة جديرة بتالد تاريخهم واما أن يكون دمارا عليهم فى محاولتهم بلوغ أهدافهم . ولولا هذا التصميم الذى أراه فى العرب من أجل بلوغ أهدافهم لفضلت أن أعتزل فى احدى قنن الجبال ، لكنهم ؛ لكن العرب قد أصروا على وجوب أن أقود هذه الحركة الى هذه الغاية .

رعاكم الله ونصركم ، كما نود ونأمل من كل قلوبنا .

فى هذه المكاتبة اتخذ الحسين الحيطة اللازمة بطلبه توكيدا بأن الحلفاء لن يعقدوا صلحا دون أن يقدموا تأييدا رسميا لمطالب وحقوق العرب · وهو يقبل فيها الاشراف البريطانى على العراق ، بصورة أكثر تحديدا مما طلب منه ·· يقبله مؤقتا ولقاء اعتبار معقول ·

بيد أن ما يهمنا هنا هو عبارته الاولى · انه مافتىء يطالب ، بعد أن تنازل عن مرسين وأضنة ، بولايتى حلب وبيروت وسواحلهما أكثر من مجرد المطالبة بألوية حلب وحماة وحمص ودمشق وحسب · وكان على علم بمحاولات الفرنسيين التى تبنى على حماية فرنسا لمسيحيى سورية العرب لكنه لم يعرها أدنى اهتمام ·

ولم يكتب السير هنرى مكماهون رده على هذه الرسالة الا فى أواسط أيلول · وكان كثير من الأمور قد استحدث فى ذلك الحين ··· كان اللورد كتشنر قد خرج لاستعراض الحالة فى جاليبولى وفى الشرق كله · وكانت خطط الجلاء عن جاليبولى آنذاك يجرى ترتيبها على قدم وساق · كما كان هناك بحث لاقتراح يقول بانزال قوات من قوات الحلفاء فى الاسكندرونة (قوامها جيش يتألف من مائة الف محارب ·) وقد تقصى اللورد كتشنر هذا الافتراح غداة وصوله الى مودرس فى العاشر من تشرين الثانى · ولم يكن فى وسع العرب آنئذ أن يسهموا فى هذا المشروع) كما كان فى وسعهم الاسهام فيه فى تاريخ أسبق ، لأن الأتراك كانوا ــ كما نعلم ــ قد أقصوا عن سورية جميع الفرق العربية وأرسلوها كما يقول لورانس : « الى أى مكان ، مادام يمكن سوقها بسرعة الى ميادين القتال أو سحبها بعيدا عن أنظار وعون مواطنيها · » ولم يعد فى الامكان الآن احداث تمرد ليصاحب وييسر عملية الانزال فى الاسكندرونة ·

ولم تتم الموافقة على خطة الاسكندرونة ، بطبيعة الحال ، بناء على أسس استراتيجية مستقلة عن هذا الاعتبار ، أيدتها الأمبرالية ورئاسة أركان الجيش · لكن احتمال الأخذ بهذه الخطة التى لاحت فى أوائل تشرين الثانى قد أفضت الى حدوث حدث هام · لقد قدم الملحق العسكرى الفرنسى فى لندن الى رئيس هيئة أركان الحرب الامبراطورية مذكرة مقتضبة نورد منها الفقرتين الأولين الآتيتين ·

> اذا ما أرادت الحكومة البريطانية أن تبحث مسألة انزال قوات عسكرية فى خليج الاسكندرونة لكى تقطع خط سكة الحديد الذى يمتد الى فلسطين فينبغى عليها ألا تأخذ فى اعتبارها مصالح

فرنسا الاقتصادية فحسب بل ومصالح فرنسا السياسية والأدبية في هذه البلاد ·

ان الرأى العام الفرنسى لا يمكن أن يغض الطرف عن أى عمليات عسكرية يجرى التحضير للقيام بها فى بلد يعتبره سيشكل حتما جزءا من دولة المستقبل السورية · وهو لن يطالب الحكومة الفرنسية بألا يجرى تنفيذ أية عمليات عسكرية فى هــذا البلد بالذات دون اتفاق مسبق يتم بين الحلفاء وحسب بل بوجوب أن يوكل القيام بالجزء الأكبر من هذا العمل ، اذا ما تقرر القيام به الى الفرق العسكرية الفرنسية والى الجنرالات الفرنسيين الذين يقودونها ·

وكان هذا الاعلان اعلانا غريبا لأن الفرنسيين لم يكن فى وسعهم فى ذلك الحين تقديم هذه الفرق التى كانوا يطالبون بوجوب أن يوكل اليها القيام بالجزء الأكبر من هذه المهمة . ولم تكن هذه المذكرة فى الحقيقة الا صيحة اعتراض ناسفة لمشروع عملية الاسكندرونة . وابرق رئيس الوزراء بعد يوم من المشاورات والاجتماعات الى كتشنر ليقول له ان حكومتنا قد قررت رفضها .

بيد أن النتيجة الكبرى التى نجمت عن هذه المذكرة هى أنها قد دفعت مسألة مجال النفوذ الفرنسى فى سورية خطوة الى الأمام ـ وكان لحرف الجر (فى) فى تلك الظروف معنى فضفاض غير مستحب . وكان واضحا أنه لا بد لبريطانيا العظمى أن تعرف أين تقف فى هذه المسألة عن طريق جعل الفرنسيين يحددون مطالبهم ، وفى نهاية تشرين الثانى كان كتشنر قد عاد الى انجلترا . كما عاد اليها فى كانون الأول مبعوثه السير مارك سايكس الذى كان قد ذهب فى أثناء ذلك الحين الى الهند ليتحدث مع نائب الملك فيها عن مستقبل العراق .

ولم يكد السيد مارك سايكس يضع قدميه على أرض الوطن حتى أرسل مكتب الخارجية ليجتمع بالمسيو بيكو الدبلوماسى الفرنسى الذى كان قد جاء الى مصر فى مهمة ، ولكى يرسم واياه مشروعا على الورق تحدد فيه المصالح الفرنسية والمصالح البريطانية فى الشرق التركى الأدنى أو تعين· ولم تكن هذه بالضبط التعليمات التى زودا بها ولكنها ، انتهت اليه هذه التعليمات · وكان المتفق أن يبقى الاتفاق سرا حين يتم الوصــول اليــه ، مثله فى ذلك مثل المفاوضــات التى دارت بين هــذين الرجلين· أما الســبب الذى عللت به هــذه السرية فمؤداه هو أن الأمر ما دام

تقسيما لجلد الأسد فان من الأفضل ألا يذاع على الملأ ما دام الأسد ما يزال حيا ٠ وسيعرض طبعا على روسيا لأنه أيا كانت هذه التحديدات التي سيرسمها سايكس وبيكو فانها لا بد وأن تكون شكلا محددا لاتفاق « مجالات النفوذ » الذى سبقها ٠

وكانت الحكومة الفرنسية قد علمت بالمعاهدة الانجليزية العربية عن طريق المسيو بيكو الذى كان قد ذهب الى لندن للتداول مع مكتب الخارجية فى ذلك الأمر استعدادا للقيام بمهمته ، وبعد أن كان السير هنرى مكماهون قد بعث بالكتاب الفصل الى شريف مكة . وعاد المسيو بيكو فى الحادى والعشرين من كانون الاول ، بعد أن أطلع على هذه المعاهدة فى الثالث والعشرين من تشرين الثانى ليعلن موافقة فرنسا على هذا الوضع المبنى على تحفظات مكماهون ٠ لسوف يدير الفرنسيون المناطق الساحلية . أما حكومة المدن الأربع العربية ، وهى حمص وحماة وحلب ودمشق فستكون واقعة ضمن « مجال النفوذ الفرنسى » أما من الناحية الأخرى ، فان السير هنرى مكماهون لم يطلع على محادثات سايكس وبيكو ومن ثم ظل الشريف فى الظلام فى كل ما يتعلق بها . كما أن المكتب العربى فى القاهرة الذى أسسه جلبرت كلايتون والتحق به لورانس ونيوكومب ــ ونيوكومب هذا هو المدفعى الذى تنكر فى زى أعرابى ورسم خريطة لشبه جزيرة سيناء ــ والآخرون الذين قدر لهم أن يكسبو صيتا لا بأس به ــ قد ظل فى الظلام أيضا ٠ وهكذا ظل مجهولا لدى ذلك « المكتب العربى فى القاهرة » هذا الانتهاك لصلاحيته فى الاشراف على العلاقات مع العرب .

وهكذا أرسل المندوب السامى وهو يجهل كل هذا جوابه الثالث على الشريف . وكانت الأمور غاية فى السوء فى كل ما يتعلق بالحرب فى الشرق الأدنى ٠ اذا كانت عملية الجلاء عن جاليبولى توشك أن تبدأ ، وبدأت فعلا بعد أن أرسل كتابه هذا مباشرة . وكان قد تم اخلاء السلوم وأصبح امر الرد على هجمات السنوسى أمرا ضروريا . وكانت العمليات الحربية التى تقوم بها الغواصات الألمانية تعرقل المواصلات البحرية فى البحر الأبيض المتوسط . وكانت القوات البريطانية فى بلاد الرافدين بقيادة الجنرال تاونشند محاصرة فى قوت العمارة ولا أمل لها فى فرج٠ ولذلك كانت مسألة كسب معونة العرب أكثر الحاحا من أى وقت مضى ٠

فكتب السير هنرى مكماهون فى الرابع عشر من كانون الأول :

الى الشريف حسين ،

وبعد التحيات المعتادة والشكر على الكتاب السابق قال :

انى أشعر بالامتنان نحوكم اذ ألاحظ أنكم توافقون على استبعاد ولايتى (مقاطعتى) مرسين وأضنة من حدود البلاد العربية .

كما الاحظ كذلك بالارتياح والسرور العظيمين تأكيدكم بأن العرب عازمون على انتهاج سنن عمر بن الخطاب والخلفاء الأوائل التى تؤمن جميع حقوق وامتيازات مختلف الأديان على السواء .

وان من المفهوم طبعا من قولكم بأن العرب مستعدون للاعتراف بجميع معاصراتنا مع الرؤساء العرب واحترامها ، أن هذا ينطبق على جميع المناطق المشمولة فى نطاق المملكة العربية لأن حكومة بريطانيا العظمى لا تستطيع أن تنكث بوعود قائمة .

أما بصدد ولايتى حلب وبيروت فقد أدلت حكومة بريطانيا لملاحظاتكم النظر الدقيق . ولكن لما كانت مصالح حليفتنا فرنسا تتدخل فى تقرير مصيرهما فان المسألة ستستوجب التفكير العميق . وسنرسل اليكم مكاتبة أخرى بهذا الخصوص فى الوقت المناسب .

وان حكومة بريطانيا العظمى مستعدة ــ كما سبق لى أن قلت لكم ــ لأن تقدم كل الضمانات فى مساعدة المملكة العربية وتأييدها المتوفرة فى حدود امكانياتها ، لكن مصالحها تتطلب ــ كما اعترفتم انتم بذلك ــ وجود ادارة ودية وطيدة فى ولاية بغداد . وان الحماية الكفيلة بتأمين هذه المصالح تتطلب بحثا أوفى وأكثر تفصيلا مما يسمح به الوقت الراهن وتسمح به ضرورة الاسراع فى هذه المفاوضات .

ونحن نقدر كل التقدير رغبتكم فى التحوط والحذر وليست لدينا رغبة فى الالحاح عليكم بالقيام بعمل متسرع قد

يعرض النجاح المحتوم لمتروعاتكم للخطر . بيد أن من الضرورى فى الوقت عينه ، ضرورة ما بعدها ضرورة ، الا تدخروا جهدا فى ربط الشعب العربى كله بقضيتنا المشتركة ، وأن تحثوهم على أن لا يقدم أية مساعدة لاعدائنا .

وعلى نجاح هذه الجهود ، وعلى الاجراءات الأكثر فعالية التى قد يتخذها العرب من الآن فصاعدا معاضـــدة لقضيننا ، حين تحين ساعة الجد ، يجب أن يتوقف ثبات وقوة اتفاقنا هذا .

وقد أمرت فى هذه الظروف من قبل حكومة بريطانيا العظمى أن أخبركم أن فى وســـعكم أن تركنوا الى أن حكومة بريطانيا العظمى ليست لديها أية نيـــة فى ابرام أى صـــلح بشروط لا تكون منها حرية الشعوب العربية من التســـلط الألمانى والتركى شرطا أساسيا :

وكعربون عن نوايانا ، ولكى نساعدكم فى مجهوداتكم فى قضيتنا المشـــتركة ، أرسل لكم بواسطة رسولكم الأمين مبلغ عشرين الف جنيه .

(والتحيات المعتادة)

أ . هـ . مكماهون

وبهذه الوثيقة تلقى الشريف الضمان الذى طلبه ، من ان صلحا منفردا لن يعقد مع تركيا من قبل الحكومة البريطانية ومن أن تحرير الشعوب العربية سيكون جزءا أساسيا من اى معاهدة صلح . والحقيقة هى أنها قد جعلت من العرب اعضاء فىأسرة الحلفاء . أما فى حالة بريطانيا على وجه التخصـــيص فيمكن وصف الحال بأنه حفلة زفاف ... لقد أصبح الاطلاع بأمر الحرب الآن « قضيتنا المشتركة » حتى النهاية ... وأصبحت بريطانيـا والعـرب شيئا واحدا ، بل وحتى ألبس خاتم الزواج فى الجملة النهائية .

ولم يكن المندوب السامى فى موقف يؤهله لأن يقدم للحسين جوابا قاطعا بصدد الأراضى الواقعة على الساحل بين حلب وبيروت . وما من شك فى أنه افترض أن حكومة الوطن ستصل يوما الى قـرار بشأن مطالب الفرنســـين وتخبره حين يتم فيتحتم عليـــه أن ينبىء الشريف

به . الا أنه أرخ هذا البيان بعبارة الهوايتهول الشهيرة : « فى الوقت المناسب » وهو لا يدرى أن مفاوضات سايكس وبيكو قد بدأت .

وقد أرسل مع الكتاب الرسمى كتابا خاصا الى الشريف . وليس هناك ما يدعونا ثمة الى الافتراض بأنه حذره فيه من عدم جدوى تعطيل كل شيء بالاصرار على أراضى سورية الشمالية لأن يدى الحكومة البريطانية مغلولتين فى هذه المسألة ، ولأن الحرب يجب أن تنتهى أولا قبل أن يفك غلهما . وأن من الأوفق ارجاء أى فكرة فى المطالبة بأى تعويض مالى عن احتلال أراضى العراق الى مباحثة تجرى فى المستقبل.

وقد قبلت نصيحته هذه سواء أكانت مكتوبة أم بطريق اللسان وأرسل الشريف رده النهائى فى يوم رأس السنة الجديدة من عام ١٩١٦:

بسم الله الرحمن الرحمن

الى صاحب السعادة ، المرموق المكانة عالى الهمة الوزير الخطير .

لقد تلقيت كتابيكم المؤرخين فى التاسع من صفر لعام ١٣٣٤ (السادس عشر من كانون الأول لعام ١٩١٥ . ملاحظة : يوجد هنا بعض الخلط فى التواريخ . فتاريخ كتاب السير هنرى مكماهون هو الرابع عشر منه . وقد يكون كتابه الخصوصى هو المؤرخ فى السادس عشر وأنهما قد أرسلا معا أو أن المترجم قد هفا هفوة . وليس هذا الكتاب الخصوصى بذى بال هنا لأن المكاتبة الأخيرة التى صدرت عن القاهرة هى موضوع هذا الجواب ، سواء أكانت مؤرخة فى الرابع عشر أم فى السادس عشر منه . وها أنا الآن أعيد الجملة الأولى بغية الوضوح .)

لقد تلقيت كتابيكم المؤرخين فى التاسع من صفر لعام ١٣٣٤ من حاملهما ببالغ التقدير والاحترام وتفهمت اللذين جلبا على أعظم السرور والرضا اذا أزالا ذلك الشيء الذى يقض مضجعى .

ولابد وأن سعادتكم قد أيقنتم بعد وصول محمد (الفاروقى) شريف واجتماعه بكم أن ما قمنا به حتى الآن لم يكن يصدر عن نزعة شخصية أو ما شاكلها ، والذى لو كان كذلك لكان غير مفهوم بتاتا ، وانما كان كل شيء نتيجة لأحوال ورغبات شعوبنا،

وما نحن الا ناقلو ومنفذو تلك القرارات والرغبة فى هذا المركز الذى فرضته (شعوبنا) علينا ·

وهذه الحقائق فى رأيى مهمة جدا وتســـتحق اهتمام سعادتكم الخاص وتقديركم .

وبخصوص ما بينتموه فى مكاتبتكم الكريمة متعلقا بالعراق، وبصدد أمر التعويضات عن مدة الاحتلال ، فاننا لكى نقوى ثقة بريطانيا العظمى فى موقفنا وفى أقوالنا وأفعالنا ، حقا وصدقا ، ولكى نقدم دليلا على يقيننا ووثوقنا من حكومتها المجيدة ، نترك تقدير المبلغ الى حسن تقدير حكمتها وانصافها ·

أما فيما يتعلق بالأجزاء الشمالية وسواحلها فلقد أوضحنا فى كتابنا السابق ما هى أقصى التعديلات الممكنة · وما فعلنا ذلك الا لكى نحقق تلك الآمال التى لا يكون بلوغها الا بمشيئة الله تبارك وتعالى ان هذا الاحساس وهذه الرغبة عينهما هما اللذان فرضا علينا أن نتجنب ما قد يخدش تحالف بريطانيا العظمى وفرنسا ، ويخدش الاتفاق الذى جرى بينهما خلال الحرب والمصائب الحالية ، الا اننا نرى أن من واجبنا كذلك أن يكون الوزير مرموق المكانة على بينة من أننا سنطالبكم عند أول فرصة تسنح بعد أن تضع هذه الحرب أوزارها (بما نغض ابصارنا عنه اليوم) ، سنطالبكم بما نتركه الآن لفرنسا فى بيروت وسواحلها .

ولست أرى أن من اللازم أن اوجه اهتمامكم الى أن خطتنا أكثر ضمانا لمصالح بريطانيا العظمى وتوكيدا لحقوقها منهـا لمصالحنا وحقوقنا ، وستكون كذلك بالضرورة مهما يحدث ، لدرجة أن بريطانيــا العظمى قد ترى شعوبها أخيرا فى ذلك الحال من الرضا والتقدم الذى تحاول أن تهيئه لها الآن ، وبخاصة حين يكون حلفاؤها جرثومة المتاعب والمجادلات التى لن نجد معها راحة بال لكونهم جيراننا . وفضلا عن ذلك لن يقبل شعب (ولاية) بيروت ، وبالتأكيد ، هذا العزل أبدا ، وقد يضطرنا الى اتخاذ اجراءات جديدة ، قد تكلف بريطانيا متاعب لن تكون بالتأكيد أقل من متاعبها الحالية ، بسبب اعتقادنا ويقيننا فى تكامل مصالحنا ، وهو السبب الوحيد الذى جعلنا لا نهتم بالتفاوض مع أى دولة أخرى غيركم . ومن ثم فان من المستحيل

أن نسمح بأى تنازل يعطي لفرنسا أو لأى دولة غيرها ، شبرا
من الأرض فى هذه المناطق .

وابرق السير هنرى مكماهون غداة استلامه هذا الكتاب الى الوطن بصدد التعليمات النهائية . لقد أظهر الشريف لين الجانب بقبوله تأجيل اجراء تسوية مع الفرنسيين بخصوص شمال سورية الى نهاية الحرب. بيد أنه لم يقبل مطالب الفرنسيين ولو أنملة واحدة . وكان هذا الحصول على التأجيل وترك الباب مفتوحا ينسجم مؤقتا ، على أى حال ، ان لم يفعل شيئا أكثر من هذا الانسجام ، مع خطط مكتب الخارجية فى الاعداد لاتفاقية سايكس وبيكو الآتية ، مع فرنسا . والواقع هو أن كل شيء كان يعقد فى فحواه على مدى انسجام هذه الترتيبات مع المعاهدة التى ستعقد مع الحسين . أما ماذا سيحدث اذا ألفى الشريف والعرب أنفسهم مواجهين فى النهاية بترتيبات واتفاقات لا تنسجم مع معاهدتهم هذه ، فيبدو ان احدا لم يكلف نفسه عناء التفكير فيه .

وهكذا قيل للمندوب السامى أن ينهى الأمر على هذه الشروط وهى على ما هى عليه.الآن من تعديل . والحقيقة هى أن شعورا بالارتياح قد ساد الدوائر المعنية من كون الشريف لم يتشبث ويتشدد طلبا للمزيد . لقد كنا فى أمس الحاجة الى العرب وكان لدى المندوب السامى فى درج مكتبه فعلا تفويض بالتخلى عن جميع مطالب بريطانيا فىالاشراف على ولايتى بغداد والبصرة اذا دعى الأمر للتخلى عن المزيد سعيا وراء كسب تأييد العرب وتحالفهم معنا .

وهكذا كتب السير هنرى مكماهون فى الثلاثين من كانون الثانى كتابا مقتضبا الى الشريف أعلن فيه :

> لقد تلقيت تعليمات من حكومتى بأن انهي اليكم أن جميع مطالبكم قد قبلت وأن جميع ما ستطلبونه سيرسل به اليكم ..

أما ما قد طلب فهو الذخيرة والمال . وتدور بقية الكتاب حول تفصيلات فنية . وقد اعترف الشريف من مكة فى الرابع عشر من ربيع الآخرة لعام ١٣٣٤ (السادس عشر من شباط لعام ١٩١٦) بوروده اليه فى كتاب قصير آخر يقول فيه :

> لقد تسلمت بالغبطة والسرور كتابكم الأخير المؤرخ فى الرابع والعشرين من ربيع الأولى لعام ١٣٣٤ (الثلاثين من كانون الثانى لعام ١٩١٦) وقد فهمت فحواه الفهم العميق . ولسوف اعمل – ان شاء الله – على أن أسجل كلمة العرب ، وأبدأ

بمشيئة الله النشاط سريعا . (أى سوف أجاهد لأسجل كيف يعنى العرب بوعودهم . وسوف أبدأ بمشيئة الله الفيام بهجماتنا على الأتراك سريعا) .

وقد ضاعت بقية اصل هذا الكتاب فى مكة عشية سقوط الملكية الهاشمية . لكنها ليست بذات أهمية . لأن مراسلات الحسين مكماهون - كما تسمى عموما - قد اختتمت كمعاهدة سياسية بقبول بريطانيا لشروط الشريف حسين الأخيرة . وهى مراسلات فقط من حيث الأوراق التى تؤلفها لأنه كان من المحتم أن تتبادل كرسائل بسبب بعد الشقة بين الطرفين المتفاوضين ولكنها فى الواقع من المراسلات ، بالمعنى العادى لهذه الكلمة ، بقدر ما تكون هذه الأوراق التى تداولها المتفاوضون عبر المائدة فى فرساى ، مع بعضهم البعض - مراسلات .

انها تشكل مفاوضات معاهدة وابرامها . وان الاجزاء الصحيحة من اصولها لتبين الشروط وتصادق عليها . ولقد وصفها شريف مكة فى وثيقته (رسالته) الأولى بأنها معاهدة . ثم قبلت الشروط التى وضعت على هذا الأساس . ولقد اعترف المستر لويد جورج نفسه ، وبوصفه رئيسا للوزراء ، بهذا حين قال للحكومة الفرنسية باصرار ان لها قوة المعاهدة .

وهى تشكل مجموعة كبيرة من الوثائق وبخاصة اذا قرئت مع التفسيرات ، التى كتبت لها كأمر تمليه الضرورة ، لوصف سيرها أثناء أن كانت تدور المفاوضات . وكان يجدر بى فى بعض المواضع أن اورد الفقرات البارزة منها فقط لكنى قد قررت أن اوردها كاملة لأنه لم يسبق لها فى يوم من الأيام أن نشرت فى بريطانيا (١) ، كما أنها لم تنشر - على حد ما أعلمه - فى أى مكان آخر قط ، الا فى مؤلفات عربية .

---

(١) ما دام هذا الكتاب قد تم نان المستر جورج انطونيوس قد ضمن مراسلات الحسين ومكماهون فى كتابه يقظة العرب . وقد كتب ، باعتباره حجة فى كلتا اللغتين العربية والانكليزية على السواء ، ترجمته الخاصة لنصوصها . وسيجد القارىء متعة فى مقارنتها بالترجمات الحرفية التى قدمت لى فى عام ١٩٢٢ ويكتب المستر انطونيوس سجلا كاملا عن نشوء الجمعيات العربية وينبغى ان يقرأ لسد النقص فى خلوصتى المقتضبة . ويمكن أن يقال الشىء نفسه عن تسجيله لثورة العرب . وقد استفدت من علمه واستعنت بتبحره حين كنت أحضر المواد للفصل الخامس عشر من هذا المؤلف الحالى وسيجد القارىء ايضاحات وتأكيدات لمختلف التفاصيل التى وردت فى هذا الفصل والفصول القريبة منه ، سيجدها فى مؤلف المستر انطونيوس الذى يستحق الثناء والاعجاب - المؤلف .

واذا ما قرأ القارىء هذه الأصول كاملة فسيصبح على أكبر بينة من موقف الأشخاص المعنيين بهذه المفاوضات .

وهناك أشياء تبرز للعيان من تلقاء نفسها • فيبدو الشريف لنا من خلال جميع هذه الصياغات اللفظية التى تدخل فى هذه المفاوضات من حين لآخر ، مفاوضا حصيفا داهية الا أنه مع ذلك مستقيم • واننا نراه حريصا كل الحرص على التحالف معنا وعلى أن يولى وعودنا الثقة الكاملة •

أما من ناحيتنا ، فقد صيغت الوعود الأساسية التى قطعناها على أنفسنا صياغة واضحة محددة لا لبس فيها ولا ابهام • « ان بريطانيا العظمى مستعدة لأن تعترف باستقلال العرب ضمن المناطق الداخلة فى نطاق هذه الأبعاد والحدود التى اقترحها شريف مكة ولأن تؤيد هذا الاستقلال • »

وهذه الحدود تشمل فلسطين • ولم يرد أدنى ذكر عن استبعادها • وقد قطعنا عهدنا لهم بوجوب أن يكون العرب على أراضيهم هذه أحرارا من جميع أنواع الاشراف الأجنبى اللهم الا ذلك الذى قد يختارونه وبمحض ارادتهم •

وأكثر من هذا ، لقد قطعنا عهدنا للشريف حسين ليس بوصفه شريف لكن بوصفه الممثل للشعوب العربية ، ومن بينها عرب فلسطين ، أننا متعاهدون معهم تعاهدا مباشرا •

وقد صاغ هذه الشروط التى أوضحها لنا ، بالاتفاق مع أعضاء الجمعيات الوطنية التى كانت لها جذورها فى فلسطين ، فأحيوا حدودا كانت منذ عهد بعيد البرنامج الأساسى لهذه الجمعيات ، وتشمل جميع الأراضى المواجهة للبحر الأبيض المتوسط ابتداء من آسيا الصغرى حتى حدود مصر •

الفصل السابع

الصهيونية تمضي قدما ــ وايزمان وبلفور والسير هربرت صموئيل يظهرون ــ مساعي الصهيونية لدى أسكويث ولويد جورج وجراى ــ مدرسة أخرى من مدارس مانشستر ــ الخطوة الكاذبة الأولى ــ مذكرة جراى

ما الذى حدث فى أوساط الصهيونية حين كان العرب يتقدمون نحو الاعتراف باستقلالهم ونحو التحالف مع بريطانيا ؟

لقد كان فى فلسطين عند اندلاع الحرب تسع وخمسون مستعمرة يهودية تضم نحوا من اثنى عشر ألفا من السكان • وكان هناك سبعون ألفا آخرون متجمعون فى المدن ، وكان معظمهم يسكن مدينة القدس • ومن بين هذه الثمانين ألفا ، تقريبا ، التى كانت موجودة فى فلسطين من اليهود، كانت الأغلبية ؛ وتتراوح بين خمسة وخمسين ألفا وبين ستين ألفا ، قد جاءت الى البلاد فى غضون الثلاثين عاما الأخيرة (أى التى سبقت الحرب العالمية الأولى ــ المعرب) •

وكان معظم هذه المستعمرات يمول من قبل أثرياء يهود ، وبخاصة من قبل رجل البر (!؟!) البارون ادمون دى روتشيلد الذى ينتمى الى الفرع الفرنسى من العائلة الكبيرة • أما الجزء الأكبر من يهود القدس فكان يعيش على الصدقات التى ترد اليهم من أبناء دينهم من مختلف الطبقات فى جميع أرجاء المعمورة •

وليس لدى صهاينة العصر شىء من طيب الكلام يقولونه عن صهاينة ما قبل الحرب ، لأن هؤلاء كانوا الى حد بعيد عالة على غيرهم • وكان يطلق على مؤسساتهم اسم بيوت الصدقات • ولكنهم كانوا يمارسون صهيونية لا تسعى الى طرد العرب • لقد عادوا الى هذه البلاد تحت ذلك الستار الوحيد

الذى ينسجم مع هدف البحث عن صهيون؛ وان كان ورتتهم الجدد لايطيقونه؛ ألا وهو سنار الحجاج • لقد دخلو البلاد تحدوهم عقيدتهم وبدون أن يطالبوا بأية مطالب ؛ من أى نوع ، بعد أن تعلموا ، على ما يبـــدو ، من تلك الجموع الغفيرة التى ذاقت الأمرين فى روسيا ، ألا يتصرفوا تصرفات عدائية تجاه جنس آخر كرد فعل كاذب لما قاسوه •

وقد درس مشروع فى عـام ١٩١٤ للاســتعمار الأشد تركيزا من ذى قبل ، نتيجة للقرارات التى صدرت عن المؤتمر الصهيونى التانى عشر الذى انعقد فى العام الأسبق• ومن قبل نوفتس مشروع لانساء جامعة يهودية فى القدس وكان البارون ادمون دى روتشيلد يوشك أن يعقد صفقات كبيرة من شراء الأراضى بقصد انشاء مستعمرات جديدة •

وقد شهد شهر آب هذه الأنشطة تتوقف فجـأة • اذ انشـــقت الصهيونية ؛ وهى عقيدة عالمية ، على نفسها بفعل الحرب • وكانت أقوى ما تكون فى روسيا بيد أنها كانت لها منظمة ذات وزن فى ألمانيا • وكانت مكانبها المركزية فى برلين ، لكن أموالها كانت تتركز فى الدرجة الأولى فى البنوك البريطانية بالرغم من أن « أتفه الجماعات الصهيونية شأنا » كانت توجد هناك طبقا لافادات الصهاينة • أما بالنسبة لفلسطين فكانت المنظمات الصهيونية الألمانية بارزة من بين منظماتها فيها •

وقد فتح قادة الصـــهاينة ، فى البـــداية ، مركزا لهم فى كوبنهاجن مؤملين أن يجعلوا المنظمات الصهيونية جميعها على أرض محايدة • وتكشف هذا عن أنه أمر غير عملى ، وسرعان ما غيروا موقفهم • وان دخول تركيا الحرب هو المسئول عن هذا التغيير • اذ ما دامت تركيا قد أصبحت الآن دولة من الدول المتحاربة فقد عرضت نفسها لاحتمال الهزيمة • واذا ماهزمت فلابد وأن يصبح الحلفاء فى مركز يقررون فيه مصـير الأراضى التركية ، وربما مصيرها جميعها • وقد يشمل هذا التقرير فلسطين • ومن ثم اذا ما ربطت الصهيونية نفسها بقضية الحلفاء فقد يصبح الطريق الى فلسطين مفتوحا لها فى النهاية •

ولم يضيع القادة الصهاينة وقتا فى القيام بمحاولتهم هـذه واختاروا بريطانيـا لتكون البلد الذى يعلقون عليه هـذه المحاولة • فيقول المستر شتاين : « لقد كانت الآمال معقودة ، فى الدرجة الأولى ، على بريطانيا ••• على عبقرية بريطانيا العظمى فى الادارة الاستعمارية ، وعلى وصيتها كدولة متحررة ، وعلى ذلك الشعور الغريزى الفياض الذى كان لدى اليهود بوجه خاص كل سبب لتعليقه عليها » ، وان عرضيها المتتالين على اليهود بمنحهم

وطنا لهم في شرق افريقيا تم في شبه جزيرة سيناء ٠٠٠٠ ان كل هـــذه الاعتبارات جميعا قد ميزتها بين الدول كالدولة التى ينبغى أن يسـعى لديها أولا ٠

ولا يعول لنا المستر شتاين شيئا عن النفوذ الذى كان من الممكن أن تمارسه الهيئة اليهودية فى بريطانيا ٠ وقد يعتقد البعض أن هذا كان اغفالا من جانبه لكن الأمـر ليس كذلك ٠ ان ما يقصـــد عموما من قولنا « النفوذ اليهودى » ليس له الا أقل العلاقة بهذه الحملة الصهيونية التى تشن فى هذا البلد ٠ ولأسباب ما يفهم هذا « النفوذ اليهودى » على أنه دائما يعنى النفوذ المالى الذى يمارس نشاطه من وراء ستار ٠ ولست أنوى أن أتوقف هنا لأتحدث عن هذا النوع المعين من النفوذ ، فيما خلا أن أقول أنه لا يعالج ؛ كقاعدة عامة ، معالجة معقولة جدا ٠ فالكتاب اليهود ينكرون وجوده فى حين يعلن الكتاب غير اليهود أنه على كل شيء قدير ٠

ولم تحرز الصهيونية السياسية فى عام ١٩١٤ نجاحا ، وبأى معدل فى الدوائر اليهودية التى يقال عنها انها دوائر ذات نفـــوذ ٠ فلم يكن لتلك الشخصيات البارزة بين اليهـود والانجليز من أمثال أعضـــاء لجنة المديرين أى اهتمام بها على الاطلاق ، بل ويجهلون وجودها بصفة عامة ٠ بيد أنه كان يوجد نوع آخر من النفوذ اليهودى يمارس عمله فى انجلترا ، وحدث أن ربطت الصهيونية السياسية نفسها به ٠

ولم تذهب الصهيونية السياسية بعيدا لتعثر على ذلك الصنف من الرحال الذين يقومون بنشر مبادئها هناك ٠ ورحل اثنان من زعمائها فى الممتلكات الروسية الى لندن وهما المسيو تشيلنوف Tschlenow من موســكو والمســيو ناحوم ســوكولوف من وارســو وانضم اليهمـا فى مهمتهما هذه رجل آخر قدر لاسمه أن يذيع صيته بين أسماء الصهاينة الســـياسيين قاطبة الا وهو الدكتـور شـــايم فايزمان Weizmann (المعروف باسم حاييم وايزمان ـ المعرب) ٠

وقد ولد وايزمان فى جروندو من بولندا قبل أربعين عاما من ذلك الحين تقريبا ٠ وهاجر الى انجلترا بعد أن أمضى ردحا من الزمن فى سويسرا (حيث تعرف على تروتسكى ونافحه الآراء علنا) ٠ ثم أصبح محاضرا فى علم الكيمياء فى جامعة مانشستر ٠ وقد منح قبل ذلك الجنسية البريطانية ٠ وهو ككيميائى قدير الى أبعد الحدود ٠ ويجمع الى قدرته فى مجال مهنته هذه اللباقة وتلك الصفة الاستقلالية التى تميزه عن غيره ٠ ويحدثنا المستر هوراس صمويل عن « وجه الدكتور وايزمان الذى يشبه وجوه الشياطين

السبعة وعن سحره المنئوم الحبيب • » ويرسم صورة له وهو يخطب فى غرفة الجنود اليهود من فصائل حملة البنادق الخفيفة الملكية التى كانت تعسكر فى القاهرة أثناء الحرب فيقول : « انى أتذكر كيف كان يخطب فيهم • لقد كان يتكلم اليهم بسهولة وألفة الواثق من نفسه ؛ بلغته ولغتهم البيدية موضحا آراءه بتلك الهزة من كتفه وذلك التلويح الاصطلاحى من يديه ، اللذين يشكلان جزءا من أهم الأجزاء الأساسية فى لغته ، وهو يقف على راحته وراء المنضدة ويداه غارقتان فى وفاض سرواله •

« وكان السامعون يستجيبون للرجل • فكانوا جميعا طوع بنانه جسدا وروحا ، وعلى أتم استعداد لأن يقفزوا فيدخلوا جيبه عند أول كلمة تصدر منه اليهم • وكان الرجال يهرولون وراءه وهو يدور فى جنبات المعسكر كما تتبع الجرذان الزمار الأرقط • » لكن الدكتور وايزمان كان يستطيع أن ينفخ فى مزماره دائما مستدرجا المثقف الى أوكار اجتماعاته كما يستدرج الجندى البسيط على السواء • ولقد طغت شخصيته على الناس فى غرف الاستقبال كما فعل فى المعسكرات • وقد حدثنى شخص ، كان بين الحضور فى وليمة أقيمت فى بيت الليدى أستور ، عن قدرته التى لاتقاوم فى الاستحواذ على الغير ، والتى رآه ينتحى بها باللورد بلفور ؛ على مايذكر ، بعد الغداء جانبا • وكيف أن الاثنين ظلا يجلسان معا على متكأ واحد ساعة أو أكثر ناسيين جميع من كانوا حضورا • والذى حدث هو أنه مع مرور ساعات كهذه أرسيت دعائم الصهيونية السياسية فى انجلترا •

أما حجر الأساس فى حد ذاته فيمكن أن يقال انه قد وضع قبل عشر أو اثنتى عشرة سنة من تلك المحادثة التى ورد ذكرها • وقد اختفى هذا الحادث وراء ضباب مانشستر اختفاء يطابق المراد • كان بلفور آنذاك يقوم بالدعاية الانتخابية لنفسه (وكان مايزال أ • ج • بلفور) فى تلك المدينة التى كانت بؤرة هامة من بؤر اليهود • وكان رئيسه رجلا يهوديا يدعى المستر دريفوس ، فاتخذ من هذه مناسبة يستفهم فيها منه لماذا رفضت المنظمة الصهيونية ذلك العرض الذى عرض عليها فى عام ١٩٠٣ ، وفى فترة رئاسته هو للوزارة ، باعطاء اليهود رقعة من الأرض فى افريقيا الشرقية •

وتقول السيدة داجديل Dugdale ابنة أخت بلفور ومترجمة حياته ان هذا العرض « قد أثار فى نفسه فضولا لم يجد وسيلة لاشباعه • » • وانه قال للمستر دريفوس انه يريد أن « يتفهم أسباب هذا الرفض • » وان هذا كان أمرا يشغل باله لأنه كان مهتما بأمر اليهود • وكان مستقبل اليهود كأحد موضوعات التفكير احدى شطحات ذهنه المحببة الى نفسه •

لقد ظــل ردحا لا بأس به من الزمن يحس بوجود الصــهيونية ، بطريقته العرجاء فى التفكير ، وحين كان ذهنه يغوص فى موضـــوع من موضوعات التفكير ويزور عنه فى آن واحد ، على ما يبدو ٠

أما أنه كان فى حاجة حقا الى « تفهم » أسباب الصــهاينة فى رفض العرض الافريقى الشرقى ، فذلك أمر مستبعد ٠ اذ لا بد أن هذه الأسباب قد قدمت له ، ولو لمجرد اللياقة والاحترام ، بوصفه رئيسا للوزراء ، حين رفض العرض ٠ كما أنها قد نوقشت منــاقشة وافية فى جلسات المؤتمر الصهيونى السادس ٠ لكن بلفور قد تراجع ، على طريقته الفريدة التى هى وقف عليه دون غيره ، عن المعرفة العلنية بأمر لعب فيه الدور الأول ، فكان لا مفر من أن يبدد من ذهنه جهله المصطنع الكاذب ٠

ولهذه الغاية أرسل المستر دريفوس الدكتور وايزمان ، الذى كان يعهد فيه الصهيونى المتحمس ، الى الفندق الذى ينزل فيه بلفور ٠ وهكذا التقى الكيميائى الشاب ورجل الدولة لأول مرة ٠ وسرعان ما نشأت الألفة بين الرجلين اللذين تختلف ظروفهما كل الاختــلاف ٠ ولم يكن الدكتــور وايزمان ذربا فى الانجليزية آنذاك فلاقى بعض الصعوبة فى الاعراب عن أفكاره وشرح ما يريد ٠ الا أنه قد وجد طريقة ما أخيرا ٠ « لقد بدأت أتصبب دما بدل العرق لكى أفصح بانجليزيتى الضعيفة عما أريد ٠ وبذلت أخيرا محاولة : لقد طرأت على ذهنى فكرة فقلت : « اذا عرضت عليك باريس بدلا من لندن ، فهل تقبلها يا مستر بلفور ؟ ٠٠٠ هل تقبل باريس بدلا من لندن ؟ » فبدت عليه الدهشة وقال : « لكن لندن ملكنا ! » فقلت : « لقد كانت القدس ملكا لنا ولندن مانزال بركة ٠ » ٠ « وهذا صحيح ، كان جوابه » ٠

ويخيل لى أن بلفور قد اعتراه الذهول من ملاحظة الدكتور وايزمان هذه ٠ وانتهت وهو ما يزال تحت وقع هذا الذهول الذى اعتراه منهــا ٠ وقد قال للسيدة داجديل بعد سنوات من تلك المقابلة : « لقد كان من جراء هذا الحديث الذى جرى بينى وبين وايزمان أن وقفت على ذلك الشكل اليهودى الفريد فى نوعه من أشكال الوطنية ٠ » وتمضى هذه السيدة فى قولها فتقول ان بلفور : « أخذ يتابع فى السنوات القليلة التالية عرض التأمل الذى بدأ يتوارد في مخيلته فى ذلك الحين ، وبصورة متقطعة دون شك ، وان تابعه بالنشاط الذى يدخره للحظات تأمله ٠ »

ان الانسان ليجيز طبعا دقة تسجيل مؤلفة سيرة حياة بلفور لهذه المقابلة التى قدر لها أن تتمخض عن مثل هذه العواقب الوخيمة ٠ بيد أنه

ليس هناك ما يجعلنا نسلم بأن موقف بلفور هذا كان موقفا حقيقيا · هل يذهل مثل هذا الشخص الأريب جدا ودفعة واحدة ، كما تذهل خادمة حين تقال لها كلمة مألوفة ؛ حين يقال له ان القدس كانت يهودية فى سالف العصر والأوان ؟! هل يمكن أن يندهش هذا الدارس لحالة اليهود ، المتحمس لها ، من ادعاءات مضى عليها عقد من الزمن وهى تردد ؟ ان هذا أمر لايصدق ·

وان هذه الشهادة من الخطابية لتضع فى أيدينا مفتاحا لفهم ذلك الأسلوب الذى قد يوجه به المستر بلفور مستقبل فلسطين ، أو يقاد به ليواجه مستقبل فلسطين وجها لوجه · وحين التقى بوايزمان للمرة الثانية كانت ثمانى سنوات قد مرت على لقائهما الأول ، وكانت أربعة شهور قد مرت على بدء الحرب · ولم يكن مركز الدكتور وايزمان قد تبدل قليلا فى تلك الحقبة · اذا كانت انجازاته العلمية قد لفتت اليه الأنظار سريعا فى مانشستر · كما كان قد تعرف على نخبة كبيرة من أبنائها البارزين ؛ ومن بينهم المستر س·ب· سكوت رئيس تحرير المانشستر جارديان الذائع الصيت · وكان سكوت قد أصبح تحت تأثيره من الموالين للصهيونية ؛ ومن ثم وجدت قضيتها طريقا الى أعمدة الصحف البريطانية لا يقدر بحال · أما كيف قدر لهذه الجارديان أن تتزاوج والصهيونية فيكاد هذا الأمر أن يكون أمرا طبيعيا تماما · لقد كانت هذه الجارديان لسان حال مدرسة من مدارس الفكر نجد بين صفوفها عددا كبيرا من فئة المثقفين اليهود · وكان فى هيئة تحرير هذه الجريدة بالذات ؛ هيئة التحرير الموجودة فى الخارج ، عدد كبير منهم · وهكذا فان وايزمان ، حين جعل من سكوت الجارديان موالين للصهيونية ، لم يفعل شيئا أكثر من بدر بذور الأعشاب فى تربيعة أعدت لها ·

وقد تم لقاء الدكتور وايزمان هذا مع بلفور فى أواسط ايلول · ووجد الأول « أن المحادثة التى أجراها قبل ثمانى سنوات ماتزال (طازجة) فى ذهن هذا الأخير · » فاستأنفاها « بصورة تعميمية » · لكن اللورد بلفور قد تساءل قبل أن يفترقا عما اذا كان يستطيع أن يقدم أى مساعدة ، من أى لون كان ، للدكتور وايزمان · فقال وايزمان : « لا يكون هذا والمدافع تزأر· سأعود اليك مرة أخرى حين يصبح الموقف العسكرى أكثر وضوحا · » فقال بلفور : « لا تنس أن تعود ثانية · انها قضية عظيمة جدا هذه التى تعمل من أجلها ، ولكم أحب أن تزورنى كثيرا · » (عن السيدة داجديل) ·

وما ان دخلت تركيا الحرب حتى شرع وايزمان يوضح أفكاره السياسية ، وقدم « مقترحات واضحة محددة تقول بانشاء وطن قومى لليهود

فى فلسطين تحت الحمـــاية البريطانية » (عن شتاين) • وكانت الخطوة التالية هى جعل الحاكمين يشعرون بهـا • ويبدو ان مركز التقل كان قد ابتعد قليلا عن بلفور لفترة قصيرة من الزمن • اذ لم يكن عضوا فى الوزارة ولو أنه كان عضوا فى مجلس الحرب • فزود سـكوت وايزمان وزميليه الروسيين الآخرين بكتب توصية الى اثنين من أعضاء الوزارة وهما المستر لويد جورج والسير هربرت صمويل •

أما ماذا حدث اذ ذاك فذلك ما قد أوضحه لنا السير هربرت صمويل؛ بالدقة والتفهم اللذين هما من صفاته المميزة ، فى محاضرة ألقاها على جمهور خاص فى عام ١٩٣٥ • لقد قال وهو يتحدث أمام الجمعية اليهودية التاريخية ان وايزمان قد استحوذ على اعجابه كثيرا ، وانه شعر بالاضافة الى ذلك بأنه ينبغى عليه ، باعتباره أول فرد من الأسرة اليهودية يدخل الوزارة البريطانية ــ ولقد طلق دزرائيلى هذه الأسرة الى الأبد ليحتل كرسيا فى احدى وزارات بريطانيا ــ أن يدرس الحركة الصهيونية وأن يتفهمها • ولم تكن له بهـا علاقة حتى ذلك الحين • وها هو الآن يجرى أحاديث مع المسيو سوكولوف ومع المبشرين الأخر بالانجيل الصهيونى ، بالاضافة الى مباحثاته مع الدكتور وايزمان •

وها هو يقول : وسرعان ما توصلت الى هذا الاستنتاج الحاسم بأنه اذا ما انتهت الحرب بانتصار الحلفاء ، كما كنا نتوقع جميعا ، فينبغى فصل فلسطين ، بلا شك ، عن الامبراطورية العثمانية ، واغتنام هذه الفرصـة لتسهيل اقامة مجتمع يهودى كبير هناك مستقلا استقلالا ذاتيا ، كما ينبغى أن يتم هذا تحت شكل ما من أشكال الحماية البريطانية • » وأنه قد تحدث فى هذا الأمر مع السـير ادوارد جراى فى تشرين الثـانى من عام ١٩١٤ (وهذا يدل على أن الدكتور وايزمان قد سعى لديه فى هذا الأمر ، قبل أن يباشر العمل فى الوظيفة التى منحت له فى الامبرالية) • فقال لجراى : « قد تسنح فرصة لتحقيق أمنية الشعب اليهودى القديمة واعادة بناء دولة يهودية هناك (فى فلسطين) • » ثم يضيف السير هربرت فيقول : « وكان هذا آنذاك الاقتراح الصهيونى • »

وان من عين الصواب أن نرى هذه الحقيقة توضح هذا النحو المنهجى المعتمد ؛ وان كانت بينة منذ البداية • لقـد تابع السير هربرت صمويل حديثه مع وزير الخارجية عن الكيفية التى قد تصبح بها فلسطين مركزا لثقافة جديدة • وكيف أن مرآى أناس من دم اليهود ولحمهم يحققون أشياء عظيمة فى فلسطين سيرفع شأن ملايين اليهود المبعثرين فى الأجزاء الأخرى

من العالم ، ويؤثر على نظراتهم للامور ، وكيف أن قرب دولته اليهودية من مصر « سيرد لانجلترا جميلها فى أمر ذى أهمية حيوية بالنسبة للامبراطورية البريطانية » وتستحق هذه الكلمات الأخيرة أن نشدد عليها ٠

وأما الجملة التى سنوردها تاليا ـ وقد نقلهـا الخطيب من مذكراته الأصلية التى كتبها عن مقابلته للسير ادوارد جراى ـ فهى مهمة جدا ٠ انها تبين لنا كيف كان السير هربرت صمويل يحس بوجود العرب ٠ لقد اعترف فقال : « ان بناء الدولة الجديدة من أساسها قد كان بالطبع مهمة ذات صفة مفزعة ، وخاصة من وجهة نظر هذه العناصر التى كان من المحتم أن نجدها فى سكان فلسطين الحاليين ٠ » وما هذا القول الا تحريف صارخ لحقائق الأشياء يستحق الملاحظة ٠ انه يعامل العرب وهم ٩١٪ من السكان على أنهم عناصر فيهم ! بيد أن هذه سابقة فى التفكير الصهيونى المعاصر وقدر لها أن تظل سابقة فى التفكير الصهيونى كله والى أمد طويل ٠

ثم تابع السير هربرت صمويل كلامه الى ايهـام سامعيه بانه يمكن تطوير مصادر فلسطين الاقتصادية اذ سمح للنوع المطلوب من السـكان بدخول البلاد ، واذا ماتجنب خلق «مجتمع من الحرفيين والتجار الصغار ٠» لكن مجتمعا من هؤلاء الحرفيين والتجار الصغار هو كل ما أقيم فى مدينـة تل أبيب التى يبلغ تعـدادها مائة وخمسين ألفـا (١٥٠٫٠٠٠) من بين أربعمائة ألف (٤٠٠٫٠٠٠) يهودى فى فلسطين ٠ ذلك ما تكشفت عنه الأمور الآن ٠ ولكن دعنا الآن نضرب صفحا عن هذا ٠ ولقد أنهى السـير هربرت صمويل كلامه بأن قال ان غور الحكومة الروسية قد يسبر حـول هذا المشروع قبل أن ينقضى زمن طويل ، اذا ما بدت الأحوال العسكرية مشجعة ٠ والسبب فى هذا طبعا هو تركز قوة الذين قد يهاجرون الى فلسطين من روسيا ٠

وقال السير ادوارد جراى ، جوابا على هذا القول ، ان هـذه الفكرة كانت تستهوى عواطفه دائما ، وان هذا النداء التاريخى قوى جدا ، وانه يحبذ هذا الاقتراح تماما ، وانه على استعداد لأن يعمل من أجل تنفيذه اذا سنحت الفرصة ٠ وانه اذا ما قدمت أية مقترحات ، من قبل روسيا أو أى دولة أخرى ، بصدد سورية فسيكون من المهم عدم الموافقة على أى مشروع لا يكون متمشيا مع انشاء دولة لليهود فى فلسطين ٠) ولقد سألنى عما اذا كنت أعتقد أنه يجب بالضرورة أن تلحق سورية بفلسطين ٠ (استخدمت لفظة (سورية » هنا بالمعنى الضيق الكاذب) ٠ فقلت : (لا ، وبل على

العكس . ان من الخطأ ضم أماكن كبيروت ودمشق لأنها تحتوى عدد ضخم من السكان الذين ليسو يهودا والذين لا يمكن ابتلاعهم وتذويبهم) .

وأمامنا الآن درس من عيوب رجال دولتنا . فها هو اللورد جراوى الذى يعرف عنه أنه من أكثر الناس اينارا يصغى الى السير هربرت صمويل ومع ذلك لا تبدر منه ملاحظة واحدة عن أن الذى يصدق على شمالى سورية يصدق على جنوبها . اذ أن سكان فلسطين ليسوا مجرد غير يهود أساسا . لقد كانوا منذ قرون الأغلبية الساحقة غير اليهودية ، وظلوا كذلك الى يومنا هذا . أما اليهود الذين كان نصفهم رعايا دول أجنبية ، ويحملون جنسيات أجنبية ، فلم يكونوا الا ثلاثة وثمانين ألفا (٨٣٠٠٠) من بين سبعمائة وسبعة وخمسين ألفا (٧٥٧٠٠٠) . كما كان الحال قبل الحرب . لكن السير هربرت صمويل فد اقترح ؛ وهو ينكمش فرقا عن ابتلاع « عـدد ضخم من السكان » فى الشمال ؛ اقترح عن طريق الاستنتاج ! ، عليه أن يكون ذا المال عام ، على الأقل ، بالمكونات الأساسية للامبراطوريةالتركية ، ترك هذا الاقتراح يمر من الكرام !؟

والأدهى من هذا أنه هو نفسه قد تورط فيه بأن سأل السير هربرت صمويل عما اذا كان يعتقد انه « يجب بالضرورة أن تلحق سـورية بفلسطين . » أى أن سكرتير الخارجية لم يدر بخلده ولو للحظة واحدة أن سورية بلد يسكنه العرب أو أى جنس آخر من البشر اطلاقا . لقد تحدث عنها وكأنها بلد تسكنه أحجار الضامة أو أحجار السيجة ؛ وكأنها أرض يمكن أن تجزأ أنصافا أو أرباعا أو يمكن أن تحرك عليها أحجار اللعبة طبقا لتدبيراته وفنون لعباته . لكنه لم يكن من اختصاصه أبدا أن يسأل السير هربرت صموئيل عما اذا كان يجب بالضرورة أن تلحق سورية بفلسطين أو لا تلحق . ان هذا أمر لا شأن للسير هربرت صمويل به من قريب أو من بعيد . وكان واجب جراى الحقيقى أن يسائل نفسه ما الذى يبرر له أن يقسم بلدا الى نصفين لكى يتسنى له أن ينفذ فى جزئه الأسفل مخططا من مخططاته هو وأصدقاؤه .

وتابع السير هربرت صمويل كلامه ليقول لسكرتير الخارجية ان من الضرورى أن تكون دولة اليهود فى فلسطين دولة محايدة لأنها لن تكون كبيرة بما يكفى لأن تدافع عن نفسها . وليقول انه ينبغى أن تكفل للحجاج المسيحيين حرية الوصول الى الأماكن المقدسة . وانه اذا ما أمكن الحاق بقية سورية بفرنسا فستكون فى ذلك الفائدة الكبرى ، لأن من الأفضل بالنسبة للدولة اليهودية أن يكون لها جيران أوروبيون بدلا من أن يكون جيرانها

أتراكا . ان السير هربرت صمويل ، الذى أصبح بعد سنوات قليلة أكثر اكتراثا بالعرب ، لا يحسب حساب العرب فى هذه التوصية بأكثر مما لو كانوا مجرد أثاث لفلسطين .

وينهى هذا القول مقابلته للورد جراى ، لكنه يضيف أنه قد زار المستر لويد جورج فى اليوم نفسه . وتدوينه لهذه الزيارة يسير على هذا النحو : « سنحت لى فرصة لحديث قصير مع لويد جورج حول هذا الموضوع وكان من قبل قد أشار فى اجتماع الوزارة الى مصير فلسطين النهائى فقال انه حريص كل الحرص على أن يرى دولة يهودية تقام فيها . »

ولأن يكون المرء حريصا على أى شىء فنلك عبارة دارجة لا معنى لها فى هذا العصر . وما استعمالها الا ممارسة عادية لمفردات اللغة أكثر منها ضمانا للمشاعر . وبعد ذلك بشهرين ، فى السابع عشر من كانون الثانى وهو عيد ميلاد لويد جورج تغدى اللورد ليديل معه . فكتب فى مفكرته بعد ذلك يقول : « يقول ل. ج. انه توجد حركة دائبة للعودة باليهود الى فلسطين ... انها مشروع جديد ما . وان هربرت صمويل ؛ وهذا ما يدهشه أيما دهشة ، حريص كل الحرص عليها . »

وأعتقد أن هذه النبذة المستقاة تقدم لنا مقياس الحرص النسبى لدى عضوى الوزارة . ان لويد جورج لم يفعل شيئا حتى الآن الا العبث العابر بحلم ــ ويلزى عبرى سكر من أحلام اليقظة ــ رأى فيه يهودا يتوج من جديد على عرش فلسطين . أما السير هربرت صموئيل فقد كان يقلب الأمر جادا ويبحثه من جميع وجوهه . لقد ظل يقلبه ويبحثه جادا لدرجة أنه سرعان ما توصل ــ وان توصل بعد فوات الأوان بوقت قصير ــ توصل الى ماتوصل اليه من أن : « انشاء دولة مستقلة استقلالا ذاتيا أمر غير عملى . اذ فى الأحوال التى كانت سائدة آنذاك كان خمسة أسداس السكان فى فلسطين عربا » (ولو قال تسعة أعشار السكان لكان أقرب الى نسبتهم الحقيقية) « وأن مثل ذلك الحل لا يمكن الأخذ به » .

ومع ذلك لاحظ أن السير هربرت صمويل لم ير فى انشاء الدولة اليهودية فى فلسطين أمرا غير شرعى . انه لا يرى فيها الا أمرا غير عملى وحسب . أما الحل الذى يمم وجهه شطره الآن فهو : « تنصيب اشراف بريطانى على فلسطين جنبا الى جنب مع تقوية وتشجيع الهجرة اليهودية ، مع منح المجتمع اليهودى أوسع أسباب الاستقلال الذاتى التى تسمح بها الأحوال العملية . » وحصيلة هذا الكلام هى جعل فلسطين فى حال ملائم لخروج الدولة اليهودية الى الحياة من طياته بالتدريج . كما أن منح الاستقلال

الذى سيخرج المهاجرين اليهود من دائرة اشراف أهالى البلاد على البلاد . وهكذا ففى حين لم يقترح السير هربرت صمويل انشاء دولة يهودية فورا كان ما يقترحه يجعل من قيام دولة عربية فى فلسطين أمرا مستحيلا فى أى وقت من الأوقات .

وعلى هذه الأسس أعد مذكرة عممت فى نطاق أعضاء الوزارة . وهو يقول انه أعد المذكرة فى كانون الثانى لكنه لم يعممها الا فى آذار . الا أنه يخيل الى أنه لا بد أن أرسل مسودة لها الى بعض زملائه فى الوزارة ، على الأقل ، لأن المستر أسكويث (رئيس الوزارة البريطانية آنذاك — المعرب) قد كتب فى مفكرته فى الثامن والعشرين من كانون الثانى لعام ١٩١٥ ما يلى :

تسلمت لتوى من هربرت صمويل مذكرة عنوانها «مستقبل فلسطين» . انه يخلص فيها باسهاب لا بأس به وببعض الحماسة الى مناقشة مسألة الحاق فلسطين ببريطانيا مجندا . وفلسطين بلد صغير فى حجم ويلز معظمه جبال جرداء وجزء منه لا ماء فيه . وهو يعتقد أننا قد نزرع هذه الرقعة ، التى لا تشجع كثيرا على الزراعة حوالى ثلاثة أو أربعة ملايين من اليهود الأوروبيين ، وأن هذا سيكون له أثر طيب على أولئك الذين سيخلفهم هؤلاء وراءهم .

ان لهذه المذكرة رنة طبعة جديدة من قصة لمانكريد (١) صيغت لكى تلائم روح العصر ، وأنى أعترف أن هذه الاضافة الجديدة المقترحة الى مسئولياتنا لا تستهوينى . ولكن من العجيب حقا أن يرى الانسان هذه الصرخة التى تكاد تكون صرخة غنائية بحتة تصدر عن عقل هـ . ص . الراجح الرزين . انها تجسيد عجيب لعبارة ديزى المأثورة الأثيرة لديه القائلة بأن « الجنس هو كل شىء » .

لقد أصدر المستر اسكويث حكمه على هذه المذكرة بطريقته السوية المتزنة التى هى من صفاته المميزة . وان ملاحظته التى أبداها بقوله « وهو يعتقد أن هذا سيكون له أثر طيب على أولئك الذين سيخلفهم هؤلاء وراءهم» لتبين لنا أنه لم يكن يؤمن بالأثر الشفائى لدواء على شخص لم يوصف له هذا الدواء وانما وصف لابن عمه . بيد أن أهم شىء ورد فى تعليقه هذا هو ذلك الدليل الذى قدمه لنا على أن مشروع صمويل كان يهدف الى توطين

---

(١) تانكريد ، رواية من تاليف دزرائيلى (أو ديزى على حد قول المستر اسكويث) — المعرب .

ثلاثة أو أربعة ملايين من اليهود فى فلسطين (فى نهاية الأمر بلا شك) ٠ ومثل هذه الأعداد بالطبع ستجعل من اقامة الدولة اليهودية أمرا عمليا ٠

ولا يتوفر لدينا أى دليـل على أن أيا من زعماء الصهاينة المعروفين قد تخلى عن فكرة الاقامة العاجلة للدولة اليهودية ، فى ذلك الحين ، من أجل خاطر دولة السيد هربرت صمويل اليهودية الآجلية ، بل الواقع هو أنه يتوفر لدينا دليل على عكس ذلك ٠ لقد ذهب الدكتور وايزمان فى كانون الثانى الى باريس ليجس النبض فى دوائر الحكومة الفرنسية ٠ وقد سجل اللورد بيرتى زيارته هـذه فى الخامس والعشرين من كانون الثانى ، فكتب السفير البريطانى فى مفكرته ٠

لقد زارنى ادمون دى روتشيلد هذا الصـباح ، وبعث الى بعد ذلك واحدا من بنى دينـــه ، وهو روسى تبتت أقدامه فى مانشستر لـ « يتحـدث » معى فيما أعتقـد أنه مشروع مناف للعقل ، وان قالا انه يحظى لتحبيـذ حراى ، ولويد جورج ، وصمويل ، وكريورى ، ولم يذكرا اللورد ريدنج ٠

وهذا المشروع يتطلع الى جعل فلسطين دولة يهودية تحت حماية انجلترا أو فرنســا أو روسيا ، وحمــاية انجلترا هى المفضلة ٠ وهما يقولان ما لا يعتقدان أن أياً من فرنسا أو روسيا ستثير اعتراضات عليه ، وأن صانع هذا المشروع مستعد لترك القوامة على الأماكن المقدسة ، وحتى على القدس القديمة ، الى هيئة دولية ٠٠٠ لسوف يبنون مدينة جديدة بدلا منها فى مكان مجاور لها ٠ ويقول زائرى الروسى ان مثل هذا الحل يجب أن يتم فى بحر المـائة سنة القادمة أو ربما فى بحر الاربعين ٠ وهو يأمل أنى لن أخاله حالمـا ! انه يقول ان اليهود هم وحدهم القادرون على استصلاح فلسطين بالفلاحة المركزة ٠

وما كان للورد برتى ، وهو السفير الذى كان كل همه فى حياته أن يتحدث عن الأمور السياسية بدقيق الألفاظ وموزون العبارات ، أن يكتب أن هناك دولة يهودية ماثلة للأذهان ، ما لم يكن « زائره الروسى » قـد تحدث معه بلا مواربة عن هذه « الدولة ٠ » أما العبارات التى تلت عبارته هذه فهى تذهب الى توكيد هذا أيضا ٠ ان قدسا جديدة ستبنى كعاصمة يهودية ٠ أما المدينةالقديمة فـ«ستترك» ؛ أى سيتنازل الصهاينة عنهـا (من أراضيهم !) لادارة دولية ٠

وهناك حادثة عجيبة ترتبت على هذه النية في بناء قدس جـــديدة كعاصمة للصهيونية ، وتستحق منا أن نقحمها هنا فى غير مكانهـا ، فى السنوات الأخيرة نشط اليهود فى بناء « حديقة صواحيه هم ـ كما كانوا يصفونها بتواضع يخفي من ورائه النية الحقيقية ـ على الجانب المقابل لبيت لحم من مدينة القدس ؛ على سفح تلة عالية أو مرتفع من الأرض ، واستوجب الأمر أن يرسل التخطيط العام لهذا البناء الى حـكومة فلســطين • وكان المستر س• ر• آشبى المعمارى القدير والذائع الصيت مسئولا عن تخطيط المدن آنذاك • واكتشف حين درس هذا التخطيط بناية كبيرة تشـــذ عن القياس فى كبرها وتحتل مكان التاج من القمة ، فسأل المصمم المســتر رتشارد كوفمان معمارى المنظمة الصهيونية ، ويرسم تخطيطاته وفقـاً لمطاليبها طبعا • فكان جوابه الذى نطق به بكل جد الى المستر آشى هو : « Das ist unsur Parliamentsgebäude ». (أى هذا هو مجلس برلماننا) فرأى المندوب السامي ؛ الذى نقل اليه الخبر ، فى هـــذا العـزو عـزوا استفزازيا ؛ أو ربما رآه سابقا لأوانه • وأصدر أمرا نتيجة لذلك فتحولت (دار البرلـــان) الى « متحف الفنون الجميلة » وفى هذا الاســم الجـديد خبث ودهاء لا يخفيان على أريب •

وأعود الآن الى المذكرات والمشروعات التى قدمت فى أوائل عام ١٩١٥ لقد ترك السير هربرت صمويل مذكرته تفعل مفعولها فى عقول متلقيهـــا بعد أن وزعها عليهم • وهو يقول انها « أثارت اهتمـــام مجموعة لا بأس بها بين المؤيدين من الوزراء • » لقد عرف الصهاينة كيف يشنون حملتهم فى انكلترا لدرجة أن أصبح فى امكانهم أن يوجهوا اهتماما أكثر الى البلدان الأخرى ولبرهة من الزمن فعاد الدكتور وايزمان وزميلاه المسيو سوكولف والمسيو تشيلنوف الى باريس دون أن يؤثر فيهما جفاء برتى • وسرعان ما عاد المسيو تشيلنوف الى روسيا « تراوده آمال عريضة » ليقوم هناك بمهمة وكيل الاتصال •

أما وقد عاد وايزمان وسوكولوف الى انكلترا فقد قطعا معظم عام ١٩١٥ فى عمل هادىء ولكنه شاق دائب وفعال • وتســـجل الســـيدة داجريل بسذاجة ساحرة أن « الصهاينة لم يكونوا قد وجدوا طريقهم بعد حتى الى ممرات مكاتب الحكومة » ولكن كتعويض لذلك « كانوا يجتمعون من حين لآخر مع وزراء عديدين فى بيوتهم » •

وتضيف هذه السيدة داجريل شـــيئا الى علمنا عن حالة الســـير ادوارد جراى الذهنية فى ذلك الحين بقولها انه « كان يعطف من كل قلبه

على مثل الصهاينة الأعلى ، لكنه كان يخشى أن يغضب الحكومة الفرنسية ذكر الحماية البريطانية على فلسطين ، وأن يغضب كذلك بعض دوائر الرأى في حزب الأحرار الانكليز • اذ لم يكن من المرجح أن تعرض وزارة حزب الأحرار نفسها لحمل أى تبعة بشأن فلسطين ، ولم تكن فى الوقت نفسه تريد أن تراها فى يدى أى دولة كبيرة أخرى • وربما كانت تحبذ تنظيم كومونويلث يهودى فيها كوحدة سياسية مستقلة • الا أن هذه الآراء لم يجد الاعراب عنها بصورة رسمية وانما اشتمها الصهاينة اشتماما » ولم يكن الصهاينة يفتقرون الى وسائل « للاشتمام » أثناء تلك الدردشات التى كانوا يتبادلونها مع وزرائهم المصطفين فى بيوتهم •

ثم تمضى السيدة داجريل الى القول بأن الصهاينة لم يتركوا أى فرصة تفلت منهم فى التحدث عن أمر هذه الحماية البريطانية والخوض فيها كلما وجدوا الى ذلك سبيلا ، ولا بد أن الدكتور وايزمان قد قدم حجته مكتوبة حين سنحت له احدى هذه الفرص وان كانت السيدة داجريل لا تعين لنا متى وكيف سنحت هذه الفرصة • ولقد كتب فقال :

> اذا كانت بريطانيا العظمى لا تريد لأحد غيرها أن يستحوذ على فلسطين فهذا يعنى أنه يتحتم عليها أن تبقى عينيها عليها وأن توقف أى تسلل اليها تقوم به دولة كبيرة أخرى • وان مثل هذا السبيل سيلزمها من المسئولية تجاه فلسطين مقدار ماتلزمها به حماية بريطانيا عليها ، مع فارق واحد ، وهو ان هذه الرقابة ستكون أقل كفاءة فى المنع من الحماية الفعلية • ولذلك فانى أرى أن هناك ستكون أقل كفاءة فى المنع من الحماية الفعلية • ولذلك فانى أرى أن هناك حلا وسطا يمكن الأخذ به : ألا وهو استيلاء اليهود على هذا البلد • ان عبء التنظيم كله سيقع على عاتقهم بيد أنهم سيطلعون بهذا العمل فى بحر العشر أو الخمس عشرة سنة القادمة فى ظل حماية بريطانية مؤقتة •

وكان هذا التنبؤ غاية فى الدقة ، حدث فى عام ١٩١٥ ، بكل ماحدث فى فلسطين عندئذ وحتى هذا التاريخ • بيد أن الدكتور وايزمان طبعا قد كان دائما فى مركز الاله جوبتر يتدبر ويستبصر الطقس الذى يوشك هو نفسه أن يخلقه •

الا أن جولات وايزمان فى الخارج أو فى لندن ما كان لها أن تكون كثيرة بسبب أعماله فى مانشستر ، ولذا فلا بد أن معظم هذه الفرص التى تحدثت عنها السيدة داجريل قد سنحت فى هذه المدينة عينها • اذ كانت

هذه المانشستر قد تحولت فى ذلك الحين بين وايزمان وسكوت وبين المجندين الجدد الذين انضموا اليهما سريعا الى قاعدة صهيونية معدودة ، فى الواقع • « ان مجموعة كبيرة من الكتاب الصهاينة قد انضوت تحت لواء هذين القائدين • وكان أبرزها الميجر (أى الرائد ــ المعرب) نورمان بنتويش ، الذى أصبح فيما بعد النائب العام لفلسطين • ولم يكن جميع هؤلاء المجندين يعملون فى مانشستر لكنهم كانوا يستمدون وحيهم والهامهم منها • أما بالنسبة للمانشستر جارديان نفسها فقد أصبح الكثير من أسرة تحريرها دعاة نشيطين للقضية • وكان أبرزهم السيدان هارى ساكر وهربرت سايدبوتام • وقد قدر للسيد ساكر وهو محام أن يصبح موثق عقود شركة روتنبرج فى فلسطين ، كما قدر له كذلك أن يشتهر فى دوائر معينة على الأقل باسم « ساكر الى الأبد » لقد سئل وهو يدلى بشهادة أمام احدى اللجان التى جاءت الى فلسطين فى مناسبات كثيرة ، عن الأمد الذى يعتقد أنه ينبغى على الانتداب البريطانى أن يبقى فيها فكان جوابه : « الى الأبد » •

أما السيد سايدبوتام فقد أشرف على عملية تنظيم « لجنة فلسطين البريطانية » ينشر فى المملكة المتحدة من خلالها نظريات الصهاينة • وأسس لهذا الغرض نشرة باسم فلسطين (ذكرناها آنفا) وما تزال الى الآن تصدر ، ويخيل لى أنها توقفت فى حياتها عن الصدور لسنة أو سنتين • ولقد أثبت هذا السيد سايدبوتام أنه أكثر المدافعين عن الصهيونية السياسية تشدقا وأنه أطولهم باعا • وظهر فى عديد من الكتيبات مرتديا ثوب زعامة المدرسة الواقعية المثالية • وتنادى هذه المدرسة بمثالية العودة الى جبل صهيون ، وبمثالية الانتداب ، جنبا الى جنب مع امتلاك مشارف قناة السويس •

وحين كانت الصهيونية تثبت أقدامها على هذا النحو فى مانشستر كانت الأحداث السياسية الكبرى ، التى قدر لها أن تؤثر على مستقبلها بدرجة كبيرة ، تحدث وتأخذ مكانها فى مجريات الأمور • لقد شكل المستر أسكويث وزارة ائتلافية ، وفى آيار أصبح اللورد بلفور ، الذى كان يقف فى صف المعارضة بالرغم من انتمائه الى مجلس الحرب ، الصاحب المدنى الأول للأميرالية (أى وزير البحرية ــ المعرب) • وفى ذلك الحين كان الدكتور وايزمان يجرى تجاربه بنجاح فى انتاج المتفجرات • « وقد وضع بين يدى المستر سكوت ، » هكذا يقول المستر ج• ل• هاموند مترجم سيرة الصحفى الكبير ، « مشروعة لانتاج المواد الكيماوية اللازمة لانتاج الذخائر • فقام سكوت بعدة زيارات الى لندن ليقنع المستر لويد جورج والمستر ماكينا

واللورد بلفور والآخرين بأهمية تجارب وايزمان · ووعـــده المستر لويد جورج في صيف ذلك العام ببحث هذه المســألة حالما يتم الفصل في مسألة التجنيد الاجبارى ·

وهكذا نأجلت الى حين احتمال استدعاء الدكتور وايزمان (دكتوراه الدكتور وايزمان هى دكتوراه فى العلوم) الى لندن حيث نسنح له فرص أكثر انتظاما فى الانصال بأعضــاء الحــكومة · لــكن المســيو سوكولوف والآخرين كانوا ينشطون في الصالونات التى يتربى فيها أعضاء المجتمــع السياسى فى بريطانيا ، ويجعلون منهم شغلهم الشاغل · وكسبوا لهم فيه أتباعا ، وكسب الأتباع أتباعا ، وغدت الصهيونيــة موضوعا لدى أولئــك الأشخاص وتلك الجماعات التى لهـــا وزن فى هذا المجتمــــع وفى بؤرته الاجتماعية · فأصبح المبحث الذى رآه أسكويت مغرقا فى الخيــال كاحدى روايات دزرائيلى ، أصبح عن طريق الاعادة والتكرار غير مغرق فيه الى هذا الحد بالنسبة لرجال الدولة الآخرين · ىم أصبح فكرة ماثلة للعيــان ، ثم سرعان ما أصبح منهجا ممكنا من مناهج السلوك ·

وفى كانون الأول اصطحب سكوت وايزمان ليتغدى معــه على مائدة لويد جورج ولــكى يدرس لويد جورج تجارب وايزمان التى تعالج موضوع تحضير الاستيون لاستعماله فى صنع الكورديت · فتقرر نقل وايزمان الى لندن ليعمل فى مصنع حكومى لانتاج الذخائر شريطة نجاح تجاربه للاختبار النهائى · وحينئذ عاد الى مانشستر الى حين · وكان ذلك فى حوالى الوقت الذى كان مكماهون فيه يكتب من مصر آخر الأوراق فى التعهد باستقلال العرب الذى فتح كتشنر الطريق اليه ·

ونجحت اختبارات تجارب الدكتور وايزمان نجاحا تاما فعـــين فى شباط من عام ١٩١٦ فى الأميرالية ، وأصبـــح اللورد بلفورد رئيســه ، وانصافا للدكتور وايزمان نقول انه لا يبدو أنه قد أدخل جانبه الصهيونى فى وظيفته الجديدة · لكن اللورد بلفور هــو الــذى قام بالمبادرة فى هــذا المضمار · ففى ذات يوم « دخل وايزمان غرفته فى عمل رسمى وحين انتهت المقابلة أقحم بلفور هذا الموضوع الآخر فقال : (أنت تعلم يادكتور وايزمان أنكم قد تنالون قدسكم اذا ما كسب الحلفاء هذه الحرب ،) وطلب اليه أن يأتيه مرة أخرى لأنه يريد أن يبحث معه أمر اليهود الروس والانجليز »· (عن داجريل)

وتقول السيدة داغريل ان بلفور ووايزمان قد اجتمعا فى بحر عام ١٩١٦ « مرة أو مرتين » بيد أن عمل القادة الصهاينة الشاق قد استمر دون

ككل ؛ سواء من خلال بلفور أو من خلال القادة الآخرين ، فى بحر النصف الأول من ذلك العام • ولقد وجه المسيو سوكولوف والدكتور وايزمان جانبا كبيرا من اهتمامهما الى نشر العقيدة الصهيونية بين اليهود والانجليز • ولم يكن هؤلاء الاثنان يعلمان شيئا عن التحالف الذى تم مع العرب فى ذلك العام • وفضـلا على ذلك ، ففى أى يوم من الأيام كان للعرب مـكان فى مخططاتهم ؟

وعلى أى حال فقد كان خليقا برجال الدولة الذين كانوا يتعاملون مع الضالعين من زملائهم مع الصهاينة ، أن يشكل لديهم هذا التحالف الذى استجد فارقا كبيرا • لقد استطاعوا حتى ذلك التاريخ أن يتلهوا بمشروع الصهاينة مضفين على تلاعبهم هذا نوعا من الشرعية • أما اليوم فالحـال يختلف • فلأن يفكروا اليوم فى اقامة دولة صهيونيـة طلب اليهم أن يفكروا فى اقامتها على أرض تعهدنا الآن بتأييد استقلال العرب فهذا أمر لم يعد فيه أى أثر للشرعية ؛ سواء أخلقت هذه الدولة فورا أم بالتدريج ؟ ان ما بدءوا يفعلونه لهو فى لغة الدبلوماسية فعل غير مستحب • أما باللغة الدارجة فهو فعل غير شريف •

بيد أن هناك مهربا يمكن أن يجده ، بصورة عامة ، أولئـك الذين يحبون أن يجدوا مهربا • واليكم الأسلوب المأخوذ به الآن للتنصل من مواثيقنا • لقد تركت الصفة الحقيقية للمطامع الصـهيونية فى حالة من الغموض فاستطاعت الحكومة أن تبدأ فى تبنى هذه الحركة ـ اذ ما جاء شباط الا كانت بعض القطاعات فى هذه الحكومة أو بعض الشخصيات فيها قد غرقت الى أذنيها فيها ـ بحجة أن اعادة توطين اليهود فى فلسطين موضوع يستحق الدراسة فى حد ذاته • وليس ثمة فيه ما يدعو الى تصور هـذا الاستنتاج أو ذاك • وقد ساعدهم فى هذه المواربة والتملص جماعة من اليهود البريطانيين كانت تجعل شغلها الشاغل فى ذلك الحين فى فتح أبواب الفرص أمام الصهيونية • ولم تكن خططهـا فى ذلك الحين ، من حيث صياغتها تطالب باقامة دولة يهودية فى أى وقت من الأوقات ، بل كانت خالية من أى صفة سياسية • وكان هؤلاء الرجال المعتدلون يستشارون ويتعرف على وجهات نظرهم جنبا الى جنب مع السيدين وايزمان وسوكولوف • وبالرغم من أن اقتراحاتهم ما كانت لتقرأ الا لتلقى فى سـلة المهملات فان مجرد حقيقة وجود اتصالات جانبيـة تجرى معهم كانت تضفى على المفاوضات التمهيدية ؛ أو أيا كانت تسمى هذه المفاوضات التى كان القطاع المسئول عنها من الحكومة طرفا فيها ، كانت تضفى عليها جوا من سعـة الأفق الكاذبة المطلوب •

ويخيل الى أن الاستقامة فى العمل كانت تفرض علينا أن نجد قادة الصهاينة بارتباطاتنا مع العرب ، وأن نطلب اليهم أن يكبحوا ويقللوا من غلواء مشروعاتهم طبقا لها • أو كان ينبغى علينا ، ان كان من المستحيل أن نطلعهم على ارتباطاتنا هـــذه ؛ اذ المرجح أنه كان مايزال على الثورة العربية أن تبدأ فى الواقع ، كان ينبغى علينا حينئذ ألا نقوم بأية خطوة نشجع بها هؤلاء الصهاينة فى المضى قدما بمخططاتهم •

ولست أرى أن أحدا من أهل القاعة البيضاء (الهوايتهول) قد كلف نفسه عناء مراعاة هذه الاعتبارات والمشكلة الحقيقيـــة هى الى أى مدى كان الرجل فى القاعة البيضاء يعلم بما يفعله غيره فيها • ويخيل الى أن الوزراء بل وحتى بعض الأفراد فى وزاراتهم ، كانوا يوجهون ؛ فى تلك الفترة من الحرب ، أمور السياسة كل من عنده ودون أن يعلم أحدهم الآخر بها ، أو دون أن يخبر أحدهم الآخر بما يفعل اخبارا كافيا • ويخيل لى أن الحجة التى استخدمت لتبرير هذا المسلك هى أنه لمـا كانت هذه المفاوضات مجرد مفاوضات استكشافية فانها من شئون واختصاص الدوائر الحكومية ، وأنه سيكون هناك وقت كاف لاطلاع الوزراء على كل ما يتعلق بها ، وسيكون هناك وقت كاف ليطلع الوزراء الوزارة على كل ما يتعلق بها حين تجىء لحظة تحويلها فى حد ذاتها الى سياسة قومية !

ولا سبيل الى تفسير ما حدث بغير هذا التفسير • أما أن جميع أعضاء الوزارة ؛ بما فيهم رئيس الوزراء نفسه ، قد كانوا يعلمون علما وافيا الى أى مدى ارتبطنا مع العرب ، فذلك أمر بعيد كل البعد عن كل احتمال • اذ تشير دلائل كثيرة فى الرسائل التى وردت الى القاهرة قبل ابرام هذا التحالف مع العرب ، الى أن هذا الأمر قد عولج بصورة مشوشة فى هذا البلد ودرس بصورة غير وافية • ويقول الكابتن (النقيب ــ المعرب) ــ وهو هنا يستمد معلوماته من لورانس الذى كان فى قلب الأحداث ــ انالمندوب السامى قد أبرق من القاهرة يحذر مكتب الخارجية من « مغبة التقليل من قيمة تطور الحركة العربية المحتمل ، » وألح (وما أكبر دلالة هذا القول) « بضرورة وجود وحدة فى الاشراف على جميع المفاوضات » •

الا أن هذا لم يبدل من الأمر شيئا فى أى حال • واستمر صانعو هذه السياسات يسيرون بها بغير اكتراث • فكان الموقف فى شباط ، من حيث يمكن تحليله ، هو أنه كانت لنا معاهدة حقيقية صحيحة مع العرب و « ترتيب » معلق مع الفرنسيين و « شأن » مع الصهاينة يتطور • وكان هناك من الناس من يعلم ببعض هذا • وربما كانت قلة منهم تعلم به كله ،

وان لم يكن أحد منهم يعلم به بدرجة كبيرة من الوضوح ··· ولقد احتفظ «بالترتيب» الذى تم مع الفرنسيين فى طى الكتمان عن العرب والصهاينة. وأبقيت المعاهدة مع العرب فىنطاق السرية عنالصهاينة. وكان الفرنسيون هم وحدهم الذين تتوافر لديهم معلومات عامة عنها فاحتفظ بضعة موظفين فى الكى دورسيه بها لأنفسهم ليستخدموها فى المساومة اذا ما لزم الأمر . ولم يكن هناك ما يدعو طبعا الى نقل سطر من أى شىء سرى الى الصهاينة لأنه لم تكن لهم صفة فى هذا الأمر . بيد أنه ما دامت لهم علاقة به فلا جدوى من جعل السرية تمتد اليهم .

وما من حاجة بنا الى أن نقول بأنه كان من المفروض أن تكون هناك سرية فى زمن الحرب ، فما من أحد يبلغ به الغباء الى حد مناقشة هذه النقطة . ولكن هناك الفارق ؛ كل الفارق بين ابقاء هذه الارتباطات سراً بالنسبة للعدو وبالنسبة للدول المحايدة وبين ابقائها سرا عن أولئك الذين تمس هذه الارتباطات عينها شئونهم الخصوصية .

وهاهما السير مارك سايكس والمسيو بيكو يتمان الآن ، وبالسرية المناسبة ، ذلك « الترتيب » ؛ كل بالنيابة عن بلده . وها هو السير مارك سايكس يبرح لندن قبل نهاية الشهر الى روسيا ليطلع الحكومة الروسية التى أريد لها أن تكون الطرف الثالث فى هذا « الترتيب » ليطلعها عليه .

وفى آذار ، حملت مذكرات ومحادثات السير هربرت صمويل والسيدين وايزمان وسوكولوف وأصدقاء قضية الصهيونية أولى ثمارها. وكانت هذه الثمرة الأولى مذكرة ترجع فى أصلها على ما يظن الى السير ادوارد جراى . وكبعض الدليل على أهميتها نقول انها ماتزال غير معلومة جيدا هنا فى بريطانيا . انها لم يرد عنها ذكر فى هذه البلاد ، على حد ما يحيط به علمى ، الا من قبل المستر ليونارد شتاين فى كتابه الصهيونية ··· أما فى الولايات المتحدة فقد نشرت السيدة أندروز ، مؤلفة المؤلف المعدود ، الكبير الأهمية ، المزود بالكثير من الوثائق والمسمى ب **فلسطين تحت الانتداب** (١) ، صورة عنها تختلف بعض الاختلاف عن الصورة التى أوردها المستر شتاين .

وقد جرى ارسال هذه الوثيقة الى سفيرنا فى بتروجراد وطلب اليه فيها أن يجس نبض الحكومة الروسية بصدد موقفها من « استعمار اليهود لفلسطين » ولولا الثورة الروسية لما كان لهذه الوثيقة أن ترى النور .

---

(١) نشر فيما بعد فى بريطانيا من قبل السيدين جورج ألن واونوين .

فلقد نشرت الحكومة السوفيتية بعد قيام هذه الثورة عددا من الرسائل السرية من ملفات وزارة الشئون الخارجية الامبراطورية في مجلد عنوانه الروسي « تقسيم تركيا الآسيوية » وظهر في عام ١٩٢٤ ٠

وتاريخ هذه الوثيقة هو الثالث عشر من ذلك الآذار ٠ ويبدو أنها قد أرسلت باللغة الانجليزية الى المسيو سازونوف Sazonoff وزير الخارجية الروسية آنذاك ٠ والرسالة المحفوظة في أرشيفات بتروجراد محفوظة باللغة الانجليزية ، على أقل تقدير ، وان ترجمت الى الروسية من أجل المصنف الذي نشرته السلطات السوفياتية ٠

وتيسيرا للقارىء أقدم الصورة التي أوردها المستر شتاين عن الأصل لأن كتابه المتوسط الذي جاءت فيه أيسر على القارىء المتوسط من كتاب السيدة أندروز الذي يقع في مجلدين ضخمين ٠ انها تسير على هذا النحو :

مذكرة ايضاحية مقدمة من السفارة البريطانية في بتروجرار الى وزير الخارجية المسيو سازونوف ٠٠٠

لقد تلقينا رسالة تلغرافية من السير ادوارد جراي تقول ان حكومة صاحب الجلالة قد جذبت انتباهها مؤخرا مسألة قيام استعمار يهودي في فلسطين ٠ وبالرغم من أن كثيرا من اليهود ، كما هو معروف ، لا يلقون بالا الى الصهيونية فان هناك قطاعا كبيرا من اليهود له أعظم النفوذ في جميع البلدان سيقدر أعظم التقدير الاقتراح الذي يهدف الى الوصول الى اتفاق بصدد فلسطين يرضي الآمال اليهودية ارضاء تاما ٠

واذا كانت وجهة النظر هذه المبينة أعلاه صحيحة فسيكون من الواضح أن هناك نتائج سياسية هامة يمكن الوصول اليها باستغلال هذه الفكرة الصهيونية ٠ وستكون احدى هذه النتائج تحويل العناصر اليهودية في الشرق وفي الولايات المتحدة والأماكن الأخرى ، المعادي موقفها الحالي لقضية الحلفاء الى حد كبير ، الى صف الحلفاء ٠

ولقد عرف المستر لوسيين وولف آمال الصهيونية في فلسطين على النحو التالي : « اذا ما وقعت فلسطين ، كنتيجة من نتائج الحرب ، ضمن نطاق المصالح الفرنسية والبريطانية فلن يكون بعيدا على الحكومتين الفرنسية والبريطانية أن تأخذا في

اعتبارهما مصالح اليهود التاريخية فى هذا البلد · فتؤمن كلتا هاتين الحكومتين للسكان اليهود فيه حقوقا سياسية متساوية مع حقوق السكان الآخرين ، وحرية دينية ومدنية ، وتلك الامتيازات فى مستعمراتهم ومدنهم التى قد تكون ضرورية ، وكذلك التسهيلات المعقولة للاستعمار والهجرة » ·

وليس لدى السير ادوارد جراى أى اعتراض على هذا القول الذى ذكر آنفا بيد أنه قال للمستر وولف بكل بساطة وجوابا على قوله هذا انه لا بد له أن يبحث هذه المسألة مع حكومات الحلفاء وأن حكومة صاحب الجلالة ستنظر الى هذا الأمر بعين العطف والتشجيع ·

وهدف حكومة صاحب الجلالة الوحيد هو تدبير اتفاق يكون جذابا بما فيه الكفاية لأغلبية اليهود لتسهيل عقد صفقة تضمن لنا تأييد اليهود · ويخيل لحكومة صاحب الجلالة ، وهى تضع هذا الاعتبار نصب عينيها ، أنه اذا ما نص هذا المشروع على تمكين اليهود من أن يأخذوا فى أيديهم ، حين تصبح مستعمراتهم من القوة فى فلسطين بحيث تكون قادرة على منافسة السكان العرب ، زمام ادارة الشئون الداخلية لهذه الرقعة من الأرض (باستثناء مدينة القدس والأماكن المقدسة) فسيكون هذا الاتفاق أكثر جاذبية بالنسبة لأغلبية اليهود بكثير · وان حكومة صاحب الجلالة لا تود أن تعبر عن أفضلية هذا الحل أو ذاك من حلول هذه المسألة · الا أنه قد قيل لها ان اقامة حماية دولية على فلسطين ستقابل بالمعارضة من جانب الدوائر اليهودية ذات النفوذ ·

وان السير ادوارد ليأمر ، وهو يرسل كل هذا تلغرافيا ، السير جورج بوشنان أن يحصل من الحكومة الروسية على رأى صريح بصدد هذه المسألة ، وألا يدخر عليه جهدا فى أن يرسل اليه فى أقرب تاريخ ممكن وجهة النظر الروسية بصددها ·

فيالها من وثيقة ! فلا يكاد يكون من المصدق أن وزير الخارجية كان ينهيأ ، فى بحر عشرة أسابيع من تعهده لشريف مكة باستقلال العرب « و بكل معنى من معانى كلمة الاستقلال ،» لتسليم ادارة فلسطين للصهاينة · وان العذر الوحيد ؛ أو بالأحرى ما يشبه العذر ، الذى يمكن أن يبرر به هذا الاقدام على هذا العمل الخسيس ، والذى هو عمليا التفسير له ، يمكن أن يجده الانسان فى ذلك الموقف المنذر بالخطر والنكبة الذى

كانت تعيش فيه البلاد آنذاك وما ترتب عليه من اختلال حال الوزارة • لقد كانت مائة وخمسون ألف طن من حمولات البواخر تغرق لنا فى كل شهر بفعل غواصات العدو • وكان الأتراك فى موقف المنتصر فىجاليبولى• وكانت الحرب فى ذلك الحين تكلفنا مبلغا يصل الى ستة ملايين من الجنيهات يوميا ، وكان يبدو لنا ألا سبيل الى الخلاص منها ؛ ناهيك عن خروج ظافر منها • وكانت الوزارة نفسها ذاهلة موزعة اللب تفتقر الى الثقة وتحتضر • فبدأ التفكك فى أجهزة الدولة وفى نطاق الرجال الذين كان من واجبهم أن يحفظوا عليها تماسكها •

وقد شهد اللورد كيرزون ، بعد ذلك بسنتين ، فى معرض حديثه عن توجيه أمور البلاد فى تلك الفترة التى هى موضوع البحث الآن ، بأن نظام الوزارة القديم « كان شيئا يستحيل العمل به فى زمن الحرب كل الاستحالة » وبأن « اجتماعات الوزارة كانت فى معظمها غير دورية فلم يكن هناك جدول للأعمال ولا تنظيم للعمل ، وان أى شيء مسجل عما كان يدور فى الجلسات لم يحفظ اليهم الا ذلك الكتاب الخاص الذى كتبه رئيس الوزارة الى الملك والذى لم يطلع أحد على محتوياته • وكثيرا ما كان لدى الوزارة أكثر الأفكار غموضا والتباسا بصدد ما يتعلق بماهية قراراتها • لقد كانت دائمة غارقة فى العمل • » لقد كان هناك أربعة وعشرون وزيرا• وتلك حالة حدت بالمستر لويد جورج الى أن يعلق قائلا : « انك لا تستطيع أن تدير دفة الحرب بسنهيدريم (١) »

وليس هناك شك فى أن هذه المذكرة التى جرى ارسالها الىبتروجراد قد خرجت من هذه الطامة والفوضى ومن مثل هذا الافتقار الى امتلاك نواصى الامور • لقد تسللت تسللا من زحمة هذه الفوضى • ومع ذلك فهى أمر لا يغتفر حتى وان وجدنا فى الظروف التى اكتنفت ظهورها مبررا • وسرعان ما يبرز أمام الذهن هذا السؤال : من الذى كتبها ؟ ومن هو المسئول عنها ؟ ومن ذا الذى كان على علم بمحتوياتها قبل ارسالها الى الروسيا ؟

أهو اللورد كتشنر الذى كان المحرك الاول للتقرب الى العرب ؟ ان هذا أمر لا يصدق اذا اعتمدنا على هذا الزعم وحده • لان علاقاته مع أعضاء الوزارة الآخرين كانت تزداد فى ذلك الحين تجافيا وانعزالا وباضطراد • انه لم يكن يوليهم كثيرا من الثقة • ولقد كتب ف•س• اوليفر ذلك المراقب الذى كان فى معمعة الاحداث ، كتب عن هذه الحكومة فقال انها كانت فيما

---

(١) مجلس الامة اليهودى قديما — المترجم .

يشبه الغسق بصدد العمليات العســكرية • واذا كانت بصدد حملة الفلاندرز فيما يشبه الغسق ، ففى أى ليل مدلهم لابد أنها كانت بصدد العمليات والافعال والتعهدات التى قمنا بهـا وقطعناها للحجاز ؟ أما من الناحية الأخرى فى الوقت ذاته ، وكرد فعل طبيعى فان أعضاء الوزارة الذين كانوا يقاسون المر من صمت كتشنر لم يطلعوه على خططهم • فهل أخبر بمذكرة بتروغراد فى أى يوم من الايام ؟ بل وهل درست فى أى يوم من الايام على نطاق الوزارة فى أى اجتماع من اجتماعاتها أو فى أى لقاء حكومى كان فيه من الحـــاضرين ؟ ان كل الدلائل تشير الى أن الأمر لم يكن كذلك ، والى أن هذه المذكرة لم تدرس على نطاق واسع فى أى من هذه الاجتماعات قط •

وهل رآها رئيس الوزراء نفسه ؟ لقد تحدث المستر أسكويث عن مقترحات الصـــهاينة حين قدمت اليه لأول مرة فى مذكرة السير هربرت صمويل بازدراء شديد • ولم يغير رأيه أبدا فيهـا • ونعتها فى مجلس العموم بعد ذلك بست سنوات بأنها ماتزال : « بئر سلم من الفرضيات الهشة الهزيلة المتعثرة اللجوج » ، مضيفا أن من الافتراضات المبالغ فيها أيما مبالغة الزعم بأن « اليهود سيعيشون جنبا الى جنب مع العرب بفعل ادارة عادلة حكيمة وعن طريق التغلغل السلمى وبالوسائل الاخرى » •

وكتب فى عام ١٩٢٤ وهو على أرض فلسطين ذاتها وهو يحل ضيفا على السير هربرت صمويل الذى كان قد أصبح آنذاك مندوبا ساميا عليها، كتب حين كان يظن فيه انه سيتحول الىجانب الصهاينة ؛ انكان سيتحول فى يوم ما من أيام عمره الى جانبهم ؛ كتب بدلا من ذلك فقال : «ان الحديث عن تحويل فلسطين الى وطن قومى لليهـــود ليبدو لى حديثا مغرقا فى الخيال ، كما قد بدا لى دائما » • فهل يعقل فى رجل من خلق هذا الرجل أن يغرى الروس على الاشتراك والمساهمة فى شىء يراه خياليا ؟ وهل كان أسكويث بالرجل الذى يقترح على انسان غيره سياسة لا يؤمن بهـا هو نفسه ؟

لا • ان الاســتنتاج الوحيد هو أن المذكرة لم تعرض عليه قبل أن ترسل ، أو أنها على الاقل ، لم تعرض عليه بصورة وافية ، فجهل ماكان يدور حوله •

أما بخصوص وعودنا وعهودنا التى قطعناها للعرب فلست أعتقد أنه قد أطلع عليها بصورة وافية أيضا ؛ ان كان قد اطلع عليها ! وقـد ذهبت أنا نفسى لألقاه فى مجلس العموم بهذا الخصوص غداة عودتى من فلسطين

فى عام ١٩٢٣ · وكانت دار كارميلايت قد أخرجت لتوها مجموعة مقالاتى التى كتبتها فى الديلى ميل فى شكل كتيب أوردت فيه الاجزاء الاساسية من معاهدة الحسين ومكماهون · وكانت هذه هى المرة الاولى التى تكشف فيها هذه الاشياء للرأى العام · لقد زرت المستر أسكويث ، وقد أصبح خارج كرسى رئاسة الوزارة الآن ؛ زرته خصيصا لكى أرجوه أن يفحص هذه الأوراق لكى يتسنى له أن يقول لى رأيه عن مدى متانة هذه التعهدات التى تلزمنا بتأييد استقلال العرب فى فلسطين ·

وكان كل موقفه فى هذه المقابلة هو موقف المستخبر · والحقيقة هى أن هذه المقابلة التى تمت بيننا قد توسط فيها صديق لكلينا نحن الاثنين وقبلها المستر أسكويث على أساس اشباع اهتمامه بهذه الوثائق التى كشف النقاب عنها · ولو أن اسكويث كان يعلم بها لما كان لمقابلتنا أى معنى · وحين قلت له : «أريد ياسيدى بصفة خاصة أن أريك خلاصات هذه الأوراق وانى لعلى يقين من أنها ستدهشك ، » لم يقل لى انه يعرفها · ولم يقل لى انه قد بحثها حين كان فى السلطة ولكن نسيها ، أو قال انه تصفحها تصفحا وحسب · لقد تصرف تصرف من لم يكن له بها علم على الاطلاق ، ومن أى نوع · لقد قال : « لم لا ؟ دعنى أراها » · تم قال بعد ذلك : « اترك لى هذه لسوف أقرأها حرفا حرفا ·· لسوف أقرؤها وأتمعن فيها من ألفها الى يائها » · وأنا لم أكن أجرى معه «تحقيقا صحفيا» بالمعنى الفنى لهذه الكلمة لأن رجال الدولة فى مثل هذه التحقيقات غالبا ما يتخذون جانب الدفاع ويظهرون فى بعض الاحيان جهلا كاذبا · وانما كانت هذه مقابلة شخصية لم يعلم عنها أحد حتى هذا اليوم الا الثلاثة الذين اشتركوا فيها · وكان أثناءها على تمام سجيته وعلى غير غموض وان لم يقل الا القليل من الكلام لأن الأمر كله قد رتب على نحو يسمح لى بأن أشرح له ما أرى أكثر من أن يقول هو لى شيئا ·

الا أن الغموض لا يتوقف عند أسكويث ولا عند اللورد كتشنر ، على أى حال · ان مذكرة بتروجراد التى تخل بالتزاماتنا نحو العرب لا تتفق حتى مع شخصية الرجل الذى أرسلت باسمه · فهل كان اللورد جراى ضحية أخرى من ضحايا السرية فى دوائر الحكومة البريطانية ؟ وهل درس فى يوم من الايام ، وقبل أن يضع توقيعه على هذه المذكرة ، أوراق التحالف العربى الانجليزى الأصلية بامعان ؟ لقد كان فى ذلك الحين ينوء كاهله تحت عبء ساحق من العمل الزاخر ، وحين كان اتجاهه السائد هو طلب الخطوط العامة فقط لجميع الوثائق التى تعرض عليه ما عدا المهمة منها أهمية قصوى · وتقرير أى من هذه الوثائق هام فهو فى يد الموظفين

الكبار الدائميين وخاصة ما يتعلق منها بالقطاعات التى تقع على أطراف الميدان المترامى الجنبات للشئون الخارجية فى زمن الحرب . وقد يكون سكرتير الخارجية قد سمع شيئا ، وبصورة مقتضبة فقط ، عن بعض التقارير المتعلقة بالتفاهم مع الحجاز ، فى ضوضاء الصراع الناشب فى الجبهة الغربية .

والحقيقة هى أنه يبدو من الاسراف فى الخيال أن يفترض الانسان من الوهلة الأولى أن سكرتير الخارجية قد ظل دون اطلاع على هذا الأمر الذى تقع مسئوليته على عاتق حكومته ، أو أنه اطلع عليه بصورة غير كافية . ومع ذلك فان كلماته ، التى قالها هو بنفسه حين طرحت هذه المسألة للمناقشة فى مجلس اللوردات ، قبيل نهاية الشهر التالى وهو شهر آذار ، تؤكد صحة هذا الافتراض . ولقد فتحت هذه المناقشة بمبادرة من اللورد آيلنفتن Islington أكثر المناضلين شجاعة وشهامة ودأبا وذكاء من أجل انصاف العرب منذ أن بدأت هذه المشكلة . ولقد استشهد بمقتطفاتى من وثائق الحسين ومكماهون وبين بأجلى الوضوح الى أى مدى مشغولة ذمتنا بها ومقيدون نحن بها . وقد انتظر المجلس كلمة اللورد جراى بكل اهتمام لا يمكن أن يتصوره انسان . اذ كان هو الوزير المسئول فى ذلك الحين الذى جرى فيه قطع هذه المواثيق . وأيا ما كان لدى اللوردجراى من كلام فقد توقع المجلس أن يكون مساهمته فى هذه المناقشة فصل الخطاب .

ومع ذلك فقد كانت هذه الصفة الوحيدة التى افتقرت اليها كلمته . لقد قال انه لا ينوى أن يخوض فى التفاصيل حول النقاط التى أثارها اللورد آيلنغتن واللورد سايدنهام (وقد تحدث اللورد سايدنهام على أسس شبيهة بأسس اللورد آيلنغتن) . والتفصيل هو ذلك الشىء بعينه الذى كان المجلس ينتظره طبعا . بيد أنه سرعان ما اتضح للمجلس أنه لا يستطيع أن يقدمه له . لقد تحدث بطريقته المعهودة فيه الصادقة المهذبة ولكن بدا عليه أن لاالمام لديه . فكان كثير اللف والدوران والغموض بصدد الحقائق . وقال ان الاتفاقات السرية أمر لا غنى عنه أثناء الحرب . ولو أن جميع ارتباطاتنا التى ارتبطنا بها فى زمن الحرب ينظر اليها ككل واحد فسنجد بينها حتما ما أسماه ب « التناقضات » ، فقال « انى أعتقد أن من المحتمل كل الاحتمال أن توجد فيها تناقضات» .. وقال انه لا يعتقد أن أيا منها يعود الى فترة توليه كراسى الوزارة . ولكنه لم يكن يعلم . واعترف أنه لم « يراجع ذاكرته ليستعيد بها » ما هى تلك الاتفاقات السرية التى عقدت فى تلك الفترة . (والحقيقة الجديرة بالملاحظة كل الجدارة هى

أنه بعد أن راجع ذاكرته فيما بعد لم يحاول أبدا أن يبحث عن مناسبة لينكر فيها التزاماتنا فى فلسطين نحو العرب ؟ •

ولقد طالب فعلا فى كلمته هذه التى القاها فى مجلس اللوردات بأن تقدم اليه معلومات ؛ طالب بوجوب أن تقوم الحكومة بنشر جميع هذه الأوراق لكى تنظف شرفنا • وقال ان أصول نصوص هذه الارتباطات تأخذ طريقها الى الناس « عن طريق مصادر أخرى » • واتفق مع أعضاء المجلس على أن مركزنا صعب ، على حد ما وصفه به فقال : « انه موقف صعب حين يقارن (تصريح بلفور) بالعهود التى قطعنا للعرب دون شك » •

ولقد تحدث اللورد جراى ، وهو يدلى بهذا الاعتراف ، وكأنه غريب عالى الجبين تكشف هذه العهود له لأول مرة وكأنها أمر جديد • فكيف يكون ممكنا فى هذه الظروف الافتراض بأنه قد دبج بقلمه مذكرة بتروجراد هذه مع علمه الكامل بالمعاهدة الانجليزية العربية ؟ فهل حقا هو الذى دبجها بنفسه ؟

وهذا يجعلنا نعير اهتماما أكبر الى هذه المذكرة ، ويجعلنا نعلق أهمية كبرى على تحليل هذه المذكرة •• هذه الخطوة فى الطريق الذى أدى الى تدنيس شرف التزامات بريطانيا العظمى • وانى أسأل القارىء بدورى أن يراجع نصها تبعا لذلك •

ان هناك فقرة واحدة لا غبار عليها ألا وهى مقولة المستر لوسيين وولف الممتازة • وليس فى هذه المذكرة شىء آخر يمكن أن يطرى • كما أن هناك عبارتين تلفتان النظر بصورة خاصة • وأولاهما هى عبارة : « اتفاق بصدد فلسطين يرضى الآمال اليهودية ارضاء تاما » • أما ثانيتهما فهى عبارة صيغت بصورة خرقاء وتقول : « اذا ما نص هذا المشروع على تمكين اليهود من أن يأخذوا فى أيديهم — حين تصبح مستعمراتهم من القوة فى فلسطين بحيث تكون قادرة على منافسة السكان العرب — زمام ادارة الشئون الداخلية لهذه الرقعة من الارض فسيكون هذا الاتفاق أكثر جاذبية بالنسبة لأغلبية اليهود بكثير» فاللغة الانجليزية فى هذه العبارة مضعضعة وغير أصلية (١) ان كلمة for يجب أن تقرأ مع كلمة enabling • وكلمة

---

(١) « if the scheme provided for enabling the Jews, when their colonies in Palestine are sufficiently strong to be able to complete with the Arab population, to take in hand the administration of the internal affairs of the region, then the agreement would be much more attractive for the majority of Jews. »

provided ليست هنا اسم مفعول وانما هي ماض بسيط · وهي تعني: « اذا ما جعل هــذا المشروع من الممكن بالنسبة لليهــود ، حين ···الخ » وليس : «اذا ما نص ···الخ» ·

ولست أعتقد أن سكرتير الخارجية هو الذى صاغ هذه التركيبة ، وان كان الظاهر أنها من تأليفه · ان كل ما فيها يشير الى أنها قد أخذت من أحد النصوص الصهيونية الخاصة غير المعترف بهــا وأدخلت فى هذه المذكرة بحالها · كما تشير الى أنها لم تكتب أول ما كتبت بالانجليزية · ثم ان الاشارة التى جاءت بعد هذه التركيبة تذهب الى تأكيد أن هذا هو ما حدث فعلا · فهي تقول ان : «حكومة صاحب الجلالة لا تود أن تعبر عن أفضلية هذا الحل أو ذاك من حلول هــذه المسألة » · والواضح هو أن هذا المدبج الأخير أو المدبجون الآخرون لهذه الرسالة غريبون بالنسبة لهذه التركيبة فى حد ذاتها ·

والشيء نفسه يمكن أن يقال بصدد التركيبة السابقة : « اتفاق بصدد فلسطين يرضى الآمال اليهودية ارضاء تاما » · فبصددها يضع المدبج أو المدبجون هذه الملاحظة : «اذا كانت وجهة النظر المبنية أعلاه صحيحة» · انه أو انهم هنا ينقلون حرفيا ·

وهناك فى هذه المذكرة التــواءات أخرى يكاد يستحيل عزوها الى سكرتير الخارجية · ان كلمات : « قطاعا كثير العدد وله أعظم النفوذ » من اليهود ، والتى أعتقد أنها من تأليف القاعة البيضاء (الهوايتهول) ، تختفى بعد نطقها مباشرة ويوضع فى مكانها قبيل خاتمة الرسالة تعبير مغاير كل المغايرة هو « أغلبية اليهود » ، ان من الصعب على المرء أن يقدم مطالب ، لا تقدمها الا الامم ، باسم قطاع من الناس ؛ مهما كان هذا القطاع كبيرا وذا نفوذ · أما باسم أغلبية اليهود فيمكن أن يقدم هذا المطلب (أيا كانت قيمته) وبدون الاساءة الى علم الرياضيات · ومن ثم فقد أفسح المجال فى سياق الرسالة لاستبدال كلمات : «قطاعا كثير العدد وله أعظم النفوذ «من اليهود» بكلمتى «أغلبية اليهود» ، أن يتم · وكان هــذا الاستبدال عملا غاية فى الدقة والمهارة ·

وربما كان أسوأ شيء فى هذه المذكرة هو الطريقة التى تدحر بها جانبا مثل المستر لوسيين وولف العليا فى الاستعمار الصهيونى فى فلسطين لصالح مخططات الصهاينة السياسيين · وكان المستر لوسيين وولف فى

---

(١) « If the scheme made it possible for the Jews, when their colonies, etc. »

تلك الحقبة من الزمن رجلا شهيرا الى أبعد الحدود ، وناشرا قديرا وله باع طويل فى الشـــئون الخارجية • وكان المتحدث الرســـمى باسم بعض المؤسسات الكبرى فى عالم اليهود البريطانيين كالجمعية الانجلو يهودية، ولجنة نواب اليهود البريطانيين ، التى قدر له فى الواقـع أن يمثلها بعد أربع سنوات فى مؤتمر الصلح • ولهذا فقد كان هـذا التعريف للآمال اليهودية فى فلسطين الذى قدمه الى مكتب الخارجية ـ وبنـاء على طلب هذا المكتب ـ تعريفا يزكى نفسه من نفسه لدى الهيئات الممثلة لليهود فى هذا البلد (بريطانيا ـ المغرب) • وكان يمكن له ، على ما أعتقد ، أن يزكى نفسه لعرب فلسطين لو أنهم علموا به • انه لا يتضمن أية ادعاءات بالملكية كاذبة ولا أية مطالب أو امتيازات لا مثيل لها فى التـــاريخ • لقد طالب المستر لوسيين دولف ومن يتحدث باسمهم من اليهود بأن تكون لمستعمريهم «حقوق سياسية مساوية لحقوق السكان الآخرين» و «حرية دينية ومدنية» و «تسهيلات معقولة للاستعمار» وحسب • لقد طالبوا بالاختصار بأن يقوم المستعمرون اليهود بتأهيل أنفسهم لنيل حقوق البشر الطبيعية فى فلسطين وبأن تمنح لهم هذه الحقوق بالتالى •

ومن هنا ، من هذا الاستشهاد بمقـولة المستر وولف أو بخطته ، نعلم أن الحكومة البريطانية قد واتتها فرصة فى ربيع عام ١٩١٦ • لقد قدم اليها مشروع يحظى بتأييد المراجع اليهودية المعتمدة ، ونتاج لعقول يهودية ، ويتفق والتزاماتنا التى كنا قد قطعناها للعرب لتونا • وكانت مزايا هذا المشروع من الحسن بحيث لا يكون فى الامكان اغفاله • بيد أن كل ما فعله سكرتير الخارجية أو كل ما فعله ذلك الرجل أو أولئك الرجال المسئولون عن كتابة هذه المذكرة التى أرسلت باسم سكرتير الخارجية ، هو أن يذكروه ، وأن يقولوا بلا اكتراث انهم «لا اعتراض لديهم عليه» ثم يسقطوه من حسابهم الى الأبد •

ان الفرصة فى انتهـاج ســـياسة ليس من شأنها أن تخلق مشكلة اسمها «مشكلة فلسطين» ، ولا عداوة مع المسلمين ، ولا القاء بالمسيحيين فى اليم لتخفيف حمولة السفينة خشية الغرق ؛ سياسة تحمل فى طياتها برنامجا شريفا لليهود ، ان هذه الفرصة لم تفلت منا وانما تجنبناها عن عمـد وادراك • ولكن القـــاعة البيضـــاء كانت واقعة آنذاك فى أحابيل مشروعات الصهاينة السياسيين التعســـفية المدمرة • وان بعض كلمات للسيدة داغديل فى هذا المقام تستحق منا أن نوردها هنا • انها تقول : « فى ربيع عام ١٩١٦ بدأ الصهاينة (أى الصهاينة السياسيون من أمثال السيدين وايزمان وسوكولوف) يعقدون لهم صـلات بالادارات الحكومية

الكبرى ، التى يحتاجون الى كسب ودها احتياجهم الى عطف الوزراء ، على الأقل ، حين تحين حقا تلك اللحظة التى يزجون فيها بأنفسهم فى معترك سياسات الدول المتحالفة • وكان متحدثون بلسان هيئات معينة من هيئات اليهود غير الصهاينة» (أى «الصهاينة» الحقيقيين الذين كانوا يتطلعون الى صهيون روحى) « قد ذهبوا معهم سلفا الى مكتب الخارجية وألقوا بكل ثقلهم فى المشروعات الاخرى التى كانت توضع لمساعدة اليهود فى الامبراطورية الروسية وفى غيرها من الدول • وتوصلوا الى فرض نظرية على مكتب الخارجية لسياسة فلسطينية لا تعترف بشىء أكثر من «الاهتمام التاريخى» الذى يبديه «معشرهم» نحو ذلك البلد • وان كلمة « الجنس » لم تستخدم فى هذه النظرية » •

ثم تتابع قولها فتقول : «وظل الصهاينة لبعض الوقت يجهلون وجود هذه النظرية بعد تقديمها الى مكتب الخارجية • وربما كان المعادون للصهيونية لايعلمون حق العلم ذلك الاهتمام الذى كان يوليه بعض الوزراء للصهيونية» ولقد صيغت هذه الحقيقة الاخيرة صياغة لبقة ، بيد أن القارىء سيدرك أى نوع من المواقف هذا الموقف الذى ترجع بالاشارة اليه •

وان هذا «الاهتمام بالصهيونية» المشار اليه لتوضحه الجمل التالية التى جاءت فى مذكرة بتروغراد • اذ تمضى المذكرة ، بعد أن تعلن أن ليس لدى سكرتير الخارجية أى اعتراض على مشروع المستر وولف ، لتعرض مشروعا مختلفا عنه كل الاختلاف وسيحظى بالتأييد كما هو واضح منه كل الوضوح • وما من حاجة بنا الى القول ان هذا المشروع لم يفصل بكلمات كثيرة • وان التنصلات لتصاحب الفقرات التى أوضح فيها تفضيل الحكومة لهذا الحل بمنتهى الوضوح • ان هذه المذكرة لتضج بهذه التنصلات ضجيج غرفة التحقيق فى مخفر الشرطة • ولكن كلما أمعنت الحكومة فى انكارها لتفضيل أى رجل بعينه دللت على تفضيلها لهذا الحل الخاص الذى سيكون « جذابا بالنسبة لأغلبية اليهود » •

انها تقول ، فيما يمكن لى أن أسميها «بعبارة الخيانة» فى هذه المذكرة ان مشروعا سيتمكن المهاجرون الصهاينة بمقتضاه من التزايد فى العدد فى فلسطين بحيث يصبحون أندادا للعرب فيمنحون حينئذ سلطات الحكومة ، سيكون حقا مشروعا «أكثر جاذبية بالنسبة لأغلبية اليهود بكثير» • كما تقول فى الوقت عينه بكل وضوح ان «الهدف الوحيد لحكومة صاحب الجلالة هو تدبير اتفاق يكون جذابا بما فيه الكفاية بالنسبة لأغلبية اليهود » • فاذا كان هذا لا يبين ، وبلمسة ضرورية من التحايل والخداع اللفظى لا

اقل ولا أكثر ، أن الحكومة ترغب فعلا فى تبنى المشروع المذكور فعندئذ لا يكون لأى من الاقوال أو العبارات قاطبة أى معنى على الاطلاق •

لقد وضع المستر وولف المسكين أهـل فلسطين فى اعتبـــاره بكل شـــهامة • أما فى هذه العبارة الخائنة من مذكرة مكتب الخارجية فان الاشـــارة الوحيدة التى جاءت عنهم لتقبع فى ذلك الترتيب الذى أعد لكبتهم • ولن يكون لهم حتى أن يحظوا بالعزاء من حماية دولية تنصب عليهم لأن هذه الحماية ستقابل بالمعارضة من جانب « الدوائر اليهودية ذات النفوذ » ولا بد وأن هذه الدوائر اليهودية ذات النفوذ قد كانت جماعة وايزمان سوكولوف وأصدقائهم ! ولقد كانت فكرة هذه الحماية الدولية ماثلة للاذهان ونوقشت معهم كاقتراح منفصـل بالرغم من أن اتفـــاقية سايكس وبيكو لم يقدر لها أن تبرم الا بعد ســـتة أســـابيع أخرى أو نحوها • ولم تكن هذه الجماعة تعلم بها • ولقد عارضها زعماء الصهاينة منذ البداية خشية أن يحكم نفوذ الكنيستين اللاتينية والاورثوذوكسية ، الذى سيقوم بالتعبير عنه ممثلو البلاد التى تدين بالولاء لكل منهمـــا ، على مخططاتهم بالفشل والبوار •

وهناك نقطة أخرى ينبغى علينا أن نذكرها هنا ، ألا وهى أن عبارة الخيانة هذه تختلف فى صورتى المذكرة اللتين نشرتا • ان هناك ، كما سبق لى واسلفت القول ، اختلافات عدة بين الصورة التى أوردها المستر شتاين والصورة التى وردتها السيدة اندروز• بيد انه ليس بينها اختلاف يستحق الذكر الا هذا الاختلاف • فهنا ، وحيث تتـحدث صورة المستر شتاين عن مشروع لـ « تمكين اليهود من أن يأخذوا فى أيديهم ، حين تصبح مستعمراتهم فى فلسطين من القوة بحيث تكون قادرة على منافسة السكان العرب ، زمام ادارة الشئون الداخلية لهذه الرقعة من الارض» ، تتحدث صورة السيدة أندروز عن « مشروع (*) يعطى لليهود ، حين يبلغ مستعروهم فى فلسطين مركزا يمكنهم من منافسة العرب فى القوة ، وادارة شئونهم الداخلية فى ذلك البلد » •

ان صورة المستر شتاين تفترض قيام هيمنة يهودية على الشـــئون الداخلية ؛ تفترض تعيين وزير يهودى للداخلية • أما صورة الســـيدة اندروز فتفترض قيام حكم ذاتى صهيونى فى المناطق الصهيونية • ولكى

(*) هى كلمة Project suggestion فى حين ان الكلمة التى جاءت فى نص المستر شتاين مكانها ـ المعرب •

أحل هذا التباين تقدمت الى السلطات السوفييتية بطلب نسخة من النص الأصلي لهذه المذكرة ، واستفهمت فيه في الوقت عينه عما اذا كان هذا الأصل مكتوبا حقا بالانجليزية · وكانت هذه السلطات كريمة معي ومرحبة بطلبي وأكدت لي أنه مكتوب فعلا بالانجليزية · بل قد قالت في البداية انها ستحاول أن تزودني بصورة مصورة منه · ان صورتي شتاين واندروز ترجمتان من أصول أجنبية الى اللغة الانجليزية ·

وحدث قدر معين من الابطاء تسلمت بعده النص ، ليس بالانجليزية، ولكن صورة عن النسخة الروسية الرسمية · ثم تلا ذلك رجاء لم يلب بارسال الأصل الانجليزي ، ولكن برجاء أن أذكر أي فقرات معينة أحب أن أعرف نصها الانجليزي · وكان هذا خيبة أمل بالنسبة لي الى حد ما · لكني فعلت كما طلب الي لأن فحص النسخة الروسية الرسمية ، وهي في حد ذاتها ترجمة ، لم يأت بنتيجة · وفي الجواب الذي تلقيته جاءت النبذة الوحيدة التي تحتوي على النص الانجليزي للفقرات التي ذكرتها والتي تستدعي الملاحظة ؛ جاءت في نهاية الجملة الخطيرة · وفحوى هذه الجملة هو أن بريطانيا العظمى ترغب في أن تجد ترتيبا يمكن اليهود حين يصبحون من القوة بحيث ينافسون العرب من «أن يأخذوا في أيديهم ادارة الشئون الداخلية لهذا اللواء » ·

ولذلك فان فلسطين قد وصفت في هذه المذكرة التي أرسلت الى المسيو سازونوف من لدن السير جورج بوشناف بالنيابة عن السير ادوارد جراي ، بأنها لواء · وأن اليهود ستكون لهم ادارة شئونه الداخلية (وهذا يطابق صورة المستر شتاين) حين يكون تعدادهم في فلسطين من الكبر بحيث ينافسون عربها · لقد قصد لفلسطين بموجب هذه الخطة أن تسلم للحكم الصهيوني دون ما تفكير في أهلها العرب الا بمدى السرعة التي يتم بها التفوق عليهم في العدد ، أو التي يمكن بها تقليلهم الى حد التساوي مع اليهود · أما حق العرب الطبيعي في أرضهم ، والارتباط الذي ارتبطنا به لتونا بمنحهم استقلالهم اذا حاربوا في صفنا فقد أغضي عنهما الطرف، على حد سواء ·

ويكفينا هذا القدر عن هذه الوثيقة المخزية ؛ يكفينا هذا القدر عن باكورة مجموعة هذه الوثائق التي التحمت فيها السياسية البريطانية بأهداف الصهيونية السياسية ، وتحالفتا معا · وينعكس هذا التحالف في هذا الأصل المركب المشبص ، الذي يبين تركيبه وتشبيصه بمنتهى

الوضوح والجلاء ، والذى جاز على البعض على أنه صوت وزير الخارجية وحده ٠

وليس هناك الا دفاع واحد ؛ أو ما يشبه الدفاع ، يمكن أن يقدم لصالح هذه المذكرة ، ان كان هناك من يود الدفاع عنها ٠ اننا نجد فى مكان منها صراحتها الخاصة بها ٠ لقد أوضحت فيها على الأقل الاسباب الداعية الى تبنى قضية الصهيونية السياسية ، بدون مصانعة أو نفاق ٠

ان هذه الرسالة لم يقصد لها أن تصل الى الرأى العام طبعا، ولذلك أمكن الاستغناء عن النفاق بلا شك ٠ ان الحكومة لا تشير الى شىء فيها الا الفرصة الاساسية وتقترح الاعتراف بالمشروعات الصهيونية كصفقة سياسية تجارية : لك نصف بنس ولى بنس ٠ ومثل هذه المساومات هو فى الواقع بضاعة التحالف الشائعة ٠ ولقد كان التحالف مع العرب أيضا مسألة هات وخذ ٠ ولكن لما كان جميع أولئك الذين فرضوا على بريطانيا معاضدة هذا النمط التعسفى من أنماط الصهيونية قد صوروه للأمة على الدوام على أنه عمل ناصع البياض وله هالة من المقاصد المنزهة عن كل غرض ، فان من المريح جدا للنفس والمرضى للضمير أن نكشف حقيقته ونعريها بمثل هذه الالفاظ الذى يستخدمها رجال الاعمال ك «استغلال» الفكرة الصهيونية و « احراز نتائج سياسية هامة » ٠

أما الطريقة التى أريد بها تحقيق هذه النتائج فهى مثيرة جدا للاهتمام ٠ لقد كانت روسيا حليفا تعسا فى ذلك الحين ، بمعنى أن سوء معاملتها لرعاياها اليهود قد جلب عليها سخط اليهود فى جميع أنحاء العالم ٠ وكانت أعمال العنف التى تمت فى هذا البلد ضدهم فى السنوات الاولى من الحرب ، والتى لم يكشف النقاب عنها هنا فى بريطانيا العظمى ولكن نشرت فى الولايات المتحدة ، قد عمقت من عداء اليهود لهذا البلد ٠ فجعلهم هذا العداء يتصرفون ببرود تجاه قضية رفاق روسيا فى السلاح٠ بل كان موقفهم تجاه قضية الحلفاء معاديا الى حد كبير فى الواقع ، كما تعترف بذلك مذكرة بتروجراد ٠ واذا ما تزوجت حكومة بريطانيا العظمى من الصهيونية السياسية فقد تضع حدا لهذا العداء ٠ ولقد تعهد قادة الصهاينة فى انكلترا فى ذلك الحين وما تلاه بأن ينتهى ٠ وقدموا ضمانا خاصا بذلك الى الولايات المتحدة ٠

لقدكانوا يعرفون ماالذى يريدون ٠ وبعد حوالى اسبوعين من ارسال مذكرة جراى الى سازونوف عقد فى فيلادلفيا اجتماع للمنظمات اليهودية فى جميع أنحاء البلاد ٠ وكان السيد القاضى برانديز Brandeis الصديق

المقرب للرئيس ويلسون ومستشاره ، أحد الذين خطبوا فى هذا الاجتماع . وقرر قرار الاجتماع على استغلال الظروف التى تسببت فيها هذه الحرب لتأمين الحقوق الكاملة لليهود فى كل مكان . ان أية قوانين أو نظم متبعة فى التمييز والتفرقة يقاسى منها اليهود يجب أن تلغى . وقد حظى هـذا البرنامج ، الذى هو ممتـــاز طبعا من حيث كونه برنامجا « حظى بتأييد واستحسان الكثير من الرسميين فى الحكومة وبخاصة سكرتير الحرب » (عن كالين) .

وكانت هذه بداية . ولم يمض زمن طويل الا أضيف تأييد الخطط الصهيونية من أجل جعل فلسطين يهودية الى برنامج فيلادلفيا . بيد أنى سأترك الآن الصهاينة وخططهم هذه وأعود للحديث عن العرب . وينبغى ألا يتصور القارىء أن أى تقسيط لهذا الموضوع أو أى انتقال من موضوع لآخر فى هذه الحكاية قد تم لغـــير ما سبب . اذ لا شىء أكثر لزوما من ضرورة تبيان هذا التناقض بين الطريقة التى تبنت بها الصهيونية ساستنا وتبنوها بها وبين الطريقة التى واصل بها العرب تحالفهم معنا فى ميادين القتال وتحت أعواد المشانق .

الفصل الثامن

استعدادات من أجل الثورة العربية ـ كيف يموت العرب فى سورية ـ فيصل وجمال ـ الثورة تندلع ـ اتفـاقية سايكس وبيكو ـ « مشروع تشرين الأول » الصهيونى ـ الصهونية السياسية تصبح « معضلة معقدة » ـ الصهيونية السياسية تصبح « أمة صغيرة »

لم يرفع العرب لواء الثورة عندما أبرم التحالف مع بريطانيا • ولقد كانت هناك أسباب عسكرية معقولة لهـذا التأخير ، وبخاصة الحاجة الى حصيلة أكبر من العتاد والأسلحة الحربية•والقاهرة هى نفسها التى طلبت التريث • ويمكن القول ان العرب قد بدءوا يحاربون فى صفنا قبل أن تكون فى يد أى منهم بندقية • فالشريف ، كما رأينا ، « كان قد جرد الجهاد من شوكته » (عن ليدل هارث) وكان ، كما يقول كتاب تمبرلى القيم تاريخ مؤتمر الصلح ؛ حين يرجع بالاشارة الى فترة ما قبل الثورة ، « قد قدم من قبل خدمات لا تحصى الى الحلفاء » • وهذا المؤلف لا يســتخدم كلمة الوصف « لا تحصى » الا اذا كانت هذه الخدمات لا تحصى فعلا • فلندع هذا التقدير لا يبرح أذهاننا •

وحين أبرم الحسين هذا التحالف كان الجلاء عن جاليبولى قد جعـل الأتراك فى مركز حسن • ولم يعد جمال باشا قائد القوات التركية فى سورية ـ وقد انزاح عنه كابوس جاليبولى ـ يحتاج الى توخى الحذر فى سلوكه تجاه العرب • وواتته ذريعة أخرى للأفعال العنيفة التى أخذ يقوم بها الآن نتيجة للاهمال الذى لا يصدق ـ ولا نقول أكثر ـ الذى صدر عن موظفى مكتب القنصل الفرنسى العام فى بيروت •

ولقد قلنا فى فصل سابق ان اختيار المسيو جورج بيكو ، الذى أسرف على الاستقصاء الذى قامت به الحكومة الفرنسية فى الشرق الأدنى ، تم وكلت اليه مهمة التفاوض من أجل وضع ترتيب أنجلو فرنسى مع السير مارك سايكس ، لم يكن اختيارا موفقا للقيام بهذا العمل . لقد كان حتى نشوب الحرب قنصلا فرنسيا عاما فى بيروت . وقد رأينا أن الممثلين الفرنسيين فى سورية كانوا قد زجوا بأنفسهم فى تحضيرات العرب للانتفاض مع تركيا هناك . وأن المفاوضات المحلية كانت قد تركزت الى حد كبير جدا فى بيروت . وأنه تحتم على هذا القنصل العام أن يرحل عن البلاد حين انضمت تركيا الى العدو . ويبدو لى أنه ليس بالملوم شخصيا بصدد ما حدث بعدئذ ، لكن مسئوليته العامة كرئيس لهذه البعثة تدخل فى دائرة هذا اللوم . ويقينا أنه كان من عدم الفطنة والحصافة اختياره بعد ذلك فى بعثة الى دنيا العرب . وفى القنصلية كانت هناك أوراق كثيرة تتضمن التعاملات بين بعض أعضاء الجمعيات السرية العربية وبين السلطات الفرنسية أو سلطات الحلفاء . وقد أعدمت هيئة القنصلية عددا كبيرا منها قبل اخلاء المكان لكن رزمة لا بأس بها منها كانت مودعة فى غرفة علوية فنسيت .

وقد وكل الى الولايات المتحدة أمر القوامة على القنصلية ، لكن جمالا، الذى لم يكن يأبه بالولايات المتحدة ، كسر الأختام التى أغلقت بها الأبواب وأجرى تفتيشا دقيقا أسفر عن اكتشاف الأوراق المنسية . وكان من قبل قد أمسك بطرف الخيط من التمرد الذى دبر فى تموز من عام ١٩١٥ واعتقل عددا من زعماء جمعية الاصلاح فى بعلبك ودمشق ويافا ومدن سورية الأخرى . ولم يمض وقت طويل حتى جرى اعتقال ستة وعشرين آخرين من أقضية عكا وصور . ونصبت محكمة عسكرية فى عاليه من أعمال لبنان لتحاكم هؤلاء المعتقلين ، ومن يعتقل بعدهم من العرب ، بتهمة التعاون مع العدو وتدبير تمرد ، وحكم على خمسة منهم بالاعدام ، من بينهم نائب سابق لمفتى صيدا .

لكن محكمة جمال كانت ما تزال تفتقر كلية الى دليل ضد كثير من العرب الذين كانوا محل شكوكه ، فكان أن حصلت من القنصلية الفرنسية على هذا الدليل المطلوب فى ربيع عام ١٩١٦ . وبعد أن ترك جمال السوريين الذين لهم علاقة بهذا الأمر بعض الوقت يورطون أنفسهم فيه أكثر وأكثر ، فرض على سورية حكما ارهابيا غاشما ، متخذا من ذلك ذريعة . وقدم أولئك الذين وجدت أسماؤهم مسجلة فى الوثائق المستولى عليها الى المحكمة، بعد أن ألقى القبض عليهم ، فشنقوا على رءوس الأشهاد .

ولم يكن هؤلاء هم الضحايا الوحيدون لجمال • بل ان جمالا الذى كان يلقب بالسفاح قد أخذ ينتقى آخرين على هواه • أو سمح لمرءوسيه أن ينتقوهم لمجرد الشبهة أو بناء على أسس موضوعة •

وأخذ يمارس سياسة اقتربت أكثر الاقتراب من تدمير جميع السكان• لقد استدعى اليفع الذين هم دون سن الرشد الى القرعة العسكرية وقذف بهم الى الجيش • وأرسل آباءهم الى المنفى بعد أن جعلهم يتنازلون عن ممتلكاتهم الصغيرة • وبيعت بيوتهم على رءوسهم من قبل السلطات العسكرية التى استأثرت بمعظم أثمانها • وقيل لملاك هذه البيوت والأراضى العرب أو للفلاحين أصحابها الذين كانوا يرحلون عنها انهم سيعطون أراضى فى تركيا الآسيوية تعويضا عنها • لكن هذا كان ذريعة لنقلهم الى سيفاس أو أنقرة أو بعض البقاع الأسوأ منهما بدرجة كبيرة جدا ، حيث يتركون تحت رحمة مصيرهم التعس • وفى بعض ولايات سورية أو ألويتها لم يترك عربى مسيحى واحد تقريبا ، لأن المسيحيين هم الذين انصب عليهم غضب جمال ، على الأخص •

وانخفض عدد السكان بما يقرب من الثلث • وفى دمشق والقدس كان البؤس مفزعا • وفى شوارع بيروت كان الناس يخرون مغشيا عليهم من شدة السغب (الجوع) •

وجذبت أحوال سورية ، حتى فى حماة لظى الحرب المستعمرة وأهوالها المروعة ، اهتمام الناس فى جميع أنحاء العالم • وحاولت الدول المحايدة أن تقنع الأتراك بالكف عن هذا الاضطهاد العام للسكان فلم تصب محاولاتها فى البداية نجاحا • بيد أن القسطنطينية سرعان ما استبد بها القلق من هذا الشعور الدولى الشامل الذى أخذ يتعاظم ضدها • وهكذا سمح للقاصد الرسولى فى القسطنطينية أن ينظم عملية لتوزيع مبالغ ضخمة من المال أرسلها البابا له لصالح المنكوبين • وحذت حذوه هيئات أخرى • وبواسطة المتعهد العالمى بتوزيع الصدقات ــ الولايات المتحدة ــ أرسلت ثلاث بواخر هى التينيسى ، و دى موان ، وشستر الى الموانىء المصرية واتجهت الى يافا فى الدرجة الأولى ووزعت أقوات الغوث هناك •

ولقد قاسى اليهود فى فلسطين ما قاساه العرب ، فلحق الدمار بعدد من مستعمراتهم ، وبخاصة ما كان منها قريبا من الحدود المصرية ومن محور الحرب • وسرقت الماشية وقطعت الأشجار • وأصدر جمال باشا (فى وقت لاحق أثناء الحرب) بيانا ضد الصهيونية ، ليس له ثمة باعث حقيقى • لأن قلة من يهود فلسطين آنذاك كانت تؤمن بالصهيونية السياسية • فلقد

جاء معظم هؤلاء اليهود الى فلسطين باعتبارها منشأ عقيدتهم الدينية فقط • ثم أتبع هذا البيان فيما بعد باصدار أمر يلزمهم به بالنزوح عن البلاد « بناء على ضرورات عسكرية • » ولم يطبق هذا الأمر فى القدس لكن نحـــو اثنى عشر ألفا من اليهود قد طردوا من البلاد فى حالة من الاملاق والبؤس الشديد • ونقلتهم بواخر الولايات المتحـــدة الى الاســكندرية • وقد كنت آنذاك فى مصر • وانى لأتذكر جيدا ذلك الرتل الطويل من العربات وهى تتقاطر عبر شوارع الاسكندرية مكتظة بالمهـاجرين وأمتعتهم البائسة فى طريقها الى المخيمات التى أقيمت لهم فى ضواحيها •

وأصبح عدد كبير من اليهود فى فلسطين ؛ وكانوا رعايا لروسيا ، أعداء لتركيا تأصل فى قلوبهم عداؤها • ولقد حصل أربعون ألفا منهم أو نحو ذلك ، على حقوق المواطنة (بفتح الطاء) التركية • وسجن أو طرد من البلاد نحو ثمانية آلاف رفضوا التجنس بها • فكان وضـع هـــؤلاء وضعا فائق الغرابة • لقد طردوا من روسيا بفعل سوء معاملة روسيا لهم وها هم الآن توفع بهم هذه المعاملة السيئة الجديدة لأنهم روس • انهم لم يهتموا فى يوم من الأيام أبدا أدنى اهتمام بالعطف على موقف روسيا من هذه الحرب ، كما قد يتصور الانسان • وان حفنة واحدة فقط من بين هـــذه العشرات الآلاف قد عملت على تقويض الحكم التركى بصورة أو بأخرى • ولقد قاست هذه الحفنة ما قاساه العرب • وهناك حالة أسرة عارونسون التى التحقت بخدمة مخابرات الحلفاء وكشف أمرها فانتحرت ابنة لها لكى تنجو من أشكال الانتقام التركى المألوفة •

ولقد قدمت عدة شخصيات يهودية تنتمى الى الهيئات اليهودية فى فلسطين للمحاكمة فى عامى ١٩١٥ و ١٩١٦ باتهامات ملفقة ، وأرغمت على مبارحة البلاد بعد فترات من الاعتقال • بيد أن السكان اليهود كان يتوفر لديهم نوع من الضمان من وجود مجموعات صهيونية فى برلين والقسطنطينية، وفى نيويورك والعواصم الأخرى المحايدة • وقد استطاعت المستعمرات اليهودية عن طريق هذه المجموعات أن تستخدم دائما نفوذها لتحول بين الأتراك وبين أن يمارسوا ضدها تلك المظالم الشنيعة التى كانوا يمارسونها ضد العرب • و «بهذه الطريقة» ، يقول التقرير الرسمى الصهيونى بصدد أحوال اليهود فى فلسطين ابان الحرب ، « سنحت الفرصة المساعدة من الخارج فى كل مناسبة من مناسبات الخطر السياسى أو الاقتصادى الخطرين• ولا يمكن ايضاح حقيقة أن فترة الحرب قد تركت البيشوب (أى المستعمرات اليهودية ككل) سليمة عمليا فى فلسطين الا من خلال هذه الحماية التى قدمتها على هذا النحو المنظمة الصهيونية • » •

وكان الهر برودە ، القنصل الألمانى العام فى القدس ، والجنرال كريس فون كريسنشتاين رئيس البعثة العسكرية الألمانية لدى تركيا (والعقل المدبر للهجوم على قناة السويس) وقناصل اسبانيا والولايات المتحدة ، وكالات حماية أخرى • « لقد تلقى الموظفون الرسميون الألمان خلال الحرب تعليمات من مكتب الخارجية (فى برلين) ومن السفارة (الألمانية) وللبعثة العسكرية (الألمانية) فى القسطنطينية بوجوب أن يؤيدوا المصالح الصهيونية • وكانت هذه التعليمات تطاع دواما من قبل هؤلاء الموظفين ، بغض النظر عما اذا كانوا كأفراد يعطفون أو لا يعطفون على الآمال اليهودية • » (التقرير المذكور آنفا ــ المعرب)

هذه هى الظروف التى سادت ابتداء من عام ١٩١٤ حتى نهاية عام ١٩١٦ • وفى عام ١٩١٧ جعل خطر تقدم البريطانيين،صبر جمال والآخرين ينفذ ، فأخذوا يبطشون بكل من هب ودب لأدنى شبهة ، وبدأ النفى بالجملة الى مصر •

بيد أن العرب وضعوا طبعا فى موقف مغاير • ان انضمامهم الى أعداء الأتراك قد أسبغ على معاناتهم صفة مغايرة • صحيح أن الكبت والقمع اللذين كانا يوقعان بهم قد كانا مرعبين فى أسلوبهما ، وعلى نطاق غير حكيم ، حتى من وجهة نظر الأتراك • بيد أن معظمها من حيث المبدأ كان يتمشى والمنطق • انهم يشكلون خطرا ماثلا لا تشكله المستعمرات اليهودية •

وكنتيجة عكسية ، أهلهم هذا الذى يقاسونه لعطف وشكران الدول المتحالفة • انهم يلاقون الموت على أعواد المشانق وفى المنافى من أجل استقلالهم فى الدرجة الأولى ، وفى سبيل بريطانيا وفرنسا أيضا ، المطالبتين بكل معنى من معانى الشرف بأن تردا لهم جميلهم فى ساعة الانتصار ، ناهيك عن الوفاء بما قد قطعتاه لجنسهم من عهود ووعود •

لقد قلت قبل قليل ان كبتهم وقمعهم كانا مرعبين فى أسلوبهما • فلقد دأب جمال باشا على اقامة حفلات الاعدام فيدعو أصدقاءه الى حضور شنق من يدانون بالهروب من الجيش وبالتخابر مع الحلفاء وما الى ذلك من أفعال • وكان عدد من هؤلاء الضحايا من أهل فلسطين • لقد أعدم اثنى عشر شابا معا وفى يوم واحد فى القدس • وأعدم مفتى مدينة غزة ، أحمد عارف الحسينى الحسينى وابنه كلاهما • وهما ينتسبان الى العائلة نفسها التى ينتسب لها جمال بك الحسينى الذى جاء عدة مرات الى لندن كموفد من العرب ، والمنفى الآن من فلسطين مع من نفى من زعماء الشعب الآخرين •

وينتسب الى هذه العائلة أيضا مفتى القدس الأكبر الهارب الملتجىء الى سورية (الفرنسية) ٠

كما أعدم كذلك شابا من العائلة العربية الفلسطينية الكبيرة الأخرى المنافسة لعائلة الحسينى ، وهى عائلة النشاشيبى ٠ وكذلك أعدم سليم الأحمد العبد الهادى ، عم عونى بك عبد الهادى ؛ أحد الموقعين على معاهدة فرساى وأمين سر الملك فيصل ، والذى كان الى عهد قريب أحد المعتقلين فى معتقل صرفند ، والذى نفى من فلسطين وحرم عليه دخولها ٠ ولقد جاء النذير الى سليم العبد الهادى قبل أن يلقى الأتراك القبض عليه لكنه أبى أن يفر قائلا : « اذا فررت فسيصبون جام انتقامهم على عمى حافظ (باشا) ولا أريد له أن يهان وهو فى هذه السن ٠ لسوف أبقى هنا ٠ » ثم أجرى حسابا دقيقا لكل شىء يملكه ووقع على سند مديونية قبل أن يذهب الى المشنقة بنصف ساعة وهو يقول : « ان يدى لا ترتجف ٠ ولماذا ترتجف ؟ انى أموت فداء لبلادى ٠ » ٠

وفى فترات مختلفة حكم على كثيرين آخرين من قبل المحكمة العسكرية التركية بالموت ٠ أذكر منهم عبد الحميد زهران (هارب) ، وشفيق بك المؤيد (زائر المسيو بومبار ٠ حكم عليه بسبب علاقاته مع الحلفاء) ، وشكرى بك العسلى (بسبب اتصاله بالمسيو اوتافى) ، وعبد الغنى العريسى ، وسيف الدين الحبيب (لتوقيعه على بيان سرى ينادى باستقلال العرب) ، ومحمود المحمصانى ، وصالح بك حيدر ، ورفيق رزق سلعوم ، وعبد الوهاب الانجليزى (من أصل صليبى) ، وعينمو حميد ، وعارف الشهاب (لدعوته للثورة بين قبائل الصحراء) ، وعبد الكريم الحبيب ، والشيخ أحمد الطبراق ، وعلى أفندى الأرمنازى ، وحافظ بك السعيد (من يافا) ، ومحمود الأضم ، ونايف أفندى تيللو ، ومحمد مسلم بن عابدين ، وسعيد أفندى الكرمى ، وسليم بك الجزيرى (من « العربية الفتاة ») ، وأمين لطفى بك (لمحاولة نشر العصيان والتمرد بين زملائه الضباط) ، وعبد القادر الخرساء ، ورشدى الشماع ، ومحمد الشملى ، وجورج حداد (من الجمعية اللبنانية المسيحية) ، وسعيد عقل ، وبترو بولى ٠ لقد أعدم هؤلاء وفى وسعى أن أضيف أسماء كثيرة أخرى الى هذه القافلة ٠

كما حكم بالاعدام غيابيا على حقى بك العاصى ، والشيخ رشيد رضا ، وفارس نمر (الدكتور فارس نمر صاحب جريدة المقطم التى تصدر فى القاهرة ، والتى تدين لها بريطانيا بالكثير لما أسدته لها خلال السنوات

الكثيرة التى سبقت وأعقبت الحرب) وعلى خمسين آخرين ، طبقا للاجراءات القانونية التركية • ولقد جاء فى نص حكم المحكمة ما يلى :

لقد تآمر هؤلاء الأشخاص على سلخ البلاد العربية عن الحكم العثمانى ، وعلى أن يجعلوها تقع فى قبضة الاحتلال العسكرى البريطانى ، ثم تخلق انجلترا فيها بعدئذ خلافة عربية ملحقة بمصر • كما قاموا أيضا بدور نشط فى جميع الصفقات التحضيرية للعصيان • لقد حضروا للعصيان وأسهموا فى تنظيمه بدور • وجميعهم هاربون •

كما نفى ثلاثمائة من أعيان فلسطين الى آسيا الصغرى والى المجاعة التى تترتب على هذا النفى •

وفى غمرة هذا الحكم الرهيب عاد الامير فيصل الى دمشق • لقد عاد ظاهريا ليستأنف القيام بدوره كضابط فى الجيش التركى • أما فى الحقيقة فقد عاد ليضم جهوده الى جهود الجمعيات السرية السورية ، ولكى يجعل العمل فى سورية يتواءم مع الثورة التى حانت ساعتها فى الحجاز ، لكنه اكتشف أن جميع الفرق العسكرية العربية قد رحلت عن سورية لدرجة أن هذا البلد قد بات فى قبضة جمال • فأرسل رسائل الى أبيه فى الحجاز ينصحه فيها بالتريث الى أن يصبح فى الامكان ترتيب شىء فى الشمال يتضافر مع خططه •

ومع ذلك فقد تحتم عليه الآن أن يقاسى الكثير من المتاعب والآلام • لقد جعل جمال من عملية دعوته لحضور تنفيذ أحكام الاعدام معنى خاصا • وكان هذا التنفيذ يتم على نحو مفزع مذهل رهيب • ولقد قال شاهد عيان يصف هذه الضحايا : « انهم لا يشنقون بالضبط ، وانما يعلقون من أعناقهم على هيكل من الخشب مرتكزة أخامص أقدامهم على مقعد • » فكانوا فى نوبات تشنجهم يوقعون المقعد ويتأرجحون ببطء • وكان يتحتم على فيصل أن يظل يشهد هذا المنظر المروع ويتصنع اللامبالاة • فكان جمال ينظر اليه من طرف عينيه بين الفينة والفينة ويعلق على المشهد تعليقات ماجنة • لقد كان يرتاب فى فيصل ولكنه لا يستطيع أن يبرهن على أن له علاقة بهذه الجمعيات التى ينتمى اليها هؤلاء الذين يشربون كأس الموت فى حضوره •

وفى احدى هذه المناسبات الكئيبة البغيضة ؛ ولا أظن أن فيصل قد شهدها ، أعدم اثنا عشر شابا مرة واحدة • وكان أبرز هؤلاء محام شاب ــ نال رخصة المحاماة فى باريس وترافع فى محاكمها ــ وهو من أنسباء

أسرة عبد الهادى ، ويدعى محمود المحمصانى • ولقد نصبت المشنقة فى أحد ميادين بيروت • وكان نظام حكم الشبان الأتراك قد أعاد تسمية هذا الميدان من جديد فسماه ويا للسخرية « ميدان الحرية » ! وخارج النطاق الذى كان الجنود يضربونه حول الميدان ، كان الشعب يقف ويرقب فى صمت • وحين استدار الجلاد فى اللحظة الأخيرة الى المحمصانى وسأله ان كان لديه رغبة أخيرة يود أن تجاب ، طلب هذا الأخير أن يتحدث للشعب وصرخ بأعلى صوته موجها كلامه للشعب الواقف فى الميدان بأنه مذنب : « اننى مذنب » ، قال : « ان كان فى تعشق الحرية وفى الرغبة فى أن أحرر بلادى جرم • لقد رغبت فى أن أحررها ، وانى — وأنا أبعد ما أكون عن التندم على أى شىء فعلته لكى أكسب الحرية لها — لفخور بأن أكون أول ضحية فى سبيلها • ان مما لا نطيقه نحن العرب — الذين نبتنا من واحدة من أعرق الحضارات التى عرفها العالم حتى اليوم — التفكير فى الأحوال المزرية التى وضعتنا فيها قطعان الأناضول البربرية • لقد ضقنا ذرعا بنير الأتراك الوضيع • » •

ولطم الجلاد الشاب العربى على فمه لطمة جعلت فمه يتدفق دما بيد انه واصل صيحته : « لقد تخلصنا من عبوديتكم ، وعبثا تغتالوننا • وان القضية التى نسعى من أجلها ستخلد ذكرنا • ان ساعة الخلاص آتية • فليسقط الأتراك ! وليحيا العرب ! ولتعش فرنسا صديقة للعرب ! » وظل يصرخ ويجاهد حتى قلب الجلاد المقعد من تحت قدميه وأطبق بيديه على عنق الضحية بكل ما أوتى من قوة • وشرب الأحد عشر الباقون كئوس حتفهم الواحد تلو الآخر ، اما بهدوء واما بصراخ وبهتاف باستقلال جنسهم وبأسماء الدول التى تمد لهم يد المساعدة كما فعل المحمصانى •

فماذا كان يمكن أن يدور بأذهان هؤلاء الرجال ، وهم يجودون بأرواحهم فى سبيل بلادهم ، وفى سبيل قضية الحلفاء المرتبطة بقضية بلادهم ، والذين لم ينسوا أن يحيوا الحلفاء فى لحظاتهم الأخيرة ؛ ماذا كان يمكن أن يدور بأذهان هؤلاء لو أنهم عرفوا كيف سيعاملهم هؤلاء الحلفاء فى النهاية • وليس هذا بالموضوع الذى نتوقف عنده الآن •

ولا يكاد أحد ممن لاقوا حتفهم فى حضور فيصل يجهل علاقة فيصل بالحركة العصيانية التى ينتمون اليها ، لكن أحدا منهم لم يخنه أبدا • ولقد كان ثلث سورية على الأقل — وحسب التقديرات — مرتبطا بالجمعيات السرية، ومع ذلك فلم يقدر ولو لرجل واحد بينهم أن يكون على استعداد لأن يشترى حياته وحريته أو حياة وحرية أبيه أو ابنه أو أخيه بخيانة الأمير •



لا . ولو رجل واحد ، برغم أن عشرينات من الرجال قد شنقت بصــورة بربرية ، وبرغم أن آلافا مؤلفة قد ماتت بفعل المجاعة وسوء المعاملة .

وليس يعجزنا أن نتصور ما هى مشاعر فيصل وهو يشهد هــذه الاستعراضات الرهيبة . ومع ذلك فان ملامحه لم تضطرب . ويســجل لورانس أنه لم ينفجر الا مرة واحدة و « صرخ قائلا ان هــذه الاعدامات ستكلف جمالا كل ما يحاول أن يتفاداه . وتطلب الأمر تدخل أصدقائه فى القسطنطينية ؛ الذين هم من أهم رجالات تركيا ، لكى ينقذوه من ثمن هذه الكلمات المتهورة . » وكان جمال قد هدده فى احدى نوبات زهوه اما بالاعدام أو بالنفى .

أما فيما يهم القائد التركى فلقد أصبح فيصل الآن رهينة . بيد أن فيصلا لابد ان كان قد لعب لعبته بمهارة فائقة فاحتفظ بطريقة ما بأصدقائه فى القسطنطينية الذين أنقذوه من جمال . زد على ذلك أن جمالا لم يكن على يقين من موقف فيصــــل الحقيقى . انه لم يكن يخامره أدنى توهم فى اخلاص فيصل لتركيا . ولكنه ظن أن مما يتفق وسياسة الحجاز فى ذلك الحين الابقاء على رباطه بتركيا كأمر تفرضه الضرورة . وكان مما يلائم سياسة تركيا فى الوقت عينه ، وللأسباب نفسها ، الابقاء على ارتباط الحجاز بها . فكان أن تعلقت سلامة فيصل بهذا الخيط الواهى .

بيد أن عزيمة فيصل لم تهن . وواصـــل الاتصال ببقيــــة المنظمات السرية العربية . ولو أن الرأس المدبر لهذه الجمعيات كان فى الحجاز آنذاك أكثر من كونه فى سورية ذاتها . لقد هرب الى هناك عدد كبير من زعماء العرب ، وأخذوا يتشاورون مع الشريف فى مكة أو فى جدة . كما واصل فيصل مراسلاته التدبيرية مع والده عن طريق « موالى الأسرة الطاعنين فى السن ، الذين هم فوق مستوى الشبهات ، والذين كانوا يغدون ويروحون على طريق سكة حديد الحجاز ، يحملون الرسائل فى أجربة السيوف ، أو مخيطة فى كعوب نعالهم ، أو مكتوبة كتابة سرية لا ترى ، على علب من الورق المقوى لا تثير الشبهة . » (عن لورانس) .

وأبرق الحسين الى جمال بلهجة جريئة فقال : « يجب أن تكف عن اضطهاد العرب . وينبغى عليك أن تصدر عفوا عاما فى سورية وفى بلاد الرافدين . » والذى جعله يجرؤ على ارسال هــذه البرقية وبمثل هــذه العبارات ، هو أنه كان قد شكل فى ذلك الحين وحدة عسكرية أخرى ؛ فرقة من الهجانة ، ليدعم بها حسب زعمه ، الجيش التركى حين يعاود غزو مصر .

وكانت لهذه الرسالة البرقية نغمة نصيحة تصدر عن حليف أصيل • بيد أن فرقة الهجانة هذه لم تذهب الى ما هو أبعد من المدينة • والحقيقة هى أنه قد قصد لها أن تكون نواة للقوة التى كان ينوى بها الهجوم على الأتراك• وكان الحسين على أى حال يحتقر حكام تركيا الجدد • فلقد قال لأنور فى وجهه ذات مرة انه « شاب جاهل » •

ومن دمشق صدرت لفيصل نصائح بتوخى المزيد من التأنى • كما جاءته من مصر نصيحة مماثلة • فلقد كانت الأسلحة والذخائر ترسل الى الحسين عن طريق السير ريجنالد ونجيت حاكم السودان وكان فى هذا العمل نوع من البطء • و « كان السير هنرى مكماهون لا يكف عن الالحاح على الشريف بتأخير الشروع فى عملياته العسكرية الى أن ينيسر تجهيزه بالسلاح تجهيزا كاملا للقيام بمهمته • » (عن التاريخ الرسمى للحرب) •

الا أن قرار الحسين كان قد قر ، فأرسل الى فيصل أمرا بالمجىء الى الحجاز بحجة وضع الترتيبات النهائية لارسال فرقة الهجانة الى الميدان ، والقيام بتفقدها قبل ارسالها • فطلب فيصل الاذن من جمال بالذهاب لهذا الغرض لكن « السفاح » لم تنطل عليه الحيلة تماما • ولا بد أن نظرة ساخرة ملأت وجهه العريض حين أجاب على فيصل فقال : « سأرافقك بنفسى وسيكون القائد الأعلى أنور معنا وسيستعرض فرقتكم • » •

وأيا كانت الشكوك التى كانت تساور فيصلا حتى ذلك الحين، فانه أدرك أن ساعة الثورة قد دنت • ولم يكن مرد ذلك الى أن الفرصة قد باتت مواتية جدا ، ولكن لأنه قد بات من المؤكد أن أنور وجمالا سيتخذان ، بعد أن يريا الأمور فى الحجاز بعينيهمـــا ، كافة الاجراءات الكفيلة بمنع أيـة فرصة فى الثورة من السنوح هناك أبدا •

وهكذا ذهب الباشوات وفيصل الى الحجاز معا • واتخذ التفقد الموعود مجراه • وان أكبر فقرات كتاب لورانس أعمدة الحكمة السبعة العظيم امتاعا هى التى تصف ما أعقب ذلك •

« وفى النهاية سارت الأمور على ما يرام ، وان كانت سخرية العرض مفزعة » • كان أنور وجمال وفيصل (يرقبون) معا الأفواج وهى تكسر وتفر وتقبل وتدبر وتستدير فى السهل المترب خارج بوابة المدينة ، طاردة مطاردة فى معركة صورية من معارك الهجانة ، أو تهمز جيادها سحا وصخبا على الطريقة العربية من غابر الأزمان • فتساءل أنور وهو يلتفت الى فيصل: « وهل اولاء جميعا متطوعون للحرب المقدسة ؟ » « نعم » قال فيصل :

« وهل هم على أتم استعداد لأن يحاربوا حتى آخر قطرة من دم أعـــداء المؤمنين ؟ » « نعم » ، قال فيصل مرة أخرى · ثم جاء كبار العرب ليقدموا اليهما · فانتحه به الشريف على بن حسين ، من مذحج ، جانبا وهمس له : « هل نقتلهما الآن يا مولاى ؟ » فما كان من فيصل الا أن قال : « لا · انهما ضيفانا » ·

لقد ندر حتى أن يرى الشرق مثل هذا السمو الخلقى فى التكايد الذى قرأناه هنا · ان كل كلمة خرجت من شفتى أنور أو من شفتى فيصـــل كان لها معنيان ، معناها الظاهر ومعناها المستنبطن · فكانا اذ هما يتحادثان يلعب كل منهما بوساوس الآخر ·

« وأمعن الشيوخ فى الاستنكار لانهم كانوا يعتقدون انهم يستطيعون أن ينهوا الحرب بضربتين · وكانوا مصممين على أن يغلبوا فيصـــل على أمره ، فتحتم عليه أن يسير بينهم ، بعيدا عن مرمى السمع ولكن بحيث تقع عليه كل عين ، يتوسل اليهم أن يبقوا على حياة الدكتاتورين التركيين اللذين اغتالا أخلص أصدقائه على أعواد المشانق · ونحتم عليه أخيرا أن ينتحل الأعذار وأن يعود بضيوفه الى المدينة على عجل ، وأن يقيم حرسا على قاعة الاستقبال بعبيده الخصوصيين ، وأن يرافق أنور وجمالا فى طريق عودتهما الى دمشق ليجنبهما الموت فى الطريق · وقد علل هذه الحفـاوة المتكلفة الشاقة بحقيقة أن من شيمة العربى التضحية بكل شيء للضيوف· لكن أنور وجمالا ، وقد ارتابا أشد الارتياب مما شاهداه ، ففرضا على الحجاز حصارا شديدا وأمرا بارسال تعزيزات كبيرة الى هناك · » ·

ان توتر هذا المشهد لهو من الشدة بحيث يجعلك تتخيل أن روح فيصل لابد وأنها قد أصبحت هشة وتحطمت · لكنه ظل طوال الطريق الى دمشق يبسم ويهش ويبش للصديقين اللذين يمقتهما ؛ المعدوين اللذين يتمنى لو يقتلهما · وركز كل اهتمامه على حماية هذين الحاكمين اللذين وطن كل همه على تدمير حكمهما ، حتى أصبحت دمشق على مرمى النظر · وهاهو الآن يصبح بدوره فى الشرق لكن والده قام بدوره على خير وجه · فطلب الحسين عودة فيصل · لقد كتب اليهما بضرورة أن يكون لديه حتى يسوس القبائل التى لاتبدو غير ثابتة فى ولائهـــا ، والتى كانت مقلقلة وتتجمع بصورة لا تبشر بخير ·

وعن غير طيب خاطر وتردد ، ترك جمالا فيصلا يعود · وها هنا امعان آخر فى التكايد · لقد اعتمد جمال على كبح فيصل لجماح القبائل ، ابتغاء للتعقل من جانبه ؛ اعتمد على تأخيره الى حين ، لحظة من الزمن سيتكفل هو

(جمال) باتخاذ كافة التدابير لكى لا تحين هذه اللحظة أبدا • وهكذا كر فيصل عائدا الى عشيرته ، على أن يبقى جمال حاشـــيته كرهينـــة فى دمشق •

ووصل فيصل الى مكة فى غرة حزيران • « وبعد ذلك بأربعة أيام امتطت حاشيته خيولها وأوغلت شرقى دمشق فى الصحراء وأطنبت على شيخ احدى القبائل البدوية • » وكان هربها هربا موقوتا سبق تدبيره • وفى الخامس من حزيران عينه رفع فيصل العلم العربى فانضمت أمة أخرى الى الحلفاء • » وراح فى دنيا الأحلام أقل الألمان فى التعاون مع الاسلام فى تنفيذ خطط القيصر العالمية • » هكذا يقول لورانس •

وفى مصر بوغت الذين ينعاملون مع العرب ••• بوعت نصفهم بسبب نصائح الأناة التى أرسلت من هناك ، وبوعت النصف من جراء الابطاءات التى نجمت عن مركز فيصل الغريب • ان أحدا لم يكن قد تصور قيام هذا العمل بهذه السرعة • وقد صعق المكتب العربى فى القاهرة من رسالة مفاجئة جاءت من زورق من زوارق الدورية فى البحر الأحمر • وقد نقل هـــذا الزورق الحربى هذه الرسالة بأسلوب الشريف نفسه فقال ان « ساعته قد باتت دانية • » ولقد طلب أن يرسل اليه بعض الممثلين الانجليز ليقابلوا الأمير عبد الله • وكان الملتقى « شاطئا صحراويا يقع الى الجنوب من جده • » وهو بقعة تعرف بخليج الشيخ ممجة • وكان الكوماندور هوجارت ، الذى يقص علينا هذه الرواية ، أحد الذين خفوا الى هناك فى طراد • فوجدوا بدلا من عبد الله أخاه الشاب زيدا ، الذى أخبرهم أن عبد الله لم يتسن له الحضور لأنه خرج لينهض القبائل التى كان قد أحضرها للثورة منذ أشهر • وعبد الله هو المسئول عن حالة القلقلة لدى هذه القبائل وعن « تجمعها الذى لا يبشر بخير » • وهو السبب الذى تذرع به الحسين لطلب عودة فيصل • لقد تفتق ذهن الشريف عن حيلة بارعة من السخرية ، فلعب بها على جمال لعبة تخلو من كل متعة • أما على أصغر أبنائه فقد كان وفيصل نفســـه بطبقان على المدينة • وكانت الثورة قد شبت منذ ثلاثة أيام وخرج الشريف الى الردهة من محل اقامته وفى يده بندقية ، وأطلق بنفسه رصاصة البدء فيهـــا •

واذن فقد بدأت الثورة جزافا الى حد ما • لكنها كانت فى وقتها • اذ أن فيصلا قد رأى قبل أن يعود الى بلده تلك الاستعدادات التى كانت تجرى من أجل ارسال تعزيزات عسكرية الى الحجـاز • وكانت هـــذه التعزيزات تتألف من قوة قوامها ثلاثة آلاف وخمســمائة رجل بقيـــادة

خيرى بك • ومما زاد فى قوتها وجود فصائل ألمانية فيها واخصائيون ألمان من مختلف الأنواع • وقد تقرر لهذه القوة أن تزحف على مكة وتخضع العرب بعد أن تنزل من القطارات فى المدينة حيث تنتظرها هيئة أركان وسرايا من كافة قطاعات الخدمة فى الجيش التركى • وعلم فيصل بكل هذا عن طريق أعوان للجمعيات السرية العربية فى الجيش التركى •

وكان بين هؤلاء الألمان عملاء منوطة بهم مهام سياسية • اذ لم يكن الاستيلاء على الحجاز الا خطوة تمهيدية لشن حملة حرب دعائية كبيرة ، ورشوة ، وتسرب من الأبواب الخلفية ، فى المناطق البريطانية التى تمتد حول الخليج الفارسى والتى هى بوابات الهند • وكان رئيس هؤلاء العملاء الألمان رائدا يدعى فون شتوتزنجن وهو رجل قدير احتل مكانة من التاريخ لم تكن رفيقة به بسبب خطاب توصية كان يحمله • وهدا الخطاب من عائله ألمانية ذات نفوذ ؛ من كونتيس تدعى فون شليفن ، تسير فيه ففرة الاطراء بهذا الرجل على هذا النحو : « انه لا يقحم شخصيته على الغير ، وليست فيه تلك الصفات التى تجعل من الألمانى شخصا ممقوتا فى أغلب الأحيان فى الأجزاء الأجنبية من العالم » •

وطبقا لما يوضحه لنا الكابتن (النفيب) ليدل هارت (الذى استند الى تسجيله لهذه الأحداث بكل امتنان واعتراف بالفضل من جانبى) فان هذه القوات التركية الألمانية لو تمكنت من الاستيلاء على الحجاز فتغلغلت الى الجنوب التعزيزات التى جاءت بها ، لكان معنى ذلك بكل بساطة سقوط عدن حيث كانت حاميتها صغيرة • وكانت قواتنا المحلية هناك قد أرغمت على التراجع الى داخل هذه المدينة من الأراضى الواقعة الى داخل البر منها ، وحوصرت هناك من قبل فرقة تركية • ثم فكت قوة من المتطوعين الهنود هذا الحصار عنها فى الشهر التالى ، لكننا بقينا فى موقف الدفاع فى عدن منذئذ فصاعدا • ولو تم احتلال هذا المكان قبل وصول الهنود لتحتم علينا أن نرسل اليه حملة عسكرية لاعادة فتحه فتضيف بذلك متاعب الى متاعبنا الكثيرة وقلقا الى قلقنا الذى كان شـديدا فى ذلك الحين ، ولكانت دعاية شتوتزنجن ، التى كانت تسير فى الجزيرة العربية سير جيش عرمرم ، عرت جناحى مصر • ويقول ليدل هارت ان درء هذا الخطر « لم يكن أهون الخدمات التى أسدتها الثورة العربية الى بريطانيا • » •

ولذا ينبغى على المـرء أن يذكر الخامس من حزيران من عـام ١٩١٦ باعتباره التاريخ الذى سددت فيه ضربة عظيمة لصـالح قضية بريطانيـا العظمى وحلفائها • وأن العرب أنفسهم هم الذين ضربوا هذه الضربة ،

وأنهم قد بدءوا منذ ذلك اليوم ينفذون نصيبهم من المعاهدة التى دخلوا فيها طرفا مع بريطانيا . لقد بدءوا بداية كريمة جريئة شجاعة . والحق أنها بداية متهورة اذا أخذت من زاوية حساب التجهيزات الحربية لوحدها . اذ كان لدى فيصل واخوته ما يقرب من خمسين ألف رجل تحت امرتهم ولكنك لم تكن تجد بين كل خمسة محاربين أكثر من بندقية واحدة ... بندقية واحدة قديمة لا أكثر ولا أقل . ولم تكن لديهم مدفعية ولا بنادق سريعة الطلقات .

وكان لدى الأتراك عدد من الرجال فى الحجاز أقل . كان لديهم خمسة عشر ألفا من الجنود . لكنهم كانوا على درجة حسنة من التنظيم العسكرى والتأسيس العسكرى . وكانت تسندهم المدفعية ؛ سواء مدفعية الميدان أو المدفعية الخفيفة ، وكان لديهم سلاح كامل من البنادق السريعة الطلقات.

وكان الأتراك لحسن الحظ موزعين على عدة حاميات ، فأخذهم هجوم السريف المفاجىء على حين غرة ، فطردهم من مدينة مكة فى بحر أسبوع . ولعب القذف بالقنابل من البحر والجو دورا كبيرا فى سقوط جدة فى السادس عشر منه . وسلمت الحامية التركية التى كانت تتألف من ألف وأربعمائة رجل . وفى بحر ذلك الشهر عند الاستيلاء على رابغ وينبع ؛ وينبع هذه ميناء المدينة . وبادر السير ريجنالد ونجيت بارسال طاقمى مدفعية جبلية مع ست بنادق سريعة الطلقات الى الشريف توا وبواسطة السفن . وكان على هذين الطاقمين جماعتان من الجنود المصريين تحت امرة ضباط مسلمين . كما جاءوا كذلك بثلاثة آلاف بندقية ، من نوع أو من آخر ، ومعها كثير من الذخيرة .

وبالرغم من أن هذه الانتفاضة قد تناقلت أخبارها الصحف فى انجلترا الا أن أدنى اشارة الى أنها نتيجة لتحالف لم تجر على لسان أحد على الاطلاق . ولقد قيل ان وحدات بريطانية بحرية قد قصفت بنيرانها حامية الأتراك فى جدة ، ومراكز عسكرية أخرى لكن هذا الأمر الكبير قد أمكن عزوه الى المناوشات الطبيعية مع الأتراك . أما عن السفن المحملة بالأغذية التى أرسلناها الى مدن الاسلام المقدسة فقد قيل انها مجرد دليل على الصداقة .

وقد نشرت جريدة التايمز أخبار هذه الانتفاضة بعد سبعة عشر يوما من قيامها ، وكرست افتتاحيتها لها . وها هى تعترف الآن بأن « حركة الاستقلال العربية قد بلغت أوجها ، « وتخص بالمديح الشريف الأكبر وأولاده . ثم بعد عشرة أيام أو نحوها أخذت التفاصيل عن هذه الانتفاضة

تقل . وكانت وسائل المواصلات فى ذلك الحين صعبة ، وكانت الرقابة على الصحف شيئا سهلا .

وحتى حين اتسعت شهرة لورانس ، أبقت الجهات الرسمية تفاصيل ثورة العرب ، التى طبقت الآفاق ، فى نطاق من الكتمان يدعو الى التعجب. ومر ما يزيد عن عام على انتهاء الحرب قبل أن تنتشر الرسائل المتعلقة بعمليات الحجاز . كما قدر لمآثر لورانس الشخصية أن تضفى على الحرب التى اضطلع بها العرب جوا من المغامرة كاذبا فطغى هذا الجو فى بلادنا على ما يمكن أن تسمى بالحقائق القانونية لهذه الحرب؛ وبخاصة على حساب الديون والمدفوعات بين بريطانيا والعرب ، ذلك الحساب الذى لا سبيل الى انكاره .... بماذا تدين بريطانيا للعرب وماذا قدمت لهم وفاء له ؟

وهذا هو السبب فى اطالتى الشرح ، الى حـــد ما ، عن كيفية بدء الثورة العربية . وســوف أفصل فى مكان لاحق من هـذا الكتاب كيف انتهت . ويجب أن نؤكد هنا أن هذه الثورة لم تكن من عام ١٩١٦ وحتى عام ١٩١٨ قطعة من الموسيقا النشاز بأى حال من الأحوال ؛ لم تكن شيئا يشبه وقع حوافر جياد وصيفات أودين(١) يسرن فى موكب عسكرى الى ميدان القتال ، ويسمع خارج مسرح الحرب « بعيدا » . بل هى على العكس من ذلك تماما . لقد كان ذلك الجزء من العمليات الحربية للدول المتحالفة الذى تم التعاقد عليه بوضوح لا يقبل المغالطة ، وطور بصورة نزيهة شريفة وتتوج بالنجاح بكل معنى من معانيه ، اللهم الا بالوفاء الكامل به من قبل أولئك الذين تعاقدوا عليه ... الوفاء الشريف ! أما أين كان هذا التهرب من الوفاء من قبل هؤلاء الشركاء المستبدين الأقوياء الحانثين فكان فى سورية (سورية كلها بما فيها فلسطين ـ المعرب) . ولقد اعترف الفرنسيون أخيرا وفى عام ١٩٣٦ بدينهم هذا فى المعاهدة السورية الفرنسية . وحين يتم التصديق على هذه يكون الفرنسيون قد وفوا العرب حقهم فى جزئهم من هذا البلد . ولقد وفينا نحن بجزء من ديننا هذا فى العراق ، لكننا مازلنا نستمر فى الحنث به فى فلسطين .

وحين كان فيصل ينسل من دمشق ليجازف بكل ما فى يديه فى ميدان القتال ، قمنا نحن ، ان أردنا الصدق ، باولى التحضيرات فى انكلترا للحنث

(١) اسطورة ترويجية تقول ان ملكا اسمه اودين كان يخرج وصيفاته الى ساحة القتال لينتقين من يضحى بهم من جيوشـــه فى ســـاحتها .. وكن يسرن فى موكب عسكرى ـ المعرب .

بهذا العهد • اذ كانت مفاوضات السير مارئس سايكس والمسيو جورج بيكو قد انتهت وثم ابرام الاتفاقات ، التى توصلا اليها ، من قبل حكومتيهما فى آيار من عام ١٩١٦ • ولما كانت لهذه الاتفافات صفة المعاهدة الدولية فقد سميت ب « معاهدة سايكس وبيكو • »

وكانت هذه المعاهدة مخططا منمقا وضعت فيه مساحات كبيرة من آسيا تحت حروف ابجدية وصبغت بعدة ألوان • فكانت جميع أراضى تركيا التى لم تقهر بعد أن قد جزئت الى خمس مناطق • فكان لكل من فرنسا وبريطانيا العظمى منطقة ادارة ومنطقة نفوذ ، ثم تكون هناك بعد ذلك منطقة دولية مطابقة لفلسطين تقريبا : أما الدولة العربية فى سورية فقد قدر لها ،ويا للسخرية ! ، أن تتألف من منطقتى النفوذ البريطانى والفرنسية • أو بمعنى آخر ستنشأ دولة أهلية بدمشق كعاصمة لها على مثلث من البلاد يقع بين المنطقتين اللتين ستحكمهما فرنسا وبريطانيا حكما مباشرا ، وتكون هذه الدولة تحت حكم حاكم غربى • لكن الجزء الشمالى منها سيكون تحت النفوذ الفرنسى وتقدم فرنسا وحدها له المستشارين أو الموظفين الاجانب ، وتكون لها الأولوية فى المؤسسات وفى القروض • أما الجزء الجنوبى فيكون تحت نفوذ بريطانيا وتكون صفة هذا النفوذ مماثلة لنفوذ الفرنسيين •

وان من الصعب على الانسان أن يتصور شيئا أكثر شللا من هذه الدولة « العربية » • ولا بد أن تصميمها الخيالى المضحك قد خطر لواضعيه فى نهاية غداء ، من أحد أطباق القشدة النابوليتانية (١) المثلجة حيث توضع مناطق نفوذ الفانيليا والفراولة على الحلوى المستقلة !

وجريا على هذا النسق من الأفكار لونت المنطقة الخامسة بلون الشيكولاته • وهذه المنطقة هى منطقة فلسطين « الدولية » حيث « ستنشأ ادارة دولية يتقرر شكلها بعد التشاور مع روسيا ، ومن ثم بالاتفاق مع الحلفاء الآخرين ، ومع ممثلى شريف مكة • » وقد أعطت المنطقتان الاداريتان كليكيا ، وشطرا كبيرا من الأناضول الأوسط وساحل شمالى سورية الى فرنسا ، بينما أعطت لبريطانيا أراضى الرافدين وميناءى حيفا وعكا من سورية •

وكانت معاهدة سايكس وبيكو هذه ، التى قدر لها فيما بعد أن تعدل

---

(١) نسبة الى مدينة نابولى .

وتعدل وأن تشكل أساس معاهدة سيفر المجهضة ، كانت لا تتفق طبعا مع عهودنا للعرب الأسبق منها ، ولو بأى حال من الأحوال ٠

ولقد جعلت هذه المعاهدة الجديدة من الدولة العربية السورية هزءا فكتبت على فلسطين أن تبتر من أراضيها ٠ وانتزعت من الشريف ما قد أعطى له ٠ والأدهى من ذلك أنها فعلت هذا سرا ، ودون أن تشير اليه أدنى اشارة ، حين كان ابناؤه ورجال قبائله ، فى تلك اللحظة بعينها ، قد بدءوا معركتهم وفاء بكلمته ٠ ومن ثم فان معاهدة سايكس وبيكو صحيفة ليس لها ، وأيم الحق ، مكان من الكرامة والشرف بين صحائف بريطانيا القومية ٠

وهى وان كانت خربة الذمة بالمفهوم العام ، فانها تملك فى الوقت عينه فعلا نقطة تحفظ عليها ماء وجهها ٠ انها ليست غادرة وزائفـة غدر وزيف تصريح بلفور الذى جاء بعدها ٠ فلقد حصلت من الفرنسيين على الاعتراف بمبدأ استقلال العرب ٠ وكانت فرنسا قد حرنت هنا ، وأبت الاعتراف بهذا الاستقلال مهما اتصف بصفات الحماية الفرنسـية أو البريطانية ٠ وها هى فرنسا تمنح موافقتها لهذا المبدأ ٠ ولقد ساهمت فعلا ، وبعد المداولات المتراخية ، فى انجاح الثورة العربية من خلال معونة النقيب بيزنى الشجاع ورجاله البواسل ، على وجه التخصص ٠ وقد جاءت شروط هذا التأييد الفرنسى فى وثيقة وقعت فى آيار أيضا من قبل السير ادوارد جراى والمسيو كامبو (Cambon) السفير الفرنسى فى لندن ، وأعلن فيها أن حكومتيهما قد « قبلتا بمحض ارادتهما أن تعترفا بدولة عربية مستقلة أو اتحاد كونفيدرالى لدول عربية مستقلة تحت حكم أحد الرؤساء العرب ، وأن تحميا هذه الدولة أو هذا الاتحاد ٠ » وخط التشديد من وضعى أنا ٠ وكنا قبل أربعة أشهر قد اعترفنا باستقلال العرب فى جميع الاراضى التى يسكنها العرب ٠

ولقد تجوهل هذا فى وثيقة سايكس وبيكو ٠ أى أن المادة الثانية من هذه المعاهدة قد أشارت الىوجوب استئناف المفاوضات مع العرب فى حين أنها كانت قد بلغت منتهاها منذ زمن ٠ وأما ان كانت هذهالمادة الغريبة قد اعتبرت أن هناك ما يبرر وجودها بسبب الشرط الذى علقه الشريف على معاهدته من أنه سيترك المطالب الفرنسية جانبا على أن يتم الاتفـاق بصددها بعد أن تضع الحرب أوزارها ، فذلك مالا يتضح هنا ٠ أما فيما يخص بريطانيا فان هذه المفاوضات مع العرب قد انتهت ، وان الاعتراف

« بدولة عربية مستقلة أو باتحاد كونفيدرالى لدول عربية مستقلة » قد سبق التسليم به وبصورة لا سبيل الى الجدل فيها .

وعلى أى حال ، هناك نقطة أخرى فى هذه المعاهدة تحفظ عليها ماء وجهها . اذ يخيل لى أنها تبين بالرغم من ذلك الحديث عن استئناف المحادثات ، أن هناك شخصا ما له يد فى هذه المعاهدة ، كان يدرك الموقف الحقيقى بين مكة وبريطانيا العظمى . وهذه النقطة لم يعرها أحد انتباها ، وان كانت تستحق قدرا كبيرا منه . لقد تضمنت المعاهدة تحفظا يقضى باستشارة وأخذ رأى الشريف غداة تقرير شكل الادارة الدولية فى فلسطين نهائيا .

وقد يكون هذا الاشتراط وجد طريقه الى هذه المعاهدة ليرضى حسن نية السير مارك سايكس تجاه العرب ، المعروفة عنه . وليس الذنب ذنبه أن جاءت هذه المعاهدة باترة لاستقلالهم .

لقد كانت الخطوط التى رسمت له تسير فى اتجاه الالتقاء مع مطالب الفرنسيين فقط ، ووافق بموجبها على أن تضم الموصل فى احدى منطقتيهما . وفى هذا دليل أكيد ، على أنه كان على علم تام بمعاهدة الحسين ومكماهون ، وقد أمر بأن يغض الطرف عنها اذ أن منطقة بلاد الرافدين قد احتفظ بها فى هذه المعاهدة للنفوذ البريطانى ، وما كان من الممكن استبدال هذا النفوذ البريطانى بالنفوذ الفرنسى بدون الحصول على موافقة الشريف ، وهو الطرف الآخر فى هذه الصفقة ، اذا أرادت بريطانيا أن تكون وفية بعهودها .

اما ان كان يعلم بنصوص هذه المعاهدة العربية الانجليزية أو أمر بالتغاضى عنها فقد كان ذلك دورا بائسا بالنسبة لسايكس المسكين . اذ كانت مكافأته الوحيدة هى أن ينحى عليه المستر لويد جورج باللائمة فيما بعد . فلقد ردد هذا فى مؤتمر الصلح ظالما السير سايكس فقال : « ان مارك سايكس هو المسئول عن هذه الاتفاقية التى تسبب لنا كل هذه المتاعب مع الفرنسيين . لقد تفاوض فيها بالنيابة عنا مع بيكو ؛ ذلك الفرنسى الذى فاز منه بنصيب الأسد . » (عن ايدل) . والحقيقة هى أن سايكس قد أمر بأن يذهب الى مدى بعيد فى التنازل لكى يرضى الفرنسيين . أما فيما يتعلق به هو نفسه فليست معاهدته هذه بأكثر من صورة مجزأة مرسومة اجزاؤها على رقائق كثيرة من الخشب ، من هذا النوع الذى يتلهى به بعض الناس ويقتلون وقتهم فى محاولة جمعها الى بعضها البعض بحيث تكتمل الصورة وتتضح ماهيتها . ولم يكن دوره فيها الا أن يصف قطعها

البريطانية التى أرسلت اليه فى حقائب رسائل داوننج ستريت المصنوعة من الجلد الأحمر ٠

وهكذا ففى حين قد يكون الفضل فى وضع عبارة التشاور مع شريف (أو شيخ ، كما ورد فى نصها) مكة ، راجعا اليه ، فأغلب الظن أنها من صنع رجل ما فى القاعة البيضاء ذى ضمير أو أنها دبجت بناء على أوامر صدرت منه ٠ لقد تكدر شخص ما ، بل وربما أكثر من شخص ، من هذا الانتهاك لذلك الميثـــاق الذى يكفل للعرب اقامة نظام حكم وطنى فى فلسطين وليس نظاما دوليا ٠ وكان هذا العمل هو أقل تعويض ممكن عن ذلك الانتهاك ٠ لكنه لم يكن يعدو التوصل الى ضم ممثلى الشريف بين أولئك الذين سيقومون بوضع شروط هذا الحكم الدولى ٠ وربما تم هذا العمل على أمل أن يكون الممثلون العرب ، غداة المباحثات ، فى مركز يسمح له بأن يعطلوا جميع اجراءاتها ٠

ولم يكن هناك ما يسبب ايراد اسم الشريف فى هذه الوثيقة ، غير وخز الضمير ، اذ لم يكن حتى يوم توقيعه للمعاهدة مع مكماهون الا مجرد سادن لأماكن المسلمين المقدسة فى بلاد العرب ومجرد سيد للحجاز ٠ أما مركزه كمتحدث رسمى بلسان جنس العرب فى فلسطين وفيما عداها، فلم يجىء اليه الا من خلال مفاوضة تلك المعاهدة ٠ ولذلك ، فأيا كان هذا الشخص الذى مد للشريف هذا المركز فى المفاوضات التى ينتظر اجراؤها فى المستقبل بشأن فلسطين بموجب معاهدة سايكس وبيكو ، وكائنا من كان فى هذه الدوائر التى تسمى بالدوائر الحكومية ، فانه كان يعلم حق العلم بالمعـــاهدة الانجليزية العربية ، ويدرك الالتزامات التى التزمنا بها تجاه العرب والتى تعاقدنا عليها ٠

وليس فى هذا الوضع المعقد المستتر دليل يفضى بنا الى التحقق من شخصية ذلك الرجل ذى الضمير ، أو أولئك الرجال ذوى الضمائر ، الذى أو الذين ، لا بد انه أو أنهم قد أعطوا موافقتهـــم على هـــذه العبـــارة حين عرضت عليهم ، حتى لو كانت هـــذه العبارة من وضـــع الســير مارك سايكس ٠ أما على من عرضت فذلك سر مرة أخرى ٠ فمن الناحية الاسمية أو الشكلية نقول أنها لا بد أن عرضت على «الحكومة» ٠ أما من من أشخاص هذه الحكومة ، والى أى جماعة من جماعات هذه الهيئة التى تضـــطلع بوظيفتها بصورة غريبة بنتمى ، قد درس هذه المعاهدة ومهرها بتوقيعه فالله بذلك هو العليم ٠ وأغلب الظن أن ذلك الرجل الذى تتغلب فيـــه شهامة الخلق ونزاهة الضمير ، والذى كان فى مركز يسمح له بأن يدخل

هذه العبارة أو يؤمن ادراجها في المعاهدة ، هو السير آرثر نيكولسون السكرتير المساعد لمكتب الخارجية ٠٠ ذلك الرجل الذى نبه المسيو بيكو من قبل بوجود المعاهدة الانجليزية العربية ٠ بيد أن ذلك مجرد رجم بالغيب ٠

والشيء الواضح البين هو أن ذلك الادخال لاسم الحسين فى معاهدة سايكس وبيكو يضع مذكرة بتروجراد التى أرسلت قبل ذلك بثمانية أسابيع في وضع لا تحسد عليه ٠ لقد وضع العرب فى المذكرة ، ان أردنا الصدق ، لا لشيء الا لغرض مسحهم وازالتهم من فلسطين ٠ وان هذا التناقض بين هاتين الوثيقتين ليكشف لنا بكل جلاء ذلك التنافر بين سياسات بريطانيا فى تلك الفترة ٠ فبناء على أوامر من السير ادوارد جراى كان السير ماك سايكس فى بتروجراد فعلا بقصد الحصول على موافقة روسيا على تدويل فلسطين ، فى ذلك اليوم عينه ، الثالث عشر بن آذار ، الذى قدمت للروس فيه تلك المذكرة التى أرسلت باسم السير ادوارد جراى ، والتى تستهجن ذلك التدويل !؟ فأى دور حقيقى كان لجراى أن يقوم به فى هذه الافعال ؟

وأياما كانت تستحق هذه لافعال من نعوت ، فبوسعنا أن نلاحظ فى هذا المقام النهج الذى أرسيت به دعائم الصهيونية فى عام ١٩١٦ هى ما تزال فى أوائل أيامها ٠ ان هناك شيئا واحدا ، من بين هذهالمتناقضات والتنافرات وما هو أسوأ منها ، يمكن أن يؤخذ على حدة ، وأن يتابع حتى منتهاه ٠ وذلك هو الاعتراف ، الذى لا جدال فيه ، بعهودنا القائمة للعرب الذى ورد فى اتفاقية سايكس وبيكو ٠ ثم وقبل أن تنقضى بضعة أشهر قامت فى لندن حكومة جديدة ، فعدلت هذه الانزلاقة نحو العدل والانصاف ٠ ولكنها ما تزال ماثلة للعيان ، من حسن حظ الحقيقة ٠

ففى خلال صيف عام ١٩١٦ اعترى نشاطات ممثلى الصهيونية فى بريطانيا توقف ٠ وربما كان انطلاق شرارة الثورة العربية هو الذى كبح هذه الأنشطة الى حين ٠ بيد أن المرجح هو أن أحداثا عظيمة قد أقصت هذه الأنشطة عن الميدان ٠٠ معركة جوتلاند ، وهمات السلوم (Somme) ، ودخول رومانيا الحرب ٠ كما أقصتها عن الميدان كذلك أحداث مؤسية ٠٠ ففى الخامس منحزيران كتشنر منالاوركنى (١) وأقصى معه ، يا للأسف ! ، أى اعتبار للعرب ككيان انسانى ٠

---

(١) بتانه عن مكتب (أو وزارة) الحرب البريطانية نسبة الى اسم الشارع الذى تقع فيه ــ المعرب

وخلفه كسكرتير للحرب المستر لويد جورج وسرعـــان ما خرجت همسات الصهيونيه ، فى الوقت الذى كانت فيه البلاد والحملة تستفيـد من حمية السكرتير الجديد ومن قوته الدافعة ومن قوته الواقعة ، أخذت همسات الصهاينة تفح فى اذنه ، التى لا تميز بين الرخيم وبين الناشز من الأصوات ، فتفعل فيها فعل الوحى والالهام ٠

ولقد اعترت الثورة العربية ، بعد انطلاقتها الجريئة الشـــجاعة ، انتكاسة الولى ٠ فلقد قوبل اقدام العرب وتهورهم ، وقوبلت مباغته الأيام الأولى ، بالمعدات التى أطلقها الأتراك من عقالها الآن ودفعوا بها الى الميدان٠ ولم تكن لدى العرب مدافع سوى المدافع المصرية ، ولم تكن هـذه المدافع بالفعالة لان مدافع الاتراك كانت أبعد منها مدى ٠ وبدون تأييد من مدفعية أقوى من هذه المدافع ؟ يظل الاتراك فى المدينة عقدة يصـعب حلها ٠ ولقد فشلت محاولة لاكتساح هذا المكان بالرغم من أن فيصلا وعليا ظلا يركبان فرسيهما فى حمأة القنابل المنفجرة لكى يعودا رجالهما على تقبل هذه المستحدثات (بالنســبة لهم) المرعبة الرهيبــة ، كأمر مألوف ٠ واوقع الاتراك بالعرب فى ضـاحية العوالى مذبحة ٠ « لقد انتهكت اعراض مئات الأهلين وذبحوا ، وضربت البيوت بالمدفعية ، والقى الأحياء والأموات فى النيران على السواء ٠ » (عن لورانس) ٠

وأنزلنا بحارتنا فى رابغ حيث كان عزيز المصرى قد انطلق ليدرب المتطوعين من السوريين والعراقيين فى وحدات نظامية ، فما جاء الخريف الا كان لديه الفان بالملابس الخاكية الحقت بالقوات التى كانت تحارب تحت امرة الأمير فيصل وأرسلت الطائرات ؛ أربع طائرات ممتازة ، الى رابغ لتغلب كفة « الثلاثه والعشرين مدفعا ، التى كان معظمها قديما بطل استعماله ، والتى كانت من أربعة عشر طراز ٠ » وفى يوم من أيام أواخر تشرين الأول (أكتوبر) الحق لورانس بالجيش العربى ٠ وكان فيصل فى ذلك الحين يقوم بقطع مواصلات الأتراك ٠ وكان عبد الله « بثلاثة مدافع رشاشة يحاصر المدينة ٠ »

وكان الاتراك قد خلعوا الشريف حسين ، بعد وصول انباء الثورة الى القسطنطينية وعينوا آخر بدلا منه يدعى على حيدر ٠ وكانوا قد جاءوا بعلى حيدر هذا الى المدينة ، حيث كانوا يجمعون قوة هائلة للزحف بها على مكة وخلع الحسين ٠ ولما كان خط سيرها المتوقع لا بد أن يمر برابغ ، كان

الرد العربى الانجليزى عليه هو تحصين رابــع • وتم ذلك بتعـــاون من الاسطول والطيران • لكن حرب العرب لم يكن لها اصدقاء كثيرون فى مصر حيث كانت المسئوليات العسكرية والسياسية موزعة بصورة فوضــوية ومربكــة • ويقول لورانس ان « ضــباط الأركان كــانوا يتنبئون بقرب فشلها وتعليق رقبة الشريف على مشنقة تركية » •

وفى أثناء ذلك الحين ، كانت هناك قضية أخرى ؛ بعيدة عن اعمال الحرب فى الصحراء وعن خطر المشنقة ، تحرز تقدما لها • كانت الدهقانة الجميلة العاه ••• الصهيونية تعرض مفاتنها على هذا البلد أولا ثم ذاك وكانت تنظم نفسها فى الولايات المتحدة بنجاح كبير ، الامر الذى كان يعنى شيئا كبيرا بالنسبة لها ، اذ كان فى الولايات المتحدة ثلاثة ملايين يهودى من كل يهودى العالم • وكانت هذه الملايين الثلاثة تتركز فى المدن الكبيرة حيث يكون لنفوذها أكبر الاثر • وفى الثانى من تشرين الأول أصدرت معظم المنظمات الصهيونية الرئيسية فى الولايات المتحدة بيــانا مشتركا ، ضخموا فيه قرارات مؤتمر فيلادلفيا لغاية مبيتة وقد طالب هذا البيان بالحقوق الكاملة لليهود حيثما كانوا يعيشون فى هذا العالم ، كما طالب طبعا بالغاء جميع القوانين والأنظمة التى تتحامل عليهم ، فقال البيان موضحا : « وليكن واضحا للأذهان أن عبارة « الحقوق الكاملة » ينظر اليها على أنها تتضمن :

١ ـ الحقوق المدنية الدينية والسياسية •

٢ ـ تأمين وحماية حقوق اليهود فى فلسطين •

وكان هذا البند الثانى يحتاج الى كل ما يستطيع أن يوليه مؤلفوه له من « نظر » و « فهم » لكنهم لم يكلفوا أنفسهم عنــاء التوقف لبسط وجهة نظرهم هذه ! فحسبهم أن جعجعوا بها فى داخل الولايات المتحدة أو فى خارجها بكل بربرة وضجيج ! أما فى انجلترا فقد قاموا بعمل منظم أحسن تدبيره •

وقد قدر لتقرير رسمى صدر عن المنظمة الصهيونية فيما بعــد أن يشرح هذه الحال فيقول :

كانت الامور فى ذاك التشرين الاول من عام ١٩١٦ قد بلغت مرحــلة أحست فيها المنظمة الصهيونية أن لها الحق فى أن تقوم أيضا رسميا عن

وجهة نظرها بصدد حكومة فلسطين فى المستقبل فى حالة وقوعهـا تحت حكم انكلترا وحكم فرنسا ٠

وكانت هذه خطوة كبيرة الى الأمام ، لها علاقة تنسجم طبعـا مع التطورات التى كانت تحدث فى الولايات المتحدة ، اذ لم تكن آراء المنظمـة الصهيونية قد قدمت بصورة الى الحكومة البريطانية حتى ذلك الحين بالرغم من دخولها من قبـل فى أضـابير مكتب الخـارجية ٠ وها قد آن لها الآن أن تقدم كبيان رسمى ، وبصورة غير رسمية الى هذه الحكومة كما لو كان للمنظمة الصهيونية أهلية دولية معترف بهـا وتتأثر بتقدم انجلترا وفرنسا فى البلاد السورية ٠ أما متى اكتسبت هذه الصفة فهذا أمر يستغلق على كل اكتناه ٠ بيد أن هذه الوثيقة التى تدعى هذه الاهلية قبل الاوان قد قدمت بمهارة من قبل القادة الصهاينة وقبلت من قبل الحكومة البريطانية بمهارة أيضا ٠ ومن ثم فقد وقع الاعتراف بهذه الاهلية المذكورة بالرغم من عدم وجودها ٠

وكانت هذه الوثيقة وثيقة مطولة الى حد ما ٠ ويمكن تقسيمها الى ست نقاط هامة ٠ لقد طالبت فقرة منها بتأسيس شركة يهودية مساهمة تكون غايتها اعادة توطين فلسطين بمستوطنين يهود ٠ ولم يكن مشروع هذه الشركة المساهمة شيئا جديدا ٠٠ لقد طلب من السلطان عبد الحميد فى زمن سابق أن يدرس مشروعا مماثلا ٠ كما انه قد كانت له سوابق بريطانية لها أكثر الصفات جاذبية ٠ وكان مبيتا لهذه الشركة ، دون شك أن تتحول فى مدى قريب الى حكومة ، وبسهولة أكثر من تلك السـهولة التى تحولت بها شركات الى حكومات ٠٠ فى الهند وفى جنوب افريقيا مثلا ٠

وتكون لها فى الوقت عينه السلطة ٠ فى أن تمارس حق التملك بالشفعة فى أراضى التاج وغيرها من الأراضى وفى أن تحصل ، بقصـد الاستعمال الخاص ، على جميع ، أو أى من الامتيازات التى قد تمنحهـا الحكومة أو الحكومتان صاحبتا السيادة فى أى وقت من الاوقات ٠

وحين يقرأ الانسان هذا الكلام لا بد أن يبرز فى ذهنه هذا السؤال « ولماذا تكون هناك حكومة صاحبة سيادة أصلا ؟ » اذ أنه سيكون للشركة الصهيونية المساهمة أن تملك أية أراض فى فلسطين وفى أى وقت تشاء وأن أية امتيازات قد يحصل عليها أى انسان أو قد يكون حصل عليهـا

فعلا ستنزع منه وتعطى لهذه الشركة المساهمة ، فلا يبقى « للحكومة صاحبة السيادة » شيء تفعله الا الأعمال الكتابية من التسليم بكل شيء وانتزاع الملكية من كل انسان . (وما حدث فعلا ، بالرغم من أنه أمر قد لا يبدو مصدقا ، هو أن الخطوط العامة لهذه النبذة قد طبقت فعلا فى بحر ما يقرب من خمس سنوات ، لصالح امتيازات روتنبرج الآثمة) .

وهناك عبارة أخرى هى كما يلى :

لما كان السكان اليهود فى فلسطين يشكلون مجتمعا له قوميةوديانة واضحتان متميزتان فسوف يعترف به رسميا من قبل الدولة أو الدولتين صاحبتى السيادة كوحدة قومية منفصلة .

ويمكن الانسان بالمثل أن يعلق على هذه العبارة فيقول ، لما كان السكان اليهود فى فلسطين لا يشكلون قومية متميزة ولكنهم موزعون بين جميع قوميات أوروبا الشرقية وبعض قوميات أوروبا الغربية وآسيا ولما كان ثلاثة أرباع هؤلاء السكان لا يعطفون على الصهيونية وظلوا يشجبونها حتى بعد أن قدمت الى فلسطين ، ولما كان تعريف اليهود على أنهم كيان دينى أو على أنهم أتباع عقيدة دينية واحدة قد رفض ، ومازال يرفض من قبل الصهاينة السياسيين ، فلا يبدو أن هناك سببا واحدا يدعو الى الاعتراف .. الخ . الاعتراف رسميا هنا الا بثلاث وحدات منفصلة من الضلال والمغالطة .

الا أن هناك عبارة فى هذه الوثيقة لها أكبر الدلالة . ألا وهى العبارة التى ورد فيها ذكر العرب . والشيء المدهش أنهم قد وجدوا لهم مكانا فى وثيقة صهيونية فى ذلك الحين . ولكن على أى نحو جاء هذا الذكر ؟

ان السكان الحاليين ، وهم القليلون جدا ، والفقراء جدا ، والذين لا يتوفر لديهم قسط من التدريب والخبرة بحيث يجعلهم قادرين على احداث تطور سريع ، يحتاجون الى ادخال عنصر جديد وتقدمى بين السكان يرغب فى تكريس كل طاقاته لأعمال الاستعمار طبقا للنظم الحديثة .

والعرب أو « السكان الحاليون » ، كما جاء فى هذه الفقرة المذكورة أعلاه ، كان تعدادهم فى ذلك الحين نحو ٦٧٥٠٠٠ . وفلسطين من حيث الاتساع ليست الا مجرد مقاطعة . وليست هذه على أى حال ، بالحقيقة التى تغل أيدى المنظمة الصهيونية . لقد نفت العرب من ذهنها دون أى تفكير فى عواقب الامور ، بعد ما ظنت أن التعليق على وجودهم بأنهم « قليلون وفقراء » ينهى هذه المشكلة . ولأن يكون الشيء قليلا وفقيرا فتلك

هى الجريمة العظمى فى نظر نمط من التفكير هو فى حد ذاته ، ويا للعجب! قليل وفقير .

ومن ثم فان هؤلاء العرب القليلين فى فلسطين بمئات ألوفهم يحتاجون الى « ادخال عنصر جديد وتقدمى » بينهم . وما أندر العبارات التى تحمل هذه الاهانة البالغة . وقد يصعب على الانسان أن يعثر على عبارة فى منل وقاحة هذه العبارة . فأى حق للصهاينة فى الحديث عما يحتاجه العرب ؟ لا حق من أى نوع كان .

ومع ذلك والأدهى من هذا ، وسواء أكانت هذه العبارة وقحة أم كان المخطط الذى هى جزء منه وقحا ، هو أن الحكومة البريطانية قد قبلت مشروع الشركة المساهمة هذا ، باعتباره حجر الأساس . فالتقرير الصهيونى يقول : « يبدو من الحكومة أنها تعتبر المطالب المتضمنة هذا المشروع كأساس للمناقشة . ومنذئذ سارت المفاوضات فى طريقها قدما وأفضت المحادثات مع رجال الدولة كأفراد « أفضت الى مباحثات ذات صفة رسمية أكثر . وأحرزت الصهيونية اعترافا بها باعتبارها احدى المشاكل المعقدة المرتبطة بالشرق الأوسط من ناحية ، وباعتبارها مسألة احدى القوميات الصغيرة من الناحية الاخرى . » (عن التقرير الرسمى الصهيونى)

وهنا موطن الداء . ولا يتسنى للانسان أن يقدم دليلا أوضح من هذا الدليل هذه السفسطات التى بت للعرب المساكين أن يطردوا بها من ديارهم ويوصح فيها أغراب فى أماكنهم . ان دعائم الصهيونية ؟ أعنى الصهيونية السياسية ، لم تتورط فى هذا المركز الذى هبط عليها من السماء فحسب ، بل دفع بها الى الأمام الى ما هو أبعد من هذا . لقد أصبحت الصهيونية السياسية مشكلة « من المشاكل المعقدة المرتبطة فى الشرق الاوسط » . لقد أدرجت فى غمضة عين بين المشاكل التى تستوجب على الحلفاء أن يواجهوها شيئا فشيئا .

وهذا الدور الذى ادعته الصهيونية لنفسها على هذا النحو دور ليس له سند من أى قانون من القوانين ، ولا من أى صك ، ولا من أية ظروف سياسية كانت سائدة آنذاك أو ساءت قبل ذلك ، فى أى وقت من الأوقات فى حقبة تمتد الى ما يزيد عن ألف عام كر الى الوراء . فالصهيونية السياسية كحقيقة سياسية لم تكتسب فى أى يوم من الأيام أى مركز خارج أدمغة مخترعيها القريبى العهد . الصهيونية السياسية لم تكن

شيئا مزروعا في تربة الشرق الاوسط ولا كان لها مكان بين المشاكل التي تركتها الامبراطورية العثمانية بوفرة كبيرة الى من جاءوا بعدها ٠

لقد جرى جس نبض الامبراطورية العثمانية فرفضت ادخال هـــذه الصهيونية بين عواملها الكثيرة المعقدة ٠ لقد رفضت أن يكون في داخلها بطين يهودي ٠ ولم يسبق لرجل دولة في العالم أن أرهق نفسه بالخوض في الصهيونية ٠ كما لم يرث أي رجل دولة في العالم عن أســـلافه في الكرسي أضابير مملوءة بمفاوضات قام بها أسلافه هؤلاء ، ولها علاقة بها ٠ فالصهيونية بكل بساطة لم تكن مشكلة على الاطلاق ٠ ولقد كان هناك مشكلة يهودية في شرق أوروبا ٠ أما في فلسطين فلم تكن هناك مشكلة وبات في النية الآن زج هذه المشكلة في مكان لم يسبق لها أن وجدت فيه لكن هذا العمل انما هو خلق مشـــكلة أخرى ٠٠ خلق شيء يختلف كل الاختلاف عن تلك المشكلة ٠ أما أن يقول قائل ان الصهيونية مشـكلة معقدة مرتبطة بالشرق الأوسط فهذه لعمري فرية ممجوجة ليس بعدها فرية أما مكانها الحقيقي في دنيا السياسة فهو أنها نظرية بدأت لتوها تمارس ألاعيبها في لندن وباريس ونيويورك ٠

وأما صفة التعقيد التي قرنت بها فهي محض أكذوبة ٠ وأن هـــذا المسمى بـ « التعقيد » لا يدل على شيء في الواقع الا على صعوبة العثـــور على مقولة تكون من الغموض بما يكفي لاخفاء النية في الحاق فلسطين ببريطانيا ، ان عاجلا وان آجلا ٠

بيد أن هذه السفسطة لم تحصر نفسها في نطـاق جعل الصهيونية السياسية تتسلل من أوكارها على هذا النحو لتقبع بين مشاكل الشرق الأوسط ٠ فلقد كسبت الصهيونية بهذه الغربة عينها كذلك « الاعتراف بها كمشكلة مرتبطة بمشاكل القوميات الصغيرة » ٠ وان لها فعلا هـذا الارتباط ٠ والكلمة الفعالة في هذه العبارة هي ، كما يقول المستر ج٠ب مورنون ، كلمة « مرتبطة » ٠ فبالمزيد من المهارة والخبث قلب ذلك الشيء الذي لم يكن شيئا على الاطلاق وانما ضخم الى مشـــكلة ، قلب من جديد الآن من مشكلة وضخمت هذه المشـكلة المكذوبة الى أمة صغيرة عن طريق قرنها بذيل مختلف البلاد الصغرى ٠

والدهاء في هذا التدبير والاختلاق لا يخفى على عين ٠ ففي عام ١٩١٦ كانت الأمم الصغيرة تتجمع لتوها لتعرض التماساتهـا على دول الحلفـاء (المأمول نصرها) ٠ وكونت مع بعضها البعض قافلة سياسية ٠ أو ان

شئت قل قطارا سياسيا • وستنطلق هذه الدول معا حين تحين اللحظة ، وتدوى صفارة هذا القطار لينهب الارض الى محطة المنتهى حيث تجرى الاستعدادات لاستقبال السلام المنتصر • وكان الصهاينة السياسيون على أهبة الاستعداد لهذا تماما • فأعدوا عربة صغيرة علقوا عليها لافتة مكتوبة عليها هذه العبارة : « المشكلة الصهيونية » ليقرنوها بسرعة فى ذيل العربة الأخيرة وبدون لفت للأنظار • وسوف يواصل القطار نفث دخانه وستختفى هذه اللافتة فى مكان ما من الطريق • وعندئذ تمر أمام رصيف الوصول عربة مكتوبة عليها عبارة « الوطن القومى لليهود » فى ذيل عربات تشيكوسلوفاكيا ، ولتوانيا ، ولاتفيا ، والأخريات الباقيات • وهذا المخطط كله غاية فى البساطة • بيد أن فرصة مشاهدة هذه المناورة لا تسنح كثيرا •

وكفانا هذا القدر عن مشروع تشرين الاول • ففى حين كان الشهران الأخيران من عام ١٩١٦ مكرسين فى انجلترا لـ « مباحثات الرسمية » التى ترتبت على تقديم هذا المشروع ، كانت هناك مفاوضات من نوع آخر يقوم بها لورانس فى الحجاز مع الامير فيصل ومع مولود المخلص ، المجند السابق فى الجيش التركى من العرب والذى تطوع في الثورة ، ومع القادة الآخرين • لقد كانوا يجلسون في المحمرة ويتحدثون عن اعدامات جمال فى سورية • ولقد قاطع بعض العراقيين من أعضاء « الفتاة » « الأشداء لورانس ذات مرة بحدة فقالوا ، معربين عما يخالجهم ، ان جمالا على حق لأن من شنقهم قد ضبطوا يتخابرون مع الحلفاء ، ولأنهم كانوا على استعداد لأن يقبلوا السيادة الفرنسية ، والسيادة البريطانية أيضا • وهذه جريمة فى حق القومية العربية •

« فابتسم فيصل ، وغمز لى بطرف عينيه أو كاد يغمز لى • وأسمعت ؟ قال موضحا • « ان الضرورة هى التى تربطنا الآن بالبريطانيين • ويسرنا أن نكون أصدقاءهم • ونحن شاكرون لهم معونتهم • ونتوقع الفائدة فى المستقبل • لكننا لسنا رعايا بريطانيين ، ولو لم يكن بيننا كحلفاء هذا البون الشاسع لكنا أكثر ارتياح بال ؛

وأضاف أحد البحارة الذين كانوا ينزلون على الشاطىء فى رابغ من البوارج الحربية كل يوم : « وعما قريب سيمكثون هنا ليالى ثم يقيمون هنا دوما ويستأثرون بالبلاد • » وتأمل فيصل قليلا ثم قال : « أنا لست حجازيا بحكم تنشئتى ، لكننى والله غيور عليه • وبالرغم من أنى أعلم

أن البريطانيين لا يريدونه فانى مع ذلك لا أدرى ماذا أقول . فهل حين أخذوا السودان لم يكونوا يريدونه أيضا ؟ انهم يتعطشون للبلاد البائسة .... ليبنوها . وهكذا فقد تبدو الجزيرة الغربية فى أعينهم ثمينة ذات يوم » (عن لورانس)

فهل نلوم فيصلا اليوم على هذه الدعابات المليئة بالشكوك بالرغم من اننا أعطيناه العراق فى النهاية ؟ لقد نفس عنها فيصل فى تلك الليلة الاولى التى قضاها لورانس مع الجيش العربى . وفى الصباح التالى تجول لورانس بين رجال القبائل « المتمنطقين بنطاقات الذخيرة » ولبضعة أيام أخرى . ثم عاد الى مصر وقدم تقريرا ضد ارسال حملة بريطانية الى رابغ . وسر هذا التقرير الأركان العسكرية فى مصر ، كما سر هيئة رئاسة الأركان فى لندن ، وكانت هذه الهيئة ضد ارسال أى نوع من قوات الحملات حتى لو كانت تتألف من ثلاث أو اربع كتائب .

وبضربة غير عادية جعلت شهرة لورانس الحربية الجديدة هيئة الأركان فى مصر نصبح أكثر سخاء بالمؤن والاسلحة لاصحاب العرب بدرجة ما كان يجرؤ على توقعها بالطبع . وأرسلت كذلك بضعة نفر من الضباط الاكفاء ليشدوا من أزر الثورة . وبمساعدتهم واصل العرب الحرب . بيد أن انتكاسة أصابتهم دون المدينة فى كانون الأول . لكن العدو لم يستغلها لحسن الحظ .

وكانت صدمة من نوع آخر قد وقعت قبل ستة أشهر أو نحوها . لقد نادى علماء مكة بالشريف « ملكا على الأمة العربية . » وكان هذا أمرا غير دستورى قبل وصول الشريف الى اتفاق مع الأمير ابن سعود الذى كان حتى ذلك الحين قويا فى قطاعه الاوسط من الجزيرة العربية ، وقبل التوصل الى اتفاق مع الرؤساء الآخرين الأقل من ابن سعود شأنا ، والذين كانت لهم جيوب قوية فى هذا المكان أو ذاك من الساحل ومن قبل كان الشريف قد وعد كذلك ، فى المراسلات التى جرت بينه وبين المندوب السامى ، لأن يحترم الاتفاقيات البريطانية القائمة مع هؤلاء الرؤساء . بيد أنّ هذا اللقب فى حد ذاته ، ومن جميع الوجوه ، كان أكثر ، من أى شىء عداه ، كشفا للنقاب عن المعاهدة العربية الانجليزية التى ظلت مستورة حتى ذلك الحين ، بحيث يستحيل ألا يكون مفزعا بالنسبة للندن . وهكذا ألبن الحسين بمزيج من المجادلات والضغط الى التسليم بقبول لقب « ملك الحجاز » ـ الأقل احراجا ـ الى أن يصبح الموقف أكثر وضوحا ـ على حد ما قيل له .

وربما كانت هذه بادرة شؤم بالنسبة لشرف الوفاء بالمعاهدةالعربية الانجليزية فى المستقبل ، لو أنها أدركت . وان أحداثا يمكن أن توصف بأنها أكثر من مشئومة ، ولكنها مخفية عن العرب ، قد حدثت . لقد عاد السير مارك سايكس للظهور فى القاهرة مرة أخرى. وغداة زيارته للمندوب السامى ، « أبدى ملاحظة له أثناء الحـــديث وهو يبسط خريطة . فقال : (ما رأيك فى معاهدتى ؟) » (عن ليدل هار) . وكانت هذه أول كلمـة يسمعها السير هنرى مكماهون فى حياته عن معاهدة سايـكس وبيـكو ! فلم يمكث فى مصر طويلا بعد أن تلقى هذه الصـدمة . ويقول لورانس : « ان الدسائس التى حيكت ضد السير هنرى مكماهون قد بلغت غايتها ، قد نجحت وانتهت باستدعائه الى انكلترا . »

وفى أوائل كانون الأول حل المســـتر لويد جورج محل المســـتر أسكويت فى رئاسة الوزارة . وتسلم خلف السير هنرى مكماهون مهـام منصبه فى بداية كانون الثـــانى التالى . وحل عام ١٩١٧ الذى شهـــد انتصارا كبيرا للصهيونية السياسية .. لكنه شهد هـزيمة كبرى للأمانة السياسية .

الفصل التاسع

خطوات الصهيونية السياسية « الرسمية » الأولى في لندن — برانديز وبلفور — لورانس والوعود البريطانية

اليهود يعارضون الصهيونية — الترتيبات الأولى للانتداب — المعارضة اليهودية فى الولايات المتحدة للصهيونية ٠

اعتراف فرنسا

لخصت اللجنة التنفيذية الصهيونية خط سير الصهيونية الحاسم فى بريطانيا بين عامى ١٩١٤ و ١٩١٧ كما يلى : «لقد وضعت ، خلال الأشهر الاولى من الحرب ، أسس تفاهم وثيق مع رجال الدولة الذين يوجهون أقدار بريطانيا ٠ ولم يكن الزمن قد أصبح مواتيا بعد لاصدار أى تأكيد رسمى من قبل الحكومة البريطانية بالتأييد ٠ لكن جوا قد خلق ، وبات للمرء أن يأمل — اذا ما توفرت ظروف سياسية مناسبة — الحصول على تأكيد كهذا ٠ وخلال العامين التاليين ازداد جو الصداقة والود حرارة ٠ وكان للبذور التى بذرت فى عام ١٩١٤ أن تحمل ثمارها حين أصبح المستر لويد جورج رئيسا للوزارة وأصبح المستر بلفور سكرتيرا للخارجية ٠ »

وهذا الازدياد فى حرارة جو الصداقة والود ان هو الا تعبير صريح عن ذلك الضباب المتكاثف الذى فقد فيه أعضاء الحكومة فى عام ١٩١٦ كل أثر لمتابعة أفعال بعضهم البعض ، والذى ناول فيه أشخاص متسترون بالظلام مشروعات قذرة الى متسللين لا تميزهم العين ٠ وكانت نتيجة هذا ، على أى حال ، هى أن قادة الصهاينة قد ضبطوا يقفون على باب مكتب الخارجية حين انقشع هذا الضباب أو كف عن التكاثف ٠ وفى شباط جرى أول اجتماع ، لا تستر فيه ، بينهم وبين مندوب مفوض عن الحكومة٠ وكان السير مارك سايكس هو هذا المندوب المفوض ٠

وخلال أشـــهر الغموض الستة ، أو نحوها ، التي ســـبقت هذا الاجتماع ، لم يكن القادة الصهاينة بين الفينة والفينة يدرون ماذا يصنعون، بالرغم من أنهم قد استغلوا هذا الغموض الى أبعد حد كما رأينا ٠٠ لقد تاهوا فيه قليلا ، ولقد واصلت الاحداث العامة سيرها أيضـا وعلى نطاق يستنزف جهـــد الحكومة ٠ فأرغمت أحوال روسيا ، وانشغال فرنســا وبريطانيا منذ زمن بالموقف في اليـــونان ، ومشاغل الوزارة البريطانية بمشاكل بريطانيا في حد ذاتها ، مشروعات الصـــهاينة على الانزواء في المؤخرة ٠ حقـــا لقد استقبلت مذكرة بتروجراد استقبالا لا بأس به من روسيا ، لكن روسيا نفسها كانت قد بدأت تنهار :

وأكد اضطراب الحال في روســيا ضرورة الحصـــول على مساعدة الولايات المتحدة بالنسبة لقضية الحلفاء ٠ وكان يظن أن العقبة الاساسية في الولايات المتحدة التي تقف في وجه تبنيها لقضية الحلفاء هذه ، تكمن في قوة الامريكيين الالمـــان ٠ وكان معظم هؤلاء الالمان يهودا ٠ وسرعان ما انتهى ذلك الركود في الاهتـمام بالصهيونية حالما عرضت من جديد ، وعلى اعتبـــار أن هذا الاهتمام الآن هو بمثـــابة وسيلة لكسب انعطاف الامريكيين الألمان حول قضية الحلفاء ٠

أما قبل ذلك ، وبينما كان مكتب الخـارجية ينتقل من يدى السير ادوارد جراي الى يدى اللورد بلفور ، فلم يكن يبين من قادة الصهاينة طرف الا في فترات متقطعة ٠ بل وقد تكون مذكرة تشرين التي قدموها أذهلت تلك الجماعة التي يمكن أن تســـمى ب «الجماعة ذات الضمير الحي» في مكتب الخارجية ، والتي كانت في مركز يسمح لها بأن تذب الصهاينة عن أبواب مكتب الخارجية وتجعلهم يقفون بعيدا عنه ، حين كان حماتهم الكبار مشغولين بالازمات ذات المكانة الاولى ٠

ان أوفى تسجيل لكيفية ارساء هذه العلاقات مع الحكومة الجديدة قد قدمه لنا المستر صمويل لاندمان في الثاني والعشرين من شباط وفي الأول من آذار في مقالتين انطباعيتين أرسل بهما الى مجلة « ورلدجوري » (يهود العالم ـ المعرب) ٠ وكان المستر لاندمان ؛ وهو أحد زعمـــاء المراجعين وهؤلاء هم أكثر قطـــاعات الصهيونية تقـــدما ، كان سكرتيرا للمسيو سوكولوف في ذلك الحين ٠ ثم أصــــبح في حين لاحق سكرتيرا للمنظمة الصهيونية العالمية ٠ ولذا فهو عليم بهذه الأمور ٠ ان هناك بعض التعليقات يمكن أن تقال بصدد هاتين المقالتين ٠ بيد أن في وسعنا هنا أولا أن نورد مجملا للحقائق التي وردت فيهما ، على حد ما يفصلها به هو ٠

واذن فهو يقول ان السير مارك سايكس ، استنادا الى ما كتبه هذا الأخير عن نفسه ، قد حاول أن يكون متصلا بالرأى السائد لدى معشر اليهود الامريكيين ، دون أن يصيب كثيرا من النجاح • وفى وسعى هنا أن أضيف أن السير مارك سايكس كان فى ذلك الحين سكرتيرا مساعدا فى مكتب الحرب ، وأن هذا المنصب لم يكن منصبا اداريا على أى حال • وكان هذا اللقب هو لقبه الرسمى لكنه كان فى الحقيقة يقوم بعمل ضابط اتصـال بين مكتب الحرب وبين مكتب الهند ، ومنظمات الاستخبارات ، وهيئات أخرى ذات أهمية كبرى •

وكان من عادته أن يدور على منـاصب السلطة يوميا • ويوفق بين معلوماتها • هذا فضلا عن مقابلات الجنرالات الذين يعودون من الجبهة فى اجازات ، ومقابلة السفراء والوزراء المفوضين وجميع أخلاط الناس من ذوى المكانة والمناصب الكبيرة بشرط أن تكون لديهم معلومات جديدة يهمه الاطلاع عليها • وكان مجلس الوزراء يوليه أذنا صاغية طبعا ••• لقد كان بالاختصار رجلا له أعظم النفوذ •

وليس من العسير على الانسان أن يحدس لماذا لم يصب نجاحا فى محاولاته مع الامريكيين الالمان • وأغلب الظن أنه قد حاول ، بالاشتراك مع « الجماعة ذات الضمير » فى مكتب الخارجية ، أن يقوم بنشاطه فى هذا المضمار من خلال زعماء اليهود البريطانيين ، من خـلال قطاع لوسيين وولف ، ومن خلال مختلف الربانيين (أى الحاخامين) الذين كان هدفهم الوحيد اقامة مركز يهودى روحى وثقافى فى فلسطين •

وأعود الآن الى المستر لاندمان • انه يقول ان السير مارك سايكس كان ذات يوم يشكو عدم نجاحه فى حضور المستر جيمس مالكولم « وهو رجل ارمنى بريطانى مرموق » على حد وصـف المستر ويكهام ستيرله • والمستر مالكولم هذا رجل باليولى ينتمى الى أصل ارمنى • بيد أنه بريطانى من عدة أجداد بريطانيين • وكان على صلة ببعض الصهاينة المتحمسين • وها هو ذا يقول للسير مارك سايكس انه كان ينبغى عليه أن يتوجه الى الصهاينة السـياسيين : « انك تسـير فى الطريق الذى لا يوصلك الى غايتك ، » قال • « فالاثرياء اليهود ، ورجال الدين اليهود الذين تقابلهم ليسوا القـادة الحقيقيين للشعب اليهودى • » ومن ثم فان الصهيونية السياسية أو الصهيونية القومية ـ كما يسميها المسـتر مالكولم ـ هى مفتاح التأثير والنفوذ على الكيان اليهودى فى الولايات المتحدة ، بل وحتى على ما هو أبعد من ذلك • ثم قال المستر مالكولم ان هناك طريقة لجعل

اليهود الامريكيين مؤيدين للحلفاء قلبا وقالبا ، وانه يعرف رجلا فى أمريكا قد يكون أقرب المقربين الى الرئيس ويلسون ، وانه يمكن ، عن طريق هذا الرجل ، تحويل تفكير الرئيس الى الاشتراك الفعال فى هذه الحرب الى جانب الحلفاء ، ان كان فى مقدور رجل واحد فى هذه الدنيا أن يجعله يفعل ذلك • (أما الرجل المعنى بهذا الكلام فهو القاضى لويس برانديز قاضى محكمة الولايات المتحدة العليا) •

ثم أردف المستر مالكولم قائلا : «ان فى وسعكم بهذه الطريقة وحدها أن تكسبوا عطف اليهود فى كل مكان عليكم •• وهذه الطريقة هى أن تعرضوا عليهم أنكم ستحاولون أن تحرزوا فلسطين لهم • » فقال السير مارك سايكس ، وفلسطين المدولة فى معاهدة تتراءى أمام ناظريه مخضوبة بلون الشيكولاته ، ان ذلك مستحيل • فقال مالكولم ، الذى كان يعلم (على ما أرى) عن دخائل وعلاقات اللورد بلفور والمستر لويد جورج أكثر مما يعلمه سايكس عنهما ، انه ينبغى على أخينا الاخير هذا أن يطرح هذا الموضوع أمام الوزارة بأى شكل من الاشكال • فكلم سايكس اللورد ملنر (Milner) فى هذا الامر • وحين أبلغ مالكولم بهذا تحدث مالكولم مرة أخرى عما يمكن احرازه من خلال نفوذ القاضى برانديز • ولقد كانت دوافع المستر مالكولم هذا دوافع منزهة عن الغرض • اذ كان يؤمن بالصهيونية السياسية كقوة سياسية • وكان يعتقد بأنها ستكون ذات نفع كبير لقضية الحلفاء فى أمريكا •

وبعد المزيد من المحادثات استقر الرأى (اذ لم تجد الوزارة ، أو لم يجد أولئك الاعضاء من أعضائها الذين جس نبضهم وصار التقرب اليهم ، أى عقبة ، على ما يبدو ، تقف فى طريق عقد معاهدات مناقضة لمعاهداتنا القائمة) ؛ استقر الرأى على وجوب القيام بمفاوضات بهدف الحصول على تأييد غرب الأطلسى ، وعلى أساس احراز فلسطين لليهود • وكان المستر مالكولم قد قال من قبل باصرار ألا فائدة ترجى من السعى لدى القادة الصهاينة ما لم يكن هناك شىء مما يشبه عرضا واضحا محددا، يعرض عليهم •

وها قد أصبح الآن لأخلاط من الناس شأن بهذا الأمر ؛ بما فيهم المستر هرينبرج رئيس تحرير جريدة الجوويش كرونيكل • فكانت هناك اجتماعات فى بيت الدكتور وايزمان الكائن فى أديسون رود ، منذ أن جاء الى لندن من مانشستر • وفى هذا البيت التقى مالكولم بوايزمان للمرة الأولى على ما يبدو • وكان المستر جرينبرج همزة وصله بالحركة ، على

ما أظن • ثم اجتمع السير مارك سايكس بالمسيو سوكولوف والدكتور وايزمان عدة مرات ، بعلم وموافقة السير موريس هانكى سكرتير الوزارة الحربية •

وفى وسعنا هنا أن نورد فقرة بالتمام والكمال من مقالة المستر لاندمان • انه يقول :

بعد أن تم التوصل الى تفاهم بين السير مارك سايكس وبين وايزمان وسوكولوف ، انعقدت النية على ارسال رسالة سرية الى القاضى برانديز مؤداها أن الوزارة البريطانية ستساعد اليهود على كسب فلسطين فى مقابل الانعطاف اليهودى الفعال ، وفى مقابل تأييد قضية الحلفاء فى الولايات المتحدة بحيث ينجم عن هذا رجحان جذرى لصالح الحلفاء فيها • وقد جرى ارسال هذه الرسالة بالشيفره عن طريق مكتب الخارجية • وكان من بين أهم السكرتيرين المساعدين فى ذلك الحين السير رونالد جراهام الذى لم يكن السير مارك سايكس يخفى عنه سرا • وكان طوال تلك الفترة التى أمضاها فى مكتب الخارجية معنيا بالصهاينة لا يخيب له رجاء • وقد جرى ارسال رسائل كذلك الى قادة الصهاينة فى روسيا لرفع معنويتهم وبقصد الحصول على تأييدهم لقضية الحلفاء التى كان قد لحق بها بعض الضرر من معاملة الروس السيئة لليهود • كما أرسلت كذلك رسائل الى قادة اليهود فى البلدان المحايدة • فكان من نتيجة ذلك تقوية مشاعر اليهود المنعطفة على الحلفاء ، فى كل مكان •

وعن طريق الجنرال ماكدونوه الذى كسبه المستر فيتزموريس الى صفنا (المستر فيتزموريس هو المستر ج•هـ• فيتزموريس ، الذى كان ترجمانا للسفارة البريطانية فى القسطنطينية لسنوات عديدة ، وكان رجلا ذا نفوذ عظيم •) استطاع الدكتور وايزمان أن ينال من الحكومة البريطانية الموافقة على اعفاء نصف ذرينة من الشباب اليهود من الخدمة العسكرية استخدمهم فى العمل النشط الفعال لصالح القضية الصهيونية• وكان العمل بالتجنيد الاجبارى ساريا آنذاك ، ولا سبيل الى اعفاء أحد من الخدمة الفعالة فى الجبهة الا من يشتغلون بعمل ذى أهمية قومية • وانى لأتذكر الآن الدكتور وايزمان وهو يدبج كتابا الى الجنرال ماكدونوه (مدير العمليات العسكرية) ويستثير فيه نخوة

المساعدة في الحصول على اعفاء من الخدمة ل ليون سيمون ، وهاري ساكر ، وسيمون ماركس ، وهيامسون تولكوفسكي ، ولي أنا . وقد نقلت بناء على رجاء الدكتور وايزمان من مكتب الحرب (المخابرات العسكرية ـ الفرع التاسع) حيث كنت أعمل آنذاك الى وزارة الدعاية ، التي كانت تحت رئاسة اللورد نورثكليف ، ثم الى المكتب الصهيوني فيما بعد ، حيث شرعت في العمل فيه في حوالي أيلول من عام ١٩١٦ . وقد وصل سيمون ماركس الى هذا المكتب وهو بملابس الخاكي فعلا ، وشرع توا يقوم بمهمة تنظيمية . وكانت مهمة هذا المكتب ، كما لا يخفى على أحد ، هي أن يكون على اتصال بالصهيونيين في معظم البلدان .

ومنذئذ فصاعدا ولسنوات عديدة اعتبرت الصهيونية حليفة للحكومة البريطانية ، فأصبح كل عون ومساعدة من كل دائرة من دوائر الحكومة أمرا قريب المنال . وما كانت نقف في طريق الرجل مصاعب في الحصول على جواز السفر أو مصاعب سفر حين يكون مزكى من مكتبنا . فلقد قبلت لدى مكتب الداخلية ، على سبيل المثال ، شهادة وقعتها أنا في ذلك الحين ، كدليل على وجوب معاملة أحد اليهود العثمانيين كأجنبي صديق ، وليس كأجنبي عدو ، كما هو الحال مع الرعايا الاتراك .

وهذه لعمري فقرة كاشفة . ونجد مصداقا لاحدى النقاط التي وردت فيها لدى السيدة داجديل ، التي تعين الفترة التي بدأ منها استخدام الشيفرة الرسمية من قبل الصهاينة . فهي ، اذ تتحدث عن تقديم برنامج تشرين الاول ، تضيف قائلة :

ولقد حدث في هذا الشهر عينه شيء لا يكاد يكون أقل دلالة من هذا العمل ... لقد سمح للدكتور وايزمان وللمسيو سوكولوف أن يتصل أحدهما بالآخر ، وبالزعماء الصهاينة الآخرين في الخارج ، عن طريق برقيات ترسل عن طريق مكتب الخارجية الذي كان ينقلها بالشيفرة .

فحين يكون الدكتور وايزمان أو المسيو سوكولوف في القارة (أوروبا) فانهما يتمتعان بالامتياز نفسه لدى السفارات أو المفوضيات البريطانية .

وبهذا النص الذي أوردناه لتونا عن المستر لاندمان ، نصل الى المقابلة «الرسمية» التي تمت في شباط من عام ١٩١٧ ، والتي جاءت في مدونته هذه ، والتي أعقبت هذه الصفقات التي وصفها . أما فيما يتعلق

بمدونته هذه فاليــك ما ينبغى أن نعرج على ذكره · انه يخضــع نشاط وايزمان هنا لنشاط المستر مالكولم وبدرجة كبيرة جدا ،٠٠ وبخاصة فى المرحلة الاولى على الاقل · وما من شك فى أن أثر هذا الزعيم الصهيونى ، وأثر المسيو سوكولوف أيضا ، قد كانا أقل بروزا بالنسبة للرائى من بروزهما بالنسبة للمطلع العليم ببواطن الامور ، فى أواخر عام ١٩١٦ ، لكن مذكرة بتروجراد دليل قاطع على أن الصهيونية القومية أو السياسية هى التى كانت مدرجة فى مشروعات الحكومة البريطانية فى ذلك الربيع، وليست فلسطين المدولة · وما كان لأحد أن يضعها فى ذلك المكان لدى الحكومة البريطانية غير الدكتــور وايزمان وشركاه · وربمــا كان مارك سايكس يجهل أمر الصهيونية · انه يجهل أمرها بناء على ما يدعيه المستر لاندمان ، الأمر الذى يعنى أنه لم يطلــع على مذكرة جراى الى الحــكومة الروسية وقت أن كان يفاوض الحكومة الروسية فيما جاء فيها ! ولو صح هذا فما أشبهه بتلك السياسة التى كانت تنفذ آنذاك ! ويالها من مادة طيبة حقا !

أما الزعم بأن المفاوضات بين الحكومة ذاتها وبين الدكتور وايزمان كانت قد وصلت الى حالة من التوقف ، وبأنهما انما أنقــذت عن طريق تدخل المستر مالكولم من الانهيار ، وبأنه قد أنقذ بالتالى المشروع الانجلو صهيونى بما كان عليه من صياغة آنذاك ، فيخيل لى أن هــذا الزعم قد حمل ما لا يطيق · ويمكن أن يقال دون الحط من قيمة الدور الذى قام به المستر مالكولم ، بأى حال من الاحوال · ان سقوط وزارة ومجيىء وزارة أخرى الى كراسى الحكم خليق به أن يوهن العلاقات مع القادة الصهاينة الى حين · وفى حالة وجود بلفور ولويد جورج فى السلطة فلا يمكن أن يكون الوهن · الا ابطاء مؤقتا · ويجب ألا يغيب عن البــال أن للصهاينة السياسيين خلافاتهم الداخلية التى لا بد أن تلون ما يكتبون · ففى الصراع على الزعامة الذى تطور فيــما بعــد بين شرذمة وايزمان وشرذمة برانديز ينكمش أو يتضخم نصيب زعماء كل جماعة من جماعات الصهاينة فى العمل من أجل القضية الصهيــونية منذ بدايته ، تبعــا لأى من هذه الجماعات بالذات ينتمى الكاتب الذى يقرأ له القارىء ·

وقد يزعم زاعم أيضا أن تبجح الصــهاينة يكسب فى بعض الاحيان أناسا موالين للصهيونية مقتنعين بعقيدتها من بين الجنرالات والسكرتيرين المساعدين الذين يتصرفون طبقا للتعليمات التى تصدر اليهم من رؤسائهم ومن الوزارة بالتالى وحسب · وليس هنــاك دليل يقودنا الى معــرفة دوافعهم ٠٠٠ قد تكون هذه الدوافع عن اقتناع وقد تكون نفعية بحتة ·

وبهذه التحفظات يمكننا الآن أن نتابع قصة الأحداث منطلقين من ذلك الاجتماع الذى عقد فى شباط من عام ١٩١٧ • لقد عقد هذا الاجتماع فى دار الدكتور موشيه جاستر • وجاستر هـــذا رجل قدير بين شراذم الزعماء الصهاينة المتزايدة عددا • وقد وقع فى عين السير مارك سايكس موقعا جد حسن •

ولم يكن السير مارك سايكس بين الحاضرين فى ذلك السابع من شباط بوصفه سكرتيرا مساعدا لوزارة الحربية ولكن بصفته فردا ••• « بصفته الشخصية » وما هذا الحال الا وهم من نلك الأوهام التى تضفى على الدبلوماسية جوا تطمح اليه النفوس • أما حين كان يرسم معاهدته مع المسيو بيكو ، فقد كان على النقيض من ذلك ••• كان حاضرا بوصفه موظفا كبيرا فى مكتب الخارجية •

وفى بيت الدكتور جاستر وجد ، بالاضافة الى مضيفــــه ، اللورد روتشيلد ، والسير هربرت صمويل ، والسادة جيمس دى روتشيــلد ، وكووين ، وبستونيش ، وهارى ســـاكر ، والدكتـــور وايزمان ، والمسيو سوكولوف • وما من شك فى أنهم كانوا جميعـــا حاضرين بكل صفاتهم الشخصية وغير الشخصية التى يمكن أن تخطر على البال • ولم يكن هذا الاجتماع ، وأيم الحق ، اجتماعا بكل معنى الاجتماع ••• لولا أن ذينـــك الرجلين من آل روتشيلد اللذين أضفيا شرف اسمهما على هذا الاجتماع كانا ممن ظهروا فى مقدمة السفينة الصهيونية السياسية فى وقت هو من قرب العهد بما يكفى لأن يوضح لنا المراد من هذا الاجتماع• انهما لم يعودا فى غرفة الآلات ، أو فى مكان الدفة من الحركة الصـــهيونية ، فى مرتبة دون مرتبة رءوسهما المدبرة • وكان الدكتور وايزمان والدكتور جاستر والمسيو سوكولوف ، من الناحية الأخرى ، يتولون ضبط سرعتها وتعيين طريقها • وكان هناك داعية آخر من دعاة هذه الحركة الصهيونيةالسياسية قدر له أن يصبح فيما بعـــد النائب العـــام لادارة فلسطين ، هو المستر بنتوتيش • وكان هذا البنتوتيش قد كتب فقال : « ان ســـيادة الدولة ليست أمرا حيويا بالنسبة للمثل الأعلى اليهودى القومى • » لكنه شدد على ضرورة منح المنشآت الصهيونية والمستعمرين الصـــهاينة فى فلسطين امتياز « الحقوق الخاصة » التى لا تعدد السيادة مادامت تغتصب من أهـــل البلاد حق الاشراف على هؤلاء المستعمرين ومحالهم التى يستوطنونهـــا • كما كان قد تحدث أيضا عن الرقعة التى تمتد من البحر الأبيض المتوسط حتى الفرات واصفا اياها بأنها « فلسطين الكبرى » وقائلا انهـــا تزخر بالروابط التاريخية اليهودية ، وانها تصرخ منادية « ســـكانا ينقذونها

من ضياع وتعفن القرون • » وكان من رأيه أن « الاستعمار اليهودى قد يمتد « الى هذه البلاد •

أما السير هربرت صمويل فكان يمثل أيضا أشكال الصهيونية التى تقول ببلوغ الهدف تدريجيا • لقد كان يهدف الى اقامة ذلك التشكل من أشكال الحكومة فى فلسطين الذى يتمخض فى المدى الطويل عن حكم يهودى • أما المستر هارى ساكر فكان ما يشبه الوكيل لمصالح غير اليهود وممثلا مباشرا للعاملين فى جريدة المانشستر جارديان •

فيالها من مجموعة مركبة اذا أخذت ككل • لقد كان كل واحد من الحاضرين يحمل فى رأسه دولة صهيونية تختلف عن دول الآخرين ، لكن بعضهم كان من « عدائى المسافات الطويلة » كالسير هربرت صمويل ، وبعضهم من « عدائى المسافات القصيرة » وعلى نطاق لا تستثنى منه القفزات الطويلة ولا الجريات القصيرة • ولهذا لم يعرض هذا الاجتماع على السير مارك سايكس مقترحات ايجابية ، وانما تحدث حديثا محددا ولكن بصورة عائمة • فقيل للسكرتير المساعد لوزارة الحربية انه يجب ألا يكون هناك تدويل لفلسطين لأن الصهاينة يرغبون فى حماية بريطانية « مع اعطاء اليهود كامل الحقوق لكى يتطوروا كأمة • » وكانت هذه هى المرة الأولى التى تستخدم فيها كلمة « يجب » مع حكومة صاحب الجلالة • أما سد الطريق على هذه الحماية الذى جاء فى مذكرة بتروجراد والذى أوردناه فيها فى هذا الكتاب فكان مايزال مستورا بعد •

وقرر هذا الاجتماع أن يضيق نطاق المفاوضات ويحصره فى عدد قليل من الناس (وربما فى بضع سياسات بمحض الصدفة) ووقع الاختيار على المسيو ناحوم سوكولوف ، الذى كان الوكيل الأول للجنة التنفيذية الصهيونية العالمية ، ليواصل هذه المفاوضات مع السير مارك سايكس • ورتب أن ينضم المسيو بيكو اليهما ليكون ممثلا للحكومة الفرنسية • وأجرى هذا مشاورة مع سايكس فى اليوم التالى • « وهكذا افتتح ، » كما يقول التقرير الرسمى الصهيونى عن هذا الحادث ، « فصل فى المفاوضات التى انتهت بعد تسعة أشهر بتصريح بلفور • »

وقد أرسلت محاضر هذا الاجتماع فورا وبالتسيفرة الى المنظمة الصهيونية فى الولايات المتحدة • وكان امتياز استعمال التسيفرة الرسمية هذا امتيازا منطقيا بكل تأكيد • اذ بدأت المنظمة الصهيونية فى الولايات المتحدة بكون لها يد فى رسم السياسة البريطانية وفى تنظيم الشئون البريطانية •

وبعد هذا الاجتماع الذى تم بين السير مارك سايكس والمسيو بيكو وقادة الصهاينة توالت الاجتماعات ، وكذلك عقدت اجتماعات أخرى آقل رسمية بين الدكتور وايزمان وبين مختلف رجـــال الدولة ومختلف الناشرين • تم انصرم شهر شباط هدا بالقليل غير هذا ، مما له قيمـــة تذكر ••• اللهم الا ارسال نظرة حانية الى العرب الأبرياء الشرفاء الذين كانوا يتحركون آنذاك شمالا نحو الوجه ، الواقعة على أطراف الحجاز ، ويمسون للمرة الأولى حدود استقلالهم الجديد ، كما كانوا يظنـون • وتقع الوجه هذه على الساحل ، على بعد يزيد على مائتى ميل الى الشمال والغرب من المدائن • واحتلالها يعنى تهديد سكة الحديد ، التى تمد المدائن بالحياة ، من ناحية جناحها • ومعناه أن المدائن ذاتها ستكون مهددة بالعزل اذا ما قطعت سكة الحديد تلك •

وكان لورانس مع فيصل ، ويواصلان الزحف راكبين أو ماشيين على الأقدام • وكان معهما خمسة آلاف رجل يمتطون الجمـــال ويزحفون عبر الصحراء نحو هدفهم ••• هدف نصفه حقيقى ونصفـه الآخر تصورى • وقطع العرب الخمسين ميلا الأخيرة وزادهم الماء وحده اذا لم يكن لديهـم ما يأكلون • لكنهم لم يأبهوا بذلك من جراء قوة ذلك الدافع الذى كان يدفع همهم • فيقول لورانس : « لقد كان التقدم صوب الوجـه أهم شـــاغل يشغلهم • وكانت هذه هى المرة الأولى ، منذ عهود لا تعيها الذاكرة ، التى يترك فيها رجال قبيلة مرابعهم ، ويسيرون فيها فى أراضى الغير مســيرة مائتى ميل ، يحملون معهم متاعهم وأسلحتهم وطعامهم ، ودون مطمــع فى النهب والسلب ، أو طلب للثأر • » وفى ذات ليلة أشار زعيم بدوى شاب موجها نظر لورانس الى تجاويف الشعاب الرمليـــة « التى كـانت تبين وتختفى بومض وخبو نيران المفارز العسكرية المبعثرة • لقد طلب منى أن آتى وأنظر • وشملها بحركة من ذراعه وهو يقول مبتئسا : « اننا لم نعد أعرابا بل شعبا • »

وفى الليلة التالية ، وكل رجل من هؤلاء الرجال يدرك جيدا مايكمن فى مخاطرتهم العظيمة هذه من مخاطر ، ردد شيخ قبيلة أخرى هذا الخاطر عينه مرة أخرى على مسمعى لورانس والى حد كبير • وكان شيخا عجوزا فى هذه المرة ويدعى عودة بن زويد • لقد صحح هذا كلمة كان لورانس قـد قالها عن جيشهم فقال له بكل رزانة وجد : « انه ليس جيشا • انه عالم يزحف على الوجه • »

وسبقتهم الى الوجه فرقة أخرى من المتطوعين العرب جاءوا من اتجاه

آخر ، فاستولت على الوجه الآخر • واشتركت مدافع بارجة بريطانية فى ارهاب الحامية التركية • وتم انزال البحارة البريطانيين فيها بعد أن مهد لهم العرب سبيل النزول • فتدفقت القبائل العربية للانضواء تحت الاعلام العربية • « وكانت الطرق المفضية الى الوجه تعج بالمتطوعين والرسل وبشيوخ القبائل الكبار الذين جاءوا ليقسموا يمين الولاء • » وجعلهم فيصل يقسمون بالقرآن « على أن يتوقفوا حين يتوقف ، وعلى أن يسيروا حين يسير ، وعلى ألا يطيعوا أى تركى ، وعلى أن يعاملوا بالرأفة كل من ينطق باللسان العربى ، وعلى أن يفدموا الاستقلال على الحياة والأهل والأموال • »

وقد ردت الرمال أصداء هذا الايمان • كما شهد آذار انجازات عملية أخرى تتم فى لندن • فلقد أرسل مكتب الخارجية مذكرة الى الوزارة الحربية يوضح فيها الفوائد التى تعود على بريطانيا من تأييدها للصهيونية • وكانت الثورة الروسية فد اندلعت فى الثانى عشر منه • فظن أنه لما كانت هناك شخصيات يهودية كثيرة مشتركة فى هذه الثورة فقد يصبحون أكثر تحبيذا لاستمرار التحالف مع الدول العربيه اذ اقدم لهم هذا (الحلوان) • فاستغل زعماء الصهاينة هذا الوضع ليحرجوا عننا وبفجة الى معارضة اتفاقية سايكس وبيكو • لقد كانوا يعلمون شيئا عن هذا المشروع البريطانى العام لتدويل فلسطين بيد أنهم لم يكونوا يعلمون بعد أنه مشروع سبق الفصل فيه وضمن فى اتفاق انجلو فرنسى • لكنهم الآن قد حصلوا على معلومات عنه ؛ عن خطوطه العامة ، من مصدر فرنسى •

وتعطينا السيدة واجديل فكرة عن هذا الوضع الذى كان قائما آنذاك ، فتقول : « تعلقت أول مقابلة جرت بين الدكتور وايزمان وبلفور فى مكتب الخارجية » ، ويلاحظ القارىء هذا الارتقاء الجديد الذى طرأ على وضعية الدكتور وايزمان • « فى آذار من عام ١٩١٧ ، بالمتاعب الناجمة عن المطالب الفرنسية والايطالية فى فلسطين • فاقترح بلفور أن أحسن شىء يمكن عمله ، اذا ما تعذر الوصول الى اتفاق مع الفرنسيين ، هو جعل الحماية الانجلو أمريكية المشتركة هدفا • فخالج الشك الدكتور وايزمان فى سلامة العمل تحت امرة سيدين قد تكون مبادئهما العامة فى الادارة متباعدة جدا • لكنه وأصدقاءه كانت تكدرهم أكثر من هذا بكثير الاشاعات عن تفسيم فرنسى بريطانى لفلسطين ، يضع طبريا وجزءا من الجليل فى أيدى الفرنسيين • والحق هو أن هذا كان مدار اتفاقية سايكس وبيكو ، التى كانت قد تسربت الى الناس أطراف منها •

أما أن للعرب حقوقا فى فلسطين لا تبيح لأية دولة أوروبية المطالبة بها ، وأن ذلك البلد يأهله العرب ، فهذه حقائق متعبة تجاهلها اللورد بلفور ؛ بكل مثابرة طبعا • ونصح ، هو ومارك سايكس ، القادة الصهاينة بأن يذهبوا الى باريس وروما ويلحفوا عليهما بما يريدون • ففعلوا • لقد قرروا أن يحاولوا أولا مقابلة مراجع الكى دورسيه • وفى وسعنا هنا أن نستشهد بالمستر لاندمان مرة أخرى •

لقد أسدى المستر مالكولم مرة أخرى خدمة جلى لقضية الصهيونية . لقد كان ، بوصفه عضوا فى الوفد الارمنى القومى، على معرفة شخصية بكبار الرسميين الفرنسيين المنوطة بهم أمور الشرق الأدنى ، وبخاصة المسيو جوت والمسيو بيكو والمسيو دى مارجيرى • وكان هؤلاء المفاتيح الثلاثة لأغراض الصهاينة • فذهب مالكولم الى المسيو بيكو أولا ومهد السبيل أمام سوكولوف . وكان سوكولوف هذا قد حاول من قبل أن يكسب تأييد اليهود الفرنسيين فى محاولة كسب مصفين له من بين أعضاء الحكومة الفرنسية فلم يفلح . وبذلت جمعية « الحلف الاسرائيلى » كل جهد لاقناعه بعدم فتح موضوع الصهيونية مع الوزراء .

بل حتى لم يستطع البارون ادمون دى روتشيلد (صديق فلسطين الحميم) وصديق الزعماء الصهاينة أن يسأل الحكومة الفرنسية أن تتخلى عن دورها التقليدى كحامية للمسيحيين فى الشرق الأدنى لصالح بريطانيا • فكان الموقف على هذه الدرجة من التعقيد لدرجة أن سوكولوف كان يشك كثيرا فيما اذا كان سيجد أذنا صاغية فى الكى دورسيه . الا أنه تغلب على جميع هذه العقبات بمساعدة مالكولم . وقرأ زعماء اليهود الفرنسيين بالذهول والاضطراب الشديد فى جريدة الطان Tems أن المسيو بيشو وزير الخارجية قد استقبل المسيو سوكولوف •ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل اكتشفوا أيضا أنه قد دعى فعلا أن يبقى حتى يتناول الغداء معه • فاتصل المسيو جاك بيجار والمسيو سيليفان ليفى ، وكلاهما من جمعية « الحلف الاسرائيلى » بالفندق الذى ينزل سوكولوف فيه ليتثبتا من صحة ما سمعاه ، فانتهى بهما الأمر الى أن يدعواهما نفسيهما المسيو سوكولوف •

ان مساندة سكرتير الخارجية البريطانية والشخصيات الأخرى فى الحكومة البريطانية قد تجوهلت فى هذا التحصيل . فى حين كانت هذه المساندة العون الأكبر بالنسبة للمسيو سوكولوف . وهو فضلا عن ذلك قد التقى بالمسيو بيكو فى لندن فى صباح اليوم الذى أعقب اجتماع السابع من شباط . حقا ان المسيو بيكو لم يكن مشجعا لسوكولوف آنذاك . بيد أن هذا الدبلوماسى قد أردك ، حين قام سوكولوف بزيارته فى باريس ، الى أى مدى قوى كان ذلك التأييد الذى يتجمع فى انجلترا مساندا للصهيونية السياسية .

بيد أن ما هو جدير بالاهتمام كل الجدارة هنا ، فى تحصيل المستر لاندمان ، هو هذه الصراحة بصدد موقف اليهود الفرنسيين .. ان الحال فى باريس هو نفس الحال فى لندن . فزعماء اليهود والفرنسيين لا يحبون ضلال الصهيونية ولا مقترحاتها التى تهدف الى الاستيلاء على فلسطين . وقد ظل المسيو سيليفان ليفى ، وكان ابرز اليهود الفرنسيين وأعظمهم مكانة ، وكان ينتمى الى الكوليج دى فرانس ، ظل مناهضا عنيدا ، ومنافحا لا تلين له قناة ضد النظريات الصهيونية السياسية .

وقد مكث سوكولوف ورفاقه قرابة شهر فى باريس وتغلبوا أخيرا على نفور الحكومة الفرنسية منهم . « أما كيف تغلبوا على هذا النفور » ، فتقول السيدة داجديل . « انه أمر لا دخل له بهذه القصة » . وربما لن يدخل فى أى قصة أخرى أبدا ... ولو أن الوعد بتغيير موقف الولايات المتحدة قد لعب دوره بلا شك . « وقد أرسلت النتيجة عبر الاطلنطى من قبل المسيو سوكولوف من باريس الى زعماء الصهاينة الأمريكيين فى الرابع والعشرين من نيسان . لقد اتفق مكتب الخارجية الفرنسية معهم على أن انتصار الحلفاء فى الشرق الأوسط سيعنى الاعتراف بالصهيونية . » (عن السيدة داجديل) .

أما فى ايطاليا فان من المشكوك فيه أن يكون المسيو سوكولوف قد توصل الى اتفاق واضح محدد كهذا يبرق به الى شركائه فى الولايات المتحدة ، وان كان يبدو عليه أنه راض بما فيه الكفاية من نتيجة الزيارة التى قام بها الى ايطاليا ، حيث مهد السير مارك سايكس له السبيل لدى الفاتيكان ، ولدى المستشارية ، ولدى السفارة البريطانية ، أحسن تمهيد . وقد فتحت محادثاته التى اجراها فى الفاتيكان باب

الحديث عن وضع الأماكن المقدسة بالنسبة للعالم المسيحى فى دولته الصهيونية .

ويقص علينا السيدان وايذ ودى هاعاس فى مؤلفهما المشترك أنه من روما « كان يبرق بكل انجاز الى المنظمات الصهيونيـــة عبر أسلاك البرق التى كانت تشرف عليها الحكومة البريطانية . « كما كان الرسل البريطانيون يقومون بنقلها أيضا . »

وكان هذا دليلا على قوة نفوذ الزعماء الصهاينة المتعاظمة ، والتى كان هذا الامتياز التلغرافى سمة خارجية من سماتها ، لدرجة أنه تسنى لهم أن يحاولوا التوصل الى الغاء معاهدة سايكس وبيكو . والأدهى من هذا أنهم قد نجحوا فى التوصل الى ذلك ... أو فى التوصل الى ما هو معادل لالغاء تلك الاجزاء منها التى لا يرضون عنها . ان الحكومة الفرنسية لم توافق على الاعتراف بالصهيونية وحسب ، بالرغم من أنه لم يكن لها مكان فى أحكام معاهدة سايكس وبيكو ، بل محيت من أصل هذه المعاهدة المنطقة الدولية أيضا ... ان شيئا لم يصرح به أو بكشف عنه النقاب بصورة رسمية ... لكن التدويل قد اختفى ، الى الأبد . وحين أصبحت وثائق سايكس وبيكو المعدلة هذه أساسا لمعاهدة سيفر الموعودة ، فى عام ١٩٢٠ ، كانت تلك العبارة منها التى تقضى بالتدويل قد اختفت ، وكان قد اختفى معها كذلك ذلك الاشتراط ذو الضمير الذى يقضى بوجوب أن تستشير الهيئة الدولية الحاكمة المتوقع قيامها فى فلسطين ممثلى العرب قبل أن تتصرف فى مستقبل هذا البلد وأهله ... « لقد كان هذا التدويل يلقى ، على حد ما ورد فى مذكرة بتروجراد « يلقى المعارضة من جانب الدوائر اليهودية ذات النفوذ »!؟! أو كما يبين لنا كتيب كتبه المستر سايدبوتام حين يقول : « فى عام ١٩١٧ أخذت آراؤنا بصدد التسوية التى ستتم بعد الحرب تصطبغ بصبغة واقعية أكثر ، ورسخها دخول الولايات المتحدة الحرب » .

وكان لدخول الولايات المتحدة هذا آثار هامة على مصير فلسطين من عدة نواح . فقد جرى اصدار بيان هنا عن أهداف الحرب فى الشرق الأدنى بمبادرة من الحكومة . وكان موجها بصفة خاصة الى يهود الولايات المتحدة . وهو يجرى على هذا النحو .

لقد اقترح تبنى ما يلى باعتباره الخطوط العامة لمشروع يهدف الى اعادة توطين اليهود فى فلسطين وفقا للآمال القومية اليهودية :

١ ــ اساس التوطين :

الاعتراف بفلسطين وطنا قوميا لليهود ٠

٢ ــ وضع السكان اليهود في فلسطين بوجه عام .

يكون للسكان اليهود الحاليين أو الذين يذهبون الى فلسطين في المستقبل أن يتمتعوا في جميع أرجاء فلسطين وينالوا كافة الحقوق القومية والسياسية والبلدية ٠

٣ ــ الهجرة الى فلسطين :

تمنح الحكومة صاحبة السيادة على فلسطين حقوق الهجرة الى فلسطين لكافة يهود جميع البلدان ، كاملة وغير مشروطة .

٤ ــ تكوين شركة مساهمة :

تمنح الحكومة صاحبة السيادة على فلسطين ترخيصا لشركة يهودية لتعمير وتطوير فلسطين ٠ ويكون لهذه الشركة أن تحصل على أية امتيازات للقيام بأعمال ذات صفة عمومية، قد تكون منحت أو تمنح من الآن فصاعدا من قبل هذه الحكومة صاحبة السيادة على فلسطين ، ويكون لها أن تقوم بتنفيذ هذه الامتيازات ٠ وتكون لها حقوق التملك بالشفعة في أراضي التاج أو الأراضي الأخرى التي لا تكون مملوكة ملكية خاصة أو ملكية دينية (أراضي الوقف ــ المعرب) ، وتكون لها كذلك مثل تلك الصلاحيات والامتيازات التي تكون أمرا مألوفا في صكوك الامتياز أو أنظمة هيئات الاعمار المماثلة .

٥ ــ الاستقلال الطائفي الذاتي :

يكون للطوائف اليهودية في كافة أرجاء فلسطين أن تتمتع بالاستقلال الذاتي في كافة الأمور التي تؤثر على راحتها الدينية، أو الطائفية ، وعلى تعليمها ٠

فماذا كان هذا البيان « البريطاني » عن أهداف الحرب في الشرق الأدنى ؟ انه ، مرة أخرى ، لا يعدو كونه ، وثيقة صهيونية أخذت منهم واعيد أعلانها . انه برنامج تشرين الأول السابق بكامله ، وباضافة عبارة « الحكومة صاحبة السيادة » وعدة عبارات أخرى من العبارات الأصلية

عادت الى الظهور فيه من جديد . ولقد وصف هذا البيان حين اصدر للمرة الأولى باسم « برنامج تشرين الأول » بأنه « أساس للتباحث » بين الصهاينة والقاعة البيضاء • وما حل هذا الحين الا كان هـــذا « الأساس » قد زحف وتحول الى البناء الأساسى لبيان الحكومة الوزارى عن سياستها ... فياللسحر :

وليس مضـيعة للوقت أن نتوقف هنـا لنلخص تلك الخطوات السحرية التى توصلت بها الصهيونية الى هذا المركز المذهل الذى اكتسبته ببيان نيسان هذا • فلنتمعن فى مراحلها • ان الصهيونية تخلب أولا وقبل كل شيء الباب بعض المشتغلين بالأدب . وقليل من الكتب التى تعرض نظرياتها ترد الى انكلترا ، وهى فى الدرجة الأولى أما بالروسية أو بالألمانية • وتحمل حفنة من الصهاينة المشتغلين بالأدب نفسهـا الى انكلترا كذلك وتترجم عقيدتها الى هذا البلد بكل معنى كلمة الترجمة • وتجد ثقافتهم هذه وسطا ملائما للنمو فى ذهن عضو من أعضاء الوزارة من بنى دينهم • وتظل هذه الثقافة تموج فى ذهنه حتى ينفس عنها على الورق فى شكل مذكرة • وتنتقل هذه المذكرة الى زملائه فى الوزارة فتظل تتطور من خلالهم ، وترد اليها اضافات من المتأدبين أو المستأدبين الأصليين، حتى تتحول الى مذكرة أخرى هى مذكرة بتروجراد التى تستفسر نصف استفسار عن هذه الصهيونية ، وتعلن نصف اعلان عن الفوائد التى ستنجم عن رعايتها ، اذا ما أمكن العثور على شكل مرض لها •

ولكى يهيأ هذا الشكل فان دعاة هذه العقيدة يقومون بتبويبهـا وتفصيلها تبعا لذلك بأسلوب يصفونه بأنه رسمى • لكنه أسلوب رسمى بالنسبة لهم وحدهم ماداموا لا يتمتعون بأى صفة رسمية • وتقدم هذه الصورة الجديدة الى وزير بريطانى ••• الى السفير البريطانى فى باريس••• ويعترف بها بعدئذ بوقت قليل أو تقبل بالأحرى كمكاتبة رسمية صادرة من قبل مرجع من مراجع الحكومة البريطانية . ومن ثم يتحول مقدموها ومؤلفوها أنفسهم الى أشخاص رسميين بطريق حتمى •

وتكون الخطوة التالية بالنسبة لدهاقنة الصهاينة ، الذين أصبحوا الآن أشخاصا رسميين ، تقديم وثيقة جديدة ... تقديم أحدث تجسيد لكل ما سلف ، ألا وهو برنامج تشرين الأول . وتقول الحكومة البريطانية انها ستولى هذا البرنامج الاعتبار ومن ثم تشارك فيه نصف مشاركة . ثم سرعان ما تخرج هذه الحكومة أخيرا ببيانها عن أهداف الحرب ، الذى يتكشف عن انه مطابق لوثيقة تشرين تلك فى كل ما هو مهم .

وهكذا يصبح ما بدأ فكرة ، بعيدة عن التحقيق ، فى رءوس بضعة أغراب فى أطراف أوروبا البعيدة ، يصبح عقل وسياسة الامبراطورية البريطانية . وبالرغم من أن هـــذه التطورات كلها قد حدثت فى بحر ثلاث ســـنين فان عنف عمليتهـــا قد فات على المــــلاحظة وبدت كأنمـــا هى أمر يتفق وناموس الأشياء .

بيد أن الواقع هو أن نمو الصهيونية لم يكن طبيعيا على الاطلاق . وهو لا يرقى فى التشبيه الى شىء يقرب من خدعة شجرة المانجو ... هذه الخدعة التى تمارس الآن فى صورة سياسية لها وعلى أوسع نطاق وبأكثر الايدى خفة فى تاريخ اغواء السياسة والساسة .

وفى ذلك الشهر عينه الذى أخرجت فيه شـــجرة المانجو أزهارها حدث حادث آخر مثمر . لقد غادر اللورد بلفور بريطانيا فى زيارة الى الولايات المتحدة . وكان الهدف الأساسى من هذه الزيارة هو توثيق عرى العلاقات مع ذلك البلد . وكان آنذاك قد انضم الى الحلفاء فى ميدان القتال . ونجح بلفور فى هذا المنحى نجاحا يدعو الى الاعجاب . ولكن كان فى ذهنه كذلك هدف أقل الا وهو دفع المشروع الانجليزى الامريكى الصهيونى خطوة الى أمام . فقابل المستر برانديز ، الزعيم الصهيونى المتمتع بثقة الرئيس ويلسون ، وورقة الصهيونية الرابحة فى الولايات المتحدة ، بعد وصوله اليها بوقت قصير ، فى حفلة اقيمت له فى البيت الأبيض . « انك أحد الأمريكيين الذين طالما تقت الى لقائهم ، « قال بلفور » . وبعد يوم أو يومين جرى بينهما أول حديث من حديثين ... ويبدو من تلك البوادر التى ما زالت حية من تلك المحادثة أن بلفور قد وعد الصهيونية بتأييده الشخصى ، وكان من قبل قد فعل هذا الشىء مع الدكتور وايزمان . لكنه الآن سكرتير الخارجية البريطانية . » (عن السيدة داجديل) .

ويبدو لى أن السيد القاضى برانديز قد اخذ يؤكد لبلفور باســـتمرار ، وطـــوال مدة اقامة البعثة البريطانية ، رغبة الصـــهاينة الامريكيين فى أن يروا ادارة بريطانية تنصب على فلسطين . وأنه لم يبد تشجيعا كبيرا لفكرة اشتراك الولايات المتحـــدة فى الحـــرب ، ملاحظا أن معظم المواطنين الامريكيين يعارضـــون الحـــرب وأنه يجب ألا يلتزم بمســـئوليات تخرج عن هذا الاتجاه الشعبى . وكانت رسائل الدكتور وايزمان وبرقياته تجعله دائما مطلعا أو فى الاطلاع على وجهة النظر

البريطانية . وقد قال وايزمان له ان انكلترا ليست متلهفة على الحاق فلسطين بها ، وقد لا تهتم بأن تعــارض التدويل الذى سيكون ماحقا بالنسبة للآمال الصــهيونية ، لولا تلك الجاذبية التى تتراءى لها من فكرة التوطين اليهودى على نطاق واسع . ومن ثم يجب أن تكون السياسة الصهيونية بذلك المطلب البسيط من اقامة حماية بريطانية على فلسطين ، ورفض كل مشروعات أخرى من شأنها أن تثير الغير (بكسر الغين وفتح الياء) الجديدة ، والسعى الى اقــامة نــوع من الاشراف المشترك . وقد تلقف الصــهاينة الامريكيون هــذه النقطة .

ومن ثم فان السيدة داجديل ، التى أوردت عنها هذه النبــذة تكتشف لنا مزهوة (ولو انه اكتشاف جاء متأخرا نوعا ما بالتأكيد) أن « دبلوماسية قومية يهودية قد خرجت الى حيز الوجود » .

فذلك الـ «مطلب البسيط من اقامة حماية بريطانية على فلسطين» تحتوى على شكل ما من اشكال « الاشراف المشترك » قد وصف قبل ذلك بسنتين فى مذكرة وايزمان ، الذى قال فى هذه المذكرة : « لذلك أرى أن يؤخذ بالحل الوسط : يأخذ اليهود البلاد ، ويقع على عاتقهم عبء تنظيمها كله ، ولكن يعملون فى مدى السنوات العشر أو الخمس عشرة التالية فى ظل نظام من حماية بريطانية » . وهذه كلمات قد صيغت ، والحق يقال ، بمنتهى الدبلوماسية . أما غداة تقدير ما الذى يعنيه اخذ البلاد ــ هذا من قبل اليهود بالنسبة لأهله العرب فان وصف تلك العملية بأنها « عبء التنظيم كله » ليس بالشىء الذى تشمئز منه نفس مؤلفة كتاب الأمير .

وايا ماكانت الصورة التى تم التعبير بها عن مشروع الحماية هذا فان براندیز والصهاينة الأمريكيين قد تبنوه . ولقنه براندیز للرئيس ويلسون . ولم تكن انظمة « الانتداب » قد تفتقت عنها الأذهان بعد . وقبل أن تنتهى زيارة بلفور انهى بلفور الى الرئيس خبر اتفاقية سايكس وبيكو (شأنها فى ذلك شأن جميع المعاهدات السرية المخجلة) ولكن ليس هناك ما يدل على ان الرئيس ويلسون قد القى اليها كثير بال . أما عن المعاهدة العربية الانجليزية فان بلفور ، كما قد يتخيل الانسان ، لم ينبس ببنت شفة . ويخيل لى كذلك أن المستر براندیز لم يخبر بخبر هذا الهيكل العظمى الموضوع فى خزانة مغلقة .

وبينما كان سكرتير الخارجية ما يزال فى الولايات المتحدة جرت محاولة لنقل أخبار معاهدة سايكس وبيكو الى مكان يختلف عن هذا المكان كل الاختلاف . لقد ذهب السير مارك سايكس والمسيو بيكو الى جدة ليخبرا الملك حسين بخبرها • وقد تم هذا بمبادرة من سايكس ، وان كان الواقع هو ان الحكومة الروسية الجديدة كانت قد فضحت جميع الاتفاقيات السرية التى تقسم الشرق الأوسط ، وانها كانت تستعد لنشرها ، فكان لا مفر للحكومة البريطانية من أن تكون صريحة . ويقول الكابتن ليدل هارت : « ولكى يخففا من وقع الصدمة ، ذهب سايكس وبيكو الى الحجاز فى أوائل آيار ليتسنى لهما أن يشرحا للحسين ولفيصل الخطوط العريضة لهذه المعاهدة ، ونوايا الحكومة البريطانية •» وقبل أن يصلا الى الحجاز ، كان هجومنا الأول على فلسطين ــ والذى شنه السير آركيبالد موراى ، فى السادس والعشرين من آذار ، بهدف احتلال غزة كمقدمة للزحف على القدس ، ــ قد أخفق فى بلوغ غايته • وكانت قد جرت محاولة ثانية كذلك ولحق بها الفشل أيضا ، فأصبح واضحا أن الاستيلاء على فلسطين أمر لا يمكن تحقيقه الى حين •

وغير هذا من خطط هذين المبعوثين . ويتابع الكابتن ليدل هارث كلامه فيقول : « وفى الوقت الذى وصلا فيه كان انهيار الهجوم البريطانى على غزة قد جعل آفاق سورية بعيدة جدا • ومن ثم رأى المبعوثان أن من الأوفق أن يبقيا معاهدتهما تحت ستار رقيق من الضباب حين يترجمانها الى الملك حسين • وربما ساعدتهما فى ذلك مصاعب الترجمة العربية وقد ساعدتهما فعلا • ففى اليوم الذى اجتمعوا فيه • وكان التاسع عشر من آيار ــ سرح السير مارك سايكس بالملك حسين فى حديث طويل ، يجرى على النهج البرلمانى فى بلادنا ، ولم يفهمه أحد فهما تاما • وكان أقلهم فهما المترجم الذى كان يونانيا • فكان الذى نقله المترجم الى الحسين بعربية ركيكة أعسر فهما • فأخذ الحسين يصرخ قائلا : « لست أفهم ما تقول ، « وبضرب بيده على فخذه حيث يحتفظ بمعاهدته مع مكماهون فى جيب خاص من جيوب قبائه • انه لم يكن يدعها تخرج من حوزته أبدا . وجرب السير مارك حديثا آخر ، وثالثا المترجم وهو يبذل المزيد من الجهد • وضرب الملك حسين بيده على فخذه مرة أخيره وصرخ قائلا : « كفى ! لقد فهمت ! » فانتهت الاجراءات . ولم يلح الزائران طلبا للمزيد من الحديث لأن الحسين كان قد استشاط غضبا • ان ما وقر بذهنه مما استطاع أن يفهمه من تلك اللغة العربية

الانجلو هيلينية هو أن الدافع من وراء هذه الرحلة اقناعه بأن يتخلى كلية ، و فى نفس المكان والزمان ، عن حقوق العرب فى الألوية الساحلية من سورية التى كان قد وافق على أن « يغض طرفه عنها » فقط الى أن تنتهى الحرب .

وكان فيصل مع أبيه فى هـذه المناسـبة التى وقعت فى احدى ضواحى جده . وكذلك الحال مع عدد من الزعماء السوريين الذين كانوا فى الحجاز آنذاك ، فاعتراهم ما اعتراه من كدر واشمئزاز ، برغم أنهم لم يتبينوا من هذا الأمر أكثر مما تبينه الحسين . وقد سأل فيصـل الكولونيل (العقيد) نيوكومب ، رفيق لورانس فى السـلاح ، والذى كان بين الحاضرين ، عما يعنيه هذا كله ، فقال نيوكومب لفيصل بكل بساطة ، وهو يثق فى الوعود التى سمعها : « ان كل ما أخذه قد وعد به . » ورحل سايكس وبيكو فى اليوم التالى .

وكانت شائعات عن تقسيم سايكس وبيكو قد وصلت فى ذلك الحين الى معسكر القوات العربية بصورة متناثرة تتناقلها الأفواه ، عبر خطوط القتال التركية . ويقص علينا لورانس كيف تملص من سؤال سأله اياه « نورى شلعان العجوز » الذى ارسل به ، على ما يبدو ، ليتحرى منه الخبر . فأعطاه لورانس ـ وشأنه فى ذلك شأن نيوكومب ، وان كان فى الحقيقة أقل ثقة فى عهودنا منه ، لكنه كان يشاطره الرغبـة نفسـها فى عدم تدمير ما لدى العرب من ثقـة واطمئنـان الى عهـود البريطانيين ـ اعطاه جوابا مطمئنا . وكان نورى يحمل مجموعة من الوثائق وسأل أيا من هذه العهود البريطانية المتضمنة فيهـا يصدق . « وكانت هيئته تدل على أن نجاح أو فشل فيصل يتوقف على جوابى . فكانت نصيحتى التى لفظتها ، وخيبة الفأل تأخذ بحواسى ، هى أن يصدقوا أحدث هذه المتناقضات تاريخا . » والواضح هو أن مجموعـة طوابع نورى شلعان العجوز من التصريحات البريطانية لم تكن تحتوى على أحدث ما ظهر منها حقا .

وفى الوقت ذاته طلب زعماء عرب آخرون من لورانس أن يوقع على ظهر وعود الحكومة البريطانية باستقلال العرب . انه لم يكن لديه « أى علم سابق أو مستبطن عن عهود مكماهون وعن معاصرة سايكس بيكو . « لكن بصيرته أنبأته بأننا « اذا ما كسـبنا الحرب فستكون العهود التى قطعناها للعرب حبرا على ورق . ومع ذلك فقد كان الهام العرب هو أداتنا الأساسية فى كسب الحرب فى الجبهة الشرقية . ولهذا

أكدت لهم ان بريطانيا ستفى بكلمتها نصا وروحا · وبهذا المواساة قاموا بالأعاجيب ، لكن بدلا من أن أكون فخورا بما قمنا به معا ، كنت بالطبع أشعر بمرارة الخجل على الدوام . »

لكن لورانس ، حين نمت الى علمه معلومات دقيقة عن اتفاقية سايكس وبيكو ، اتخذ موقفا مغايرا وأخبر فيصلا خبرها بصراحة · « كنت قد فضحت لفيصل ، لحسن الحظ ،وجود هذه المعاهدة ، واقنعته أن ملاذه الوحيد مساعدة البريطانيين بكل ما يسعه الجهد ، لكيلا يستطيعوا بعد الصلح ، ويا للعار ! ، أن يسقطوه من حسابهم غداة تنفيذها (اى تنفيذ معاهدة سايكس وبيكو) . فى حين أنه لو يفعل العرب ما أقصد اليه فانه لن يكون هناك أى حديث من جانب واحد عن اسقاطهم · ورجوته ألا يعول على عهودنا ، كما فعل أبوه ، ولكن على قوة أدائه هو لدوره » .

ولكن يجب على لورانس وعربه أن يفسحوا الطريق الآن ، كما فعلوا فى الحياة ، لنسوق فيه تطور الصهيونية فى قارتين . ففى آيار اعترى الصهيونية عارض جديد . لقد اصابتها نكسة . لقد اصابها شيء أهم بكثير من مجرد التدهور العابر فى الاهتمام بها الذى أتينا على ذكره فى مستهل هذا الفصل . فلقد بلغت المعارضة فى اوساط اليهود أنفسهم للصهيونية السياسية ، التى لم يسمع أحد عنها فى بريطانيا حتى الآن الا أقل القليل ، بلغت أوجها بل لقد امتدت حتى الى مجال الحكومة · وان كان هذا الامتداد قد حدث فى وقت لا حق ... ان بابا قد فتح رويدا رويدا ونفذت الى غرف الاستقبال الحارة نفحة من النسيم الطلق فتوقفت شجرة المانجو الكاذبة عن النمو تحت ملاءة الحاوى !

ومنشأ هذه النكسة يكمن فى ذلك العدد المترايد من الأشخاص الذين واتاهم أن يسمعوا بذلك المركز المتزايد خطره الذى أحرزه هذا البرنامج الصهيونى السياسى . فلقد انتهك هذا البرنامج مبادىء اليهود البريطانيين انتهاكا خطيرا ، وشغل أنهار الصحف اليهودية . وفى العشرين من آيار شرح الدكتور وايزمان ، وهو يترأس مؤتمرا خاصا لمندوبين عن الجمعيات التأسيسية اليهودية فى بريطانيا العظمى ، سياسة حزبه فى بيان عام · (وسوف أورد فى الحال ، ما كان فى جعبته من كلام)· وبعد ذلك بأربعة أيام ، أرسل السيدان ألكسندر ومونتفيور ، رئيسا لجنة النواب البريطانيين اليهود ، والجمعية الانجلو يهودية ، على التوالى ،

وقد أثارهما هذا البيان ، بيان احتجاج الى جريدة التايمز باسم اللجنة المشتركة لهاتين الهيئتين ٠

لقد أعلنا أن اللجنة المشتركة للشئون الخارجية فى هاتين الهيئتين المذكورتين ترى من الضرورى ، على ضوء البيانات والمناقشات التى نشرت مؤخرا بصـــدد توطين يهودى مزمع تحقيقه فى فلسطين على أساس قومى ، أن تسجل ما ترى فيهـا من رأى ٠ وقد استهلا بيانهما باعلان عطفهما على الصهيونية لو أنها نفدت بأسلوب ليس له علاقة بالسياسة ٠ ثم أعلنا تمسكهما بمقولة آيار من عام ١٩١٦ (أى مقولة المسـتر لوسيين وولف التى وضعتها مذكرة بتروجراد على الرف) ٠ ثم تابعا بيانهما الى القول بأن « اقامة قومية يهودية فى فلسطين مبنية على النظرية القائلة بأن اليهود لا وطن لهم ، سيكون من شأنهـا دوس اليهود فى طول العالم وعرض باعتبـارهم أغرابا فى مواطنهم الأصلية ، وتقويض وهدم المكانات التى اكتسـبوها بالجهـد الشـاق والتعصـب المتواصل كمواطنين فى هذه البلاد ورعايا من رعاياها » .

وأوضحا أن نظريات الصـهيونية السـياسية تهدم الأساس الدينى لليهود . وسيكون البديل الوحيد للأساس الدينى :

قومية يهودية دنيوية مجندة على أساس واه غامض من الجنس والخصائص الانوغرافية ٠ لكن هذه القومية لن تكون قومية يهودية بأى معنى روحى . أما اقامتها فستكون تنكرا لجميع المثل العليا ولجميع الآمال التى تجعل من بقـاء الحياة اليهودية فى ذلك البلد أمرا يذكى نفسه لدى الضمير اليهودى ولدى العواطف اليهودية . وبناء على هذه الاسس ، تستنكر اللجنة المشتركة لهيئة النواب البريطانيين اليهود والجمعيـة الانجـلو يهـودية بـكل دأب واصرار مقترحات الصـهاينة (السياسيين) القومية .

ان الجزء الثانى من البرنامج الصهيونى الذى أثار ريب هذه اللجنة المشتركة هو ذلك الاقتراح الذى يقول بمنح المستوطنين اليهود فى (فلسطين) حقوقا خاصة معينة ، فضـلا عن تلك الحقوق التى تتمتع بها بقية السكان ، وبأن هـــذه الحقوق ستضمن فى صك امتياز وتباشر تنفيذها شركة يهودية مساهمة ان مبـدأ الحقوق المتساوية لجميع الطوائف الدينيـة فى جميع البلدان التى تعيش فيها اليهود هو مبدأ هام وحيوى بالنسبة

لهم . فاذا ما قدر لهم أن يضربوا أســوأ المثل فى فلسطين بتجاهلهم هـذا المبدأ فانهم سيدينون أنفسهم بأنهم انما طالبوا به لدوافع أنانية بحته . وسيجدون أنفسهم ، فى البلاد التى ما يزالون فيها يكافحون من أجل نيل هذه الحقوق المتساوية، فى موقف لا يحسدون عليه .

وقد اختتم كتاب الاحتجاج هذا بهذه الكلمات :

ان هذا الاقتراح (الصهيونى السياسى) اقتراح غـير مقبول على الاطلاق لأن اليهود أقلية بين سكان فلسطين ، وربما يظلون كذلك زمنا طويلا ، وربما يورطهم فى أعنف العداوات مع جيرانهم من الأجناس والأديان الأخرى ، الأمر الذى يلحق أفدح الضرر بتقدمهم ويعرقله ، وتكون له أصداء مفزعة فى طول الشرق وعرضه . ولات ساعة مندم .

ونحن فى غنى هنا عن تبيان الى أى مدى كانت هذه الوثيقــة بعيدة النظر وبصيرة ، والى أى مدى محقة ومعقولة . ولو أن هذه النصائح قد ألقى اليها بال لكان وضع بريطانيا واليهود اليوم مختلفا . لكن الدكتور وايزمان وصحبه كانوا يبذلون آنذاك جهودا فوق طاقة البشر ليحركوا هذه الأمة المبعثرة (أى اليهود) ، فى كل بلد من بلدان الحلفاء ، فى مطالبة موحدة باقامة نظام من الحماية البريطانيــة على كومونوبلت فى فلسطين ، « على حد ما تقوله السيدة واجديل . وقد بلغت هذه الجهود أوج غايتها على الأرض البريطانية وانضم أتباع لهم قيمتهم الى عملية (التحريك) هذه . فكتب الحاخام الأكبر آنذاك الى جريدة التايمز ليقول ان كتاب الكسندر ومونتفيور لم تعتمـده لجنة النواب البريطانيين اليهود أو الجمعيــة الانجلو يهودية ، وأن هاتين الهيئتين لم تعط لهما ، فى الأغلب ، فرصة لدراسة محتوياته .

وقد كتب اللورد روتشيلد كذلك ، كتب من ترمج بارك فقال : « اننا نحن الصهاينة لا نستطيع أن نرى كيف أن اقامة دولة يهودية مستقلة ذاتيا وتحت رعاية وحماية من احدى دول الحلفاء » يمكن أن تكون مدمرة لولاء الرعايا اليهود للبلدان التى هم أعضـــاء فيها ، أو أنها قد تكون مدمرة لهذا الولاء . « ولقد أثيرت فى الكتاب الذى نشرتموه كذلك مسألة الشركة صاحبة الامتياز . لقد كنا نشعر دائما أنه اذا ما قدر لفلسطين أن تستعمر من قبل اليهود فلابد من اقامة أداة منظمة (بكسر الظاء ــ المعرب) لاستقبال المهاجرين ولتوطينهم ،

ولتطوير الأرض ، ولكى تكون وكالة توجيه بوجه عام . وفى وسعى أن أؤكد مرة أخرى أننا نحن الصهاينة ليست لدينا اية رغبة فى الحصول على امتيازات على حساب القوميات الأخرى ، وانما نرغب فقط فى أن يسمح لنا أن نكون سادة مصائرنا ، جنبـــا الى جنب من القوميات الأخرى ، فى دولة مستقلة ذاتيا تحت سيادة احدى دول الحلفاء »

وأنا الذى شددت على بعض كلمات اللورد المبجل . وان عدم التصريح باسم تلك الدولة من الدول المتحالفة التى ستكون صاحبة السيادة على فلسطين لهو أمر جد محترم فى رسالته هذه . بيـــد أن أهم ما جاء فيها هو ظهور ذلك النفاق فى هذه الرحلة المبكرة من أن الصهاينة « انما يرغبون فقط فى أن يكونوا سادة مصائرهم ، جنبا الى جنب مع القوميات الأخرى » . فلقد تكشفت هذه اللعبة الشطرنجية الافتتاحية اكثر واكثر مع توالى السنين ، هذه ال « جنبا الى جنب »، التى تستحق الاعجاب ، فى خطط الصهيونية التى وضعتها لكســب فلسطين . لكن اللورد روتشيلد قد أدخلها هنا عن حسن نية بلا شك. انه لم يعرف أدنى اهتمام للمعانى التى تحتوى عليها عبـارة « جنبا الى جنب » هذه . ان هذه العبارة تعنى وجـود شخصين أو هيئتين قواهما متكافئة ويعملان ، أو نعملان معا ــ وعن طواعية وطيب خاطر ــ عملا يعود عليهما بأرباح متساوية وتحصلان منه على توسع متكافىء . وهى تستخدم فى أغراض الدعاية لأنها تعنى هذا . ولكن حين تكون احـدى هاتين الهيئتين قوية ــ كمـا هو الحال فى فلسطين . والأخرى ضعيفة ــ حين تكون احدى هاتين الهيئتين غنية والأخرى فقيرة ... حين تكون احدى هاتين حاذقة خبيرة والأخرى بسيطة متواضعة .. وحين تكون هاتان الهيئتان فى الحقيقة تنشدان غايتين متناقضتين فان من الضلال والافك والبهتان استخدام عبارة « جنبا الى جنب » بقصـد اظهار أنشطة متقاربة بينهما .

بيد أن ما هو أعجب من هذا الكتاب الذى كتبه اللورد روتشيلد، فى هذا المقام ، هو رد الدكتور وايزمان الذى كتبه بوصفه رئيســا للاتحاد الصهيونى البريطانى . لقد ساق فى رده هذا نقطتين ، أولاهما قوله : « أما أن اليهود قومية فهذه مسألة من مسائل الحقيقة التى لا مراء فيها . لقد ظلت أغلبية ساحقة منهم تعتقد اعتقادا راســخا دائما أنهم قومية ، وشاركها فى هذا الاعتقاد أناس من غير اليهود فى جميع البلدان » . وما من شك أن هذه المقولة ، التى طرحها الدكتور

وايزمان على هذا النحو ، مقولة قابلة للمناقشة . كما أن من المرجح أن اختلاف الرأى بصددها لن يكون مرادفا لذلك الخط الذى يقسم الناس بصدد الصهيونية السياسية . وليست تهمنى هنا هذه النقطة الأولى التى ساقها الدكتور وايزمان بقدر ما تهمنى نقطته الثانية : التى هى محل اهتمامى هنا .

ان الصهاينة (قال متابعا كلامه) لا يطالبون باحتكارات أو امتيازات شاملة فى فلسطين ولا هم يسمون الى أن تدير شركة صاحبة امتياز أى جزء من أجزاء فلسطين بما يلحق الضرر بمصالح الآخرين . فان مبدأ وجوب أن تتمتع كافة الأجناس والملل فى فلسطين بكامل الحرية وأوفى العدل ، قد كان دائما وسيظل أبدا مبدأ أساسيا بالنسبة للصهيونية باعتبارها حركة ديموقراطية . وان الصهيونيين لواثقون من أن الدولة الجديدة صاحبة السيادة التى يأملون أن تحظى بها فلسطين كنتيجة للحرب ستسترشد بهذا المبدأ عينه فى ادارتها لهذا البلد .

والذى يقول هذا الكلام هو الدكتور وايزمان يتوجه بحديثه الى قراء التايمز ، أى بمعنى آخر الى الجمهور البريطانى . وما من تعليق على ادعائه هذا أفضل من أن أورد هنا مرة أخرى العبارات التى توجهت بها المنظمة الصهيونية ، التى كان زعيما لها فى بريطانيا ، الى أعضاء الحكومة البريطانية فى « بيانها الرسمى » الذى أصدرته فى تشرين الأول السابق .

١ ــ تكون للشركة اليهودية صاحبة الامتياز السلطة فى أن تمارس حق التملك بالشفعة فى أراضى التاج والأراضى الأخرى ، وأن تنال لمنافعها الخاصة جميع الامتيازات أو أى من الامتيازات التى قد تمنح ، فى أى وقت من الأوقات من قبل الحكومة صاحبة السيادة أو الحكومات صاحبة السيادة .

٢ ــ ولكون السكان الحاليين قليلين جدا فى العدد ، وفقراء جدا ، ويتوفر لديهم أقل الدراية والتدريب اللازمين لاحداث تطور سريع ، يلزمهم ، ادخال عنصر جديد وتقدمى فى عناصر السكان .

ويخيل لى انه يستحيل أن يصدق المرء أن الصهاينة قد جرءوا على أن يعلنوا للملأ أنهم لا يطالبون بأية احتكارات أو امتيازات لأنفسهم ،

وعلى أن يقروا لجميع الأجناس فى فلسطين بكامل العـــدل ومطلق الحرية ، بعد أن قدموا مثل هذا النوع من المطالب للحكومة البريطانية . . انهم فى الخريف يدعون بشيء وفى الربيع يدعون نقيضه ! ولكن دعونا نتابع أقوال الدكتور وايزمان مرة أخرى . ان الحـــال ـ ولنســـتخدم هذه العبارة التى تفتقت عنها عبقريته ـ تستدعى أن نورد جزءا من ذلك الخطاب الذى ألقـــاه فى العشرين من آيار ، والذى أثار ثائرة السيدين الكسندر ومونتفيور بالدرجة الأولى .

ان ذلك البيان لم يكن مصادفة اذ أن الاجتماع الذى ألقاه فيه قد عقد خاصة لهذه الغاية ، وحضره جمهور معين . لقد عقد لكى « تتـــلى رسالته حول الموقف السـياسى لكونه يؤثر على الحركة القومية اليهـودية وتنقل الى الجمعيات اليهودية من خلال مندوبيها » . ولقد استشار الخطيب قبل أن يتلو خطابه هذا ، أولئك الاعضاء فى الحكومة الذين كانت بينـــه وبينهم معاملات فجاء خطابه ، بعبارات منفق عليهـا . وخط التشديد الذى كتبت به بعض العبارات فى هذا النص الذى أسوقه ، من وضعى أنا .

قال الدكتور وايزمان :

سأحاول هنا أن أوضح ، بكل ما أوتيت من قدرة على الايضاح ، ما هى مشروعاتنا ، وكيف نعتقد أننا سنكون قادرين على تنفيذها . ودعونى ، قبل أن أفعل ذلك ، أن أجلو نقطة أو نقطتين . وقد لا أكون جانبت الصواب اذا ما وصفتهـــما بأنهما اساءتى فهم أو أنهما مما يمكن تسميته بالعبارات الخاطئة ان المرء ليقرأ دائما فى الصحف ويسمع دائما من أصدقائه اليهود منهم وغير اليهود على السواء ، أن ما تطمح اليه الحركة الصهيونية هو انشاء دولة يهودية فى فلسطين فورا . بل ولقد ذهب أصدقاؤنا الأمركيون الى ما هو أبعد من ذلك فحددوا حتى شكل تلك الدولة بأن بشروا بجمهورية يهودية . ونحن اذ نرحب من كل قلوبنا بهذه التباينات كتعبيرات أصـيلة عن ارادة اليهود القومية ، فاننا لا نستطيع أن نعتبرهـــا من السياسة المأمونة العاقبة فى شيء مهما يكن فى الوقت الراهن ، فيجب أن يكون واضحا لدى كل من يقف فى غمرة عمل المنظمة الصهيونية ـ كما يجب أيضا الاعتراف به بكل صدق واخلاص ـ أن الاحوال لم تنضج بعد لاقامة دولة على هذا النحـو . اذ ينبغى ان تبنى الدول ببطء وروية وبالتـــدريج . . أن تبنى

بتعقل وصبر ٠٠ ولذلك فنحن نقـــول أنه ان كان خلق الكومنويلث اليهــودى فى فلسطين هو مثلنا الاعــلى النهائى وهو هدف تسعى اليه المنظمة الصهيونية أجمع ـ الا أن الطريق اليه يتألف من سلسلة من المراحل البينيه ٠ واحدى هــذه المراحل البينية ، والتى آمل أنها آتية عما قريب كنتيجة للحرب، هى أن توضع بلاد فلسطين الجميلة تحت حمـــاية دولة قوية عادلة كبريطانيا العظمى ، فيستطيع اليهود تحت جنـــاح هذه الدولة أن ينشئوا ويقيموا ذلك الجهـــاز الادارى الذى سيمكننا من تنفيذ المخطط الصهيونى ، دون أن نتدخـــل فى الوقت نفسه فى المصالح الشرعية للسكان غير اليهود ٠ وقد خول لى أن أقول لكم ان حكومة صاحب الجلالة مستعدة لأن تؤيد خططنا ٠

وأول شيء يمكن أن يقال بصدد هذا الخطاب أنه لا يتفق مع سياقنا الحالى ولا محل له فيه ٠ فسياقنا الحالى هو الخلافات الداخلية بين اليهود وصفة الشركة صاحبة الامتياز المقترح انشاؤها ٠ بيد أن له من الأهمية بالنسبة للمسائل الكبرى فى القضية الفلسطينية بحيث يكون من الضرورى الاشارة فورا اليه ٠٠ الى هذه النقطة موضوع الكلام ٠ فلقد ألقى الخطاب فى آيار من عام ١٩١٧ ، أى قبل سنتين ونصف من خروج عصبة الأمم الى حيز الوجود ، وقبل مايقرب من ثلاث سنوات من « منح » بريطانيا الانتداب على فلسطين ٠ وهكذا فقد فضح كل الدجل والاختلاق « الانتدابيين » أيما افتضاح ٠ أما « التزامات بريطانيا » فقد عراها من ذلك الثوب الذى كان يستر خداعها وبهتانها ٠٠ ففى أواسط عام ١٩١٧ كانت الصفقة مرتبـة فى الخفاء وسلفا ، فبيت « لبلاد فلسطين الجميلة » أن تأخذها بريطانيـــا العظمى ، وأن ينفذ المخطط الصهيونى تحت جناحها ٠ وأن هــذه الخطـة قد تربت فى كنف هذين الفريقين ٠ وأن الدكتور وايزمـان قد سمح له (دون تحفظ) أن يؤكد موافقة البريطــانيين على تأييد هــذا المخطط الصهيونى ٠ حسنا اذن ، ولا سبيل لكم الى الفكاك أو التهرب ٠

ولنعد الى المسألة التى نحن بصددها ٠ لقد كتب وايزمان الى جريدة التايمز ، بعد أربعة أيام من القائه خطابه هذا ، أن الصهاينة لا يطالبون بأية امتيازات أو احتكارات فى فلسطين ٠ فهل كان خطابه هذا الا اعلانا بأن المنظمة كلها تسعى من أجل احتكار أعلى ٠٠ أو من أجل كومونويث يهودى ، كما أسماه ٠ فالصهاينة ـ كما أوضـــح ـ سيستطيعون تحت

الحكم البريطانى انشاء ذلك الجهاز الادارى الذى سيمكنهم من تنفيذ مخططهم هذا فى فلسطين ، وعن طريق سلسلة من المراحل البنية ٠٠ لقد بيت لبلد من بلدان العرب أن يتحول الى بلديهودى • آما حكومة صاحب الجلالة فهى على أتم استعداد لأن تؤيد هذه الخطة !

وكلمة خطة هذه انما هى تعبير مهذب لكلمة مخطط • وفى وسعنا أن نترك للقارىء الحكم عليه ، والحكم بصورة خاصة على الحكومة التى أيدته ، بما يخطر بباله من الفاظ يداها خليقة بهما •

وبعد نشر كتاب الدكتور وايزمان بزمن قليل ، أرسل ثمانية عشر يهوديا بارزين بريطانيى المولد ، بيانا آخر فى الأول من حزيران ، والى التايمز مرة أخرى ، أعلنوا فيه تضامنهم مع السيدين الكسندر ومونتفيور • وكان من بين هؤلاء اللورد سوايتليخ ، والسير ماتيو نانان ، والسادة ايزيدور سبيلمان ، وارنست فرانكلين ، ولورى ماجنوس ، واسرائيل جولانز • وبالرغم من أن نفوذ وايزمان كان يزداد قوة ، تلقى الموقعون كثيرا من التأييد من اخوانهم اليهود ، فثبتوا فى معارضتهم للصهيونية طوال الأشهر التى تلت ذلك • ويعترف المستر لاندمان فيقول : « وكما حاولت الشخصيات الهامة بين اليهود الفرنسيين ، بكل ما اوتيت من جهد، أن تبعد الصهيونية عن حكومتها ، كذلك فعلت بالضبط الشخصيات الهامة الانجلويهودية ، وباقصى ما وسعها من جهد ، أن تبعد الصهيونية عن الحكومة البريطانية • »

ويفصل المستر لاندمان ما حدث فيما يلى :

أخبرنا السير مارك سايكس أنه لابد من عمل شىء نقنع الوزارة به بقوتنا فاضطر القادة الصهاينة الى قبول التحدى • وكان من الضرورى ضرورة قصوى أن نقنع الوزارة أن اليهود البريطانيين صهاينة قلبا وعقلا ، بسبب ذلك الانكار الذى تسمعه دواما من الشخصيات اليهودية البارزة •

فنظمت حملة سريعة بين أعضاء لجنة النواب اليهود ، وحين رئى أن فى الامكان الحصول على اغلبية قدم اقتراح موال للصهيونية وتمت الموافقة عليه بأغلبية وضد رغبات وخطب الرئيس دافيد الكسندر ؛ العضو فى مجلس البلاط ، وآخرين من أصحاب مناصب الشرف • فاستقال الرئيس والمستر هنريك فتركا الميدان خاليا للصهاينة •

والخطأ الوحيد فى هذا القول هو الزعم بأن جميع أعضاء الوزارة كانوا فى حاجة الى اقتناع . ان بعض أعضائها لم يكن يهتم بأن يقوم بعمل مضاد لهذه المعارضة الانجلو يهودية المسجلة . لكن المستر لويد جورج واللورد بلفور كانا لا يأبهان برغبات اليهود البريطانيين على الاطلاق . لقد قر قرارهما على أن يصانعا الصهيونية السياسية ، ولم يكونا يرغبان فقط الا فى أن يجد الصهاينة لهما وسيلة ما يتفاديان بها ، ببعض المعقولية ، هذه العقبة اليهودية التى لم يكونا يأبهان بها فى حد ذاتها .

ويجب أن نضيف هنا أن هذا الأمر كله قد مر دون أن تحس به جمهرة الشعب البريطانى ، بالرغم من اشارات الدكتور وايزمان وخصومه الى « المناقشات المستمرة فى الصحف » . والصحف اليهودية، التى احتلت هذه المناقشات مكانا كبيرا منها حقا ، لا توزع خارج نطاق الطائفة اليهودية . أما الصحف اليومية التى تقرأها الأغلبية الساحقة من الناس فقد عالجت هذه الأزمة الصهيونية العابرة معالجة سطحية ، ان كانت قد عالجتها أصلا . لقد كانت الكتب والخطابات التى تعرضت لها هنا أخبارا تافهة عرضت خلال أسبوع بضج بالأخبار الهامة . وبالرغم من أن هذه الخطابات قد ظهرت فى جريدة المملكة الأولى فان هذه الجريدة ليست من الجرائد التى تقرأها الملايين . وقد خصصت التايمز هذه نفسها مقالة افتتاحية واحدة لهذا الموضوع ، مقالة انعطفت نحو وجهة نظر الدكتور وايزمان . لكنه كان انعطافا على أحسن درجة تنعطف بها جريدة التايمز ، والتى لا تزيد على درجة انعطاف برج بيزا ، انعطاف له أثره ولكن دون أن يتمادى فى ميله كثيرا .

وعند هذا الحد انتهى الشجار على صفحات الجرائد حتى السابع عشر من حزيران حين جرى انعقاد اللجنة المؤتلفة التى يتحدث عنها المستر لاندمان . وحدثت مناقشات حامية وصدر القرار الذى يشجب احتجاج الكسندر ومونتفيور بأغلبية خمسة أصوات ، ست وخمسين صوتا ضد واحد وخمسين صوتا . وبينما استقال المستر الكسندر من رئاسته للجنة النواب اليهود ، وقفت الجمعية الانجلو يهودية ، من الناحية الأخرى ، مع المستر مونتفيور (وهو الأمر الذى لا يقوله المستر لاندمان لنا) . وقد صدر بيان فريد مفرد ، بهذه المناسبة ، من قبل اللورد روتشيلد الذى أنكر « بكل شدة » ولكن بصورة تثير أشد الذهول ، بالتأكيد ، أن « أى مشروع صهيونى قد جرى تقديمه حتى الآن الى الحكومة أو أنه قد جرى التفكير فى تقديم أى مشروع لا يضمن لجميع سكان فلسطين بغض النظر عن الجنس أو العقيدة الدينية أو فى الحقوق المملكنة » .

وبعد هذا اختفت عن أنظار الرأى العام هذه المعركة بين الآراء لكنها ظلت تحتدم فى ميدانها الخاص ، ونقلت كذلك الى خارج بريطانيا

لكنها ظلت تحتدم فى ميدانها الخاص ، ونقلت كذلك الى خارج بريطانيا العظمى . وقام فى الولايات المتحدة شعور معاد لهذه العقائد الصهيونية الجديدة هذه . وقدمت شخصيات يهودية قيادية عددا من الاحتجاجات . وكانت كلها تستند فى الدرجة الأولى الى أن هذه الصهيونية السياسية تدمر الديانة اليهودية بوصفها محورا وملتقى جميع اليهود .

وان مما يسجل بالامتنان لبعض من احتج من هؤلاء أنهم قد أضافوا أن الصهيونية السياسية تعنى الافتئات على سكان فلسطين العرب وطردهم من بلادهم .

وبصدد النقطة الأولى أعلن المستر جاكوب شيف قائلا : « انى أعتقد انى لا أجانب الصواب كثيرا ان قلت أن ما بين خمسين الى سبعين فى المائة من هؤلاء الذين يوصفون بأنهم قوميون يهود اما ملحدون أو لا أدريون ، وأن الأغلبية العظمى من قادة هؤلاء القوميين اليهود لا يهتمون أدنى الاهتمام ، على الاطلاق ، بالديانة اليهودية » .

وفى مدينة يافا خطب رئيس المجمع السنوى للمؤتمر المركزى للربانيين الأمريكيين ، فى شهر حزيران ، فى مستمعيه على هذا النحو :

ما جئت الى هنا لأتشاجر مع الصهيونية . ان فى نيتى فقط أن أعلن أننا ، كربانيين وقفوا أنفسهم على خدمة الحرب . ومنوط بشفاههم أن تحرس المعرفة ، ومن أفواههم ينبغى على الشعب أن يطلب القانون لأننا رسل رب الجنود، لا مكان لنا فى حركة يتكتل اليهود فيها على أسس عنصرية أو قومية ، من أجل دولة سياسية أو حتى من أجل وطن مكفول قانونا ان على عاتقنا يقع الالتزام بحمل هذه الفكرة الرئيسية التى أولاها اليهود منذ خلق الطاعة والايمان ، وترديدها على الدوام وبلا كلال ، وان اسرائيل الدينية التى أجازها التاريخ وقبلها ، ينبغى ألا يضحى بها على مذبح اسرائيل العنصرية البحتة التى أوجدتها المخططات الدنيوية المعاصرة . واذا ما ضحى بها فان المطالب الدينية ليهود عصرنا ، ناهيكم عن الاعتبارات الأخرى ، لا يمكن أن تشبع .

وقد عرى هذا الخطاب مغالطة من المغالطات الأساسية التى تقوم عليها الصهيونية السياسية تعرية ما بعدها تعرية ومزق رداء « الحقوق التاريخية » الكاذب الذى تتذرع به للقيام بانشاء مجرد نوع جديد من أحدث « تخطيطات المدن » .

وبصدد النقطة الثانية تحدث المستر ماير شولزباكر ، الذى كان رئيسا لمحكمة الأحوال الشخصية فى مدينة بنسلفانيا فأصاب كبد الحقيقة . وقد مكنته دقة ذهنه القانونية من أن يبز بقوله كل قول . لقد أوضح فقال :

ان الديموقراطية تعنى أن يختار الناس الذين يعيشون فى بلد من

البلدان حكامهم وأن يحتفظ هؤلاء الناس بحقوقهم الانتخابية هذه اما أن تمنح هذه الحقوق السياسية لجمع من الصهاينة (كتلك الجماعة السياسية التى كانت تتصدى لقيادة اليهود فى ذلك الحين) يتطلع الى الاستيلاء على حكومة شعب موجود فى فلسطين ، فذلك اعتداء على أبسط مبادىء الديموقراطية وانتهاك لها • اذ لا يمكن أن يكون لهذه الحقوق الأساسية المعطاة لهم أى معنى عملى ما لم يكن هدفها الافتئات على هذا الشعب الموجود فى فلسطين وتجريده من حقه فى أن يحكم نفسه بنفسه بأن تفرض عليه ارادة أشخاصا من الخارج قد لا يكونون رأو فلسطين فى حياتهم وقد لا يرنها أبدا •

ان كلمة « افتئات » كلمة قانونية نادرة . وهى فى الانجليزية مأخوذة من أصل هولندى ، ومعناها التجاهل غير القانونى للحقوق والمطالب الشرعية لصالح فرد آخر أو جملة أفراد آخرين لا حق لهم فيها . لقد استخدم قاضينا هذا وصفا ينطبق كل الانطباق للتعبير عن ذلك العمل غير الشريف الذى كان يستعد للانقضاض على حقوق العرب .

كما أثبت الرأى المعارض الأباطيل الصهيونية السياسية وجوده فى القارة الأوروبية أيضا . ففى ايطاليا طالب السنيور لوزاتى ، وهو رئيس وزراء سابق ، ويهودى فى حد ذاته ، بوجوب أن يسعى اليهود الى العيش فى فلسطين كمواطنين أحرار وليسوا كسادة • وفى فرنسا أعلن المسيو رايناك أنه خصم للصهيونية وطن نفسه على محاربتها . وقال هذا اليهودى البارز : « ان القدس ملك لجميع الأديان . ونحن نعرف تاريخها منذ ثلاثة آلاف عام . أما المملكة اليهودية فلم تعمر أكثر من خمسة قرون ، على أكثر تقدير » • وليته ناقش مسألة أبعادها أثناء هذه القرون !

لكن المسائل التى أثارتها هذه التصريحات والبيانات قد قوبلت فى أمريكا وأوروبا كلتاهما بالاغضاء والتجاهل . وفى انجلترا كانت أصلاب المستر لويد جورج ، واللورد بلفور ، واللورد ملنر — وسرعان ما لحق بهم الجنرال سمطس — الذين كانت رءوسهم متشبعة بخليط من المثالية الكاذبة ، والبراعة ، والدهاء ، والافتتان بأقاصيص التوراة ، والحذلقة العبرية ، والأمور التى تمليها الضرورة أيضا ، والاعتراف بالجميل ، والمساومات السياسية ، منحنية على المخطط الصهيونى السياسى . وكان اللورد سيسل (وكان اسمه آنذاك اللورد روبرت سيسل) الذى كان مكلفا بالاشراف على مكتب الخارجية أثناء أن كان بلفور فى الولايات المتحدة ، كان « قد أصبح صهيونيا مؤمنا بها ايمان بلفور تقريبا » . (عن السيدة واجديل) . وفى مكتب الخارجية شرح له واندمان « اعتراضات (الصهاينة) على تقسيم فلسطين بين انكلترا

وفرنسا ، هذا التقسيم الذى وصفه بأنه حكم سليمانى على أسوأ غرار . (عن السيدة واجديل) . وما من شك فى أنهما قد ناقشا هذا التقسيم بمنتهى الجدية والخطورة ، دون أن يدعا لأى سؤال أن يقحم نفسه على افكارهما ، بصدد نوعية هذا الحكم السليمانى ، الذى يقضى بذلك التقسيم على نطاق أوسع الذى يريدون أن يقسموا به سورية كلها .

وقبيل نهاية نيسان أدرك مكتب الخارجية ، طبقا لما تقوله السيدة واجديل ، « أدرك مكتب الخارجية ببعض خيبة الفأل » (وخط التشديد هنا من وضعى أنا — المؤلف) « أن الحكومة البريطانية متورطة ولات من فكاك » . بيد أنه يصعب على المرء أن يرى كيف يمكن أن يكون « مكتب الخارجية » خائب الفأل مما يراه سكرتير الخارجية مشجعا الى أقصى حد . فلقد عاد فى حزيران الى انجلترا مغتبطا من انتشار هذه الأحبولة الصهيونية . ولقد أعلن فى واشنطن فقال : « أنا صهيونى » ثم عاد الى انجلترا « وقد وثق لوين من أحاديثه مع القاضى برانديز ، ومما علمه منه عن موقف الرئيس ، أن سيكون هناك عطف فعال على قضية الحلفاء » . (عن السيدة داجدبل) وهكذا نرى أن من المعقول الافتراض بأن خيبة الفأل هذه التى تعزوها السيدة واجديل الى مكتب الخارجية كلمة كانت مقصورة على عضو أو عضوين من أعضائه . ويوجد هنا افتراض آخر كذلك بأن بعض الرجال فى هذا المكتب المذكور قد تذكروا العرب ، على الأقل ، وتذكروا عهودنا قد حلت منذ زمن بعيد ، أو أقصيت عن هذا المكتب ، وتكون خيبة الفأل هذه قد نشأت من الخوف من كون لويد جورج وبلفور ينعجلان الخطى .

وفى ذلك الحين تبنت وزارة الشئون الخارجية فى باريس ، أى الشىء المقابل لمكتب الخارجية فى لندن ، قضية الصهيونية . وأصدر المسيو كامبون بالنيابة عن حكومته مذكرة تتحدث عن دول الحلفاء فتقول انها « كعمل من أعمال الانصاف والتعويض « تسهم بحمايتها » فى بعث القومية اليهودية فى ذلك البلد الذى نفى منه شعب اسرائيل لقرون عديدة خلت » .

وقد جرى ابراق هذا الاعتراف الفرنسى بالقومية اليهودية فى فلسطين ، بالفرحة والسرور — ان كانت هناك حاجة لأن نقول ذلك — الى مختلف الأوساط اليهودية ، عبر أسلاك البرق فى جميع أنحاء العالم . وكان الجلى أن هذا العمل أن هو الا خطوة تمهيدية لتقوم الحكومة البريطانية باصدار بيان عام . وتم القيام بالخطوة الرسمية الأولى نحو هذا الهدف بعد وقت قصير . لقد زار اللورد روتشيلد ، هو والدكتور وايزمان صحبة ، اللورد بلفور فى مكتبه بالمكتب الخارجى و « أوضحا له أن وقت اصدار بيان صريح محدد بالتأييد والتشجيع قد حان » . (عن السيدة واجديل) .

الفصل العاشر

كيف كتب « تصريح بلفور » ـ مدبجوه الحقيقيون ـ تأكتيكات القاضي برانديز ـ « العصبة البرانديزية » المعارضة اليهودية في انجلترا ـ نشر التصريح

لم يكن وصول المبعوثين الصهيونيين الى مكتب الخارجية والتماسهما اصدار تصريح بريطاني بالتأييد مفاجأة بالنسبة لسكرتير الخارجية طبعا . اذ أن جميع المفاوضات التي جرت منذ شباط كانت تذهب هذا المذهب الوحيد من وجوب تبني بريطانيا قضية الصهيونية علنا . فلقد جرى وضع وتخطيط وتدبيج مقولات مختلفة ، كالمقولة التي أعلنت في تشرين الأول السابق ، واضعة نصب عينيها هذه الغاية . ومن ثم فان زيارة هذين الموفدين الى اللورد بلفور والتماسهما اصدار بيان لم تكن تعدو حركة مسرحية . وليس معنى ذلك أن الوقت كان قد حان ، بالنسبة له ، لكي يصدر بيانا ولكن معناه بلغة الجيش أن الوقت كان قد حان ، بالنسبة له ، لكي يعلن عن نفسه ببيان . لقد كان بلفور يعرف دوره في هذه المسرحية التي تتفق ومذهبه في التمثيل .. فنطق الكلمة التي تعلن البدء بدوره ، وسأل زائريه أن يقدما له « مسودة يطرحها أمام الوزارة الحربية للتصديق عليها » .

ويجب أن نلاحظ هنا أن معنى ذلك أنه كان مطلوبا من حكومة صاحب الجلالة أن تحدد سياستها في هذه الوثيقة التي توشك أن تصدر . وكانت طريقة سكرتير الخارجية في تحضيرها هي أن يطلب من الدكتور وايزمان وزميله الفخري أن يزوداه بمسودة لسياسة حكومة صاحب الجلالة هذه ! وحالما تقدم هذه المسودة للورد بلفور يقوم اللورد بلفور بوضع هذه السياسة التي رسمها الدكتور وايزمان سياسة لحكومة صاحب الجلالة بين يدي حكومة صاحب الجلالة لتوافق عليها . وليس هناك شك في أن جدران مكتب الخارجية قد شهدت وتسترت على كثير من المشاهد الفريدة في نوعها واخفتها بين أركانها . بيد أنه يخيل لي أنها قد ودت في هذه الحالة لو تميل فتلتقي مع بعضها البعض ، امعانا منها في الحيطة ، لتخفي عن الأبصار ذلك

المشهد المزرى الذى ترى فيه سكرتيرا للدولة يطلب من زائر جاء من روسيا أن يجود عليه بمسودة ترسم لحكومته هو الاجـراءات التى ينبغى عليها أن تتخذها . فكان هذ الموقف من المواقف التى تسمى بالمواقف الجلبرتية ، ولو لم تكن لمسـائل الترف والأمانة القوميين الكبرى به علاقة لكان موقفا جلبرتيا حقا (١) .

وانطلق الصهاينة فورا يجهزون هذه المسودة من مذخوراتهم . وقد وكل هذا العمل فى شهر آب الى « لجنـــة سياسية تتألف من أعضاء فى المنظمة الصهيونية . وكان بعضهم من المقيمين فى هذا البلد ، وبعضهم من مختلف بلدان القارة ، ممن يختلفون الى هذا البلد بين حين وآخر ، فكان يطلب اليهم ان يسهموا بجهدهم كلما زاروا انجلترا. وكان من أعضاء هذه اللجنة السادة آشاد هاعام ، وكووين ، واتبخر، وهياسون ، وماركس ، وسيف ، وليون ســيمون ، وتولكوفسكى ، وجابوتنسكى ، وهارى ساكر . وكان المستر لاندمان سكرتيرا لهذه اللجنـــة .

وأسماء هؤلاء السادة ذات خطر كبير ، لأنهم هم الذين انطلقوا يعملون فى تدبيج ما قدر له أن يعرف فيما بعد باسم « تصريح بلفور »، جنبا الى جنب مع قادتهم البارزين . ونحن مدينون بمعرفة هـــذا الدور الذى قاموا به فى هذا العمل الى المنظمة الصهيونية بالدرجـة الأولى .. هذه المنظمة التى اعتراها الزهو فكشفت فى تقاريرها صفقات كم كانت تود القاعة البيضاء لو ظلت طى الكتمان .

وبالاضافة الى هؤلاء المسهمين المذكورين آنفا ، فهناك آخرون ممن اشتغلوا فى هذا « التصريح البلفورى » فى الولايات المتحدة . ولقـــد أشرنا من قبل الى أهمية الصهيونية فى الولايات المتحدة كعامل فى هـــذه المسألة . بيد أنه لا يعرف عن تداخل الصهيونيين الأمريكيين فى توجيه دفة سياسة الادارة الأمريكيين نصف أو حتى ربع ما نعرفه نحن من تداخلهم فى توجيه دفة سياسة الحكومة البريطانية . وان أكثر شىء أسفت عليه ، وأنا أكتب هذا الكتاب ، هو انى لم أكن فى وضع يسمح لى بأن أعبر الأطلنطى لأتقصى ما حـدث فى صالونات الولايات المتحـدة السـياسية قبل اصـدار واعلان تصريح بلفور هذا ، ولأتقصى بوجه خاص الظروف التى حدت بالرئيس ويلسون الى تبنى قضية الصهيونية ومفاهيمها . ولست أعنى بهذا الكلام ان هناك ثمـة ما يدعونى الى الطعن فى سلامة طوية الرئيس . لا أبدا . اما أنه قد زل فهذا أمر

---

(١) مقلوبا راسا على عقب وفوضوى بدرجة تثير الضحك والتندر . وجاء هـذا الوصف فى الانجليزية من اوبرا جلبرت وسـوليفان الشـهيرة التى تميزت على غيرها بالفوضوية فى كل شىء والتمثيل الشاذ بقصد اثارة الضحك والترفيه على المشاهدين ـ المعرب .

واضح تمام الوضوح . والسبب فى هذا راجع الى جهله بأمور هذا البلد البعيد الذى حاول أن يقرر مصيره . وله فى جهله هذا جانب يغفر .. وليس جهله هذا كجهل المستر لويد جورج العابث ولا كجهل اللورد بلفور المتعمد . لقد أخذ الرئيس على عاتقه ، حين وصلته اشاعات عن أحوال سورية الحقيقية ، مسئولية عمل من شأنه أن ينظف من ذكراه ما علق بها من شائبات ، على الأقل . وعلى أى حال، فبدون الالمام الكامل بكل ما حدث فيما يمكن أن توصف بأنها دوائر البلاط فى البيت الأبيض ، سيظل أى تلخيص أو سرد لقصة فلسطين الحديثة ناقصا ولا مفر .

وعلى أى حال ففى وسعنا أن نضيف اضافة أخرى الى ما يعرف عموما فى هذا البلد عن الأحداث التى حدثت فى أمريكا بهذا الصدد . وهذه الاضافة تنسجم انسجاما طبيعيا مع قصة الأشهر القليلة التى سبقت اصدار هذا التصريح . وسيكون من الضرورى فى هذا المقام أن ننحرف عن خطنا العام هنا ونوغل قليلا فى الماضى البعيد قبل أن نعود من جديد ونواصل التجديف فيما تم فى أمريكا وأوروبا من أعمال فى صيف عام ١٩١٧ .

ان جزءا كبيرا من العمل الذى تم فى الولايات المتحدة يرجع الى ما قام به المستر لويس برانديز الذى كان قد أصبح آنذاك أوسع الصهاينة نفوذا فى ذلك البلد واخطرهم شأنا . لقد كان محاميا مشهودا له بالكفاءة أحب الرئيس أن يجعل منه مدعيا عاما فى العام الذى سبق اندلاع الحرب . لكن هذه الرغبة لم يكتب لها أن تتحقق . الا أنه عين فى عام ١٩١٦ عين عضوا فى المحكمة العليا فى الولايات المتحدة . وقد أكد الرئيس نفسه وجود علاقات وثيقة بينه وبين برانديز .

.. لقد أعلن وودرو ويلسون فقال : « لقد امتحنته بطلب مشورته بصدد واحدة من أعقد المسائل العامة وأكثرها تحييرا ، اذ كان لزاما على أن أكون عن تلك المسألة رأيا » . (عن دى هاعاس) .

والواقع هو أن برانديز كان يأتى فى المرتبة الثانية بعد الكولونيل هاوس فى ذلك المستوى المزدوج الذى يتألف من الصداقة مع رئيس الدولة ومن النفوذ . ولم يكن صهيونيا فى شبابه . ومترجم سيرته وهو المستر جاكوب دى هاعاس ، هو الذى جعل الأفكار الصهيونية تدخل عليه فى بوسطن حين كان قد أصبح رجلا بارزا . وقد ألقى برانديز أول خطاب من الخطب التى قالها لصالح هذه الجماعة فى عام ١٩١٣ . ويضيف المستر دى هاعاس فيقول : « ولقد أدرك برانديز فى وقت مبكر من شتاء عام ١٩١٤ وجه الشبه بين المثالية الأمريكية وبين أهداف الصهيونية . ومن ثم لم يتردد فى التقرب من الرئيس ويلسون الذى ابدى عطفه تجاه أفكار برانديز الصهيونية ، ومن ثم

انتقل براندیز الى بحث مستقبل فلسطين مع السـفيرين الفرنسى والبريطانى فى وشنطن » .

وتبعا لذلك يمكن القول بأن الصهيونية قد بدأت كقوة عالمية فى الولايات المتحدة . لقد ارتقت الى مرتبة منحت فيها اعتبارا قوميا قبل أن يحدث هذا فى انجلترا بزمن طويل . هـذه النقطة نقطة ذات مغزى كبير ولا يدرى بهـا الا القليل من الناس . ثم يتابع المسـتر دى هاعاس كلامه ليقدم لنا نتفة فريدة عجيبة من المعلومات . انه يقول ان السير سيسل سيرنج ـ رايس ، سـفيرنا آنذاك لدى الولايات المتحدة ، كان يعطف منذ زمن على السياسة الصهيونية الخاصـة بفلسطين . « لقد نقل لنا ان الحكومة البريطانية تحبذ برنامجا للنوطن اليهودى فى فلسطين كان أكثر تماسكا من ذلك الذى جرى النص عليه فيما بعد ، فى تصريح بلفور الشهير ، بكثير » .

وهـذا الحـديث عن هـذا « البرنامج المتماسـك » لا يتفق أدنى الاتفاق مع موقف المسـتر أسكويث ، رئيس الوزراء فى خـريف عام ١٩١٤ . لأن المستر أسكويث لم يسر فى طريق الصهاينة مسافة تزيد عن رفعه لحاجبيه دهشة وهو يقرأ مذكرة السير هربرت صمويل الافتتاحية بخصوصها ! ولم يحدث له فى يوم من الأيام أن ذهب الى ما هو أبعد من هذا المدى ! فما هو التفسير اذن ؟ اما أن المستر دى هاعاس قد جانب الصواب تماما فى حقائقه هذه ، أو أن مشروعا ما « للتوطين اليهودى » قد جرى رسمه وتبنيه من قبل أعضاء آخرين فى وزارتنا التى كانت تضطلع بالحكم آنذاك ، دون علم رئيس الوزراء . وكلا هذين المذهبين يبدو أمرا بعيدا عن الصدق ولا يقبـله عقـل ، بالرغم من تلك الظروف الفوضوية التى كانت تسود القـاعة البيضـاء خـلال تلك الأشـهر الأولى من الحرب ، والتى وضعناها فى الفصـل السابع . وقد يكون التفسير الممكن لهذا هو أن وثيقة ما قد وجدت طريقها الى السفير البريطانى فى واشنطن من رئيسـه أثناء ان كان السير ادوارد جرى غارقا فى ملاطفاته الضبابية للصهاينة خطبا لودهم، وأن أخبارا عنها قد تسربت فى ذلك الحين الى الرقباء الصهاينة الذين كانوا يطوفون حول دائرة الدولة (١) والبيت الأبيض ، فهول من هذه المذكرة الاستشعارية الجساسة للنبض التى قد يكون جراى قد أرسـل بها الى مرءوسيه السفير المذكور ووصفت بأنها « مشروع متماسك » .

وهناك تفسير آخر ، وقد يكون أقرب الى الصدق ، وهو أن هذه الوثيقة مدار هذا الكلام لم تنشأ من لندن وانما من واشنطن .. فربما جرى ارسال أحد المشروعات الصهيونية التى كانت تتـداول

(١) وزارة الخارجية الامريكية .

آنذاك الى لندن .. الى مكتب الخارجية ، ثم جرى تفسير أى عطف قد يكون أبدى نحوه ووصـــل خبره الى واشنطن فتناولته الأفواه وأخذت تزيد عليه حبة حبة ، جرى تفسيره على أنه عرض بتبنى هــذا المشروع .

بيد أن مايبدو واضحا ، على أى حال ، هو أن اتصـــالا مع الصهيونية السياسية قد جرى وضع أسسه من قبل الســـفارة البريطانية فى واشنطن فى بداية فترة الحرب بالذات . ولا يبدو أن شيئا ذا بال قد نتج من وراء هذا الاتصال فى غضون عام ١٩١٥ ، ولكن فى ربيع عام ١٩١٦ استؤنف هذا الاتصال . اذ كان التودد والغزل الذى يقوم به ساستنا نحو الصهاينة يتخذ شكلا واضحا محددا شـــيئا فشيئا .. وكان ذلك الوقت هو الوقت الذى جرى فيه ارسال مذكرة جراى الغريبة الى الروسيا . واذا أخذنا بما يقوله المستر دى هاعاس، فان المبـــاحثات الدبلوماسية قد اســـتؤنفت مع الرئيس ويلسون ومع السفير البريطانى . وهو يعدد لنا بالتفصيل الظروف التى كانت سائدة فى ذلك الحـين والتى أدت الى هــذا الاستئناف ولكنه لا يبين لنـا من الذى مثل الجانب الصهيونى فى هذه المباحثات ، لكنه يختتم كلامه قائلا : ان التأكيدات التى تلقيناها « والتى اختصرت الى مذكرة من ستة أســطر ممهورة بهذين الحرفين (و . و .) كانت مرضية وكافية تماما » . وان المزيد من العلم عن هذه المذكرة الرياسية التى تتألف من ستة أسطر ، ليستحق الجهد الذى نبذله فى ذكره ، لكننا لن نبعـد كثيرا عن الحقيقة ان افترضنا أنها كانت تعهدا بتأييد مزاعم صهيون فى فلسطين اذا ومتى تحين فرصة ندفعها الى أمام .

وبدخول الولايات المتحدة الحرب فى السنة التالية حانت هذه الفرصة . اذ كان مركز الرئيس فى مجالس الحلفاء مركزا قويا ممتازا . وفى آيار ، وحتى قبل مجىء بعثة بلفور الى أمريكا « انتهز مناسبة ليتيح فرصة ثمينة لبحث مشروعات الصهاينة بصدد فلسطين ، فلم تذهب هذه الفرصة سدى » . ومرة أخرى أقول انه كان بوسع المستر دى هاعاس الذى انقل عنه هذا الكلام ، أن يفصح القول أكثر قليلا . (وأعتقد انه ينبغى على أن أوضح فأقول ان المستر دى هاعاس واحد من طليعة صهاينة الولايات المتحدة . ولست أوافقه فيما يقول لكنى أعرف فيه رجلا حريصا على كشف الحقيقة كما يراها وعلى أن يقدم لقرائه الحقائق . انه يأخذ بأيدى قرائه دائما فيقودهم الى البـــاب المطلوب ، حتى وان كان من هوايته أن يوارب هذا الباب لهم فيبقيه نصف مفتوح . وقد لعب دورا رئيسيا فى المفاوضـــات الانجليزية الأمريكية الصهيونية التمهيدية . ولذا فهو فى مركز يؤهله لأن يقدم لنا حصيلة معتمدة لما حدث) .

كان الموقف فى أوائل الربيع ، أى قبل وصول بلفور ، موقفـــا عجيبا نوعا ما ويدعو الى الفضول . وها أنذا ألخص ما دونه المستر دى هاعاس عنه . كانت دائرة الدولة ، أى وزارة الخارجية فىالولايات المتحدة ، تعارض فى اصدار بيان يعطف على آمال الصهاينة من قبل بريطانيا العظمى الا بعد أن تحبذه فرنسا وايطاليا كلتاهما . فى حين كان الرئيس عازما على أن يساعد قضية الصهاينة الا انه قد عارض مشروعا بلفوريا ، كان يحوم فى الأفق فى ذلك الحين ، ويقضى بوجوب أن تضطلع الولايات المتحدة بالسيادة المأمولة على فلسطين أو أن تشارك بريطانيا العظمى فيها .

وكانت كلمة « السيادة » هى الكلمة الدارجة فى ذلك الحين ، والتى كانت تتخذ شكلا وسمتا ومعنى ومبنى — كما رأينا — فى مختلف الوثائق الصهيونية وغيرها التى كانت تعالج مستقبل فلسطين . ولم تكن كلمة « الانتداب » قد اخترعت بعـد . أما ما جعل ذلك الموقف غريبا فهو أن الولايات المتحدة لم تكن فى حرب مع تركيا . « ولهـذا حدث هناك لبعض الوقت بعض الحيرة والارتباك بصدد هذا المشروع البريطانى الخاص بفلسطين ، (أى أن هذا المشروع هو الذى خلق الحيرة والارتباك) ، الذى بدا منه أنه يعترف بالحكومة صاحبة السيادة (على فلسطين) . وقد خلق هذا الاعتقاد بأن تركيا ستظل هـــذه الدولة صاحبة السيادة (على فلســـطين) ارتباكا كبيرا ولكن جلت حقيقة هذا الأمر بعد أن جرى تبادل برقيات محمومة محيرة ، لقـد اتضح ان البريطانيين يعنون بهذه (الدولة صاحبة السيادة) (على فلسطين) الولايات المتحدة ، ولو أنهم تركوا بابا مفتوحا لهم ليدخلوا منـــه » .

وقد قال المستر دى هاعاس فصدق القول . ففيما يتعلق بمسألة السيادة كان ضرب اللورد بلفور على وتر فكرة السيادة الانجلو أمريكية المشتركة أو حتى على وتر فكرة الاشراف الامريكى مجرد تسلية ولهو . ان أيا من هاتين الفكرتين لم تقترب أبدا من ميدان السياسة العملية .

واهم نقطة نشأت عن هذا الارتباك الذهنى الذى حـــدث فى الولايات المتحدة بصدد شخصية الدولة ذات السيادة على فلسطين مستقبلا ، هى النقطة التى تبين لنا بعد جميع أولئك المهتمين بقضـــية فلسطين عن حقائقها . وهى نقطة أهم من سابقتها بكثير . انهـــم لا يعرفون شيئا عنها . وكان أكثرهم جهلا بها المســـتر برانديز نفسه الذى كان قد أعلن فى خطاب له أن « الصهيونية ليست بالحركة التى تسعى الى أن تنتزع من الأتراك السيادة على فلسطين عنوة » . ولما كان برانديز ديمقراطيا ، من حيث المبدأ ، فى كل شىء غـــير مسألة فلسطين ، فان احتجاجه هذا بأنه ليس منضما الى حركة تهدف الى

اجتثاث الأتراك من فلسطين لا يدل الا على انه يعلم أقل القليل عن فلسطين ، بغض النظر عن هذه الأفكار الخاطئة التي يحملها عنها . انه يظن أن الأتراك هم أهل وسكان هذا البلد الأصليون ،ولهم حقهم الطبيعي في السيادة عليها ، ومن ثم يتضح لنا انه كان لا يعلم شيئا عن وجود العرب ، شأنه في ذلك شأن الرئيس ويلسون . وقد قدر للرئيس ولبرانديز كلاهما أن يعلما فيما بعد بوجود العرب فيها . وأن يستفيدا بما علما ، كل على طريقته الخاصة .

وكانت الخطوة التالية في تقدم الصهيونية في الولايات المتحدة ، مع مقدم اللورد بلفور الذي جاء ببعثة كبيرة معه . وقد سبق لنا أن قدمنا بعض التفاصيل عن اقامته هناك ولكن هناك تفاصيل أخرى نضيفها هنا . لقد وجد هو وأعضاء بعثته الادارة الأمريكية كلها مشبعة بالأفكار الصهيونية تشبعا شديدا ، اللهم الا دائرة الدولة الأكثر حذرا من غيرها والأوسع اطلاعا . ويعود هذا في الدرجة الأولى الى المسيو برانديز . وكان برانديز هذا منظما قديرا .. من ذلك النوع الذي يوصف بالرجل العملي . وكان مبدؤه في العمل هو انه لا ينبغي على الصهاينة أن يعقدوا الاجتماعات ويكتبوا المقالات والادب فحسب ، لكي ينشروا أفكارهم وآراءهم . ان للصهاينة ان يقوموا بهذه الأشياء ، بيد أن ما هو ضروري جدا وأساسي هو أنه ينبغي على الصهاينة ان يثبتوا أنهم ذوو نفع في جميع الطوارىء وفي هذه الأوضاع الجديدة التي خلقتها حالة الحرب التي تهدد الأراضي الامريكية . ولديهم ميزة وجود علاقات تربطهم بجميع أجزاء الكرة الأرضية عن طريق بني دينهم . ولم يكن هذا المبدأ لدى برانديز مبدأ دعائيا بحتا ، بالطبع ، بل كانت في برانديز مسحة حقيقية من حب فعل الخير . ولكن كان هذا المبدأ في الوقت نفسه مبدأ دعائيا .. ودعائيا مدهشا . فاذا ما اكتشف شيخ من شيوخ الولايات المتحدة ، أو موظف مدني من موظفيها ، أو جندي من جنودها ، أو قنصل من قناصلها ، أو مواطن بسيط من مواطنيها أن في امكان رجل نشط ذكي أن يساعده على التغلب على مصاعبه ، ثم علم فيما بعد ، ان عاجلا أو آجلا ، أن هذا الرجل صهيوني ، فان من الطبيعي أن يستنتج ذلك الشيخ أو ذلك الموظف المدني ، أو أيا كانت شاكلته ، أن لابد أن تكون هذه الفكرة الصهيونية فكرة طيبة .

ويصف المستر دي هاعاس هذه الخطة البرانديزية بوضوح تام، فالى السياسة الدفاعية (أي سياسة ابقاء المنظمة الصهيونية بمنأى عن النفوذ الألماني الذي لم يكن شيئا يسيرا) يقول المستر دي هاعاس تقديم الخدمات للموظفين وكبار الرسميين الامريكيين بلا مقابل كسبت
تقديم الخدمات للموظفين وكبار الرسميين الأمريكيين بلا مقابل كسبت
المنظمة الصهيونية الأمريكية صداقة وود أولئك الذين لم يكن من

المستطاع التأثير عليهم دواما بالمحاولات الملحة . ولم يكن هدفنا هو مجرد الاحتفاظ باحترام الرئيس ويلسون نفسه لنا وبتعاونه السمح معنا ولكن كان هدفنا التغلغل فى كل مسربة من مسارب ادارته ، وفى كل الأجهزة والبعثات الدبلوماسية والقنصلية البريطانية فى هذا البلد » (خط التشديد من وضعى أنا — المؤلف) وجعلها تتشرب بفهم منعطف على الصهيونية » .

وكان للمستر دى هاعاس نصيبه فى حملة النفع النافع هذه . وكان هو الذى اقترح على المستر برانديز انشاء « دائرة التحويل » على سبيل المثال . وقد اضطلعت « دائرة التحويل » هذه بمهمة تحويل المبالغ النقدية من أشخاص يعيشون فى الولايات المتحدة الى أقاربهم الذين يعيشون فى مناطق الحرب فى أوروبا وفيما وراءها وها هو ذا الوصف الذى كتبه منشئها عنها .

لقد خدمت دائرة التحويل اليهودى وغير اليهودى على السواء بدون أن نتقاضى من المراسل أو المرسل اليه أجرا . وكانت تشعباتها تمتد فى جميع مناطق الحرب التى يحتلها الحلفاء وفى جميع أرجاء تركيا وسورية وفلسطين حتى شرقى الأردن وبغداد . فأصبحت ادارة تبحث عن الناس فى عالمين منفصلين وتجدهم وتربطهم ببعضهم البعض . وكانت تقوم بتسليم النقود فى ظروف رومانتيكية . وغالبا ما كان الرسول الذى يقوم بهذه المهمة يتعرض لأخطار كبيرة . وعمليا لم يضع مليم واحد من تلك الملايين التى جرى تسليمها . لقد بدأت بالاضطلاع بمهمتها هذه باستخدام مكاتب دائرة الدولة (أى مكتب الخارجية فى الولايات المتحدة) كوسيلة للاتصال والارسال والائتمان ثم أصبحت شيئا فشيئا على درجة من النجاح والثقة لدرجة أن خزانة الولايات المتحدة استخدمتها فى تسليم مبالغ ورسائل لا تستطيع الحكومة أن تسلمها الى المرسلة اليهم بنجاح .

لقد رغب عربى يقيم فى بوسطن أن يرسل بضعة دولارات الى صديق له فى البتراء . وأراد يونانى فى تيرهوت من ولاية انديانا أن يصادق شخصا ما فى الأناضول . وأرادت الكنيسة اليونانية فى الولايات المتحدة أن تتصل برئيس الأساقفة فى القسطنطينية . وأراد اليهود أن يساعدوا عائلاتهم فى بولندا .

كما جرى تسكين الشادسيم الذين طردوا من القدس فى مخيمات لاجئين فى الاسكندرية . كما وجدت النقود التى جمعت فى أمريكا طريقها الى السجن فى دمشق ، والى معسكر الاعتقال فى حلب ، حتى وصلت الى المسجونين فى بروصا .

وقد ظل الايصال الأخضر الذى تقوم دائرة التحويل التابعة للجنة التنفيذية الصهيونية المؤقتة (والتى كان المستر برانديز رئيسا لها) باصداره ، ظل لفترة من الزمن « عملة متداولة لدى التجار » فى جميع أنحاء فلسطين . وبذلك جعل قرار الأتراك باقفال المصارف الصهيونية حبرا على ورق .. وربما قدر المرسلون هذا العمل الذى قدم لهم بلا مقابل .. وربما علم بعضهم فيما بعد كيف كان الذهب ينقل عبر مسالك جبال طوروس . وكانت دائرة التحويل هذه بخدماتها غير الموقوفة على نوع معين من الناس ولجميع الناس على السواء فريدة لا مثيل لها فى التاريخ اليهودى . وربما لم يولها الناس العاديون بين الصهاينة شطرا من تفكيرهم فى يوم من الأيام لكن الحكومات كانت تقدر ما تقوم به . لقد كانت تقدر لها تلك الابتكارات التى لا تنتهى فى أساليب النقل التى تتطلبها جبهة القتال المتغيرة المتنقلة ، لدرجة أن السفارات فى العواصم الأوروبية كانت تدفع النقود سلفا بناء على رجاء يصدر عن السكرتارية التنفيذية فى نيويورك .

ان هذه التفاصيل التى يقدمها لنا المستر دى هاعاس ناطقة وتوفر علينا التعليق والتبيان . لقد كانت دائرة التحويل هذه جزءا من مخطط عام كان فى حد ذاته مخططا يدعو الى الاعجاب . وما من أحد يحب أن ينكر عليه المديح الذى يستحقه بسبب نفعه للصغير وللكبير ، وبسبب النزعة الانسانية فى محتواه ، وبسبب القدرة والمقدرة على تنفيذه . لكنه قد جاء للمنظمة التى ابتدعته بالفائدة المرجوة من ورائه ــ وهو الأمر الذى أجهد المستر دى هاعاس نفسه فى تبيانه لنا . لقد وضع هذا العمل جهاز الحكومة الأمريكية فى مركز المديونية الأدبية تجاه الصهيونية . لقد خلق استعدادا هائلا لدى عدد كبير جدا من الناس ، وبخاصة لدى أولئك الذين يرجح فيهم أن يكون عطفهم على الصهيونية ذا قيمة ، للانحياز لصف قضية الصهاينة .

لقد احصت الصهيونية (يقول المستر دى هاعاس) أتباعها فى كل مدينة أمريكية ، وجرى تسجيل هذا الجيش العرمرم من البشر بالتدريج . واستخدموا حين دعت الحاجة فى تقديم تلك الخدمات التى كسبت عطف واحترام أولئك الأشخاص الذين تعد توقيعاتهم فى الأمور الكبرى . وقد تكفلت المنظمة الصهيونية بدفع نفقات تلك الخدمات ، وهى نفقات تافهة الى أبعد الحدود ، وكانت العوائد التى عادت علينا من وراء هذه الخدمات على شكل ثقة فى قدرة المنظمة الصهيونية على انجاز ما تقوم به ، الأمر الذى خلق احساسا واسع المدى بالثقة فى هذه الحركة .

أى اذا أردنا أن نصوغ هـذا القول المراد الافصـاح عنه فى الجملة الأخيرة غير الواضحة بعض الشىء نقول ان أولئك الرجال « الذين تعد توقيعاتهم » قد رأوا ما يستطيع الصهاينة أن يفعلوه فأولوا ثقتهم لتلك الحركة التى خلقها هؤلاء الرجال القديرون ٠ ويقدم لنا المستر دى هاعاس مثالا على ذلك الثواب الذين نالوه فى النهاية وهو الامتيازات التى منحت للوحدة الطبية الصهيونية الأمريكية حين أقلعت الى فلسطين ، والتى جعلتها تقف على قدم المساواة مع منظمة الصليب الأحمر الأمريكية ٠ لقد ختمت جوازات سفر هـذه الوحدة ب « درع داوود » رسميا . وبهذا منحت صفة قومية ودولية لهـذا الرمز الصهيونى . فكيف تم هذا ؟ ويجب أن نلاحظ أنه لم يتم بفضل الصداقة مع أعلى الدوائر الرسمية وحسب .

ان كلمة « افتح يا سمسم » التى جعلت مثل هذا العمل المزدوج ممكنا دفعة واحدة ما كان لها أن تأتى من اعلى . بل العكس . اقد تم انجاز هذه المهمة من أسفل الى أعلى ٠ ولم يصبح أمرا ممكنا الا لأن تقديرا للصهيونية ، بفضل أسلوب برانديز فى اثارة الاهتمام الفردى بقضيتنا ، كان قد تسرب وتغلغل فى كل دائرة من دوائر الحكومة ، فكان **هناك صهيونى منفهم ، فى كل دائرة من هذه الدوائر على استعداد لأن يمهد السبيل الى الاتصالات الضرورية ولأن يقوى أواصرها ، كلما دعت الحاجة** . (وخط التشديد من وضعى أنا ــ المؤلف) .

ولما كانت الجهات المعنية بهذا الكلام تشمل دائرة الحـرب ، والخزانة ، وقسم الجوازات ، والبحرية ، والجيش فانا نرى الى أى مدى كانت الصهيونية تسيطر على مسالك الحكومة فى الولايات المتحدة. فأى فرصة كانت أمام العرب فى مثل هذا الوضع ؟ وما أقل ما كانوا يعلمونه ، فى مرابعهم على ضفاف البحر الأحمر البعيدة عن هذه التدبيرات وعوامل النفوذ التى كانت تتجمع لتنكر عليهم ارثهم الموروث ولتخفى وجودهم بالذات .

وأعود الآن الى تلك الاستعدادات والتحضيرات التى كانت تجرى على قدم وساق للحصـول على « بيان التأييد والتشجيع » ذاك ٠ فى وشنطن ، وفى ذلك الربيع من عام ١٩١٧ ، انسجم بلفور وبعثته مع تلك الادارة المصهينة ، فمددوا أرجلهم على راحتها . ولقد لخص بلفور ، « حين كان فى وشنطن موقفه الخاص (من الصهيونية) فى جمـلة واحدة ، (أنا صهيونى) » (لقـد اجتمع وتشاور مع برانديز ، كما رأينا) . « ولكن فى حين كان بلفور وبرانديز مجتمعين كلما سمحت باجتماعهما الظروف ، كان صهاينة آخرون يجتمعون مع كل أولئـك

الأعضاء فى هذه البعثة البريطانية الذين كان يعتقد أن من المرغوب فيه انماء تفاهم معهم ، ويناقشون معهم مشكلة فلسطين » . (عن دى هاعاس) .

ولقد عاد بلفور الى أرض الوطن ببعثة مشبعه غاية الاشباع بمفاهيم الصهيونية ، وأجرى مقابلته الرسمية مع الدكتور وايزمان واللورد رونسيلد . وبدأت عملية صياغة التصريح فى كلا جانبى الأطلسى . وفى انجلترا « دبجت صور كثيرة مختلفة ، من قبل أعضاء كثيرين فى اللجنة السياسية (الصهيونية) ، للمقولة المقترحة » . (عن التقرير الصهيونى الرسمى) . وأخذت المسودات تروح وتجيىء من مكتب الخارجية واليه .

وكذلك راحت وجاءت عبر المحيط . « وقد دبج عدد كبير من هذه المسودات فى لندن وارسل به عن طريق وسائل مكتب الحرب الخاصة الى الولايات المتحدة لكى تستعين بها اللجنة السياسية الصهيونية الأمريكية » (عن دى هاعاس) وقد ساهم الرئيس ويلسون نفسه فى هذه الصياغة أو أنه قد قام ، على الأقل ، بايلاء الصور التى جاءت من انجلترا عينا مدققة ومراجعة ممحصة . « وبناء عليه اتسع ميدان المناقشة الدولية فقدمت جميع المسودات التى صيغت لهذا التصريح المقترح الى البيت الأبيض للموافقة عليها » . (عن وايز ودى هاعاس) .

وكانت جميع المسودات التى كتبت فى البداية تهتدى بصك الامتياز الذى اقترح للشركة اليهودية ، وبيان أهداف الحرب ، الصهيونى الأصل طبعا ، والذى صدر فى شهر نيسان الأسبق ، وببرنامج تشرين الأول ، وما الى ذلك . وكانت هذه المسودات مطولة بوجه عام فرأتها الحكومة أطول كثيرا مما يجب . ويقول تقرير تلك المنظمة ان « بعض المسودات الصهيونية كان مفصلا ومطولا . لكن الحكومة لم ترد أن تقيد نفسها بما هو أكثر من بيان مبدئى عام » . الا أنها قد أطلقت ، وهى العاجزه على ما يبدو عن كتابة مثل هذا البيان فى حين أطلقت يد صنائعها الصهاينة فى تدبيج صيغة أقصر .

وسرعان ما جرت الأقلام بهذا البيان المبدئى العام الجديد . وفى الثامن عشر من تموز قدم اللورد روتشيلد البيان البلفورى الى اللورد بلفور ، بعد أن وافق الرئيس ويلسون عليه ، وبدا كل شىء كانما قد انتهى . واليكم نصه :

ان حكومة صاحب الجلالة ، بعد دراسة أهداف المنظمة الصهيونية ، تقبل مبـــدأ الاعتراف بفلسطين كوطن قومى للشعب اليهودى وبحق الشعب اليهودى فى أن يبنى حياته القومية فى فلسطين تحت حمـاية توضع أسسها غداة ابرام الصلح فى اثر خروج ناجح من هذه الحرب .

وترى حكومة صاحب الجلالة أن من الضرورى أساسا لتحقيق هذا المبدأ منح الاستقلال الداخلى الذاتى للقومية اليهودية فى فلسطين ، وحرية الهجرة لليهود وانشاء شركة يهودية وطنية مستعمرة لاعادة توطين هذا البلد ولانمائهـــا الاقتصادى .

أما شروط واشكال الاستقلال الذاتى الداخلى ، وصك الامتياز للشركة اليهودية الوطنية المستعمرة فينبغى ، فى راى حكومة صاحب الجلالة ، أن تبوب بالتفصيل وأن تعـــين بالاشتراك مع ممثلى المنظمة الصهيونية .

ويجب أن يلاحظ أن هذا هو البيان الذى أراد المستر لويد جورج واللورد بلفور أن يصدراه لو لم يحدث فى ذلك الحين شىء جديد . لقد كان فى نية الحكومة أن تعترف بكل فلسطين كوطن قومى لليهود ، وأن تمنح « الاستقلال الذاتى الداخلى » للقومية اليهودية منذ البـداية . وكان مقدرا للصهاينة أن ينزلوا فى هـــذا البلد كحكام . أما الهجرة فتكون حرة ، دون أن تعتورها عقبات . وأما الشركة صاحبة الامتياز ، أو الهيئة صاحبة الامتياز ، كما أصبح اسمها فيما بعد ، « فستوطن » البلاد كما لو أنها كانت خالية من الناس .

لكن كل ذلك لم يتم . اذ طاف الصهاينة بهذه المسودة المذكورة أعلاه على كثير من النـاس فى ذلك الحين لدرجـة أنهـــا نمت الى علم الشخصيات اليهودية الهامة بين معشر اليهود البريطانيين .

ان رجالا من امثال لوسيين ولف أو كلود مونتفيور أو الســـير ماتيو ناثان لم يطلب اليهم طبعا أن يسهموا بدور فى التدبيج والصياغة ، ولكنهم كانوا يعلمون أنها كانت تعد . وبعد أن حصـــلوا على نصوصها جددوا نضالهم الذى بدءوه فى الربيع . فأرسلوا الى الوزارة « عرائض معادية للصهيونية » . وهذا هو ما يصف به الصهاينة الاحتجاج الذى وقعه هؤلاء على البيان المقترح اصداره .

وكان من نتيجة ذلك أن طلبت الوزارة اعـــادة صياغة البيـــان فاختفت منه الشركة صاحبة الامتياز ، ولو أن ذلك قد يكون راجعا الى أن القائمين بها قد وجدوا صعوبة فى جمع المبالغ الكافية لدفعهـا فى الميـــدان .

وكانت المقولة الجديدة كما يلى :

١ ــ تعترف حكومة صاحب الجلالة بمبدأ وجوب أن يعاد بناء فلسطين كوطن قومى للشعب اليهودى .

٢ ــ تبذل حكومة صاحب الجلالة غاية ما فى وسعها من جهد لتأمين انجاز هـــذا الهـــدف ونبحث جميع الأســاليب والوسائل الضرورية مع المنظمة الصهيونية .

وكانت هذه جاهزة فى الثامن عشر من ايلول ، بعد شهرين من المفاوضات وتبادل وجهات النظر مع مختلف الأطراف . وقد وافق عليها الرئيس ويلسون لكن اليهود البريطانيين الذين عارضوا سابقتها ، حاربوا هذه الصورة الجديدة بعزم وبسالة وتصميم كما فعلوا دائما . فهـذه الصورة ما تزال تسلم فلسطين للمنظمة الصهيونية « تعيد بناءها » . كما يمكن كذلك العمل فورا بحرية الهجرة والأحكام الأخرى التى جاءت فى نص مسودة تموز ، بموجب الفقرة الثانية من هذه المسودة الجديدة .

ان ادوين مونتاجو والسير فيليب ماجنوس وزملاءهما من معشر اليهود البريطانيين قد نالوا بوقفتهم هذه ، والتى حالت دون اصـــدار أى من هذين التصريحين البلفوريين ، سواء ما أعد منهما فى تموز أو ما أعد فى أيلول ، التقدير والامتنان الأبدى منا . وان من أهم المهم هنا ، بصدد صفة الصهيونية السياسية ، والكشف عن طبيعتها ، أن نعلم أن رجالا من اليهود قد حالوا بينها وبين تنفيذ ذلك الاستيلاء التعسفى الأثيم على فلسطين الذى كانت تبيته ، ولذلك فان العرب مدينون لهؤلاء اليهود المستقيمين النظاف بدين كبير .

الا ان ما هو أهم من هـــذا أيضا هو أنه لولا كفاح هؤلاء لسلمت الحكومة البريطانية أيضا فلسطين للمنظمة الصهيونية . ففى كلا المقولتين المذكورتين تجاهلت الحكومة العرب تجاهلا تاما ، وكأنهم لا وجود لهم . ولهذا فهاهنا جواب لا معقب عليه على الانكارات التى لا تحصى ، والتى قيلت فيما بعد وطوال عشرين عاما ، من أن الحكومة البريطانية لم تنو فى يوم من الأيام .. أبدا .. أبدا أن تضع فلسطين فى أيدى الصهاينة .

وما هذه الانكارات والاحتجاجات الا أكاذيب . ان هـذا هو ما انتواه المستر لويد جورج واللورد بلفور (وشركاؤهما) فى هذا الأمر . وهذا هو دليلنا المدعم بالوثائق الدامغة .

أما وقد ووجه رئيس الوزراء وسكرتير خارجيته الآن بصعوبة اصدار وثيقة لصالح اليهود يعارضها معظم اليهود بكل ما اوتوا من قوة، فقد اضطروا الى أن يطلبوا تعديل هذا التصريح من جديد . فأعدت مسوده جديدة . وأرسلت الى الدكتور وايزمان ، والمسيو سوكولوف ، والسير فيليب ماجنوس ، والمستر مونتفيور ، والسير سيوارت صمويل ، والمستر ليونارد كوهين ، والربانى الأكبر (الدكتور هرتز) برجاء أن يقولوا رأيهم فيها كتابه . ويتحدث المستر لاندمان عن هذه الحركة على أنها حركة كان يتوقف عليها الشىء الكبير بيد أن من الصعب تصديق هذا الكلام . اذ كانت الحكومة تعلم أن أغلبية هؤلاء الذين استشارتهم سيؤيدون هذه المسودة الجديدة التى ما تزال مرضية بالنسبة للصهيونية السياسية التى كان لها دورها المعهود فى تدبيجها .. انها مرضية بالنسبة لها ان لم يكن كل ما سبقها من مسودات مرضيا لها !

ان فلسطين لم تعد تذكر فى هذه المسودة الجديدة كوطن قومى للشعب اليهودى ، بل أعربت الحكومة عن رغبتها فى أن تنشىء « وطنا قوميا للشعب اليهودى » فى فلسطين . وقد سفح قدر هائل من مداد الطباعين وانتفخت أوداج كثير من الخطباء وبددت أنفاسهم لتبيان دلالة هذا التبديل فى المقولة . وان كل ما تدل عليه أن هو فى الواقع الا افتقار الى الشجاعة من جانب الأشخاص الحكوميين المتورطين فى هذه الجريمة .
لقد أصابهم الذعر حين جوبهوا بتلك المعارضة اليهودية وجبنوا عن الاعلان بأنهم سيحمون عملية تحويل فلسطين دفعة واحدة وفورا الى وطن قومى يهودى . فقرروا أن يعلنوا حمايتهم على القسط الأول من هذه فقط . ان قلوبهم لم تخزهم فيغيروا موقفهم . انهم لم يتبصروا ويعيدوا تقدير موقفهم على ضوء معاهدتنا مع الحسين .. انهم لم يقوموا بأى محاولة لاستشارة أى ممثلين للعرب أو أن يشترطوا مقدما اجراء هذه الاستشارة ، وأن يعدوا بالقيام بها حالما يصبح ذلك ممكنا . لقد سدروا فى غوايتهم واستمروا فى محاولة عقد هذه الصفقة الخئون . بيد أنهم أخذوا يصوغونها بصورة مغايرة .. وبدءوا يختارون كلماتها بحذر شديد .

ولم ينخدع أولئك الرجال الذين أجبروهم على تنكب هذا المسلك الأكثر حرصا وحذرا . لقد استمر المستر ليونارد كوهين ، رئيس اللجنة اليهودية للأوصياء ، والمستر مونتفيور والسير فيليب ماجنوس الذى كان عضوا فى البرلمان عن دائرة جامعة لندن ، استمروا فى الاحتجاج بالنيابة عن اليهود البريطانيين . وكان من بين اعتراضاتهم الرئيسية الاعتراض على ابقاء كلمة « قومى » فى نص التصريح . وكانوا على حق فى هذا بالطبع لأن الاحتفاظ بالصفة « القومية » كان أمرا خطيرا كل الخطوره ، ولأن كلمة « قومى » كلمة خطيرة المغزى والدلالة . ومعنى الا يكون لليهود وطن اجتماعى أو وطن دينى بل يكون لهم « وطن قومى »، معناه أن جرثومة الدولة اليهودية المستقبلية قد وضعت فى هذه المعادلة. كما أن غزو الصفة القومية لهذا « الوطن » المزعوم يجرد اليهود الذين يبنونه من أى ولاء لأى دولة تؤسس على حق جميع سكان سورية أو سكان أى جزء من سورية فى الاقتراع العام .

ولا يولى المدافعون عن الصهيونية والمعذرون لها ، على مختلف ألوانهم وأشكالهم ، كثيرا من الاهتمام لهذه النقطة . وهم يفضلون أن يتملصوا من الحديث عن المضامين الواضحة والمغزيات الكامنة وراء هذا الاحتفاظ بكلمة « قومى » فى المسودة الجديده . ويفضلون أن يجدفوا فى جدل أجوف حول الأثر المختلف الذى يحدثه قرن أداة التعريف بتلك الكلمة من عدمه ، وحول المعنيين المتناقضين لعبارة « وطن قومى » وعبارة « الوطن القومى » . ولكن ليس هناك ثمة سبب على الاطلاق يدعو القارىء الذى يريد أن يغوص فى لب هذه القضية أن يضيع وقته سدى فى تفسير لغة اللورد بلفور ذات الوجهين .

وبالرغم من محاولات السير فيليب ماجنوس وأصدقائه احتفظت الحكومة بهذه الكلمة الخطيرة « قومى » فى المسودات التى كتبت تاليا . لقد أصر الصهاينة السياسيون على وضعها فى هذه المسودات وكذلك فعل الضالعون فى الوزارة معهم احتسابا لوجههم . لكن المعارضة لم تلق بسلاحها . وقد وجدت فى المستر ادوين مونتاجو مكافحا نبيلا وزعيما لا تلين له قناة . واستطاع هذا بوصفه سكرتيرا لشئون الهند أن يطرح القضية أمام الوزارة . اذ حين ووجه بمسودة تموز البلفورية التى أوردناها لتونا ، أو ووجه بالأحرى بهذه المسودة الصهيونية التى كتبت لبلفور فتبناها « فتح نيران هجومه فى أواخر شهر آب بمذكرة احتجاج هادئة تمس شغاف القلوب » . (عن السيدة واجديل) .

والأكثر من هذا أنه نجح فى تحطيم مواقع خصـــومه . وظلت حكومة بريطانيا لفترة قصيرة من الزمن تفكر فى التخلى عن سياستها المواليـة للصهيونية ، وكادت تفعل ذلك .

ولدينا شهادة السيدة داجديل على هذا . انها تقول : « لقد أصاب الوزارة ماهو أكثر من الاهتزاز ، لأن بلفور فى الرابع والعشرين من أيلول قد رد على كلمة نأنف » (ضد الابطاء) » صدرت عن أحد موظفى مكتب الشئون الخارجية الذى يرأسه قائلا : ونعم . ولكن بما أن الوزارة قد بتت (فى غيابى) فى هذه المسألة لغير صالح الصهاينة فانى لا أستطيع أن أفعل شيئا بعد أن يعكس القرار » .

وان كل ما نوضحه لنا ابنة أخ بلفور هو أنه لم يكن يشك فى قدرته على جعل هذا القرار يعكس . فالظروف التى كانت فى ظلها تجتمع الوزارة آنذاك لا بد أن ساعدته . هذا وناهيك تماما عن سلطانه هو . لقد كانت اجتماعات الوزارة الحربية غير مقصورة على أشخاص معينين بالدات لايجوز لغيرهم حضورها ولا يجوز لأى منهم أن يتخلف عنها . فبلفور نفسه لم يكن عضوا فيها لكن المستر لويد جورج كان يدعوه لحضورها وقتما شاء . وكان ينيب عنه أحيانا من يحضر . ولقد حضر هو أو نائبه أربعة أخماس اجتماعاتها . وكان الجنرال سمطس يحمل كذلك دعوة مفتوحة لحضـــور اجتماعاتها فى دلك الصيف.وكان أعضاؤها الدائمون رئيس الوزراء واللورد كرزون واللورد ملنر والســـيدين بونارلو وهنـدرسون والسيد ادوارد كارسون.وكانت جلساتها كثيرة..وفى كل صباح؛ بل وكانت تنعقد مرتين أو ثلاث مرات فى اليوم . وغالبا ما كان يحضرها كثير من الناس الآخرين، لأنه كان فى وسع أعضاء الوزارة الحربية أن يجلبوا معهم كبار موظفى دوائرهم وخبرائها ليدلوا أمامها بشهاداتهم أو يقدموا لهـا مشورتهم . وكان يجرى البت فى الأمور المطروحة بين أيديها فى بعض الأحيان فى التو واللحظة من قبل جميع أعضائها مجتمعين بيد أنه كان من الممكن كذلك أن يترك لأعضاء منفردين أن يقدموا تقريرا حاسما عنها لها أو كانت تترك كذلك لتتولى تقريرها لجنة من اللجان اذ أنهم كانوا جميعا فى أشد حالات القلق والتوتر وغارقين فى العمل الى آذانهم .

وفى واحد من هذه الاجتماعات غير المنتظمة ســـيطر مونتاجو على الموقف . ولكن لم يكن من الصعب على بلفور أن يقلب الموائد حين خلا الجو من مونتاجو ولم يعد يقف فى طريقه . اذ من سوء حظ فلسطين أن كان يتحتم على مونتاجو أن يرحل عن انكلترا فى الرابع عشر من تشرين الأول

فى رحلة سبق ترتيبها الى الهند ولها علاقة بالاصلاحات التى تحمل اسمه.
أما عن الأعضاء الآخرين فى هذه الوزارة ففضلا عن بلفور كان سمطس وملنر وهندرسون (وبارنز الذى خلف هندرسون) موالين للصهاينة حتى آخر ذرة فيهم • « لقد قالهـا لويد جورج رئيس الوزراء بصراحة انه لا يستطيع أن يفهم اليهود المعادين للصهيونية • أما المستر بلفور والجنرال سمطس واللورد ملنر والمستر بارنز ممثل حزب العمال البريطانى فكانوا جميعا يؤيدون بصراحة اصدار تصريح • فكان من الطبيعى أن يحتاروا فى موقف المعارضة واليهودية » • (عن دى هاعاس) • وما من شك أن المستر لويد جورج كان صريحا فى قوله هذا لكننى أشك فيما اذا كان قد أخفق فى فهم حجج هؤلاء اليهود المعادين للصهاينة • ان ما كان يجب أن يفهمه هو أنهم قد سمحوا لمشاعرهم أن تفوت عليهم فرصة دانيةالقطوف مليئة بالأرباح السياسية • وان من الغريب حقا من هذا السياسى الشاذ، الذى كان دائما ينقذ بلاده فى يوم الاثنين ويدمرها ويلحق بهـا الخراب فى يوم الثلاثاء ، أن يكل الى المستر مونتاجو ، ايمانا منه بقدرته ، تنفيذ أبعد التغييرات السياسية مدى فى امبراطوريتنا الشرقية ، فى حين يرفض أن يصغى الى نصيحته فى موضوع أثبت فيه مونتاجو قدرته هذه عينها فضلا عن اثباته موهبة ولدتها الخبرة ونبعت فيه من دمه الذى ينتسب اليه •

ولقد حدثنى أدوين مونتاجو نفسه ، ذات يوم من عام ١٩٢٣ وفى بيته فى لندن ، ببعض الاسهاب عن الطريقة التى توسل بهـا رئيس الوزراء واللورد بلفور الى تذليـل العقبات أمام هـذا التصريح الموالى للصهاينة • وكانت هذه المحادثة محادثة شخصية ، وسارت على ذات النهج الذىسارت عليه محادثتى مع المستر اسـكويث ، الى حد كبير ، ولكنها كانت أطول وأوفى • ومونتاجو نفسه هو الذى طلب الى أن ازوره • لقد قال انه لم يول أدنى اعتبار لعهودنا السابقة التى تعهدنا بها للعرب • وأن هذه المسألة كلها قد عولجت كانما هى شأن خاص بين بريطانيا العظمى وبين الصهاينة ليس لأحد دخل فيه •

ان شيئا لم يدرس ويبحث كما يجب بل درس كما تدرس العجالة من القمح • اذ ما ان حل الخريف حتى كانت كواهل أعضاء الوزارة تنوء بواجباتها العديدة وبالأزمة العامة التى كانت تأخذ باطراف البلاد وتلابيبها فى ذلك الحين ، حين كانت أقدار الحلفاء فى حالة جزر شديد حقا • فكان الوضع السائد الذى تميزت به الوزارة فى ذلك الحين هو ألا يخرج الوزير عن نطاق ميدانه الخاص وأن يسلم بمـا يقوله الوزراء الآخرون بشأن

ميادينهم الخاصة • وقد حاول رئيس الوزراء وبلفور أن ينتهيا من أمر هذا المشروع فى أسرع وقت ممكن اذ كانت تتلبس رأس كل منهما فكرة محددة • وقد قال لى المستر مونتاجو ان نصوص هذا التصريح وعواقبه لم تحل ، حتى اليوم الذى رحل فيه الى الهند ، كما يجب ، من قبل جميع أعضاء الوزارة وان مغازيها ومراميها وحطورتها لم تستكشف بالتأكيد من قبل أولئك الأعضاء غير المنحازين بصورة تمكنهم من أن يمطعوا السبيل على زملائهم الضالعين المتواطئين مع الصهاينة • ومع ذلك فقد ظلت بعض المقاومة أو بعض الشك تعتمل فى الوزارة ، والفضل فى ذلك راجع فى الدرجة الأولى الى اللورد كرزون • وقوى هذا المعارضة الانجلو يهوديه المستمرة فى الخارج • ان كرزون كان غير مقتنع بفكرة الصهيونيه السياسية • وقبيل نهاية تشرين الأول سطر مذكرة عن فلسطين فصل فيها سياسة تطبق فيها كالسياسة التى عرضها لوسيين وولف والتى تكفل لجميع الملل حياة هادئة فى ديارها المقدسة ، ولجميع الافراد حقوقا متساوية والتى تقول بأنه « قد يكون فى الامكان تنفيذ مشروع ما لشراء الأراضى ولتوطين اليهود العائدين » •

وقد كتب كرزون فقال : « ان كانت هذه هى الصهيونية فليس هناك ثمة تسبب لكيلا نكون جميعا صهاينة • وأرى لزاما على ، ان كان الحال كذلك ، أن أعرب بكل سرور عن تمسكى بسياسة كهذه • لكنها ، فيما أعتقد من دراستى لها ، سياسة قد أخذت بتوسع من الآمال الرومانتيكية والمثالية لكثير من القادة الصهاينة الذين قرأت آدابهم • وأيا كان هذا الذى تفصله فانها لن تقدم ، فى رأيى ، وطنا قوميا ، ولا وطنا ماديا ، بل ولا حتى وطنا روحيا ، الا لما لا يزيد عن قطاع صغير من الشعب اليهودى » •

وهذا يبين لنا أن موقف اللورد كرزون كان مرتبكا الى حد ما • لقد ظن أن عيب هذه السياسة التى وافق عليها هو أنها لا تضم كثيرا من اليهود • ومع ذلك فهو لم يحبذ الصهيونية السياسية « الرومانتيكية » التى كانت تضم الكثيرين منهم • ان موقفه موقف معقد • والواضح هو أن معارضته للتصريح لم تكن تقوم على أساس متين لديه ولذلك ألقى سلاحه أخيرا •

وقد يكون أجبر على القاء سلاحه • اذ فى النهاية ــ وحين كان هذا التصريح يتأرجح فوق نار متأججة وبوشك أن يحترق ــ نفد صبر الصهاينة، أو أخذ بهم القلق كل مأخذ ، فمارسوا الضغط على الحكومة من خلال

الولايات المتحدة » • كان مولد الضغط فى الولايات المتحدة « يقول المستر دى هاعاس • وللمرة الثانية » تطلع الدكتور وايزمان الى المساندة من أمريكا ليبطل أثر المعارضة فى لندن ، حيث كان الوضع السياسى غير مشجع بعض الشىء » • فجرى التلميح الى الحكومة البريطانية (وليست هذه هى المرة الأولى) بأن الصهيونية قد ترغم على الارتماء فى أحضان العدو • وقدمت مذكرة نهائية الى بلفور من اللورد رونشيلد والدكتور وايزمان يطلبان فيها اصدار التصريح • وقد اقترحت هذه المذكرة أن ••

تبحث المسألة على ضوء المصالح الاستعمارية والمبادىء التى ندافع عنها الدول المؤتلفة •• ولذلك فنحن الآن نناشدكم منح هذا التصريح لنا • وسيمكننا هذا من المضى قدما فى تجميع وتوثيق الرأى العام اليهودى فى بلدان الائتلاف لابطال أثر كل هذا التأثير المثبط للهمم الذى نحاول صحافة العدو ممارسته بالتلويح لليهود بوعود غامضة • (عن دى هاعاس)

وخط التشديد من وضعى أنا • ومع ذلك فهناك قرينة أخرى من الأقوال الموالية للصهيونية (وقدمت لى أنا شخصيا فى عام ١٩٢٣) ، أكثر من هذه وضوحا • لقد رئى أنى فى مقالة من مقالاتى لم أنصف الدكتور وايزمان فى خدماته التى خدم بها الحلفاء (والواقع أن خدماته هذه شىء لا يخطر ببالى أن أشكك فيه) وقيل لى أنه فى هذا المأزق الذى نتحدث بصدده « بتدخله الشخصى قد جعل الميزان الصهيونى يميل لصالح الحلفاء وهزم عرضا ألمانيا » فانما كان يجرى البحث فيه بصورة جدية فى ذلك الحين من قبل الفروع غير الموالية للحلفاء فى المنظمة الصهيونية •

ولقد حدث بعد هذه الانذارات المذكورة أعلاه وبعد تلك المذكرة الانذارية من روتشيلد ووايزمان ــ ان أردتم الحق ــ أن مارس النفوذ الأمريكى أثره على الحكومة البريطانية بصورة حاسمة • ويعالج الكتاب الذين يسخرون أقلامهم فى خدمة الشعار الصهيونى هذه المرحلة الأخيرة بطرائق مختلفة • فالمستر شتاين يحصر نفسه فى حدود القول بأنه « قد حدث هناك بعض الابطاء والتأخير قبل أن توافق الوزارة رسميا على اصدار بيان عام » ، وان كان يذكر فى معرض حديثه عن مرحلة أسبق أنه « حين حانت لحظة اتخاذ قرار فى أواسط عام ١٩١٧ أيد الرئيس ويلسون الصهاينة بكل ثقل نفوذه » •

أما المستر فيليب جرافز فهو يعرضها لنا على هذا النحو : « وأخيرا وصلت المفاوضات الى نتيجة ناجحة والفضل فى ذلك راجع فى جزء منه

الى تدخل الرئيس ويلسون ، الذى كان المستر برانديز القاضى ، والذى هو واحد من أحسن من عرفناهم من الصهاينة الأمريكيين ، قد سعى لديه » • أما التقرير الصهيونى الرسمى الذى جرى تحبيره فى أوروبا فى جو تأكله الغيرة من تزايد الهيمنة الأمريكية فيقول ان الرئيس ويلسون قد أرسل « رسالة شخصية الى الحكومة البريطانية يعرب فيها عن موافقته على فكرة اصدار بيان مؤيد للصهاينة » •

ويجب علينا أن ننشد الالمام الصادق بما حدث لدى السيدين وايز ودى هاعاس • ان الصورة الفردية التى يقدمها لنا دىهاعاس شخصيا عما حدث هى : « ان صعود أسهم الأمريكيين فى مجالس الحرب قد دفع الحكومة البريطانية الى أن تطلب موافقة الرئيس ويلسون ورضاه عن صيغة التصريح قبل اصداره • وقد سلمت المسودة التى أرسلتها حكومه الى حكومة الى الزمرة البرانديزية لأخذ موافقتها عليها » • (وخط التشديد من وضعى أنا) •

وليس هناك كلمة أحسن من الكلمة التى استخدمها المؤلف ليصف بها فورا أولئك الأشخاص الذين كانوا آنذاك يسيرون الرئيس ويلسون ويعينون صفة الادارة الأمريكية (فيما يتعلق بفلسطين) — « الزمرة — البرانديزية » • وكان هذا النص الذى ارسلت به الوزارة البريطانية لتأخذ عليه موافقة • هذه الجهات مصوغا كما يلى :

> ان الوزارة ، بعد المناقشة التمهيدية ، تقترح هذه المقولة المعدلة — تنظر حكومة صاحب الجلالة بعين العطف الى انشاء وطن قومى للجنس اليهودى فى فلسطين وستبذل أقصى ما فى جهدها من محاولات لتيسير بلوغ هذه الغاية ، مع العلم تمام العلم بأنه لن يفعل شىء من شأنه انتهاك الحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية الموجودة فى فلسطين، والأهليةالسياسية التى يتمتع بها فى أى بلد من البلدان أولئك اليهود الذين هم راضون كل الرضا (هكذا) بقوميتهم ومواطنتهم الحالية •

وقد حولت هذه الرسالة الى زمرة برانديز فلم ترض عن خاتمة هذه الصورة البريطانية للتصريح الذى يريدونه •• ان أقل شىء فيها هو أن هذا الخليط المتعدد المنابت والجوانب بريطانى الأصل • وقد أخضعه وايز ودى هاعاس ، على حد قولهما « الى أدق مراجعة وتمحيص تمليهما الضرورة » • أما من حيث وجهة نر الزمرة البرانديزية فهو يضع الصهيونية « على أساس من السخط ، الأمر الذى هو غير مرغوب فيه

الى أبعــد الحدود » · « ولذلك فقد اقترحوا على الكولونيل هاوس فى الخامس عشر من تشرين الأول تقييد الجملة الختــامية بحيث تقرأ : أو الحقوق والأهلية السياسية التى يتمتع اليهود بها فى أى بلد آخر » · وانهما ليوضحان فى مؤلفهما المشترك الخديعة الكبرى أن : « المســودة النهائية قد جرى تعديلها من قبل مؤلفى هذا الكتاب · وبعد التشاور مع القاضى برانديز قدمت الى الكولونيل هاوس الذى نقل هذه الصورة الى الرئيس ويلسون · فأصدرت الوزارة الحربية البريطانية هــذا النص النهائى بناء على موافقته وعلى طلب صريح منه » ·

وكان فى السابع عشر من تشرين الأول أن أبرق ويلسون بموافقته هذه على هذا النص المعدل بيدى السيدين وايز ودى هاعاس · وبهــذا القدر لا بد أن صفة هذا التصريح قد اتضحت الآن لأى انسان بما فيــه الكفاية · ان هذا التصريح لم يبق فى انكلترا وحسب على المســودات الصهيونية بل ان النصيب الأمريكى فيه ، أو الذى يسمى « بالنصيب الأمريكى » على زعم أنه كان من صنع الرئيس ويلسون أو من صـــنع وزرائه ؛ ان هذا النصيب كان من صنع الصهاينة أيضا · ولم يكن المستر ويلسون أو الكولونيل هاوس الا مجرد آلتين توقعان أو تنقلان النصوص بين الطرفين الحقيقيين · وقد أعطيت هذه النصوص كافة الامتيازات التى كان يجب أن تمنح فقط للبيانات المستقلة التى تصدر عن الرئيس وعن ادارة الولايات المتحدة ·

وبهذه الخلاصة الغنية بالمعلومات الكشافة التى أوضحنا بها كل شىء فى مكانه تنتهى قصة الأصول المباشرة الذى خرج منها هذا التصريح، والظروف التى صدر فيها · وفى لندن جرى تحويل كلمة Race (جنس) الى People (شعب) ·· لقد قبلت تعديلات وايز ودى هاعاس · وتلا ذلك أسبوعان من الابطاء قبل أن يظهر هذا البيان فى جدول أعمال الوزارة · وفى الثانى من تشرين الثانى اسدل الستار على المشهد الختامى ·

ولا بد أن بعض قادة الصهاينة كانوا فى ذلك اليوم ينتظرون فى غرفة مجاورة لغرفة اجتماع الوزارة لأن هــــذا الحادث ، كما يؤرخ له المستر لاندمان ، قد جرى الاعلان عنه بلسان السير مارك سايكس (الذى قدر له أن يندم فيما بعد على دوره فى الأمر كله) ·· لقد خرج مرتبكا من غرفة الوزارة ورد بنبرات تتفق تماما وهذه المناسبة قائلا لزمرة الآباء المجتمعين ، « انه ولد » ·

وأما رسميا فقد أرسل بابن السفاح هذا ، الذى نتج من جريمة تعدد الأزواج ، على شكل كتاب من سكرتير الخارجية الى اللورد روتشيلد. وهذا نصه :

وزارة الخارجية

فى الثانى من تشرين الثانى لعام ١٩١٧

عزيزى اللورد روتشيلد

من دواعى غبطتى الجمة أن أنقل لكم بالنيابة عن حكومة صاحب الجلالة التصريح التالى ، بعطفنا على الآمال الصهيونيه اليهودية ، الذى عرض على الوزارة فوافقت عليه ·

ان حكومة صاحب الجلالة لتنظر بعين العطف الى مسألة اقامة وطن قومى فى فلسطين للشعب اليهودى وسنبذل أقصى ما فى وسعها من مساع لتذليل احراز هذه الغاية ؛ مع العلم تمام العلم بأنه لن يفعل شىء من شأنه المساس بالحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية الموجودة حاليا فى فلسطين أو الحقوق والأهلية السياسية التى يتمتع اليهود بها فى أى بلد آخر ·

وأكون مدينا لكم بالجميل اذا ما تكرمتم فأبلغتم هذا التصريح الى علم الاتحاد الصهيونى ·

صديقكم المخلص

آرثر جيمس بلفور

ولا شىء أكثر اثارة للسخرية الهمجبة من هذا السطر الأخير ، قد جرى به قلم فى يوم من الأيام ! لكأنى به هو فى حد ذاته يسخر من بلفور ·

الفصل الحادي عشر

تحليل تصريح بلفور ـ صفته التدليسية وعباراته الخداعة

هناك الكثير مما ينبغي علينا أن نقوله بصدد هذا التصريح الذي تسرب الى الصهاينة سرب الماء باحثا عن منبعه ، في ذلك اليوم الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) لعام ١٩١٧ . لكن أول شيء ينبغي أن نقوله هنا عن تصريح بلفور هذا ، هو أنه قد وزن جيدا حتى أدنى جرة قلم قبل أن يصدر . انه تصريح لا يحتوي على أكثر من سبع وستين كلمة ، وزنت كل كلمة منها وزنا دقيقا قبل أن توضع في صياغته النهائية ، اللهم الا اسم الحكومة التي صدر باسمها ، وبضعة حروف من حروف الوصل والعطف البريئة .

وليست هذه الوثيقة الخطيرة الشأن جملا من جمل اللغة الانجليزية بقدر ما هي فسيفساء لفظية ، ظلت مسوداتها تغدو وتجيء في داخل انكلترا وعبر المحيط ليتولاها بالتحقيق والتمحيص نحو أربعين صائغا ، نصف متعاونين ، نصف متنافسين مع بعضهم البعض ، يحذفون هذه العبارة ويأخذون بتلك بعد تفكير شديد . وأخيرا وبعد لأي شديد اختيرت هذه التشكيلة الأخيرة من الألفاظ ، من بين مايتوفر لديهم من حصيلة من مرفوض العبارات ومقبولها ، ثم جرى التصديق عليها ووضعت في صيغتها النهائية . ولم يسبق لتصريح أبدا أعد بمثل هذا الطول الزمني الذي أعد به هذا التصريح ، ولا أخرج بمثل ما أخرج به من عناية ، أو صيغ بصورة أوعى مما صيغ بها .

وعلى هذا يتفق جميع المعلقين من مختلف الآراء . ويقول المستر ليونارد شتاين في كتابه الصهيونية « ان تصريح بلفور لم يكن بأي حال من الأحوال الا سمة عرضية عابرة . وانما أصدر كبيان سياسي مدروس بعد مداولات مطولة » . أما في كتاب تاريخ مؤتمر باريس للصلح لتمبرلي

فقد جاء أن « التصريح قد درس دراسة دقيقة فى كل معانيه ومراميـــه ومغازيه ، وتعرض للتغيير والتبديل مرارا وتكرارا ، قبل أن تخرج به الحكومة البريطانية للعالم » • وكتب المسيو ناحوم سوكولوف فى كتابه تاريخ الصهيونية ، ومؤلفه هذا مؤلف هام آخر ، أن « كل فكرة ولدت فى لندن اختبرت فى أمريكا من قبل المنظمة الصهيونية • وكل اقتراح صدر من أمريكا لقى أشد العناية والاهتمام فى لندن » • وكتب المستر وايز ، الذى كان فى مركز يؤهله حقا لأن يكون مطلعا على مجرى الأمور ، فقال ان « تصريح بلفور ظل فى طور الخلق قرابة سنتين •• ولم يجر تأليفه بصورة فردية بل جماعية » • وأكد المستر لويد جورج لمستمعيه وهـــو يلقى خطابا فى ويلز فى عام ١٩٣٠ ؛ أكد بعبارات غريبة أن هذا التصريح « قد أعد بعد تفكير شديد ، ليس من حيث سياسته وحسب بل ومن حيث صياغته الفعلية كذلك » •

واذن فهناك نقطة واحدة لاجدال فيها • وهى أنه أيا كان هذا الذى سنجده فى تصريح بلفور هذا فانه قد صمن فيه عن عمد ، وأنه لم يجىء فى نصه شىء مصادفة • وأنه ان كان فيه نوع من الغموض فهو غموض جاء عن قصد • وأنه اذا كان غامضا ، فان الأميرال الذى يأمر مدمراته بأن تنشر ستارا من الدخان ، أميرال غامض •

والمهم هنا ، أهمية ما بعدها أهمية ، أن يقر هذا فى الأذهان قبل أن يقال المزيد • ومرد هذا هو أن الخلاف الدائر حول فلسطين ، فيما يتعلق بهذا التصريح ، قد وجه وجهـــة خاطئة لبعض الوقت • فقـــد قام البعض بتقديم دفاع عنه يضرب صفحا عن مضامينه الفعلية ومركز على صياغته اللفظية • فوصف بأنه « قد صيغ صياغة لا روية فيها » أو بأنه يحتوى على مضامين لم تدرك حين جرت كتابته • أو بأنه ليس محـــدد الالفاظ كما ظن فيه • أو قيل على العكس من ذلك تماما ان الكثير جـــدا يقرأ بين سطوره •

وربما كانت تكمن ، وراء هذه التعليلات التى كتبت ، نوايا طيبة فى كثير من الأحيان • بيـــد أن تصريح بلفور ، ويا للأسف ، قد اتخذت منه سلسلة من الحكومات المتعاقبة فى بلادنا دعامة للسياسة البريطانية فى فلسطين • ويقول البعض ، بناء على ذلك بوجوب قبول هذا التصريح على علاته و «بكل عيوبه» • ويقولون ان تمحيصه قد يكشف أنه قد كتب عن سوء نية ، لكن فضح سوء النية فيه ، سيكون فى الوقت عينه فضحا لها فى سلوك البلاد ذاتها ، اذ أن احدى حكومات بريطانيا العظمى قد نشرته ،

بأكده وتبنته الحكومات التي جاءت بعدها • وقد لا يكون هؤلاء الناس ، الذين جنبوا عن تمحيصه ، قد طرحوا أفكارهم هذه لأنفسهم على هذه الصورة من الصراحة العارية ، لكن هذا هو ما كانوا يحسونه فعلا فى قرارة قلوبهم • ومن ثم فان الطريق الذى ظنوه مفتوحا لهم لانقاذ شرف البلاد ، كما توهموا ، هو القول بأن هذا التصريح قد صيغ صياغة غير دقيقة • ومن ثم فقد تابعوا الجدال على هذا الأســاس فاستعرضوا ذكاءهم فى حل ألغازه ومراميه وطعموا عملهم هذا بقليل من النقد الاستنكارى •

وبهذه الطريقة استطاعوا ربما التهرب من الاعتراف بأن هذه الوثيقة التى أصدرت على نطاق الأمة واعتمدت باسم الأمة ، لم تكن الا قطعة من الدجل والخداع المخطط المرسوم • وهــذا هو الســبب فى أننا قد ظللنا نسمع ، ولسنوات عديدة حتى الآن ، من رجال الدولة ، ومن رجال الدعاية والنشر ، ومن الساسة ، ومن اناس من أعضاء الجمهور كذلك ، تأكيدات بأن كاتبى هذا التصريح اما أنهم لم يكونوا يعنــون ما يبــدو من هــذا التصريح أنهم يقولونه أو أنهم لم ينجحوا فى أن يضمنوه ما كانوا يعنون• كما خرج علينا مدافعون آخرون عنه بتفسيراتهم الخاصة المغرضة • وكانت تفسيرات المستر تشرتشل بهذا الصدد معقدة وصلدة ، تعقيدا وصلادة منسربات جحور الديدان فى الرمال !

وقد يكون وراء هذه الأعذار والتأويلات التى تتنافى والمنطق والحقيقة، بعض حسن النية ، على هذا النحو • لكنها نية تترجم فى التطبيق الى شىء يجلب الخزى والأسف والعار • ولست أنوى هنا أن أسير على هذا النحو الذى اختط على هذه الشاكلة • اذ مادام تصريح بلفور قد صدر دون أن يكون هناك مبرر لاصداره فلست أرى أن هناك ثمة مايدعونى الى أن انتحل له عذرا • وليس مما يجلب السرور على قلب المرء طبعــا أن يتخذ هــذا الطريق وأن يركب هذا المركب (كما أسلفت قبل قليل) •• ليس ممــا يفتح شهية المــرء أن يعرى بلاده أو أن يعــرى على الأقل أولئــك الذين يتحدثون باسمها • لكن عالم ١٩٣٩ ليس فيه متسع لاستعراضات الوطنية الكاذبة أو التظاهرات الجوفاء بالوطنية الجبانة كما أنه لا توجد أى فائدة من ورائها • اننا نريد لانجلترا أن تعترف بآثامها ، ومن ثم تأخذ مكانها على رأس الأمم بسبب قوة ضميرها الحى النقى •

ولنعد الى تصريح بلفور ونحن نحمل هذا فى رءوسنا • لقد بلغ هذا التصريح أسماع الناس فى التاســـع من تشرين الثانى حين جرى نشر كتاب للورد بلفور فى الصحف • ولقد صــــدر طبعا على شكل رســالة

بريطانية بحتة تتضمن مفهوما بريطانيا بحتا . وقد جعل من كل انسان معنى به ، أو له علاقة به ، ضحية لهذا التمويه الزائف . لقد طلب الى الشعب البريطانى أن يصدق أن هذا التصريح انما هو نتاج غير مغشوش انتجته حكومته . وقدم لجمهرة اليهود على أنه ضمان لم يصدر الا عن ضمير الوزارة البريطانية ، فساعد بالتالى على ايقاعهم فى شراك الحركة الصهيونية السياسية . أما بالنسبة للعرب ، فقد أعلن عليهم ؛ حين أعلن على أرضهم أخيرا (وهو الأمر الذى لم يحدث الا بعد مضى وقت طويل) ؛ والذى كان بالنسبة لهم أيضا نصا اشترك فى تدبيجه صهاينة من مختلف الاجناس والقوميات ؛ أعلن عليهم على أنه صوت بريطانيا . وقيل لهم انه تعهد صدر لصالح الصهاينة ولم يقل لهم أن الصهاينة هم الذين كتبوا معظمه . وطلب اليهم أن يحترموه على أساس أن الحكومة البريطانيه قد أعلنته للعالم قاطبة ، وبوحى عظمتها الوطنية ، بعد أن أولت تلك الحكومة المذكورة تفكيرها هذا الخطير ، الضيق الأفق ، الفريد فى نوعه ، لـ « مشكلة فلسطين » !؟!

ولأكن صريحا تماما بصدد هذه النقطة . ان عبء الخداع والدجل لايقع على عاتق حكومة عام ١٩١٧ وحدها لأنها استشارت الصهاينة قبل أن تصدر تصريحها هذا . ولقد كان مما يستقيم مع المنطق تماما ، فيما يتعلق بالشكل المجرد لهذا البيان المفرح (بغض النظر عن جميع الاعتبارات الأخرى) ، أن يطلب الى الصهاينة أن يقدموا مالديهم من أفكار بصدد أنواع المعاضدة والتشجيع «التى يطمعون فى الحصول عليها» وكان للحكومة أن تدرس كل ما يقدمه لها الصهاينة وأن تجرى المزيد من المشاورات معهم حتى يتم الاتفاق على نص نهائى . ولو أن هذا النص ؛ بغض النظر عن ماهيته ، قد نشر على أنه اتفاق بين الطرفين، وعلى أن الحكومة البريطانية على استعداد لأن ترعاه لكانت صيغة التصريح ، والحالة هذه ، لا غبار عليها . ولكانت هذه الصيغة صادقة أمينة حتى وان كانت السياسة المتضمنة فيها غير شريفة ولا سبيل للدفاع عنها .

الا أن هذا التصريح الثنائى ــ وفى وصفنا له بكلمة ثنائى مبالغة فى نصيب الحكومة من عملية صياغته ــ قد أصدر على أنه تأليف حكومة صاحب الجلالة وحدها . وفى هذا اختلاق وكذب . وقد جرى استعراض الكلمات بنصها فى السنوات التالية أيضا ، أمام أعين العرب وبغباء لا يلين ، على أنها التزام مقدس قطعته بريطانيا العظمى لليهود ، وحتى بعد أن افتضح أن مختلف الصهاينة هم الذين صاغوا هذا الالتزام بأنفسهم ولأنفسهم ،

وانهم كانوا وراءه فى جميع مراحله • وهذا يجعل الوزارة التى جاءت بعد وزارة عام ١٩١٧ شريكة فى هذا الخداع الذى بدأته الوزارة المذكورة • وهو خداع لايخفف من بشاعته الا ذلك الجهل الذى لا يغتفر ، فى حالة أعضاء معينين فى هذه الحكومات •

أما الصهاينة أنفسهم فهم فى موقف أحسن فى هذا الأمر ، من موقف شركائهم البريطانيين • ولكى ننصفهم نقول انهم هم أنفسهم الذين كشفوا للناس عن الظروف الحقيقية التى صيغ هذا التصريح فيها • وقد فعلوا هذا بعد فترة لا أستطيع أن احددها بالضبط لانى لم أقرأ جميع المنشورات الصهيونية والكتابات الصهيونية التى لم تكن تتوقف عن الصدور أبدا • بيد أن المنظمة الصهيونية قد كشفت عن دورها فى اصدار هذا التصريح فى الفترة التى لا تتجاوز أربع سنين من نشره ، على وجه التأكيد • وقد يكون هذا الكشف قد جرى فى وقت مبكر • هذا الذى يصل اليه علمى • ولست أقول ان دوافع المنظمة الصهيونية هذه كانت دوافع نظيفة • اذ أن كل شىء كان يسير فى ذلك الحين لصالحهم ، على ما يبدو ، والحبل على غاربه • ويخيل لى أن أناسا فى قيادة هذه المنظمة لم يستطيعوا مقاومة اغراء الشهرة فى عيون اتباعهم من الصهاينة فكشفوا عن ذلك الدور الهام الذى لعبته قيادتهم من وراء ستار فى اصدار هذا التصريح • وعلى أى حال فقد كان بيانهم فى هذا الصدد بيانا صريحا •

فلنحلل الآن نص هذا التصريح • « ان حكومة صاحب الجلالة لتنظر بعين العطف الى اقامة وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين •• الخ » وغالبا ماتكتب هذه الجملة الأولى وفيها عبارة « وطن قومى » مكتوبة بحروف كبيرة لكن اللورد بلفور قد استعمل فى النسخة الأصلية ؛ على حد ما جرى نشرها فى جريدة التايمز ، الحروف الأقل من هذه لفتا للأنظار ؛ أو ما يسميه أصحاب المطابع حروف « الحالة الدنيا » ، ليقدم بها صنيعته • اذ لم يكن يستطيع هو أو شركاؤه ادعاء اختراع هذا الاسم ،الذى راود خيال ليون بنسكر قبلئذ بخمسة وثلاثين عاما فى أوروبا• ولم يكن بنسكر نفسه ينوى تطبيق هذا الاسم فى فلسطين اذ قال : « وينبغى علينا ألا نقيد انفسنا بالمكان الذى قطعت فيه حياتنا السياسية بعنف » ، (عن شتاين) بالرغم من أنه لم يدخر جهدا فى بناء المستعمرات اليهودية فى هذا البلد ، كما فى أى مكان آخر • لكن بلفور وزملاءه تبنوا هذا الاسم من البرامج الصهيونية ومسوداتها واستفادوا من غموضه • اذ أن عبارة « وطن قومى » ؛ سواء اكانت مكتوبة بحروف كبيرة أو بلا

حروف كبيرة ، كانت فى عام ١٩١٧ عبارة جديدة بالنسبة لمعظم الناس . وكان من الطبيعى ألا يستطيع أحد أن يدرك لها معنى لأنه لم يكن لها معنى متعارف عليه . ومن ثم فقد وضعت فى مجال الممارسة فى فلسطين دون أن يكون لها معنى .

أما فى وثيقة رسمية تعلن تأييد الحكومة البريطانية لهذه المؤسسة، فكانت جميع قواعد السياسة وأصولها تقضى بوجوب أن تحدد الحكومه للأمة ما هو بالضبط هذا الشيء الذى تؤيده قبل أن تقيد نفسها بهذا التأييد . أما ألا تفعل الحكومة ذلك فمعناه أن تتعهد بريطانيا العظمى (ناهيك عن مسألة ما اذا كانت تملك الحق فى اصدار مثل هذا التعهد أو لا) . بتقديم عونها الى شيء لا يستطيع أحد أن يقول ما هو . فخليق اذن بهذا الافتقار عينه الى التحديد ـ وهو الأمر الذى لا يغتفر فى حد ذاته ـ أن يجد طريقه الى الديباجة التى وصف فيها هذا التصريح بأنه « تصريح بالعطف على الآمال اليهودية الصهيونية » ، لكن أحدا لم يقدم لنا مفتاحا لمعرفة هذه الآمال . فما هى هذه الآمال اليهودية الصهيونية ؟ ان أحدا لم يعرفنا بها . فكيف تأتى لحكومة بريطانيه أن تمنح عطفها للغز ؟

والحقيقة طبعا هى أن هذه العبارات التى لا يدرك معناها قد قد استخدمت لا لشيء الا لأن معناها لايدرك ، ولأنه يمكن تفسيرها كما يحلو للمفسر أن يفسرها . ان فيها سيماء الوعد باعطاء تأييد الحكومة لما يريده الصهاينة فى فلسطين .. لدولة يهودية يتم التوصل الى انشائها من خلال حكم وهمى يشترك فيه اليهود والعرب معا . وكان هذا هو المعنى أو التفسير الذى قيل فى النهايه من قبل أولئك الصهاينة الذى اسهموا فى صياغة التصريح . وكان هذا هو المعنى الذى طلب الى الصهاينة، والى اليهود بوجه عام أن يفهموا أن التصريح يحمله . وما من شك أن خيبة الفأل قد اعترتهم لأن حقوق الحكم لم تمنح لهم كاملة ، وعلى الفور . بيد أنهم كانوا واثقين من أنهم سيستطيعون تهيئة ظروف فى فلسطين تحمل فى طياتها نهاية سريعة لمرحلة الانتقال هذه ، باسرع مما يتوقع . ولم ترد الحكومة من جانبها أن تسبغ على هذا التصريح ؛ منذ البداية بالذات ، من مفاهيم الصهاينة الا ذلك القدر الذى تسمح به السلامة . اذ كلما زادت امكانية السلامة ؛ كلما ازدادت قوة قبضتها هى على البلاد ، وكلما أغرى الرخاء المادى الدنيء جماهير العرب ، ووزنت معارضة الباقين واتخذت الاحتياطات لمجابهتها ، فعندئذ تستطيع الحكومة أن تزيد من

تأييدها لهذه المؤسسة الصهيونية بدرجات متوسع فيها ، حتى تقوم الدولة اليهودية فى النهاية ٠

أما من الناحية الأخرى فقد احتفظت الحكومة لنفسها بطريق مفتوح للتراجع فى حالة قيام معارضة مخيفة فى داخل بريطانيا وخارجها ، واحراز هذه المعارضة نجاحا ضد هذا التواطؤ الرسمى مع الصهيونية السياسية ٠٠ فصيغ التصريح ، والحالة هذه ، حتى يمكن تفسيره ، بقصد التملص منه ، على أنه لا يعدو تعبيرا عن اهتمام ودى بالحركة الصهيونية وغير ملزم تجاهها بشىء ٠ فاذا ماوصل الأمر الى هذا الحد فيمكن القول عندئذ : ماذا تساوى عبارة « تنظر بعين العطف » فى دنيا التعهدات بالتأييد ؟ شيئا تافها !؟ انها يمكن أن تحمل على أنها لا تعنى شيئا أكثر من أن ترسل الحكومة نظرة حانية على « الوطن القومى » فتسر اذا نجحت خطط الصهاينة ، وتأسى اذا ما فشلت ، ولكن أسى من لاناقة له ولا جمل ٠

والخلاصة هى أن طريق الحكومة التقت بطريق الصهيونية ، فراق اللقاء فى عين الحكومة ٠ فتباطأ الاثنان وأخذ كل منهما يغمز للآخر ٠ ثم اتفقا على أن يسيرا معا ٠ والى هنا وكل شىء على ما يرام ٠ ولكن اذا مانشأت المتاعب فى الطريق وقبل الوصول الى البيت ، فعندئذ تستطيع الحكومة أن تعود من حيث أتت ٠٠ مثلا ٠ والواقع أن الصياغة النهائية لهذا التصريح كانت معتركا كبيرا من معتركات الذكاء ٠ لقد جعلت المعارضة ، التى قامت ضد المسودة النهائية ؛ وبالرغم من أنها مازال تسلم بكل شىء فى قرارة نفسها للصهاينة ، الى صياغة تفتح لها ؛ اذا مادعت الضرورة ، بابا للهروب من أى التزامات محددة ، مهما كان نوعها ٠ ولقد بز صياغة الحكومة فى هذا المضمار صياغة الصهاينة الذين ظنوا أن الحكومة قد باتت من المؤكد مكبلة فى أيديهم ، وقد كانت الحكومة تواقة الى أن تضع فى اقدامها تلك القيود ، التى مدت أقدامها لها ، لكنها فضلت الآن أن تصوغ بحيث تستطيع أن تجعل قدميها تفلتان منها كملجأ أخير اذا لم تجد ملجأ غيره ٠ انه خداع من الدرجة الأولى ٠ أما الى أى مدى يليق أن يصدر عن بريطانيا العظمى فى تصريح فهذه مسألة أخرى !

ويسود فى العبارة التالية نفس الخبث والمكر اللذين يسودان فى العبارة الأولى ٠ ان الحكومة « ستبذل كل مافى وسعها لتسهيل بلوغ هذا الهدف » ٠ فما الذى يفهم من هذا « التسهيل » ؟ فمعنى « تسهل » هو أن تمد يدك بالمساعدة بصورة ايجابية ٠ ولكنها تعنى بالمثل ألا تضع

عقبة في الطريق ؛ أي آن ساعد بصورة سلبية ٠ ان هذه الجملة قد ركبت على النسق نفسه الذى ركبت عليه سابقها فى الواقع ، أى أنها تفى بالغرض من تقديم يد المساعدة الفعلية ، وتكون فى الوقت عينه ستارا أمام الناس يخفى وراءه الاهتمام السلبى ٠ كما أنها اداما اقتضت الضرورة منفذا للهرب ٠ وحال الصياغة اليهودية فيها هو حالهم فى الجملة السابقة، فهم قد رأوا نواة مقاصدهم قد ضمنت فى هذه الكلمات التى استعملت فيـــها ٠

بيد أن طبيعة وعد بلفور لاتتضح تماما الا حين نصـــل الى الجملة الأخيرة منه « ٠٠ مع العلم تمام العلم بأنه لن يفعل شىء من شأن انتهاك الحقوق الدينية والمدنية للجماعات غير اليهودية الموجوده فى فلسطين ، أو الحقوق والأهليات السياسية التى يتمتع بها اليهود فى البلاد الأخرى ٠ »

ان القســم الأول من هذه العبارة هو « الضمانة » المزعومة التى أعطيت لعرب فلسطين والتى تحميهم من العدوان الصهيونى ٠ أما فيمـا يتعلق بهذه الحماية فانها تذكرنى بتجربة مر بها أحد أقربائى ٠ لقـد حذر حين كان على وشك النزول من سفينة فى زاويه مستتره فى أحـد مراسى السفن فى بلد بعيد ، أن يأخذ معه أقل القليل من النقود ، وأن يكون أولا وقبل كل شىء « على حذر من الشرطة » والتحذير نفسه ينطبق على هذه الجملة « الوقائية » ٠

وهى لا تبدو ، عند الوهلة الأولى ، أنها قد صيغت بالدهاء نفسه الذى صيغت بها سالفتاها ٠ فالنية فى الخداع ظاهرة فيها بجلاء ٠٠ ان وصف العرب « الجماعات غير اليهودية فى فلســطين » زئبقى مخادع ولاينطلى على أحد ٠ ففى الوقت الذى صدر فيه هذا التصريح كان تعـداد سكان فلسطين قرابة ٦٧٠٠٠٠ وكان تعداد اليهود بينهم ٦٠٠٠٠ ٠ ورقم اليهود هذا رقم فضفاض لكنه معقول ٠٠ اذ ليس هناك احصـــاء دقيق نستشهد به ٠٠ وفى تقرير كتب عن فترة لاحقة ورفعته الادارة العسكرية الى عصبة الأمم ورد المجموع الاجمالى لليهود ك ٥٥٠٠٠ ٠ وورد فى مذكرة من مذكرات الحكومة فى عام ١٩٢٠ ، تاليا للفترة السابقة ، ك ٦٥٠٠٠ ٠ ويمـــكن أن تحذف بعض الارقام من التقديرات التى قيلت عن تعـداد السكان اليهود فى فلسطين فى فترة ما قبل الحرب ٠ اذ تتراوح هــذه التقديرات بين دقة تقرير لجنة شو الذى يقول ان عددهم هذا لابد أنه كان ٦٠٠٠٠ على الأقل وبين تقدير المســتر بننويتش الذى يأخــذ فى اعتباره احتمالات المستقبل والذى يقــول ان عددهم كان ٠٠٠ ١٠٠ ٠

ويقول المستر شناين ان تعدادهم كان يربو على ال ٨٠٠٠٠ • فاذا أخذنا بهذا التقدير الأخير واسقطنا منه ٢٥٠٠٠ كنقصان حدث في أيام الحرب وينفق والأرقام التي تتوفر لدينا عن أولئك الدين فقدوا من جراء الموت أو النفى (وخسائر العرب في زمن الحرب أكثر بكثير من حيث الواقع والنسبة) فان ٦٠٠٠٠ كمجموع اجمالى لهم افتراض عادل ومنصف لفترة عام ١٩١٨ ــ ١٩١٩ •

وهكذا فأمامنا فلسطين الآن وفيها ٩١٪ من سكانها عرب و٩٪ يهود في الوقت الذى صدر فيه هذا التصريح • انها بحر من العرب فيه قطرة من اليهود • وكان نصف اليهود هؤلاء حديثى العهد بالمجىء الى هذا البلد •

فماذا فعل واضعو تصريح بلفور ازاء هذه الحقيقة التى لا سبيل الى نكرانها ؟ • لقد انطلقوا مندرعين بشتى الحيل والحجج الخسيسة وبحجة حماية مصالح العرب ، يحاولون اخفاء هذه الحقيقة فى كون العرب يشكلون من جميع الوجوه سكان البلاد وأهلها • لقد سموهم « الجماعات غير اليهودية في فلسطين » ! لقد سموا الكثرة الكاثرة ••• سموا الى ٦٧٠٠٠٠ للا ٦٠٠٠٠ ! ٦٠٠٠٠ سموا ال ٩١ من كل مائة للا ٩ ! • واذا حذوت حذوهم فبامكانك أن تسمى الشعب البريطانى « الجماعات غير القارية فى بريطانيا العظمى (١) » • وما أليقه وصفا لو وصفت الجماهير العاملة بأنها « الجماعات غير المتبطلة فى العالم ، » ! أو الأصحاء بأنهم « العناصر غير الطريحة الفراش بين النائمين ، » ! أو العقلاء بأنهم « قطاع غير المجانين من المفكرين ، » ! أو أعشاب البرارى بأنها « ذلك الجزء من المراعى الذى لا ينتمى الى فصيلة العليق » •

ولكن هناك بالطبع ما هو أكثر من مجرد هذه التسمية العدديه المجافية لكل منطق فىهذا الاستخدام بعبارة « الجماعات غير اليهودية فى فلسطين » ليوصف بها العرب • انها تزوير • وقد اقترف بقصد اخفاء النسبة الحقيقية بين العرب واليهود ، ومن ثم ليجعل من عملية كبت الأول أمرا أيسر • ان هذا الأمر لهو بمثابة أن تصف سكان الجبال وسكان السهول فى بيان رسمى بأنهم « الجماعات غير الايرلندية الموجودة فى اسكتلندة » ، حتى يمكن اعتبار المستعمرات الايرلندية العنصر الهام فى سكان الأراضى الواقعة الى الشمال من نهر التويد • وبهذا يبدو

---

(١) القارة تعبير يوصف به البر الاوروبى دون الجزر البريطانية •

الاسكتلنديون وكأنهم لا شيء غير جماعات مبعثرة فى أرجاء التربة الكاليدونية • ومن ثم يمكن مباشرة أعمال نزع الملكية ضد الاسكتلنديين بسهولة أكثر من ذى قبل • وان يدعو الى الرثاء حقا أن بلفور لم يكن مرغما على أن يحاول فى اسكتلندا ما قام هو وأصدقاؤه الصهاينة بتنفيذه فى فلسطين ••• كلما كان السياسى أرعن دنيئا كلما قلت حيلتك ازاءه • فقل اللهم العوض •

ولقد قلنا حتى الآن أن هذه العبارة تبدو عند الوهلة الأولى وكأنها ليست من الدهاء فى شيء ، لأنها مفضوحة الخداع • لكن الانسان حين يتمعن فيها للمرة الثانية يتبين أنها ماكرة جدا على طريقتها الخسيسة • انها تعول على الجهل العام على جهل الناس •اذ ماذا كان الشعب البريطانى، الذى ضعضعته الحرب ، يعرف عن تكوين سكان فلسطين فى عام ١٩١٧ ؟ وماذا كان يهود الروسيا المضللون (بفتح اللام الأولى ـ المترجم) يعرفونه عن تكوين سكان فلسطين فى عام ١٩١٧ ؟ بل وماذا كانت جمهرة أى شعب ، فى أى بلد خارج نطاق بلدان الشرق الأدنى ، تعرف عن تكوين سكان فلسطين فى عام ١٩١٧ ؟ لا شيء •

والذى حدث هو أن صائغى هذا التصريح قد عولوا على هذا الجهل • لقد أخفوا حتى اسم العرب ذاته فسموهم ب « الجماعات الموجودة فى فلسطين » وكأنهم جماعات من الرهبان هامت فى هذه البلاد واتخذت لها فيها مقاما هنا أو هناك ! أما لفظة « الموجودة » التى وصفوا بها فهى اللمسة الأخيرة من الفرشاة الكذوب • والانطباع المقصود للقارىء أن يفهمه من هذا الوصف هو أن هؤلاء العرب قد استطاعوا فقط أن يبقوا على قيد الحياة ، وأن مستكشفنا قد عاد من فلسطين وقدم تقريرا للورد بلفور قال فيه انه اكتشف جماعات غير يهودية تعيش فى التلال !

ومن ثم فان المواطن العادى يستنتج حين يقرأ هذا التصريح ؛ ان أولى هذا الأمر المزيد من التفكير ، وهذا أمر مستبعد ، يستنتج أن الخطوات السليمة التى يجب اتخاذها ، سيجرى اتخاذها بموجب نصوصه لحماية البقايا المتفرقة من الأجناس الأخرى من غير جنس اليهود الذين قد يعثر عليهم فى الديار المقدسة • وهذا هو ما قصد به أن يستنتجه • أما بالنسبة لأى أفراد يشذون عن هذه القاعدة ويتوفر لديهم من الاهتمام فى معمعان هذه الحرب ما يجعلهم يناقشون هذه الألفاظ التى استخدمت فى صياغته فقد أعد لهم ما ظن أن جواب شاف • « ان كلمة جماعة هى اللفظ السليم الذى يجب استعماله فى هذا المقام لأن سكان فلسطين

ينقسمون الى جماعات اسـلامية ومسيحية ويهودية » ٠ وبقى عليهم أن يضيفوا لهذه الغاية الدروز والسامرين ٠ وليس لدينا غير هذا من قول نقوله حول هذه التعمية ٠ ويكفينا أن نسوقها هنا لكى نفضحها ونعريها ٠ فرفقا بشرف الكلمة ٠ انها تذهب فيها سوى ٠

لكن التصريح لم يصدر ليزف وضع العرب فحسب وانما ليقدم لهم ضمانا كاذبا فى هذه العبارة منه التى تقول : « مع العلم تمام العلم بأنه لن يفعل شيء من شأنه انتهاك الحقوق الدينية والمدنية » للجماعات المزعومة التى سبق ذكرها ٠

أما أن حقوقها الدينية سوف لا تنتهك فهذا فى الحقيقة شيء حسن ولو أنه لا نفع فيه ٠ ومن حسن الحظ أنه يؤخذ على أنه شيء بديهى ٠ فحينما تحكم بريطانيا تبقى هذه الحقوق الدينية فى أمان وصون ٠

أما الاشكال فهو يجيء مع « الحقوق المدنية » ٠ ما هى هذه الحقوق المدنية ؟ عند هذه النقطة يرهف جميع الناس آذانهم انتظارا لسماع الجواب ٠ وطالما بقيت هذه « الحقوق المدنية » بدون تعريف فان ضمانها لا يكون الا أمرا يدعو الى الضحك ، بل هو مضحك فعلا ٠ فلأن يضمن المرء شيئا ولا يدع أحدا يعرف ما هو الشيء فى الوقت عينه فتلك لعمرى شريعة ٠ أليس فى بلاد الأعاجيب ٠

ـ « انى أضمن لك حقوقك المدنية » ، قالت الملكة البيضاء الى أليس فى أرض فلسطين ٠

ـ « آه ٠ شكرا » ، ردت أليس ٠ « ولكن ما هى هذه الحقوق ، من فضلك ؟ » ٠

فقالت الملكة البيضاء :

ـ « انى على يقين أنى لا أستطيع أن أقول لك ما هى ، يا عزيزتى ٠ بيد أنى أضمنها لك بكل تأكيد » ٠

وليت هذا التصريح كان بريئا براءة هذا النص الذى ورد فى قصة أليس فى بلاد الأعاجيب ٠ ان هذا الهذر المتضمن فيه هذر خبيث مخادع وكتب بنية سيئة ٠ ومرة أخرى نقول أنه قد ضمنت للعرب هذه « الحقوق المدنية » لأنها تطرق مسامع البلهاء كما لو أن الحقوق الطبيعية للانسان هى التى ضمنت لهم ٠٠٠ حقوقه فى أن يختار حكومة بلاده ٠٠٠ الحقوق

---

(١) قصة من قصص الاطفال فى بريطانيا ٠

التى ينبغى أن يتمتع بها كل انسان شريف • أى الحقوق السياسية العامة الموجودة فى النظام الديمقراطى •

ان هذه الأشياء لم تضمن للعرب قطعا • وليس مفعول هذه العباره ومدلولها الا سحب تلك الحقوق عينها فى الاستقلال التى من أجلها تعاقدوا معنا (والعرب اما يحاربون من أجلنا أو يشاركوننا فى تحمل الآلام والنكبات بناء على وعدنا الذى قطعناه لهم بالاستقلال) ؛ ناهيك عن أهليتهم الطبيعية لهذه الحقوق • ولكن بمهارة فى التلاعب بالألفاظ والدجل والخداع شطبت الحقوق السياسية ووضعت بدلا منها الحقوق المدنية • واذا كانت هذه الحقوق المدنية تعنى شيئا ــ وهو أمر ليس متفقا عليه • ويحتاج الى فقه قانونى متبحر (الأمر الذى لم يفعل حتى الآن) ــ فأغلب الظن أنها تعنى الحقوق البلدية أو المدنية أو ما الى هذه الحقوق التى تمتع بها المالك الأجنبى لدار فى بلد لا ينتمى هو الى مواطنيه • بيد أن هذه نظرية لم تمحص بعد • أما فيما يتعلق بالتطبيق فان « الحقوق المدنية » تعبير ترك دون تفسير • ولهذا فليس لها وجود ككفالة أو ضمانة على الاطلاق •

وحين كنت فى القدس سألت المندوب السامى نفسه ذات يوم : ماهى هذه الحقوق المدنية ؟ فكان جواب المندوب السامى :

« حسنا ، ان من العسير جدا تعريفها » • وذلك هو بالضبط السبب فى كونها قد ضمنت للعرب • وكان هذا طبعا انتصارا لدهاء وخبث الصياغة • لقد سلبوا العرب كل شىء ، بنصوص يدل ظاهرها على أنها تؤمن لهم كل شىء • وهى خدعة ماهرة وان تك غير شريفة ووضيعة •

وليس هناك أدنى شك فى أن واضعى هذه الضمانة بالذات كانوا من الصهاينة أنفسهم • ولقد جاءت هذه العبارة الى النص من أمريكا • فعبارة « مع العلم تمام العلم » وما يتبعها ، فيها من الالتواء الخاص بها ما يكفى لاثارة الشكوك • انها ليست صياغة كلامية أوتوماتيكية وليست كليشيها يكثر استعماله • فاذا ما أمكن العثور عليها فى وثيقة سابقة متعلقة بهذه المشكلة فيتضح عندئذ أنها نقلت منها الى تصريح بلفور •

وانها لتوجد فى وثيقة سابقة ، وأيم الحق ، وقد جرى نقلها فعلا • فحين تخلت الحكومة عن صورة أيلول التى صيغت لهذا التصريح ، بسبب معارضة جبهة ماجنوس ومونتاجو ، وجهت الوزارة ، أو وجهت الزمرة الصهيونية بين أعضائها اهتمامها الى العثور على بديل • بيد أن هذا الاهتمام

كان يتألف في الدرجه الأولى ، كما هو الحال في السابق ، من تلقط واحتيار الأشياء المناسبة من بين المواد الصهيونية • فلمد فام الصهاينة فى هـذا الجانب أو ذاك من جانبى الاطلسى ، حين خاب فألهم فى الاسمحواد على فلسطين نهارا جهارا ؛ ذلك الاستحواد الدى وعدنهم به صورة أيلول ، وحين أرغموا على أن يعطوا للعرب حلاوة من طرف اللسان • فاموا بتفديم مفولة مناسبة أخذوها كما هو واضح من بيان المنظمات الصهيونية فى الولايات المتحدة الدى صدر فى النانى من نسرين الأول لعام ١٩١٦ ، أى قبل سنه أو نحوها (والذى أوردنا منه شيئا فى الفصل النامن) •

ففى هذا البيان طالبت المنظمات المذكورة ، من بين ما طالبت به ، بالحقوق الشاملة لليهود حيثما وجدوا • ثم مضى هذا البيان الى تحديد هذه الحقوق ، وكان تحديده هذا مصوغا بهذه الكلمات • « مع العلم بأن عبارة الحقوق الـكاملة ، خليق بها أن تشـمل الحقوق المدنية والدينية والسياسية » •

وهذا هو بكل تأكيد ويقين المصدر ••• هذه هى الصورة الكتابية الأولى لضمان بلفور الشهير • وينبغى على المرء أن ينفى من ذهنه هـذا التطابق فى الكلمات فيظن أنها انما تطابقت مصادفه • لأن وضع عبارة «مع العلم بأن» تليها قائمة الحقوق التى ذكرت تشير بدرجة لا يخطئها كل ذى فهم الى النقل والاقتباس •

ومع ذلك ، لاحظ هذا الفارق الذى نشأ عن هذا الاستخدام الجديد لتلك المقولة • لقد استخدم الصاغة الصهاينة هذه المقولة فى الولايات المتحدة ، ليحددوا بها حقوقهم هم ، أما فى تصريح بلفور فقد كان عليهم ، وبدافع من دوافع الضمان أن يستخدموها فى تحديد حقوقهم هم ، ولكن فى الوقت عينه لطمس حقوق العرب ، أن أردنا الصدق • ومن ثم فقـد سلموا للعرب بتلك « الحقوق المدنية » اللعينة • أما لأنفسهم فقد أسقطوا كلمة « المدنية » هـذه كلية • اذ كانوا قد أدركوا منـذ البداية انهـا لا تسـاوى مليما واحدا ، لأنهم قد حرصـوا فى بيانهم المذكور على أن يطالبوا بالحقوق الدينية والسياسية بالاضافة الى هذه الحقوق المدنية • وتوخوا هذا الحرص عينه فى تصريح بلفور •

بيد انهم طوروا الصياغة فى « تصريح بلفور » فكلمة « المدنية » لم يقذف بها فى البحر ، كما يفعل البحارة ببعض حمولة سفنهم حين يتهددها الغرق ، بل ان كلمة « السياسية الخطيرة قد نزعت بمهارة فائقة من كلمة « الحقوق » والحقت بكلمة « الأهليات » • ولو أنهم منحوا

للعرب فى هذه الحملة ذاتها الحقوق المدنية فقط ومنحوا لليهود فى الوقت عينه الحقوق السياسية لكان ذلك تمييزا وتباينا صارخين ، وللفت أنظار الناس اللامبالين فى عام ١٩١٧ . ولذلك تركوا « حقوق » اليهود فى الظاهر غير موضحة ، فى حين أنها أصبحت مضاعفة فى الواقع بفعل ازالة صفة النصر عنها (أى « المدنية » ـ المعرب) . وقاموا فى الوقت عينه بادخال عبارة « الأهليات السياسية » كأنما هى شيء من نمط آخر وقف على اليهود ، لتقوم هذه العبارة مقام الضمان المحدد .

ولنتوقف هنا لحظة من الزمن لنشرح لماذا كان من الضرورى جدا أن يكون لهم مثل هذا الضمان ؟ . فبدون هذا الضمان قد ينظر الى جميع اليهود ، حينما تصبح فلسطين دولة يهودية ، على أنهم ينتمون اليها . ومن الممكن أن يحدث هذا حتى فى المرحلة التمهيدية ؛ أن يحدث خلال تلك المرحلة المتوهمة التى يكون فيها العرب واليهود ، كفرسين تحت عربة واحدة ، يبنون فلسطين الجديدة معا (واستخدم هنا ما يحلو لك من المجازات العرجاء التى تراها أوفى بالغرض من وصف هذا المجاز السياسى الكسيح الأثيم) ان النعرة المادية للسامية سهلة الانتشار ، وقد يثور فى أى بلد تهييج يطالب بارسال اليهود الى فلسطين، والا فنفيهم من البلاد ، أو تصنيفهم كأجانب ، كمواطنين فلسطينيين ، وتجريدهم من حقوق الانتخاب .

وفضلا عن هذا ، فان ادخال هذه العبارة ، دليل آخر على طبيعة النظام المبيت وضعه فوق رأس الديار المقدسة فى ظل هذا التصريح . فلو بيت لهذا « الوطن القومى » أن يكون شيئا غير مؤذن يكون مجرد « وطن قومى من وطن » ، له مؤسسة بسيطة لاستقبال الزائرين ؛ أن يكون مؤسسة ليس لها أى أهلية سياسية خاصة لما كان هناك داع لاصدار ضمان يضمن للمضيفين أو للضيوف أهلياتهم السياسية فى منابتهم ؛ سواء فيما وراء البحار أو فوق اليابسة . أما اذا كان هذا « الوطن القومى » يعنى دولة أو شبه دولة فهناك كل الدواعى لاصدار مثل هذا الضمان .

واذن فجملة « الضمان » التى وردت فى هذا التصريح ، بأصلها الخداع الذى بيت للعرب به أن يجردوا من حقوق المواطنة ، قد تفتقت عنها عقول الصهاينة بلا شك ، وان تبناها ، طبعا ، بلفور والآخرون ، وأصدرها وكانما هى من نفكير الوزارة البريطانية . وربما كان هذا أمرا متوقعا اذا أخذنا فى اعتبارنا ذلك التأليف المشترك الذى أخرج

هذا التصريح . لقد كانت الذريعة رائد صائغه البريطانيين . أما صائغه الصهاينة فكانوا منطرين (بتسديد الظباء وكسرها ، أى اناسا يبررون كل ما يفعلون بنظريات ــ العرب) . فرأى البريطانيون أن من الضرورى أن يعموا أنفسهم عن حقوق العرب . أما الصهاينة فقد كانوا مقتنعين ــ أو أقنعوا أنفسهم ــ بأن ليس للعرب حقوق كبشر ؛ اللهم الا تلك الحقوق التى جاد الأتراك بها عليهم .

ويجهر المستر دى هاعاس ، الصائغ الأمريكى فى هذا البيان ، بموقف الصهاينة بمنتهى الوضوح فيقول : « نحن نفرق بين الحقوق اليهودية وبين الادعاءات العربية . وأما بصدد ما اذا كانت للسكان الفلسطينيين حقوق سياسية ملموسة فى عام ١٩١٤ ، فنحن نترك هذه المسألة الى أولئك الخبراء الضليعين فى القانون التركى ، ليقولوا لنا الحقيقة . فنحن نعلم من الواقع العملى أن هذه الحقوق لم يكن لها وجود ؛ حتى بالرغم من أن الشبان الأتراك قد أقاموا برلمانا صوريا . فلقد حكم جمال باشا فلسطين بقبضة حديدية،مثله فى ذلك مثل كل تركى سبقه، بالرغم من أنه قد يكون تفضل فأغرق الشعب بالحقوق المكتوبة . ان عبارة الحقوق السياسية ، (وخط التشديد هنا والحاصرتان من وضع المستر دى هاعاس نفسه) لا تظهر فى تصريح بلفور . فالعبارة المستعملة هنا هى عبارة الحقوق المدنية . ولقد أوضحنا كثيرا من قبل ان كل كلمة من كلمات هذه الوثيقة قد وزنت من قبل ما يزيد على عشرين جهبذا حجة » .

وهذا الايضاح الذى يقدمه لنا صائغ من أهم صائغى التصريح ، الذين انطلقت مقصاتهم تفصل هذا التصريح ثوبا لهم ، هو القول الفصل فى هذا المقام .... بموجب هذا التصريح لن ينال العرب أية حقوق سياسية سواء أكانت لهم حقوق سياسية من حيث المبدأ أم لم تكن . انهم ، طبقا للمزاعم الصهيونية التى يشتهر المستر دى هاعاس بالدفاع عنها أى اشتهار ، لم تكن لهم أية حقوق عمليا ، وليس من المرجح أن ينالوا هذه الحقوق نظريا .

وتظهر على المستر دى هاعاس ، بعد صفحتين من مؤلفه الذى ورد فيه هذا القول ، سيماء النكوص هنيهة عن المفهوم ، أو انه قد نسى فى حمأة الكتابة أنه قد اختلقه لتوه . انه يقول فى معرض حديثه ، « ان قضية العرب هى ،بغض النظر عن الحقوق التى تنشأ من العيش فى بلد » .

« لكنه بعد أن ذكر هذا الصداق الطبيعي على هـذا النحو العابر لا يعود الى الاشارة اليه مرة أخرى ٠

والمستر دى هاعاس ليس وحيدا فى هذا الموقف ٠ كما انه ليس موقف صهيونيى الولايات المتحدة وحدهم ٠ فوجهة النظر عينها تسـود فى هذا المقـام ٠٠٠ بموجب هـذا التصريح لن ينال العرب أية حقوق بين ظهرانى الصهاينة البريطانيين ٠ ولم لا تسود ما دام الاعتراف بأنه كانت للعرب حقوق سياسية يعنى الاعتراف بأنه لا يمكن فرض « الوطن القومى » عليهم ٠ وكمثال على هذا الرأى البريطانى الصهيونى ، فى وسعى أن أسوق نصوصا هنا للمستر هربرت سايدبوتام الذى هو من أشد المدافعين عن قضية الصهيونية بين الناس غير اليهود ٠ ولقد ذكرنا من قبـل دوره فى مانشسـتر ٠ انه داعيـه لتصـيبه الصهيونية مطلق الصلاحية ٠ وأعتقد أنه يمكن أن يوصف أنه بولى الحركة الصهيونية الى الناس الآخرين دون أن يكون فى وضعنا هذا أى تجن عليه ٠

وان ممـا له دلالة كبيرة ، الأثر الذى يحدثه انجيله هـذا عليه ٠ ها هنا رجل يحظى باعجاب شديد وخاص من لون زملائه فى الصحافة ٠ ويقرأ له كل ما يكتب من تعليقات حول الموضـوعات الاخرى باحترام شديد ٠ لكنه حين يسخر قلمه للدفاع عن الصهيونية وفى تبرير مسلكها فانه يسف اسفافا ما بعده اسفاف ، ويعرض نظريات هى أبعد ما تكون عن العقل ؛ كما لو أنها نبتت من العقل ونضـجت فى مجال التجربة ٠ وليست هـذه بالظاهرة غير العادية ٠ اذ يخيل لى أن سـحابة عمياء من الجنون تغشى بصيرة كل من يستسلم لجرثومة الصهيونية ٠

والفارق بين سايدبوتام ودى هاعاس هـو أن الأول يركز نظرياته على صفة فلسطين أكثر من تركيزه على صفة سكانها ، ولكنه يصل الى نتائج مماثلة لنتـائج المسـتر دى هاعاس ٠ انه يجرد العرب من أى حق من حقوق المولد ٠ وأنا هنـا أسـتشهد بنص من مذكرة له ، تسرع نوعا ما فسماها : السياسة البريطانية والانتداب على فلسطين : امتيازنا الذى نفخر به ٠ وتبدأ هذه المذكرة بهذه العبارة : « نحن موجودون فى فلسطين نتيجة لارتباط بين أقدم فكرة قومية فى تاريخ العالم وبين مصالح أدبية وسياسية معينة خاصة ببريطانيا العظمى ؛ ارتباط لم يدبر وانما تمخضت عنه أحداث الحرب » ٠ (ولست أسـتطيع أن أمنع نفسى من التشديد على العبارة الوسطى فى هذه المقولة ٠ فهل يستطيع أحد ؟) ٠

وهو فى ختام الفصل الأول من مذكرته هذه يقول : « والواقع أنه

لم يكن لفلسطين وجود قومي أو جغرافي مستقلين عن ذلك التاريخ القديم الذى منحه اليهود لها • وقد اختفى هذا الوجود مع اختفاء الاستقلال اليهودى • ولهذا فان بلفور ، بتعيينه فلسطين كوطن قومى ، لم يعط شيئا يعود لأناس آخرين • انها شبح من الماضى لم ينجح ألفان من الأعوام فى تجسيده وانما استطاع أن يتخذ له شكلا مجسما فعليا من طريق اليهود وحدهم • لقد كانت فلسطين بالنسبة للمسيحيين الديار المقدسة• وبالنسبة للآخرين يمكن أن توصف بلا مبالاة بأنها زائدة ملتحقة بمصر ، أو جزء من سوريا ، أو جزء من العربية • وبالنسبه لليهود وحدهم استطاعت فلسطين أن نكون بلدا قائما بذاته » • أو مرة أخرى على حد قوله : « ان فلسطين كبلد لم يكن لها وجود قبل وعد بلفور • فلقد كانت بالنسبة للأتراك جزءا من ولاية بيروت ، وكانت بالنسبة للعرب الجزء الجنوبى من سورية » •

ولا أظن الا أن القارىء يشاطرنى الرأى فى وصفى لهذا الخط الجدلى المتضمن فى النبذة التى أوردتها أعلاه بأنه خط مسرف الهذر ، وأنه حليق بوصفى هذا • ان فيها جانبا هو من الخيال بدرجه تدعو الى أن تتخذ منها تسليه • ان المستر سايدبوتام يعلن أن فلسطين ليست بلدا ان لم يحتله اليهود • وأن وجودهم فيها هو وحده الذى يجعل منها بلدا •

وليس هناك سبب على وجه هذه البسيطه يقول بوجوب أن نكون فلسطين بلدا • انها من الصغر ، وحدودها مصطنعة بالدرجة الأولى ، وليس فيها ما يميزها عن الأراضى الواقعة الى الشمال منها ، وليس فى صفتها المقدسة أدنى ظل للصفة القومية ، بحيث لا تلزم أحدا بأن يرى رأى المستر سايدبوتام ، والحقيقة أن هذه المقاطعة الصغيرة ليست الا جزءا من سورية • وقد ظل وجودها على كر الأحقاب والقرون وجودا تابعا • وهو يقول انها فى يمين العرب لا تعدو « جزءا من العربية » أو انها « الجزء الجنوبى فقط من سورية » •

وها هو الآن يخرج عن كل منطق • انه يريد أن ينزع فلسطين من ملك العرب لأنها مجرد جزء من بلاد العرب • وما من شك أنه لا يعارض فى أن للعرب حقا فى بلد ما من بلاد الله ، أما حقهم فى جزء من هذا البلد من بلاد الله فيختفى عن ناظريه ! ؟ ! فاذا ما جاء اليهود واقترحوا تحويل جزء من بلد عربى الى بلد يهودى كامل فعندئذ يفقد العرب حقهم فى هذا الجزء كلية وبصورة أوتوماتيكية ! ان الجزء ككيان مستقل شىء لا يمكن الدفاع عنه • ولكننا اذا تذرعنا بحجج تسير على نهج المستر

سايدبوتام فسنصل الى حد اكتشاف أن مطالبنا بكل انكلترا مطالبة لا تقوم على أســاس • اذا طالبنا بها كجزء من تركة الجنس البريطانى ، كجزء من الـكومونويلث البريطانى ، لأن هـذه هى الطريقة التى يدعى بها العرب بحقهم فى فلسـطين • على أسـاس أنها جزء من تركة الجنس العربى ، جزء من الكومونويلث العربى ، أو جزء من وحدة الأراضى التى يأهلها العرب •

ولكى نعود الى صلب الموضوع نقول ان هذا الوضع ، الذى وضع كتاب الصهاينه النموذجيون أسسه ليكون وضعا يوضع العرب فيه ، هو أن العرب عبيد سياسيون ، أناس ليس لهم حق ملكية المكان الذى ولدوا فيه •• وهو مكان لن يكون له وجود سياسى فى أيديهم حقيقية •

ولنعد الآن الى تصريح بلفور • بعد أن جرى نشر هذا التصريح حدث حادث مرتبط أوثق الارتباط بهذه المسألة التى تتعلق بالحقوق القومية ، ويمكننا أن نختتم به مناقشة هذه المسألة • لقد سعى قادة الصهاينة لدى حكومات الدول المتحالفة الرئيسـية بالتماس لاصدار بيانات تسـجيع ومعاضدة مماثلة لهذا البيان الذى أعطته بريطانيا لهم •

وكان الخداع ينتظرهم • لقد تلقوا فى التاسع من شباط لعام ١٩١٨ مذكرة قصيرة كانت لا تعدو المطلوب • وكم كان يسر المستر ساكر أو أيا من أعضاء اللجنه السياسيين الآخرين لو أنهم حصلوا على شىء أكثر خلبا من هذه المذكرة • وهذه المذكرة هى :

M. Sokolov représentant des organisations sionistes, a été reçu ce matin au Ministère des Affaires Etrangères par M. Stephen Pichon, qui a été heureux de lui confirmer que l'entente est complète entre les Gouvernements français et britannique en ce qui concerne la question d'un établissement juif en Palestine.

(ان المسيو سوكولوف ممثل المنظمات الصهيونية قد استقبل فى صباح هذا اليوم ، فى وزارة الشئون الخارجية ، من قبل المسيو ستيفان بيشو الذى سره أن يؤكد له أن التفاهم تام بين الحـكومتين الفرنسـية والبريطانية فى كل ما يتعلق بمسألة مؤسسة يهودية تقام فى فلسطين) •

وسـيرى القارىء أنها وثيقة ليسـت مرضية حقا • لقـد تجنب الفرنسيون أن يعطوا الصهاينة أى ضمان مباشر • فحصروا أنفسهم فى القول بأنهم على اتفاق مع الحكومات البريطانية فى سياستها • وقد ترك

هذا القول عبء هذه السياسة على البريطانيين · ولم يعط المتحدث الرسمي بلسان الكى دورسيه أى تعهد على الاطلاق بأن الفرنسيين سيستمرون فى صفة الاتفاق مع الحكومة البريطانية كلما استجد فيه جديد · وفضلا عن ذلك فقد أرسلت هذه المذكرة الفرنسية مع كتاب يحمل تهنئة للمسيو سوكولوف على · « dévouement avec lequel vous poursuivez la réalisation desvoeux de vos co-réligionaire. »

« التجرد الذى تتابعون به تحقيق أمانى نبى دينكم » · ويا لها من تحية ذات حدين · لقد تجاهلت تلك المنصة القومية التى كان المسيو سولوكوف (المتجرد) يبذل كل ما فى وسعه لاقامتها · وذكرت منصته الدينية !

بيد أن هذا المشروع الصهيونى الذى دبر باحكام لم تنحطم له قدم حفا فخرج يسير على قدم واحدة الا حين سعى الصهاينة به لدى ايطاليا · وها كم البيان الايطالى الذى صدر من لندن فى الناسع من آيار عام١٩١٨ الى المسيوسولوكوف من قبل الماركيز الامبريالى ، السفير الايطالى فى لندن والذى يقول :

بأمر البارون سونينيو ·

In relazione alla domande che gli sono state rivolte il Governo di Sua Maestà é lieto di confermare le precedenti dichiarazioni già fatte a mezzo dei suoi rappresentani a Washington, l'Aja et Salonicco, di essere cioé di disposto ad adoperarsi con piacere per facilitare lo stabilirsi in Palestina di un centro nazionale ebraico, nell'intesa pero' non ne venga nessun pregiudizio allo state guiridico e politico delle già esistenti communità religiose ed ai diritti civil et politico che gli israeliti gia godono in ogni altro paese.

ان حكومة صاحب الجلالة ليسعدها ، فيما يتعلق بالالتماسات التى قدمت اليها ، أن تؤكد بياناتها السابقة التى صدرت بطريق مندوبها فى واشنطن ، ولاهاى ، وسالونيك ، أى أنها مستعدة وبكل سرور لاتخاذ خطوات لتسهيل اقامة أساس فى فلسطين لمركز قومى يهودى ، شريطة أن يكون مفهوما ، على أى حال ، ألا يحدث من ورائه انتهاك للأهلية القانونية والسياسية للجماعات الدينية الاخرى الموجودة فى فلسطين وللحقوق المدنية والسياسية التى يتمتع بها الاسرائيليون فى أى بلد آخر ·

ولقد وضعت الحكومة الايطالية فى بياناتها هذا الكلمات المفقوده التى يكمن فيها كل المعول عليه ٠ اذ ما دام الملتمسون الذين طلبوا منهـا اصدار هذا البيان قد جعلوا السكان الفلسطينيين ينقسمون الى جماعات٠ فان المستشارية (أى الحكومة الايطالية - المعرب) قد توحت أن تبين أن هذا التقسيم دينى ٠ لقد سدت فوهات مدافع اللورد بلفور والدكتـور وايزمان اللذين استغلا الفكرة الدينية ليجعلوا هذا التقسـيم تقسيما طائفيا ، ولكنهما عاملا هذه الطوائف منذئذ فصاعدا باعتبارها وحـدات قومية ٠

والأهم من هذا معنى ومغزى هو ادخال كلمات : « الأهلية القانونية والسياسية » ٠ لقد ضمنت الحكومة الايطالية وجوب عدم مساس الوطن القومى بحقوق العرب الاساسية عينها التى طمسها تصريح بلفور عمدا ٠ وقد أوضحت الحكومة الايطالية بكل أدب أنها لم تنخدع بألفاظ وثيقة بلفور ، وأنها لن تكون شريكة فى انتهاك وكبت حقوق أهل البلاد ٠

ويستحيل على المرء ألا يحمد الحكومة الايطالية على لطف هذا الزجر وبراعته ٠٠ على ضربها الصهاينة بحجارتهم ورد كيدهم فى نحرهم ، برفض ادعاءاتهم تحت شعار تأييدها ٠٠ تماما كما فعل الصهاينة مع العرب ، حين كتبوا لهم ذلك الضمان بلسان بلفور ٠٠ وألا ينال اعجابه هذا التظاهر اللطيف منها بتصديق أن بلفور قد قصد أن يكون ضمانه للعرب هذا ضمانا صادقا ، وأن ايطاليا انما تريد أن تجعل هذا الضمان أوضح بالنسبة له بألا تدع فيه منفذا ينفذ منه منتقد ٠

ولقد أعطى هذا الضمان الايطالى قبل استيلاء الفاشية على الحكم فيها بزمن طويل ، اذا كان هناك ثمة داع لقول هذه الحقيقة ٠ لقد قدمته المملكة الايطالية القديمة ، الديمقراطية ، المتحررة ٠ ونحن نقول هذا الكلام حتى لا يكون هناك سـبيل الى عزوه الى العداوة أو البغض أو ما شابه ذلك من دوافع ٠ واذا كان هذا الموقف من ايطاليا يجعلها فى مركز قوى فى الوقت الحاضر فانه بكل بساطة مثل على أن الصـدق والأمانة يمكن أن يكونا حقا أحسن سياسة ٠ وليس يدهشنا ، والحالة هذه ، أن هذا البيان قد طوى تحت جناح السكون ٠ وان الصورة المأخوذة عنه التى تنسبها السيدة أندروز الى المسيو سوكولوف فى كتابها الديار المقدسة فى ظل الانتداب ليست دقيقة وصادقة ٠ فالسـيدة اندروز تنسب الى ايطاليا أنها تقدم ضمانا فقط « للحقوق المدنية والدينيـة

للجماعات غير اليهودية الموجودة فى فلسطين أو الاهلية القانونيـــــة أو السياسية التى يتمتع بها اليهود فى أى بلد آخر » ٠ وبهذه الطريقة قلبت البيان الايطالى الى تصريح بلفورى آخر ٠ أما النسخة الأصلية ، التى قدمها لنا المسيو سوكولوف ، بالايطالية الأصلية والتى أوردناها بنصها الايطالى هنا ، فهى شىء آخر مختلف كل الاختلاف عن تلك ، وهى ند ظلت ماثلة أمامنا حتى اليوم ، وتحمل فى طياتها معان مرعبــــــة بالنسبة للصهاينة) ولا داعى لأن نطيل حولها الكلام ٠

الفصل الثانى عشر

عدم شرعية اصدار التصريح ـ دوافع اصدار التصريح • التصريح من حيث هو جزء على الخدمات التى أسديت •

كفانا ما قلناه عن هذا التصريح من حيث هو تصريح • فهناك ثلاث وجهات نظر أخرى لم نمحصها حتى الآن • وأولاها هى : هل كان اصدار تصريح بلفور هذا شرعيا فى حد ذاته ؟ •• بغض النظر عن الافتئات الكامن فى نصوصه الغادرة ! •

ان هذه النقطة نقطة اعادة ، أجاب عنها مجمل هذا الكتاب • ولىا علينا أن نمر عليها الآن ولو من أجل خاطر النقاش واتساقه • وفى وسعنا أن نعالجها وننتهى من أمرها بسرعة • ان الحكومة البريطانية لم يكن من شأنها أو اختصاصها أن تصدر بيانا يقنن وضع الصهاينة فى فلسطين ، ناهيك عن بلورة هذا الوضع • فلقد تعهدت الوزارة التى سبقتها فى كراسى الحكم بالاعتراف باستقلال هذا البلد العربى « بكل معنى الاستقلال » وكان هذا الاتفاق ساريا •• لأن العرب كانوا ينفذون التزامهم منه بشن الحرب على الأتراك • ومن ثم فلم يكن يحق للحكومة أن ترعى وتتبنى رسميا أفعال طرف ثالث خاصة فى فلسطين ، ذلك الطرف الذى لم يكن يضع فى اعتباره أن يطلب من العرب أى اذن لممارسة هذا الفعل الخاص • ومن ثم اجترأت هذه الحكومة على استقلالهم وانتهكته • وذلك هو الوضع بالاختصار • وهكذا فان التصريح البلفورى الذى كانت معاهدتنا مع الملك حسين تسد عليه الطريق ، والذى أصدر دون أى مشاورات سابقة مع العرب أو موافقة منهم ، كان تصريحا محرما محظورا وباطلا •

وقد تذرع البعض بحجة فقالوا انه لم يكن ممكنا أن نتشاور مع

العرب في الظروف التى كانت سائدة آنذاك ، ومعظم فلسطين مايزال فى أيدى العدو . ووإضح أن الطريق الشرعى الوحيد الذى كان يمكن سلوكه هو الانتظار حتى تخرج فلسطين كلها من يدى العدو ثم نتشاور معهم . وكان هناك طريقان آخران مفتوحان .

١ ـ أن نجرى مشاورات تمهيدية مع الملك حسين ، يستطيع فيها هذا الملك أن يتلمس معنى « الوطن القومى » ومعنى الوعد البريطانى برعايته . ولكان فى وسعه ، لو تم ذلك ، أن يطالب الصهاينة باصدار بيان قاطع محدد عما اذا كانوا على استعداد لأن يمارسوا أنشطتهم وينموها ، بترخيص يصدر من الدولة العربية المرتقبة وفى نطاق اطارها ، أم لا .

٢ ـ وكان من الممكن (ان لم يكن عين الصواب) أن تصدر الحكومة بيانا مؤقتا معلقا بموافقة العرب عليه قبل أن يصبح سارى المفعول .

بيد أن أيا من هذين الطريقين البينين السهلين للعمل لم يؤخذ به ، كما لم يؤخذ كذلك بأى من الطرق المشابهة لهذين الطريقين ، تلك الطرق التى تخطر على بال المرء دون ما صعوبة . وهكذا فان هذه الحجة الواهية التى تقول بأنه لم يكن من المتيسر التشاور مع العرب تذهب أدراج الرياح وفى التو واللحظة .

وهناك نوع آخر من الأعذار شائع الىدرجة أنه يجب أن يذكر كذلك . وقيمة هذا العذر كعذر هى قيمة ما فى الدانق من ذهب ! ولا شىء أدعى الى الذهول من هذه السهولة التى تجرى بها ترديد مثل هذا العذر السخيف . لكنه عذر اكتسب ذيوعا لأنه ينسجم تمام الانسجام مع الخمول الذهنى الشائع جدا ، الذى لا يحب أن يبذل أدنى جهد فى الاستفسار عن مواطن الخطأ والصواب فى أى مشكلة من المشاكل . وان القائلين به يوفرون على أنفسهم عناء استخدام عقولهم بالقول عن أى مشكلة من هذه المشاكل أنها كلها خطأ ، وأن مركز كل شخص معنى بها مركز لا يحسد عليه ، وأن من العبث اضاعة الوقت فى البحث عن ظلال الادانة بينهم . « دع الحق وابدأ من جديد » . أو «مالك ومالها» ، هكذا يقول منتحلو الأعذار ، ثم يمضون ليلعبوا لعبتهم المفضلة : الجولف .

والعذر الذى يقال بصدد مسألة فلسطين هو أننا قد قمنا بتوزيع تعهدات كثيرة ، على العرب وعلى اليهود ؛ فى السر وفى العلن . ومن ثم فان السبيل الوحيد ؛ المستقيم والمعقول هو أن نلغيها «كلها بالجملة» وأن نبدأ بداية جديدة . على مثل هذا النحو تقوم هذه الحجة ، الدنيئة الحقيرة

فى منحاها بقدر ماهى ضعيفة واهية عند مناقشتها . فاذا ما كان هناك أى أساس لها ، فيالها من آفاق مخزية هذه الآفاق التى تفتحها هذه الحجة !

ان أى امرىء بندم على تعاقد عقده يستطيع أن يتهرب دائما منه بعقد تعاقد آخر ، أو تعاقدات أخرى تتعارض وذلك النعاقد الأول . فاذا ماتجرأ الطرف الآخر فى ذلك التعاقد الاول على مطالبته بالوفاء بما جاء فيه فيستطيع عندئذ أن يذهب الى المحكمة ويقدم مستنداته ويعرض دفاعه قائلا : «ان جميع تعهداتى هذه يناقض بعضها البعض» . فيعلن القاضى حين يرى أنها كذلك : « نعم . انها كذلك . ولذلك حكمت المحكمة بالغائها جميعا . » ! فيا للأخلاق ويا للسخف !

ولكن لا ! ان الأمر ليس كذلك . حين يتذرع فرد بتعدد التعاقدات ، أو حين تحتج أمة بكثرة المعاهدات أو التصريحات الرسمية ، فليس هناك الا وسيلة واحدة لتقرير أيها النافذ . فأيها الأسبق ؟ فاذا ما كان هذا التعاقد الأسبق سليما من الناحية القانونية فيحتم على المواطن أو على الامة أن تلتزم به .

وان التصريح البلفورى قد قطع بعد سنتين من عقد تحالفنا مع الملك حسين . وانه يتعارض مع هذا التعهد السابق له . ومن ثم فهو باطل ولا يعتد به . انه ليست له صفة أكثر من صفة القسم الذى يقسمه رجل أمام المذبح بالوفاء لامرأة فى الوقت الذى تكون له فيه امرأة مهجورة ماتزال على قيد الحياة . والحقيقة هى أن أحسن وصف يمكن أن يوصف به هذا التصريح البلفورى هو أنه متعدد الازواج .. هو أنه امرأة متزوجة من رجل متزوج !

وأسوأ ما فى جريمة تعدد الزوجات هو ذلك العذاب الذى يوقعه بشخصين ، الزوجة الحقيقية و «الزوجة» الزائفة . وفى هذا المثال الحاضر من هذه الجريمة ، نجد عدة آلاف من اليهود ـ ولا أقول قادتهم ـ قد غررت بهم وثيقة الزواج الزائفة التى وقع بلفور عليها ، وساقتهم الى فلسطين . ومسئولية هذا العمل هى مسئولية بين هؤلاء المهاجرين وبين قادتهم وليس لنا دخل بها . وان كل مايتعلق منها بنا نحن ، الذين ورثنا تلك المسئوليات التى ألقتها وزارة عام ١٩١٧ على عاتق بريطانيا ، هو أننا مدينون لهؤلاء الناس التعساء بتعويض مناسب ، وهو تعويض سنجد بعض الصعوبة فى الوفاء به . بيد أننا لسنا مدينين بأن نضعهم فى مكان الزوجة الشرعية القانونى ، أو أن نسكنهم معها فى بيتها .

ويجىء الآن دور النقطة الثانية ٠ وهى كذلك ، والى حد ما ، نقطة اعادة ٠ انها تعالج الاسباب التى دعت الى اصدار هذا التصريح٠ ولقد رأينا أن اصداره كان جزءا من صفقة ٠ انه المكافأة التى منحت للصهاينة لقاء جعلهم الميزان فى الولايات المتحدة يميل أو يرجح لصالح اشتراكها فى الحرب فى صفوف الحلفاء ٠ أو هذا هو على الأقل الذريعة التى تذرعت بها الحكومة البريطانية للاقدام على تلك الفعلة التى فعلتها فى الثانى من تشرين الثانى (نوفمبر) ٠ بيد أن هناك ذرائع أخرى تذرع بها أيضا ، فولد شاهد غريب يستدعى الاستجواب والتحقيق ٠

وفضلا عن ذلك فهناك مسألة أخرى ، وهى الى أى مدى كانت هذه الصفقة التى عقدت نافعة ؟ أن هناك اهتماما تاريخيا بمعرفة ما الذى جرى تنفيذه ، وما الذى ربحناه أو فقدناه لقاء هذا الثمن الفادح ٠

وليس لدينا أى استفسار نستفسره بخصوص الجانب الصهيونى فى هذه المسألة ٠ اذ أن السبب فى دخولهم فى صفقة التصريح هذه هو رغبتهم فى تحقيق فكرتهم الجديدة عن صهيون ٠

الا أن هناك الكثير مما يقال بصدد الجانب البريطانى ٠ وأهم نقطة فى هذا الصدد هى أن «الحقوق التاريخية» التى يجرى الطبل والزمر حولها ، والتى تذرع بها الصهاينة للدخول طرفا فيها ، لا تساوى فى حساب البريطانيين كثيرا أو قليلا ، بالرغم من كل هذه الخطب التى قيلت حولها ، تبريرا لمنح امتياز الوطن القومى هذا ٠ ان الحكومة لم تصدر تصريحها هذا لأن الوزارة كلها كانت متشبعة بتصميم رومانسى على وجوب أن يتمتع الجنس اليهودى بحياته من جديد ٠ فلقد عاد أبناء يعقوب الى يعقوب ٠ ولكن لم يكن هناك الكثير منهم فى التلال آنذاك ٠ وربما لم يكن من هؤلاء المتشبعين فى الوزارة الا بطل روايتنا اللورد بلفور ، الذى لم يكن يتعامل مع الصهاينة على مبدأ هات وخذ ٠ ويمكن تبرئة بلفور من المساومة التى كانت من أقوى دوافع الحكومة ، اذا كنا لا نستطيع تبرئته من أى شىء آخر ٠

لقد كانت لديه نظرية يجب أن يعرضها للملأ ٠ وهى أن العالم لم يكافىء اليهود مكافأة نفى بما قدموه للحضارة ، وأن العالم متخلف فى سداد دينه هذا ، فلم يكن الأمر بالنسبة لبلفور يعدو تسوية هذا الحساب كالذى يحدث فى مسك الدفاتر ٠ وقد أمده هذا الاحساس بنوع من الاعتراف بالجميل (معقول !) ٠ لكن أقوى شعور لديه هو رغبته فى وضع نظريته هذه فى حيز التطبيق ٠ وكانت هذه النظرية أخلاقية لديه لدرجة

أنه لم يكن يأبه الى أى مدى أخلاقى كان ذلك الذى وضعت به هذه النظرية موضع التنفيذ ٠

وهكذا استمر بلفور يلقى وهو فى كرسى الحكم دروسه عن الصهيونية ببراءة من لا ناقة له ولا جمل ، برغم كل ما حدث بعد اصداره لتصريحه ، وبعد كل تلك الصرخات والاضطرابات ، وبعد كل تلك الاحتجاجات والشهادات باساءة السلطة التى أمطرنا بها العرب ٠ لقد كانت نظريته نظرية مقنعة بالنسبة له ٠

لقد كانت المقاطعات التى فوطع بها فى البرلمان ، وفى كل الاماكن الاخرى التى عرض فيها نظريته ، أمرا ثقيلا على نفسه ، ومزعجة له ، لكنما بيسر له الصمود لها ٠

أما من الناحية الاخرى ، فان مارك سايكس الذى فعل الشىء الكثير للصهيونية فى المحيط الرسمى ، بالدرجة التالية لبلفور ، والذى كان أنشط جسمانيا لصالحها ، حتى من بلفور نفسه ، فقد بدأ ييئس فى أمرها فى عام ١٩١٩ قبل أن يوافيه أجله المحتوم ، وهو فى سن مبكرة ٠ ولقد كتب ليزلى مترجم سيرة حياته فقال « وبعد أن كان مبشرا من مبشرى الصهيونية عاد من باريس بمشاعر هزتها بعنف المرارة الشديدة التى حافت بالديار المقدسة ٠ لقد بلغت الامور مرحلة تفوق كل مفهوم لديه عما قد يكونه كنه الصهيونية ٠ ولقد أثارت رحلته الاخيرة الى فلسطين كثيرا من الشكوك فى نفسه » ٠

أما زيارة بلفور الاولى والاخيرة الى سورية ٠٠ تلك الزيارة التى كاد يقع فيها فى الجزء الشمالى من البلاد ، فى قبضة الجماهير العربية الثائرة المستشيطة غضبا وسخطا ، فانها لم تثر فى نفسه شكوكا ! لقد زف قبلئذ فى المنطقة الجنوبية (أى فلسطين) عبر مجموعة لا تتغير من المستعمرات الصهيونية ، وكأنه كاترين أخرى يحف به رتل من المدرعات ، من طراز بوتمكين ـ فضلا عن حراسة المسلحين المتسترين ، وقوبل بهتافات جوقة واحدة بعينها لا تتبدل ولا تتغير أينما توجه وسار بين هذه المستعمرات٠ ولقد أبهجته هذه المجموعة من المستعمرات ٠ انها فلسطين التى يحب أن يراها ٠ بيد أنها فلسطين تختلف كل الاختلاف عن فلسطين الحقيقية ، وبعيدة كل البعد عن حقائق الموقف ٠

ولقد أغرى موقفه هذا البعض بأن يصفوه بأنه هاو فى فن السياسة٠ وكان فعلا هاويا فيه وغير هاو فى الوقت عينه ٠ اذ كان يتابع السياسة بتصميم حديدى ، ومع ذلك كان يجد تسليته ومتعته القصوى فى

الأمور السياسية برغم لعبه للتنس وللجولف • ففي كل تاريخه كسياسي في كل أعماله السياسية ، يوجد عرق من الترفيه والتسلي لا يحب أن يحرم منه • أنه أشبه شيء برجل يريد أن يمارس تمريناته الرياضية ، فينطلق يدوس حدائق الناس الآخرين وحقول قمحهم في سبيل قواعد الصحة البريئة • وأفدنة العرب في فلسطين تقع في طريق تمرينات بلفور الذهنية فقاد زملاءه الصهاينة ودخل بهم فيها ، وهو يصيح مستغربا من اقفار هذا المشهد الطبيعي ومن ملاءمته للسكنى والتوطن ، في الوقت الذي كان فيه يجدف دائساً أمواج القمح ، ويمر ، وهو يتابع جريه بخطوات واسعة على أصحابها الذين يصرخون فيه وفي زملائه بالخروج منها ، مستهجنين ما يرون منهم •

ومن ثم فقد وقع اللورد بلفور على تصريحه ذاك لكي يتمم نظرياته ويثبت أقدامها • ولم يكن يجهل طبعا تلك الفوائد المادية التي قد تعود عليه من وراء هذا ، لكن هذه الفوائد لا تكاد تكون بالنسبة له دافعا • فهناك نصيحة تقول بألا تتزوج المرأة من أجل نقودها بل اذهب حيث تكون النقود • وعلى هذا الأساس تزوج بلفور من الصهيونية في كل ما يتعلق بزواجه منها ••• تزوج منها كزوجة ثانية • وأغلب الظن أنه لو تحققت فكرة بلفور ، التي قل أن تجد لها مثيلا ، فكرة جعل الولايات المتحدة تريحه من هذه السيدة وتتزوج منها ، لكان مرتاحا أكثر من ارتياحه هذا بكثير • لكن تحول الولايات المتحدة الى حاكم في الشرق وبموجب مشروع غير مجرب كان أمرا مستبعدا الى أبعد حد ، ومن ثم كان أمرا يدعو الى الذهول •

وكانت هناك بالاضافة الى بلفور تلك الشخصية القوية الأخرى ألا وهي رئيس الوزراء السيد لويد جورج • ويجب علينا أن نضعها في الحسبان هنا • فماذا كانت دوافعه ؟ انه لم يفصح عن هذه الدوافع حين صدر هذا التصريح ، بيد أنه قام بالافصاح عنها في مختلف المناسبات بعدئذ • فقبل ثلاث سنوات عرض وجهة نظره في مجلس العموم عن « حقوق اليهود التاريخية » في فلسطين ، وكانت هناك آنذاك مناقشة عامة تدور في المجلس حول فلسطين • وفي معرض اشارته للنقاط الخاصة التي قال انه يريد أن يتحدث عنها ، أشار الى هذه « الحقوق التاريخية • » وكان من خصائص أسلوبه أن يمر مر الكرام ، كما فعل هنا ، عن المسائل ذات الدرجة الكبرى من الأهمية • لكن ذلك الشيء القليل الذي قاله بصددها كان قولا نوعيا واضحا بما فيه الكفاية •

لقد قال : « لست أصور الآن هذه المسألة بالقول بأن العرب ليسوا الا وافدين جددا على فلسطين ، وبأن سكانها القدامى كانوا يهودا · اذ لاشيء من هذا فيها · لأن اليهود ، أولا وقبل شيء ، قد طردوا منها الحثيين والعمونيين · »

وهذا القول لا يعدو ربع الحقيقة · انه قول يحجب العاملين اللذين كانا السبب في قصر عمر الاحتلال اليهودى لهـــا وضــآلة رقعته فيها · ويحجب حقيقة كون العرب ورثة له « العمونيين والحنيين» ولكنه يكفينا منه تماما بحاله الراهن هذا ·

لقد طالب اليهود بحق بناء وطنهم القومى فى فلسطين مستندين الى الحق التاريخى ، على أساس أنهم كانوا ســكانها الأقدمين · وقال رئيس الوزراء (سابقا) أن « لا شيء من هذا فى هذه القضية » ومع ذلك شجع ودعم وأيد دخولهم فلسطين في عام ١٩١٧ ، استنادا الى هذه الحجة عينها· هذه الحجة الوحيدة التى جرى الادعاء بها · فما الذى يمكن أن يقال بصدد هذا العمل ؟ الحقيقة هى أنه ما من قانون ، ولا مبدأ من مبادىء العدل ، ولا حق من حقوق الملكية ، لم ينتهك أثناء القيام بتلك المحاولات التى بذلت بهدف اقامة الوطن القومى اليهودى فى فلسطين ·

وعلى أية حال ، فاذا لم تكن هذه هى القضية فماذا كان دافع المستر جورج الحقيقى ، بوصفه رئيسا للحكومة ، فى اصدار هذا التصريح وفى تأييده لهذه القضية التى لا يرى فيها شيئا من هذا القبيل ؟ وقد سمى لنا هو نفسه دافعين لا يستقيمان معا ، ولكن يوجد بينهما شيء مشترك· وأولاهما شخصى ؛ لقد ساند الصهيونية كمكافأة يقدمها للدكتور وايزمان على المساعدة التى قدمها فى حقل انتاج المواد الكيميائية ابان الحرب · أما ثانيهما فهو غير شخصى : لقد أراد أن يكسب اليهود بوجه عام الى قضية الحلفاء · وقد قدم فى خطابه الذى ألقاه فى مجلس العموم فى حزيران من عام ١٩٣٧ ايضاحا ساق فيه هذين الدافعين · ولهذا ففى وسعنا أن نورده :

> لقد كانت (قال) أحلك فترة من فترات الحرب تلك الفترة التى أعد فيها المستر بلفور تصريحه هذا · ودعونى أعيد على أســـماع المجلس تلك الظروف · فى ذلك الوقت كان الجيش الفرنسى قد تمرد ، وكان الجيش الايطـالى يوشك أن ينهـار ، وكانت أمريكا قد أخذت تستعد بهمة وحماسة · ولم يكن هناك الا بريطانيا وحدها تواجه أقوى تجمع عسكرى شهده العالم ·

فكان من الضرورى بالنسبة لنا أن ننشد كل مساعدة مشروعة يمكننا الحصول عليها • ومن المعلومات التى تلقيناها من كل جزء من العالم توصلنا الى الاستنتاج بأن من المهم بالنسبة لنا أهمية قصوى أن نكسب عطف معشر اليهود • وفى وسعى أن أؤكد للجنة أننا لم نصل الى ذلك الاستنتاج بدافع من الأهواء والتحيز • اذ ليس لدينا بالتأكيد أى تحيز ضد العرب لأنه فى تلك اللحظات مئات وآلاف الوحدات العسكرية التى نحارب من أجل تحرير العرب من الأتراك •

فى هذه الظروف وبناء على النصيحة التى تلقيناها قررنا أن من المرغوب فيه كسب عطف وتعاون ذلك المعشر المهم ، ألا وهم اليهود فى جميع أرجاء العالم • وقد كانوا ذوى نفع لنا فى أمريكا ، وفى روسيا التى كانت فى تلك اللحظة تخرج من الحرب وتتركنا فيها وحدنا • وفى هذه الظروف عرضنا هذا الأمر على حلفائنا • فقبلته فرنسا ، وقبلته ايطاليا وقبلته الولايات المتحدة• وقد استجاب اليهود بنبل ــ ولست أقف هنا الا لأشهد بهذه الحقيقة ــ الى النداء الذى وجه اليهم • ولست أدرى ما اذا كان هـذا المجلس يعلم ما الذى ندين به للدكتور وايزمان ، بعقله العلمى المدهش • لقد أنقذ الجيش البريطانى انقاذا تاما فى لحظة حرجة حين نفدت تماما مادة كيميائية كنـا فى أمس الحاجة اليها لمدافعنا الكبيرة • وقد مكنتنا عبقريته العلمية من حل هذه المشكلة • ولكن ان هو الا شخص واحد بين الكثيرين الذين أسدوا خدمات جلى للحلفاء • وانه التزام شرف هـذا الالتزام الذى قطعناه والذى استجاب له اليهـود • ولسـنا نسـتطيع التملص منه دون أن يلحق بنا العار •

ولكن هناك أشياء كثيرة قد حذفت من هذا التعداد للظروف التى كانت سائدة أيام صدور التصريح • ومن بين هذه المحذوفات هو أن كلمة لم تتل على مسامع اللجنة من أن العرب كانوا يحاربون من أجلنا ، وأن حسينا وأبناءه كانوا يغامرون بمراكزهم وحياتهم من أجلنا • كما لم يرد كذلك أى ذكر عن التزاماتنا وتعهداتنا التى قطعناها للعرب • أما من حيث قبول الحلفاء للتصريح فلقد رأى القارىء آنفا كيف قبلته فرنسا وكيف قبلته ايطاليا • كما رأى شيئا كذلك عن تلك الطريقة التى حظى بها ب « القبول » فى الولايات المتحدة ، أما عن « التزام الشرف » الذى التزمنا به نحو اليهـود فقد رأى القـارىء أنه مازال أمامنا التزام نحو

اطراف كثيرة جـدا بريئة بينهم · لكنه التزام من نوع مغـاير · ولأن يتحدث المرء عن « التزام شرف » بصدد ارتباط أو تعهد هو في حد ذاته غير مشرف ، لأنه ينتهك حقوق الانسان ، وينتهك تعهدا آخر سابقا له ، فذلك من ساقط القول والهراء الذى لا معنى له ، بل وهو شىء أكثر من هذا · ولكن بقيت أمامنا مسألة اختراع الدكتور وايزمان ، ويجب أن نتولاها بالتمحيص · وليست هناك ، لحسن الحظ ، مناسبة لأن نمارى فيها في فائدة اختراعه هذا · ان الدكتور وايزمان كيميائى عظيم ، عمل بحماسة شديدة وأسدى خدمة تستحق الثناء · لكن المسألة هنا هى ما اذا كان خيال المستر لويد جورج الواسع قد ذهب به شططا حين أخذ يضيف مدى هذه الخدمة ·· أم لا ·

لقد أطنب فى تفاصيل هذه الخدمة فى خطاب ألقاه فى جو كان يدعو الى التفصيل والاطناب أكثر من جو كراسى أعضاء الوزارة فى قاعة مجلس العموم · وكان هذا فى آيار من عام ١٩٢٥ وبعد محاضرة ألقاها المستر فيليب جويدالا أمام الجمعية التـاريخية اليهودية فى لنــدن ، ورجعت بالاشارة اليها فى فصل مبكر من هذا الكتاب · لقد قال المستر لويد جورج بعد أن أزجى الشكر الى المحاضر الذى تحدث عن نداء توجه به نابليون الأول الى اليهود : « ونحن كذلك قد توجهنا بنداء الى شعبكم العظيم · وكانت دوافعنا ، بخلاف دوافع نابوليون ـ ولكن صريحين صراحة تاما ـ مختلطة · » ثم شرح الخطيب الدوافع التى فقست فى صدره من الانعطاف الطبيعى على شعب تشبع هو بأدبه التاريخى والتوراوى منذ نعومة أظفاره! ثم تابع كلامه فقال :

وهكذا كنا نواجه شعبكم قويا جدا فى كل بلد من بلدان العالم · قد تقولون انكم قد اضطهدتم وعذبتم ـ وتلك هى قوتكم على مر العصور · لقد طرقتم الى فولاذ نقى جدا وهذا هو السبب فى أنكم لا تكسرون أبدا · لقد طرقتم على كر القرون الى أنقى فولاذ بين شعوب العالم قاطبة ! ولهذا أردنا عونكم · فلقد اعتقدنا أنه سيكون ذا نفع كبير بالنسبة لنا · وانى أعرب عن هذا الجانب الآخر من هـذه المسألة بمنتهى الصراحة · وكنا قبـل ذلك قد حظينا منكم بمساعدة عظيمة جدا · وانى مدين شخصيا للدكتور وايزمان بالشكر والعرفان العميق وانى لواحد من مريديه · لقد واجهتنى فى وزارة الامدادات الحربية أزمة من أخطر الأزمات لم أتكدر مثل ما تكدرت بها ، أبدا من قبل · وكانت هذه الأزمة شيئا من تلك الأشياء غير المتوقعة التى تهجم عليك كاندفاع هجوم

الفرسان نحو تغرة • ولقد وجدت هذه النغرة • اذ بينما كنت أتنقل من مدفع الى مدفع ، ومن قذيفة الى قذيفة ، اكتشفت فجأة أننا لا تتوفر لدينا قوة من تلك القوى الدافعة الكبيرة لنضع بها الكورديت ـ أى كحول الخشب • فتوجهت الى الدكتور وايزمان •

وكان لا مفر من صناعة الكحول من الخشب ، فدرب مخلوقات صغيرة ـ ولا أدرى عن طريق كم جيل من أجيالها ـ على أكل السكر ، فتم صنع الكحول من الذرة الشامية • ثم كان هناك « الكثير من الذرة فى مصر » وتمت النجاة • فأحسست أنى مطوق بطوق من الجميل لعبقرية الدكتور وايزمان العلمية اللماعة•وكذلك كان جميع الحلفاء • وحين تحدثنا معه وسألناه : « ما الذى نستطيع أن نفعله معك على سبيل تكريمك ؟ » أجاب : « ان كل ما يهمنى هو أن تتاح لى فرصة أفعل فيها شيئا لشعبى • » •

لقد كان اختراعه هذا بالنسبة لنا يؤهله لأن يمنح أى لقب من ألقاب الشرف أو أى جائزة مالية معدودة بالجنيهات الذهبية ، لكنه لم يطلب ما هو أكثر من السماح له بعرض قضيته التى تستهدف اعادة شعبه الى ذلك البلد القديم ، الذى جعل منه هذا الشعب شهيرا ذائع الصيت بين جميع أرجاء المعمورة • لقد جعل نبى الاسيتون صهيونيا •

وهكذا طرحت هذه القضية بين أيدينا ، وحين أخذت الوزارة الحربية تبحث مسألة اصدار التصريح وافقت على اصداره بالاجماع تماما • وانى أعتقد أننا حصلنا على تعاون الفرنسيين معنا فى ذلك الحين ، فصدر التصريح البلفورى الشهير •

ويعيد المستر لويد جورج فى مؤلفه الضخم عن ذكريات الحرب هذه الأقوال بعبارات علمية أدق حين يصف ابتكار الدكتور وايزمان • انه يتذكر كيف أن س•ب•سكوت ؛ صاحب جريدة المانشستر جارديان ، هو الذى لفت أنظاره الى وايزمان ككيميائى يتوسم فيه أن يحل مشكلة الأسيتون • وحين نشأت صعوبة فى الحصول على الذرة بسبب حصار الغواصات ، وتحول المصنع الحربى الذى كان يقوم بعملية استخلاص الأسيتون من الذرة فى كنجس لاين الى استخلاصه من كستناء الخيل ، « وبالرغم من أن رداءة صنف المادة المستخلصة قد أعاقت فى البداية عملية الانتاج فان هذه المصاعب قد تم التغلب عليها فكانت طريقة وايزمان

تنتج الأسيتون من كستناء الخيل فى الوقت الذى جرى فيه اغلاق هـذا المصنع فى عام ١٩١٨ • » •

وحين حلت مشاكلنا بفضـل عبقرية الدكتـور وايزمان (يتابع المستر لويد جورج كلامه) قلت له : « لقد أسديت خدمة عظيمة للدولة وأحب أن أطلب الى رئيس الوزراء أن يقدم اسمك الى صاحب الجلالة ليمنحك لقبا من ألقاب الشرف• » فقال : « ليس هناك شيء أريده لنفسى • » « ولكن أو ليس هناك شيء نستطيع أن نفعله كاعتراف منا بتلك المساعدة القيمة التى قدمتها للبلاد؟ » سألته • فأجاب : « بلى • أحب أن تفعلوا شيئا لشعبى • » ثم أخذ يشرح آماله بصدد اعادة توطين اليهود الى الديار المقدسة التى جعلوا شهرها تطبق الآفاق • وهذا هو منبع ومنشأ ذلك التصريح الشهير عن الوطن القومي لليهود فى فلسطين •

وما ان أصبحت رئيسا للوزراء بحثت هذا الأمر كله مع المستر بلفور الذى كان آنذاك سكرتيرا للخارجية • وقد اهتم ، باعتباره عالما ، اهتماما شديدا حين حدثته عن منجزة الدكتـور وايزمان • وكنا متلهفين فى ذلك الحين على كسب تأييد اليهود لنا فى البلدان المحـايدة ؛ وبخاصـة فى أمريـكا • ومن ثم تيسر للدكتور وايزمان أن يكون على اتصال مباشر مع سكرتير الخارجية• وكان هذا الاتصال بداية تشارك كانت حصيلته بعد كثير من البحث والدراسة ، التصريح البلفورى الشهير الذى أصبح ميثاق الحركة الصهيونية • وهكذا فان الدكتور وايزمان لم يساعدنا على كسب الحرب باكتشافه ، فقط ، ولكنه وضع كذلك علامة لاتنمحى، على خريطة العالم •

وانى أعتقد أن هذه النبذة التى أخذناها عن لويد جورج ، دليل سامل واف على الدوافع التى حدت بالمستر لويد جورج الى التواطؤ مع الصهيونية • وهو يقدمها لنا فى قشرة الجوز المضروب بها المثل : أو يقدمها لنا ، على الأقل ، فى قشرتين • « لقد حولنى الأسيتون الى صهيونى • » و « ان نعاون اليهود ، وبخاصة فى أمريكا ، قد حولنى الى صهيونى • » صحيح ان القشرة الثانية هى من نوليفى أنا ، لكنها تتألف من كلماته هو ، ووفقا لمعنى أحاديثه الثلاثة ، وبكل أمانة • ولكن سـواء أكان أسيتون الدكتور وايزمان الفعلى فى انجلترا أم كان الأسيتون الأدبى من العون اليهودى فى العالم كله ، هو الذى حوله الى صهيونى ، فان هنـاك

شيئا واحدا جليا : ألا وهو أنه ليس هناك محل لقيام الصهيونية بتحويل المستر لويد جورج الى صهيونى · أو فلنستعمل كلماته هو فنقول : « ليس فى هذه القضية شىء » وان التصريح البلفورى ، فيما يتعلق برئيس الوزراء ، راتب دفعه للصهاينة لقاء خدماتهم ، ولا شىء أكثر من هـذا · واذا ما تمشينا مع هذا المجاز الى نهايته فأخشى أنه يتحتم علينا ، والحالة هذه ، أن نقول انه راتب قد دفع من ودائع العرب · وواضح أنه كان يخلق به أن يتقصى صفة هذا النقد الاقليمى ، الذى امتدت يده اليه ، بطريقته الرعناء ، ودفعت منه للصهاينة أجرهم ·

وفضلا عن هـذه المحـذوفات التى ذكرناها ، فان تقريره هـذا عما حدث ، يحتوى على مغالطات صغيرة ، ومغالطة أخرى ليست هينة بأى حال من الأحوال · فهو يقول ان الوزارة الحربية قد وافقت على هـذا التصريح بالاجماع حين أخذت تدرس مسألة اصداره · وهذا يبدو مجرد تلاعب بالحقائق لأنه اذا أمكن القول أن أعضاء وزارة الحرب الذين حضروا بعض جلسات معينة باكرة قد تورطوا فى الموافقة على هذا المشروع فان هـذا الوضع سرعان ما تطور فحـدث اختلاف فيها بصدده · لأن هـذا المشروع ، كما رأينا ، قد جرى التصويت عليه مرة وسقط فعلا · فلقد قال بلفور : « انى لا أسـتطيع أن أفعـل شيئا حتى يعكس القرار · » ولا يومىء السيد لويد جورج أى ايماءة الى هذه الحقيقة · كما انه لايقول لنا كلمة واحدة عن معارضة ادوين مونتاجو القوية التى لا تلين · ومن ثم فان هذه الصورة التى رسمها يمكن أن تكون أى شىء الا أن تكون دقيقة · وتسنى له رسمها بأن سمح لمستمعيه أو قارئيه بأن يعتقدوا بأن موقف بعض الوزراء فى مرحلة معينة قد ظل منسجما مع موقف الجميع دوما ؛ الأمر الذى هو غير صحيح ·

وما دام لم يكن صادقا فيما يتعلق بوزارته ، فقد خطر لى أن من الأفضل أن ألم بشىء عن قصة الأسيتون من مصادر أخرى غير المسـتر لويد جورج · وهذا هو ، بالاختصار ، ما حدث · فى عام ١٩١٢ التحق الدكتور وايزمان بشركة اسـمها شركة سـترينج أندخراهام ، تعمل بالأبحاث التحليلية وبالانتاج فى ميدان الامدادات الكيميائية · وفى شهر آذار من ذلك العام اكتشف رجل يدعى المستر كين ، وكان كيميائيا فى هذه الشركة ، اكتشافا على جانب من الخطورة · ومفاده أن لابد من وجود الأسـيتون بين نواتج عملية تخمر النشـا ؛ وهى عملية كان يتولاها بالدراسة · وكان الأسيتون فى ذلك الحين مادة ضرورية لصناعة نوع معين

من المتفجرات الشديدة • وقد بلغ هذا الاكتشاف الى علم الدكتور وايزمان ، بطريقة عادية ، باعتباره جزءا من عمل الشركة •

وتوقف هذا الأمر عند هـذا الحد • ثم تخلى الدكتـور وايزمان عن العمل مع شركة السيدىن سنرينج وجراهام • لكن اكتشاف المستر كين كان آنذاك قد أخذ من اهتمامه جانبا • انه لم يكن يعتقـد أنه قد أولى الدراسة الكافية • وها هو الآن يهاجم ، وقد أصبح يعمل طبقا لأسس ومنهج من وضعه هو كلية، عملية استخلاص الأسيتون من النشأ • فالنشأ يوجد فى مواد كثيرة مختلفة ، فابتدع عملية جديدة •

وحين اندلعت نيران الحرب ، أصبح انتاج الأسيتون ضروريا ، فتولى الدكتور وايزمان عمليته هذه باهتمام مجدد • وكانت شركته القـديمة المعهودة تصنع النشأ ، مستخدمة طريقة كين الأصلية • وسمع خبراء الحكومة فى صناعة المتفجرات وهم يقومون بتقصى عملية انتاجها ، بطريقة الدكتور وايزمان • وقد ذهل السير فردريك ناثان ، الذى كان فى ذلك الحين مستشار الأميرالية فيما يتعلق بانتاج الكورديت ، من التقرير الذى تلقاه من رجل يدعى المستر رينتول ، الذى كان رئيسا لقسم الأبحـاث فى شركة نوبل اكسبلوسيفز ، عن طريقة الدكتور وايزمان • فاتصـل السير فردريك ناثان بالدكتور وايزمان ونصحه بأن يقوم بتسجيل عمليته فى دائرة تسجيل الاختراعات • ففعل ذلك فى تشرين الأول من عـام ١٩١٥ ، فتبنتها الحكومة وأحلتها محل طريقة كين أو محل تلك الصورة منها التى كان العمل يجرى بها ، أيا كان نوعها •

وبعد الحرب حدث نزاع فنى حول حقوق الاختراع ، كما يحـدث دائما ، ورفعت هذه القضية فى عام ١٩٢٦ الى أحد قضاة المحكمة العليا ، وكان الدكتور وايزمان فيها المدعى • وقد بنيت شهادات الشهود أن هذه الطريقة الجديدة لا تدين بشىء على الاطلاق الى أساليب اكتشاف المستر كين أو أساليب شركته ، وان كانت تنطلق طبعا من مبـــدأ اكتشافه ، لأن الدكتور وايزمان قد طرق شكلا مختلفا من أشكال الاستخلاص مختلفا عن ذاك اختلافا حيويا • ومن ثم فقد صدر الحكم لصالح الدكتور وايزمان كلية •

وقد بدأ العمل بطريقة الدكتور وايزمان فى حزيران من عام ١٩١٦ (اعتماد على قول لويد جورج) ، وفى التاسع عشر منه كانت المادة الخام المستخدمة هى الذرة الشامية • ومنذ هذا التاريخ وحتى آخر يوم من أيام الحرب كان متوسط انتاج الآسيتون الأسبوعى الذى يتم بهذه الطريقة

هو ٤ أطنان و٨ قناطير و٦٨ رطلا · وقد رفع هذا المتوسط الأسبوعي في عام ١٩١٧ الى ٥ أطنان و٣ قناطير و١٤ رطلا ، ثم هبط بهبوط الطلب على الأسيتون ، فأخذ مصنع كنجس لاين ، حيث يتركز الانتاج بهذه الطريقة ، يعمل بصورة متقطعة خلال عام ١٩١٨ ثم توقف أخيرا · كما استخدمت هذه الطريقة كذلك في مصانع أخرى ، ولكن الى أمد غير طويل · كما جرى استخدام هذه الطريقة في كندا خلال عام ١٩١٧ على نطاق أوسع ·

وتلخيصا لهذه المسألة التى استقيتها من مصادر موثوق بها نقول ان عملية انتاج الأسيتون هذه صحيحة من الناحية النظرية ، واستخدمها الجيش الى مدى ما ، ولكنه مدى ليس كبيرا · لقد قامت البكتريا ـ أو « المخلوقات الصغيرة المدربة » كما سماها السيد لويد جورج في خطابه ـ بتخمير النشأ المستخلص من الذرة ، ومن كستناء الخيل فيما بعد ، فانتجت أسيتون الخشب وكحولا · وكان يفصل أحدهما عن الآخر فيصبح الأسيتون صالحا لصناعة الكورديث · ولكن لأن الأسيتون كان نزرا من جميع المصادر ـ كان مصنع بريطاني واحد يقوم بانتاجه ، على حد مايقوله لنا المستر لويد جورج نفسه ـ استخدم الجيش قذافا لا يحتاج الى الأسيتون · وقد كانت احتياجات الجيش تطغى كلية على أى احتياج آخر لهذه المادة القذائفية ، طبعا ·

ولو أنه كانت هناك وفرة من الأسيتون لظل الجيش مستمرا في استخدامه ، بلا شك · ولكن لم تكن هناك وفرة منه · ولذلك جعلت امدادات الجيش لا تعتمد عليه ··· فاستخدمت مذيبات بديلة عنه في صناعة قذاف من نوع آخر يعرف بال R.O.B

وانها غلطة رئيس الوزراء السابق في أنى أرى لزاما على أن أقوم اليوم بهذا التصحيح الذى قد يكون غير كريم تجاه الدكتور وايزمان · فلو لم يبالغ المستر لويد جورج في تضخيم ما فعله وايزمان ، بقصد تبرير دفعه ذلك الثمن الفادح الذى دفعه له ، لما كانت هناك مناسبة اليوم لكتابة هذه الفقرات بصدد تقييم عمل قام به رجل خدم بلادنا خدمة قيمة دءوبا ابان الحرب ·

ان ما حدث هو أن هذا الثمن الذى دفع كان فادحا مسرفا بدرجة لا يتصورها عقل · وانك اذا ما قرأت كتاب المستر لويد جورج فستظن أن هذا الثمن قليل جدا ، وأن وايزمان لم يوف حقه · ولكن الذى حدث هو العكس تماما · ان المستر لويد جورج قد اتخذ من رفض الدكتور

وايزمان لأى وسام يمنح له شخصيا ، (وهو الأمر الذى يحظى منى بكامل المجلة والثناء) سمارا يحفى وراءه هذا الاقتراح الحبيب الذى اقترحه وايزمان بمنح أوسمة من لجماعه يسمى هو اليها ٠٠٠ ان جاز لنا أن نسمى ما منح لهم أوسمة ! وقد فعل لويد جورج ذلك ببعض المهاره ٠ وان رئيس الوزراء ، وهو أبعد ما يكون عن تبخيس هذا الثمن الذى دفعه فى الأسـيتون ، قد وافق بقبوله ذلك الاقتراح ، على أن يعطى الصهاينة مكافأة لا تقدر بمال ٠ وان وسام الصليب الأعظم ، أو وسام باث ، أو نوط الجداره ما كان ليكلف الدولة شيئا ، مهما كانت كبيرة قيمته عند الممنوح له ٠ وحتى لو سلمنا جدلا بأن وايزمان « قد أنقذ الجيش البريطاني انقاذا تاما » فهل منحه ومنح شعبه حقوق الملكية فى بلد هو فى حوزة شعب آخر وضمنه لهذا الشعب معاهدة ، فأين المكافأة التى تستقيم وهذه المناسبة ؟ واذا كانت الأرض هى الجائزة الوحيدة التى يرضى بها وايزمان أفلم تكن هناك جزيرة وايت وجزيرة مان وأماكن أخرى فى حوزة الحكومة وتحت يدها السخية ، جاهزة للعطاء ؟

ان أى قائد عسكرى بريطانى لم يفز من وراء الحرب العظمى بما هو أكثر من لقب ايرل ٠ ولا تجد قائدا واحدا بين قواد الدول المتحالفة ، بريا كان أو بحريا ـ قائدا من أولئك الذين لابد أن بعضهم قد أنقذ جيوشا برمتها ٠ وأساطيل بأكملها ـ قد فاز ، تمشيا مع منطق الأمور ذاتها ، بما هو أكثر من لقب أو وسام أو جائزة مالية ؛ ابتداء من دوش وجيلليكو فما تحتهما ٠

أما فى حالة وايزمان فقد قلب التـاريخ باطنه ظاهره ، وكتمت أنفـاس الجغرافيـا ، وسـلبت من شعب بلاده ، وحنثت امبراطورية بعهودها ! ٠٠٠٠ كل ذلك فى مقابل معادلة كيميائية لصنع عجينة قاذفة كانت ذات نفع لفترة من الزمن ثم انتفى الغرض منها بعدها !

ان هذا شيء يجافى كل منطق وعقل ، ويخرج الانسان عن طوره ٠ وان كل ما كسبناه من وراء هذه الحرب لهو سروى نفير بالمقارنة الى هذا الثمن الفادح ٠ وحتى لو أن جائزة فلسطين لم تعط فى مقابل الأسيتون بل أعطيت فى مقابل تأييد اليهود لنا فى الولايات المتحدة والبلدان الأخرى (دافع المستر لويد جورج البديل بالضرورة) فماذا بعد ؟ لسوف يكون الأمر والحالة هذه أكثر مجافاة للمنطق والعقل ، وأخرج للانسان عن طوره ٠٠٠٠ سيكون أضخم وأرذل وأحط وأخس « صفقة » عقدت فى زمن الحرب ٠٠٠ على الاطلاق ٠

وربما كان أصدق تعليق على هذه الجائزة التى دفعت للصهاينة هو تمحيص ما كسبه الحلفاء من وراء صفقة « الوطن القومى » ٠٠٠ حقا وصدقا ٠ اذ أن هناك الكثير جدا من المزاعم حول هذه النقطة ٠٠٠ والقليل جدا من الأمور النابتة المتفق عليها ٠

ان احدى الجوائز التى طمع الحلفاء فى نيلها لم نصل أبدا الى أيديهم، بالتأكيد ٠ وتكتب مترجمة سيرة اللورد بلفور حين تعالج فترة التشرينين (أكتوبر ونوفمبر ـ المعرب) فتقـول : « وكان مكتب الخارجية آنذاك متلهفا فى الواقع كل التلهف ، ويتعجل جنى جميع الفوائد المباشرة التى قد يجىء بها التصريح ٠ » ثم تتابع قولها فتقول : « وكان يتوقع منه ، على ما يبدو ، أن تكون له نتائج مباشرة على الثورة الروسية ، التى كانت تخرج آنذاك من مرحلتها المنشفية (لتدخل فى المرحلة البولشفية ـ المعرب) ٠ ولقد استولى لينين وتروتسكى على مقاليد السلطة فى ذلك الأسبوع نفسه من تشرين الثانى من عام ١٩١٧ ، الذى كسبت فيه القومية اليهـودية الاعتراف بها ٠ » وفى هذه الجملة الأخيرة كثير من الهجو والغمز اللذين لا يصل اليهما ذكائى ٠ وعلى أى حال فلابد أن هذه النتائج المباشرة التى توقعت هى أن تتـــابع روسيا الحرب ٠٠٠٠ وقد فعلت ٠٠٠ ولكن فى أركانجيل ! (أى ضد الحلفاء الذين جندوا الجيوش بعد الحرب للقضاء على الثورة البلشفية بالتعاون مع بقايا الحرس الأبيض ـ المعرب) ٠

بيـد أن من الجور الافتراض بأن الصهيونية ستقوم بتقديم البدل المقابل للتصريح البلفورى فى روسيا ، لأن هذا الافتراض لم يكن الا مجرد احتمال جذاب يراود خيال البعض ٠ أما البدل الحقيقى فقد قدر له أن يكون فى الولايات المتحدة حيث يقوم أتبـــاع الصهيونية وتقوم أجهزة الصهيونية بجعل الميزان المتأرجح تميل كفته لصالح الحلفاء ، وبجعل ذلك المؤتلف العظيم يدخل الحرب ٠

ويؤكد البعض أنهم قد فعلوا ذلك لكننى لم أقرأ فى يوم من الأيام دليلا مقنعا يؤيد هذا الزعم ٠ وانى أسلم بأن اثبات هذا الزعم سيكون شيئا صعبا ، لأنه ليس هناك من يوم ، أو فترة حاسمة قصيرة ، تستطيع أن نقول ان الولايات المتحدة قد غيرت موقفها ، فى نهايته أو فى نهايتها ، فتحولت عن معارضة الاشتراك فى الحرب الى تجنيد الاشتراك فيها ٠ ولو كانت هناك مثل هذه الفرصة لتوفرت لدى البعض فرصة يبين فيها من ، أو ما الذى ، مهد السبيل فأحدث هذا الانقلاب الحاسم ٠ ولكن لا وجود لهذه الفرصة أبدا ، وان كانت بعض الأحداث قد أنشأت عوامل لاحداث

ذلك الاشتراك • ولذلك توجد هذه الصعوبة فى التدليل على ما يزعمه الزاعمون •

وواضح فى الوقت عينه أن العقبات التى تقف فى طريق اثبات هذه القضية لا تسمح لأحد بالزعم فيها • فاذا كان الصهاينة لا يستطيعون بسهولة أن يبينوا كيف انهم أدخلوا الولايات المتحدة فى الحرب فانهم غير مؤهلين بالتالى لأن يقولوا دون تقديم دليل انهم فعلا قد أدخلوا الولايات المتحدة فى الحرب ، ليربحوا من وراء هذا الزعم الذى لم تثبت صحته •

وان الدلائل المتوفرة لدينا لتذهب عموما الى تفنيد زعمهم أنهم كانوا العامل الحاسم أو المقرر • وما من شك أنهم كانوا عاملا بين جملة عوامل • اذ كسبوا عددا من بنى دينهم الى صفهم فحولوهم عن موقف اللامبالاة أو شبه التأييد للجانب الآخر • بيد أنهم قد طلبوا منا مطالب لا تصدر الا عن صاحب حق ، وكأنما كانوا العامل المقرر الذى جاء بالولايات المتحدة الى صفنا فى الحرب • وان كون المستر لويد جورج لا يقدم لنا ، فى مجلد ذكرياته الذى يعالج فيه مسألة دخول الولايات المتحدة فى الحرب ، أى ذكر للصهيونية بوصفها عاملا مسهما هذه المسألة ، نقطة تدعو الى الاهتمام الشديد والتأمل العميق • ولدينا حادث اغراق الباخرة لورينانيا ، وحوادث عديد من السفن التجارية الأمريكية الاخرى • ولدينا كذلك أمر بعثه زمرمان الى المكسيك ، وما الى هذه الأحداث • ولدينا بيان عن خط سير آراء الرئيس ويلسون ، وما الى ذلك • أما عن العون الصهيونى فلا شىء البتة • ويخيل لى أنه لو كان هذا العون ذا قيمة كما يقولون ••• لو كان ذا قيمة كهذه القيمة التى يزعمها المستر لويد جورج فى معرض حديثه فى فقرات أخرى من مذكراته (كهذه الفقرات التى استشهدنا بها قبل قليل) •••• لما غاب ذلك عن ذاكرته تماما فى تلك اللحظة التى عدد فيها تلك المبالغات الضخمة عن دورهم •

والواقع هو أن كل الدلائل تتنافى وهذا الزعم بأن العون الصهيونى كان العامل المقرر • فان من الواضح تماما أن القادة الصهاينة من أمثال برانديز ودى هاعاس كان لديهم ما يشغلهم ••• من جمع الأنصار للقضية الصهيونية ذاتها ، ومن محاولة محاربة الشعور المعادى للحلفاء لدى هؤلاء الأنصار ، وبخاصة لدى الكبار الذين كانوا فى روسيا أو يتذكرون روسيا ـ وكان هذا عملا ثانويا ممتازا بالنسبة للحلفاء ، ويستحق كل امتنان ، لكنه كان عملا سلبيا تحضيريا وليس عملا ايجابيا

نهائيا . انك قد لا نستطيع أن نشق طريقا الا حين تزيح الصخور والنبت من مسارها ، لكنك لا تستطيع أن تقدر بالضبط نفقات هذا الطريق تماما وأنت ما تزال تقتلع الشجيرات وما تزال كاسحاتك تزيل الصخور من هذا المسار .

وها هو المستر دى هاعاس يعترف مجاهرا فيقول : « منذ شتاء عام ١٩١٤ حتى صيف عام ١٩١٥ لم يكن للصهاينة أى صحافة حقيقية خاصة بهم ، ولا أى دائرة للاثارة الشعبية الدعائية ، ولم يكونوا يحظون الا بتأييد متقطع من الصحافة اليهودية ، التى كانت ما تزال فى شك فيما يتعلق بالسياسة السليمة تجاه الحرب . ومن ثم فقد ترددت ، لهذا السبب بالذات ، فى تأييد البرنامج البرانديزى الموالى للحلفاء . » ومن عام ١٩١٥ حتى عام ١٩١٧ زادت أنشطة برانديز وشركاه من عدد أتباع الصهيونية بدرجة هائلة ، لكن هذه الهيئة الصهيونية ظلت صهيونية فى الدرجة الأولى ولم تتحول الى هيئة موالية للحلفاء .

يقول المستر دى هاعاس شارحا حين يأخذ سرد نضال المنظمة المتعاظم بالتفصيل :

كان يتحتم على المنظمة أن تكافح تلك الصعوبة الظاهرة للعيان، وهى أن كثيرا من اليهود لم يكونوا ليستطيعوا هضم ذلك التأييد العلنى لقضية الحلفاء . (ثم يقول دى هاعاس فى معرض تقديمه لايضاح عام) . ولقد عول برانديز ، دون ما تردد ، على النصر يحرزه الحلفاء ، غداة تسلم زمام القيادة كقائد صهيونى . لكن الصهيونيين فى اوروبا قد كانوا منقسمين ، كل حسب الولاء المحلى . وذلك أمر طبيعى . بيد أن اليهود الروس لم يكونوا يعطفون ، على أى حال ، على قضية روسيا .. على موقف روسيا . وكان آلاف اليهود فى كل مكان يشعرون أن كل نصر تحرزه روسيا فى شرقى أوروبا ليس الا كسبا تحرزه قوى الطغيان . ولم يصبح ممكنا فى هذا البلد (أى الولايات المتحدة) وفى كل مكان آخر غيرها ، اتخاذ موقف بسيط موال للحلفاء ، الا بعد سقوط القيصرية (الذى حدث قبل ستة أسابيع من اصدار التصريح البلفورى) وعلاوة على هذا ، كان هناك صهيونيون دعاة سلم ومعارضون للحرب بكل شكل من أشكالها ، عن وعى .

وقد هيأ هذا الموقف المضطرب فرصة ممتازة أمام الدعاية الألمانية فى أمريكا وبولندا ، على السواء . ولذلك تحتم علينا ،

وحتى ذلك اليوم الذى دخلت فيه أمريكا الحرب ، أن تعالج المنظمة الصهيونية الأمريكية بلباقة شديدة لكى نبقى على انعطافها تجاه الحلفاء (وقد ساعدت على ذلك أخطاء الألمان) اذ كانت سياسه برانديز طوال هذا الموقف هى أن يبقى جميع الألمان وكل الدعاية الألمانية قيد ذراع منه · وقد تطلب التوصل الى هذا القرار لباقة وحزما وقدرا هائلا من الاستخبارات · لم يكون لدى المنظمة الصهيونية أسرار تخفيها لكن ابقاءها بمعزل عن التأثير الألمانى ، مموهة بأدهى وأخبث أشكال التآمر ، لم يكن عملا هينا · وعلى أى حال ، لقد تم لنا ذلك ·

(وخط التسديد فى هذه النبذة كلها من وضعى أنا المؤلف)

وخلاصة القول هى أن ليس للصهاينة أن يدعوا أنهم قد قاموا بهذه العملية بعينها من غمز الميزان وجعله يرجح كفة اشتراك الولايات المتحدة فى الحرب ، لأن كل ما استطاع الصهاينة فعله هو أن يتوصلوا الى خلق موقف شبه مؤيد للحلفاء حتى فى نطاق الهيئة الصهيونية ذاتها · ومن ذلك يتبين لنا مرة أخرى ، جسامة وقبح تلك الهبة التى منحت لهم من ذلك التصريح البلفورى ، بحجزه هــذا الذى وضعه على فلسطين لصالح الصهاينة ··· وبكل معنى من معانى كلمتى الجسامة والقبح !

وقد يزعم زاعم أن هذا الامتياز البلفورى الذى منح للصهاينة انما منح لهم فى مقابل ذلك التأثير الذى أثر به الصهاينة على عدد قليل جـدا من الرجال فى الولايات المتحدة من كبار أصحاب البنوك والمولين اليهود وغيرهم من أقطاب دنيا المال · لكن هـذا الزعم لا يمكن قبـوله أيضـا · فالسيدة داجديل نفسها قد سجلت لنا أن بلفور اكتشف حين كان فى الولايات المتحـده أن « أقطاب المال اليهود معـادن للحركة القومية (أى الصهيونية) · » وبعد شهرين من صدور هذا التصريح أرسل سفيرنا فى وشنطن « تقريرا قال فيه على لسان برانديز أن كبار الرأسماليين يعارضون الصهاينة بعنف · » وفى امكاننا أن نقدم المزيد من الأدلة · بيد أن فى هذا القدر الكفايه · ان أى مؤسسه مالية كبرى من المؤسسات المالية اليهودية فى الولايات المتحدة استجابت لنا وأيدتنا لم تفعل ذلك نتيجة لمناشدات وجهها اليها أى صهيونى من الصهاينة ·

بيـد أن الأقوال التى تلقى على عواهنها بصدد ما أحرزته الحـركة الصهيونية فى أمريكا كانت وما تزال وستستمر أمرا سهلا يستطيع أى

يجدف أن يجدف فيه ٠ وأحدث هذه الأقوال ، وأليقها لأن يتخذ منه مثال عليها ، هو الذى يقدمه لنا المستر لاندمان حين يعلن فى كتيب فيقول ان الاعتبار الأساسى « والذى وضعه الشعب اليهودى ـ الذى كان يمثله فى ذلك الحين زعماء المنظمة الصهيونية ـ (فى ذلك التعاقد على تصريح بلفور) هو تقديم مساعدتهم لجعل الرئيس ويلسون يهب لمساعدة الحلفاء ٠ » ٠

لكن التحديد الدقيق لماهية هذه المساعدة ، وكيف بالضبط كانت هامة أهمية قصوى ، فذلك ما لم يقدمه لنا أحد أبدا ٠ وما من شك أن القاضى برانديز قد ساعد الرئيس فى خططه وشجعه عليها ٠ لكن هذا هو كل ما يستطيع المرء أن يقول به ٠ وان أحدا من بين الصهاينة أنفسهم لم يجرؤ حتى الآن على الادعاء بأن الرئيس ويلسون والحلقة الملتفة حوله من المستشارين كانوا سيصلون الى نتائج عكس هذه فيظلون محايدين لولا أنشطة القاضى برانديز ٠

أما وقد دخلت الولايات المتحدة الحرب فما من شك أن صهاينة الولايات المتحدة قد ساعدوا على هذه أيما مساعدة ٠ فقد كان فى وسع برانديز أن يوضح للرئيس أن اليهود بوجه عام (وليسوا جميعا صهاينة بأى حال من الأحوال) قد أسهموا فى الانخراط فى صفوف قوات الجمهورية المسلحة بعدد أكبر بكثير من ذلك العدد الذى تضمنه نسبتهم بين المجموع الاجمالى لسكان البلاد ٠

ولكن أيا كان هذا الذى فعله الصهاينة ، فانه يؤخذ على مستوى آخر بعد أن تم اعلان الحرب ٠ لقد فعلوا ما فعلوه ولاء للعلم الأمريكى ٠ وما من شك أنهم كانت لهم دوافعهم الشخصية بالاضافة الى دوافعهم كمواطنين أمريكيين ٠ ولكن يستتبع ذلك بالضرورة أنهم قد أخذوا يتصرفون منذئذ فصاعدا كمواطنين أمريكيين يستوون فى ذلك مع بنى وطنهم الآخرين من كل عرق ٠ وقد صممت الجماعات غير الصهيونية الموجودة فى الولايات المتحدة على الدخول فى الحرب بناء على مبادرتها الخاصة فطغى هذا التصميم مع الأعمال الأخرى الأقل شأنا التى قامت بها جميع الهيئات المحبذة للدخول فى الحرب وأغرقها فى ذلك العمل الأكبر الذى قام به الرئيس والشعب ٠ فلم تعد السياسة الرسمية للصهيونية طريقا فرديا يجدف عكس اتجاه النهر وانما أصبحت غداة هذا الانقلاب العام عن الحياد ، تسير مندفعة منجرفة فى تيار الامر ٠ أفلا يستحى الصهاينة من المطالبة بفلسطين فى مقابل قيامهم بواجبهم كأمريكيين ؟!

وها هو الآن يجيء دور النقطة الثالثة في التمحيص • انها مسألة المسئوليات • ويجب أن تتحمل وزارة عام ١٩١٧ أكبر نصيب منها • أما الصهاينة فلهم حمل يثقل كاهلهم منها • بيد أن افعالهم ماكان لها أن تأتى بطائل لو لم تعترف القاعة البيضاء بهم ، ثم تتواطأ معهم ، ثم نسندهم ، وأخيرا تحرضهم •

وكان يحدوهم مثل أعلى أيضا ، حتى وان أسيئت ترجمته ، وكان أحلق به أن يحقق بطريقة نظيفة • ولقد رفض قادتهم ، لسوء حظهم ، الحجيج الى صهيون طمعا في الاستيلاء على فلسطين • لكن وجود مثل أعلى ، مهما كان هذا المثل باطلا وبعيدا عن جادة الصواب ، يخفف قليلا من شناعة هذا الجرم • ولن نجد قربنا له في دوافع المساومة في هذه الصفقة التى كانت تتوفر لدى حكومتنا نحن •

ومن ما شك في أن الحكومة كانت واقعة في بعض المآزق بسبب أخطار الحرب في ذلك الحين • فعلى حد أقوال رئيس الوزارة في ذلك الحين « كان من المهم بالنسبة لنا أن ننشد كل عون مشروع نستطيع الحصول عليه • » بيد أنه كان ينبغى أن يكون هذا العون مشروعا • وما كان له أن يكون من ذلك النوع من (العون) الذى يعاون الانسان نفسه فيه على أكل أموال الآخرين (١) • وكانت الحكومة ، وايم الحق ، تجاهد لانقاذ انجلترا • وقد يظن أحد أن هذا يعطى للحكومة دافعا مساويا لدافع الصهاينة أو أقوى منه • بيد أن أعضاء الحكومة كانوا يشنون الحرب لهذا السبب عينه وبالضبط ؛ ألا وهو انقاذ انجلترا •• لقد كانوا يشنون الحرب لكي يصونوا انكلترا التى آلت اليهم وليس لكي يحلوا محلها انكلترا ذات ضمير ميت ثم يدعون أن هذا حفاظ عليها وابقاء على حياتها •

كما كانت هناك أيضا مسألة المركز ، وضرب المثل الذى يحتذى ، بين الامم • فكان يخلق بالمملكة البريطانية أن تضرب مثلا يحتذى ، وليس أن تنحط الى مستوى الصهاينة • اذ أن الاساليب التى لا تستهجن من مجلس مستجد فرض نفسه على أناس كالمنظمة الصهيونية تصبح أمورا لا يصدقها عقل حين تصدر عن ورثة مائة برلمان !

---

(١) على طريقة المطاعم الامريكية : عاون نفسك : اى اذهب الى الطاهى وخذ طبقك بنفسك ــ المعرب •

ومسئولية عدم أخذ هذا فى الاعتبار ينبغى تبعا لذلك أن تقع على عاتق وزارة عام ١٩١٧ ، وعلى عاتق اللورد بلفور بالدرجة الاولى ، الذى أصر على تنفيذ نظرية أكاديمية من عنده ، فى مجال وضعته الحرب تحت رحمته ، وبصورة معينة • وحين سدت الحقائق ذلك الطريق عليه ازدراها وازدرى أبسط بديهيات العدل التى كانت أمورا تافهة بالنسبة لأسلوبه فى رؤية الاشياء • فمضى فى طريقه هذا عن عمد واصرار ، كما رأينا من قبل ، وكان هو الذى حطم كل معارضة •

وتؤكد لنا مترجمة سيرته أنه «ألقى بكل ثقله منذ البداية لصالح الصهاينة ، وما كان لهم أن يسودوا لولاه • » ويقول كبار المسئولين عن المنظمة الصهيونية فى تقريرهم عن تصريح بلفور : «ان تصريح بلفور قد سمى بهذا الاسم عن حق ليس لأنه وقع على كاهل السير آرثر بلفور ، بوصفه سكرتيرا للخارجية ، أن يكتب ذلك الكتاب التاريخي وحسب بل لأنه المسئول ، أكثر من أى رجل فرد آخر من رجال الدولة، عن السياسية المتضمنة فى هذا التصريح • »

وكما يحدث فى مجرى الاحداث العام ، بين حين وآخر ، فان الكلمات التى كتبت فى يوم من الأيام تقريظا وثناء تصبح ذما وهجاء •

وفى وسعنا الآن أن ننهى حديثنا عن تصريح بلفور بهذا التمحيص المباشر • وهذه هى خصائصه الاساسية :

١ ـ ان اصداره قد أخل بوعد الشرف الذى قطعناه للجنس العربى •

٢ ـ ان هدفه هو تنصيب اليهود فى مركز ممتاز فى فلسطين بدون موافقة أهلها ، كمقدمة لاغراق هؤلاء الاخيرين فى دولة يهودية تقوم فيها فى المستقبل ، تحت ستار تعاونهم مع اليهود •

٣ ـ لقد كتب فى الدرجة الاولى بأقلام أولئك الذين كان يفترض فيهم أن يتلقوه فقط ؛ وليس أن يكتبوه • وأنه قد صيغ بحيث يخفى الحقائق ، وبحيث تكون الضمانات التى قطعت للعرب فيه عديمة الجدوى ، وبحيث تكون الوعود التى قطعت لهم فيه مبهمة •

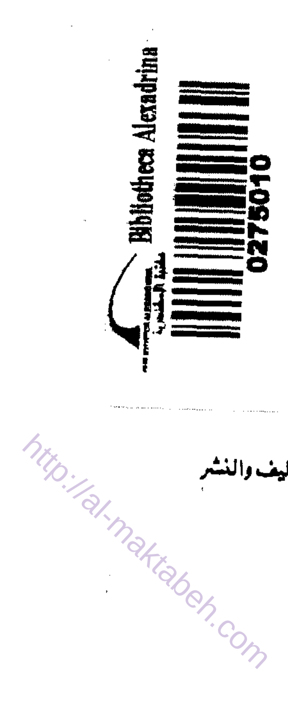
٤ ـ انه كان فى الظاهر اعترافا بآمال الصهاينة فى العودة الى فلسطين متذرعين بستار الحقوق التاريخية • أما فى الواقع فانه عبارة لفظية نشرت عن صفقة سرية أعطيب بموجبها غنيمة من غنائم الحرب ثمنا لمساعدة قدمت فى زمن الحرب •

وان مما يريح النفس أن تهجر هذا الموضوع المخزى • بيد أن هذا التصريح البلفورى سيعود للظهور فى الفصول الباقية ، لكنه سيكون مصحوبا على الأقل مع بيانات أو أوراق أخرى ؛ أو أحاديث ، وله علاقة بأحداث أخرى غير هذه الاحداث ومن ثم يكون أقل بروزا •

بيد أن مما يدعو الى الأسى أنه لا يمكن أن يغيب عن أنظارنا فلا نعود نراه • كما أن مما هو أدعى الى الأسى أن سجلاتنا العمومية لم تنظف منه بعد • فهذا التصريح البلفورى المخالف اصداره للقانون ، والمخالف غرضه للقانون ، والمخادعة صياغته ، لهو أخزى وأقبح وثيقة وضعت عليها حكومة بريطانية توقيعها ، منذ أن كان التاريخ وكنا •

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧١/٢٤٢٠



الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

الثمن ٨٠ قرشا